

الإسلاموفوبيا

الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين

إصدار وزارة شؤون المدينة

مستقبلنا
ترجمة د. فاطمة نصر



تصوير

أحمد ياسين



الإسلاموفوبيا الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين

ستيفن شيهي

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

Islamophobia, The Ideological

Campaign Against Muslims

المؤلف: Stephen Sheehi

الناشر: Clarity Press, INC 2011

نصوير
أحمد ياسين

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر

طبعة سطور الجديدة ٢٠١٢



نُصوِّب
أحمد ياسين

الإسلاموفوبيا
الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين



نصوير
أحمد ياسين

إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة: د. فاطمة نصر

المستشار الفني: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

الإسلاموفوبيا الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين

- تأليف: ستيفن شيهي

- غلاف: حسين جليل gopy-art@yahoo.com

- المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى omar.shenawy72@yahoo.com

- إخراج فنى: جابر محمد عبداللطيف jaberlatef@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠١٢

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٠٨٥٢

الترقيم الدولى: 4- 34- 5296- 977- 978

جميع حقوق التأليف محفوظة للمؤلف

٨ و ٢٣ تقسيم الشيشيني بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٠٢٠/٤٥٢٤٠٠/٢٥٢٦٣٥٩٩

e.mailaddress:suour@link.net

الموقع الإلكتروني

www.sutour2.com

صفحة فيس بوك

www.sutour.blogspot.com



شبهه: ستيفن

ترجمة: د. فاطمة نصر

الإسلاموفوبيا الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين

ط ١- (القاهرة: مكتب سطور للنشر ٢٠١٢

مكتب سطور ٢٠١٢

ص. سم ١٧ / ٢٤

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٥٢٩٦ ٣ ٤ ٤

١- الإسلام - دفع مطاعن

أ - فاطمة ، نصر (مترجم)

ب- العنوان: ٨ و ٢٣ تقسيم الشيشيني بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠ / ٢٥٢٦٣٥٩٩

e.mailaddress:suour@link.net

الموقع الإلكتروني

www.sutour2.com



نصویر
أحمد ياسين
فونیر

@Ahmedyassin90



تمهيد

لا يستطيع أحد قراءة كتاب الإسلاموفوبيا بدون أن يمتلكه
مشاعر البهجة واليأس والتي نادرا ما يحدث وأن تتزاوج.
البهجة لاكتشاف أن المسلمين العرب والأمريكيين يأخذون
علي عاتقهم تحدي أحدث الأيديولوجيات المهيمنة القائمة، أي
الإسلاموفوبيا، التي ترسخت بعمق، والتي يتولي هذا الكتاب
تحليلها عن كثب.

بيد أن ثمة مشاعر يأس لتلك المعاناة القاسية وغير الضرورية
التي يخبرها الملايين في داخل الوطن وفي الخارج، والتي لا يمكن
لها إلا وأن توجج تلك المشاعر.

ذلك لأن هذا الكتاب في جوهره هو نقد لاذع للإمبراطورية، ولكيفية خدمة الإسلاموفوبيا لأهداف الإمبراطورية، حيث إنها ما هي إلا أحدث موجات الذعر التي غمرت الذات الأمريكية وتغلغلت فيها.

ذلك لأنه في أعماق الذات الأمريكية، فإن ثمة خيالاً مصاباً بجنون الارتياب والعظمة، وفقاً لما جاء في الكتاب الأخير لباري سبكتور عالم النفس والذي ذهب إلى أن مفهوم «الآخر» قد استُغل من أجل تنقية الهوية الأمريكية وإضفاء المثالية عليها، الأمر الذي يعمل على ترسيخ نموذج نحن/ هم المعيارى في ثنائيات «الخير مقابل الشر» التبسيطية. يوضح لنا سبكتور مدى مرونة أسلوب التفكير هذا وإمكانية استخدامه لتحقيق أهداف متنوعة.

«حينما يُستدعى أحد أعمدة النموذج الأصلي لـ «الآخر» (كان الشيوعية سابقاً وأصبح الآن الإرهاب)، يبدأ العمود الآخر (الجنس أو العرق) في التشكل تلقائياً.

تجمع الهجرة، والتي لم تمثل قضية كبرى حتى ٩/١١، بين الاثنين. في عام ٢٠٠٧، قال أحد نشطاء الحزب الجمهوري: قد يحضر بعض هؤلاء الناس إلى هنا للحصول على عمل في غسيل الأطباق، فيما يحضر بعضهم لخطف الطائرات، لا أستطيع التمييز بين خوسيه كورفو وبين عضو تنظيم القاعدة..» كان، بحديثه هذا، يوطر القضية بحيث يؤكد على «الأخيرة» لا على التوجهات الإجرامية. وفي نفس العام، طرحت مجالس الولايات التشريعية أكثر من ١٤٠٠ من قوانين إجراءات الهجرة، وهو عدد يفوق ما طرحته في العشر سنوات السابقة.

كشخص قضى شبابه في حركة «تحرير السود» فقد يعتقد البعض أنني، بصفتي هذه، لابد وأن أستخدم تلك الحقبة سيئة السمعة كمُنَاطِرٍ تاريخي للعصر الحالي الذي يتسم بحملات الكراهية الإعلامية والثقافية والسياسية القومية المكثفة ضد العرب والمسلمين في الداخل الأمريكي بل وفي كل أنحاء العالم.

لكننى لن أفعل ذلك؛ هذا لأننى لدى قراعتى هذا النص، لم يكن ذاك هو الزمن الذى ترددت أصداؤه فى وعيى. هذا بالرغم من حقيقة أن الوقائع التاريخية تقول إن المسلمين الأوائل الذين حطّوا على شطآن هذا البلد وصلوا وهم مصفدون بالأغلال كجزء من شتات أهالى غرب إفريقيا الهائل والذين تم إحضارهم أسرى مكبلين إلى القارات الأمريكية.

لتجربة أيوة سليمان دىالو، الأسيرة الإفريقية المسلمة والتي أسوت عام ١٧٣٨^(١) دلالاتها فى سياق هذا التاريخ المخفى. وعلى الرغم من أن القوى التى أُطلقت، وكما يصفها كتابنا هذا، مستمّدة من أعماق منابع مشاعر عدم الأمان والعنصرية الأمريكية، إلا أنها تكاد تكون محاكاة لتجربة اليابانيين الأمريكيين فى القرن العشرين.

أنداك تمت شيطنة أناس، كان ينظر إليهم فى وقت ما بصفقتهم أمريكيين نموذجيين، وأعضاء صالحين فى الجسد السياسى القومى بكل المعانى المتخيلة (على الرغم من عدم انتمائهم للجنس الأبيض)، شيطنتهم من خلال السياسيين والأصوات الإعلامية والمصادر الثقافية الأمريكية. أصبحوا نماذج لـ «الآخر» من ثم وُضِعوا خارج نطاق «الضمانات» التى يكفلها الدستور الأمريكى. افتُرض أنهم خونة، ليس بسبب أى شىء فعلوه، لكن بسبب من هم.

فى أعقاب الهجمات اليابانية على هاواي، قاومت مصادر الإعلام الأمريكية، فى البداية، الدعوات إلى إساعة معاملة اليابانيين الأمريكيين.

لكن هذا لم يدم طويلا. يبين بيتر أيرنز، الأكاديمى القانوني، أنه لم يمض سوى بضعة أيام حتى ترددت أصداء الأصوات العنصرية فى الوسائط الإعلامية بدعوات إلى ما كان، فى جوهره، عقابا جماعيا، ثم تردد هذا فى جميع الأوساط. وأصبح العقاب الجماعى سياسة دولة.

فى اليوم الذى أعقب بيرل هاربور، رأت لوس أنجيليس تايمز أن غالبية اليابانيين «مواطنون صالحون» ولدوا وتربوا هكذا.

(١) عن كتاب «عقيدة أبائنا» تأليف موميا أبوجمال، دار نشر ترنتون، ٢٠٠٣.

ثم بعد دعوة السياسيين من أمثال ليلاند فورد، عضو الكونجرس عن لوس أنجيلس، إلى وضع «جميع اليابانيين، المواطنين منهم وغير المواطنين»، في معسكرات اعتقال بالداخل الأمريكي، غيرت لوس أنجيلس تايمز نغمتها وذلك لأن «مقتضيات الحرب» تتطلب مثل هذا الإجراء.

وجه وولتر ليبمان، كاتب الأعمدة الذي كان يحظى بشعبية بين القراء، النقد إلى واشنطنون «لعدم استعدادها» لاتخاذ إجراءات «الترحيل الجماهيري والاحتجاز الجماهيري» لليابانيين الأمريكيين. بدا وستيرونوك بجلاء، وكان أيضا كاتب أعمدة صحفية، مثل الدعاة إلى كراهية المسلمين ومروجى الخوف منهم الذين ينتمون إلى الحقبة الراهنة حينما كتب يقول «لابد من وضع اليابانيين في كاليفورنيا تحت الحراسة المشددة على الفور لآخر رجل وامرأة منهم - ولتذهب إجراءات الاستدعاء والأمر بالمثل إلى الجحيم حتى انتهاء الخطر».

لم يشفع لليابانيين الأمريكيين أنهم لم يرتكبوا أية أعمال تخريبية ضد أمريكا بإطلاقه، بيد أنه، ووفقا لأسلوب التفكير المتحيز الأحمق الذي كان له أن يعاود الظهور في زماننا هذا، فإن هذا البرهان على عدم فعل أى شئ، لم يكن سوى برهان على النوايا الخبيثة. ذهب جون چيه دوويت الجنرال الأمريكى فى «توصيته النهائية» التى أرسلها إلى هنرى إل. ستيمسون وزير الحرب، ذهب إلى الدرك الأسفل من العنصرية فى عرضه لأفكاره!

«إن حقيقة عدم حدوث أعمال تخريبية حتى تاريخه هى ذاتها باعثة على القلق ودلالة تؤكد أن مثل هذه الأعمال سترتكب.. إن الجنس اليابانى جنس معاد، وعلى حين أن الكثيرين من الجيلين الثانى والثالث من اليابانيين الذين ولدوا على الأرض الأمريكية ويحوزون على المواطنة الأمريكية قد «تأمركوا» فمازالت خصائصهم العرقية مستعصية على الذوبان».

لدى تحدثه أمام هيئة من الكونجرس فيما بعد، كانت ملاحظات الجنرال أكثر تحديدا وحيوية «اليابانى هو اليابانى! سواء كان مواطنا أمريكيا أم لا. ليس لدى ثقة فى ولائه على الإطلاق».

وعلى حين أنه من النادر وجود مسئول يتحدث بمثل تلك الصراحة اليوم، إلا

أنه ليس ثمة حاجة للذهاب بعيدا كي نجد جنزالا يشبه الحرب على العراق بالحرب المقدسة ضد الكفرة، أو نسمع عسكريين أمريكيين يشيرون إلى العرب/ المسلمين بأنهم بلهاء حمقي، أو يلقبون أحدهم بـ «الحاجي» أو يطلقون عليهم الكنية التي كانت سائدة في مرحلة ريجان أي «زنوج الصحراء».

بيد أن هذا القياس ليس مُحْكَمًا، إذ إن الهجمة التي شُنَّت في ٧ ديسمبر عام ١٩٤١ كانت هجمة شنتها دولة قومية ضد دولة قومية أخرى. لكن علينا أن نعترف أن المحكمة العليا في قرارها الذي أصدرته آنذاك، لم تعارض تلك المعاملة التي كان يتعرض لها مواطنون أمريكيون، بل أضفت عليها الشرعية.

أما هجمات ٩/١١ فقد ارتكبتها فاعلون لا ينتمون إلى دولة - بل إلى جماعة صغيرة لم يعرف عنها الكثير حتى آنذاك. وفي واقع الأمر، فإن الأمر يصبح لافتا جداً في ضوء هذا العامل تحديداً؛ لأنه يوضح كيف أنه بإمكان البلدان العظيمة التصرف بأساليب لا تُعبر عن الجنون المحض، بمجرد تشجيع التحيزات والكرهية الشديدة وإطلاقها.

في إنجلترا، الشريك التابع لأمريكا في الكارثة بالعراق، تحدث أعضاء البرلمان بصراحة وعلانية على الأقل (بخلاف أعضاء الكونجرس في الولايات المتحدة)، قال السير بيتر تاسيل، عضو مجلس العموم، لزملائه بالبرلمان ما كان يعرفه معظم السياسيين وكادوا ألا يذكروه إلا نادراً: إن غزو الولايات المتحدة/ بريطانيا واحتلالها للعراق، دمر البلد الوحيد الذي لا وجود فيه للقاعدة، والتي لم تجرؤ على دخوله؛ وأن الغزو كان قائماً على أساس الأكاذيب والأضاليل وتشويه الحقائق، وأضاف:

«نحن مسئولون مع أمريكا عن موت مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال العراقيين وتشوييهم. لقد دفعنا بالطبقة الوسطى بأكملها إلى خارج العراق. فقد حوّل ٤ ملايين عراقي منازلهم ومواطنهم. توقفت إمدادات المياه والصرف الصحي وتم تدمير الخدمات الصحية التي كانت الأفضل في الشرق الأوسط بأكملها».

من الواضح إذن أن للإسلاموفوبيا مغباتها الواقعية والمروعة، والتي يمكن للقوى

السياسية والنخب الاجتماعية إطلاقها حسب الرغبة لإحداث الدمار الهائل الدائم. أنهى السير بيتر حديثه بالقول «إن الهجوم على العراق كان أعظم خطأ استراتيجي ارتكبه الغرب منذ فشلنا في سحق عسكرة الرايخلان عام ١٩٣٨. استمرت مغبات ذلك الفشل لسنوات عديدة، وبالمثل فإن مغبات هجومنا على العراق ستستشعر لعقود قادمة».

حينما كانت الولايات المتحدة مازالت في طور الطفولة والأمل، قام جيمس ماديسون بمساعدة توماس جفرسون بكتابة قانون الحرية الدينية لولاية فرجينيا، الذي يُعدّ سلف التعديل الأول في الدستور الأمريكي. في قانون عام ١٧٨٥ تم تبني مبدأ الحرية الدينية، ونصّ على أنه ليس بإمكان العقيدة الدينية (أو اللاعقيدة) أن تؤثر بأي أسلوب في «قدراتهم المدنية».

وبعد سنوات، ذكر جفرسون وهو يكتب عن قانون ماديسون إن المقصود به كان «أن يشمل في إطار الحماية التي يوفرها لليهودي وغير اليهودي، المسيحي والمحمدي [مصطلح يعنى المسلم ينتمى إلى الفترة الكولونيالية]، الهندوسي، والكافر من جميع الفئات والطوائف».

وفيما أكتب هذا، تجنبت البلاد لتوها خوض معركة مصطنعة من النقاشات الخلافية بسبب ما دعا إليه الواعظ الإنجيلي اليميني من حرق نسخ من المصحف في ٢٠١٠/٩/١١. يقابل بناء المسجد المقترح إقامته في وسط المدينة بمانهاتن باعتراضات صاخبة واسعة المدى من أهالي نيويورك، الذين، وفيما يعترفون بأن للمسلمين الحق في إقامة المبني، إلا أنهم يبدون قلقهم من تدنيس «الموقع المقدس» لـ ٩/١١.

ما الإسلاموفوبيا إلا أحدث فوبيا تستعر، كالحمي، في الذات الأمريكية.

نعتقد أنها، هي الأخرى، ستمضي في طريقها وتختفي.

لكن مغباتها، كما يشير السير بيتر تاپسل، من حيث المعاناة البشرية، التي ستستمر لسنوات وسنوات قادمة، لا يمكن لنا حسابها أو تخيلها. «لكن. ولكن...».

تخيل أمًا يابانية أمريكية، كان ابنها يحارب في وحدة قتالية أثناء الحرب، وقامت حكومتها باحتجازها في معسكر اعتقال في انتهاك تام وكلّي للدستور الذي أقسم ابنها على الولاء له، وفضلا عن الخوف الحقيقي الذي تشعر به كل أم على ابنها، فما كانت أفكارها عن بلدها وقتئذ؟ اعتقدت أنه بك أصبح بالجنون؟

لا تتغير الأشياء لمجرد أن الوقت يمر. لابد للحركات الاجتماعية والمنظمات الاجتماعية أن تضغط من أجل إحداث التغييرات في مواجهة الأمر الواقع العنيد المانع.

لا يعرف سوى القلة في الولايات المتحدة هذا بأفضل مما يعرفه الأفارقة الأمريكيون.

إن كتاب شيهي خطوة نحو ذاك المستقبل المختلف، حينما تُفهم الإسلاموفوبيا على حقيقتها، وحينما تُستوعب ويتم إدانتها وشجبها بصفقتها ذاك السم الذي يشكل كنهها.

أمنياتي بأن يصل هذا إلى عقول كثيرة، وقلوب كثيرة.

موميا أبوجمال

الإسلاموفوبيا وأساسيات

«الحضارة الغربية»

ماذا اعتقد بشأن الحضارة الغربية؟ اعتقد أنها ربما تكون فكرة جيدة جداً

موهانداس غاندى (١٩٣١)

في كتابه «الإسلاموفوبيا: الصلة الأيديولوجية ضد المسلمين»، أمينا ستيفن شيهي بمرشد مكثف عن تكوين أحدث المفاهيم السياسية/ الاجتماعية الأمريكية - التي طورها الغرب من أجل تعزيز هيمنته على المناطق الإسلامية - تعزيزها في الداخل والخارج - وتوسيع مداها. كان للعلاقات المبكرة بين الغرب والعالم الإسلامي، والتي تشكلت في ظل «الأخر» الإسلامي، أثرها ليس فقط على جوهر «الحضارة الغربية» ذاته، بل أيضاً أنت إلى الإمبريالية الغربية، ذلك المرض الاجتماعي الكارثي الذي مازالت ممارساته المدمرة تُنزل المعاناة بشعوب العالم اللأوربية، المسلمين منهم وغير المسلمين.

مما لا ريب فيه، ويدون قدر كبير من المفارقة أو السخرية، فإن كتابات برنارد لويس وصمويل هنتنجتون الطنانة عن «صدام الحضارات»، وكما يبين شيهي في دراسته المثيرة للفكر التي بين أيدينا، كانت النذير الذي مهدّ لقدم الموجة الجديدة، وإن لم يكن الشكل الجديد، من الإسلاموفوبيا. إن تصنيف الكاتب، ثاقب البصيرة، لـ «خطاب الحضارات» الذي يكمن في جوهر الإسلام يجعل من الصعب أن نقرر ما إن كان من الأفضل وصف الظاهرة، التي يشار إليها باسم «الحضارة الغربية» [وهذا إرداف خلفي، أو جمع بين لفظين متناقضين] بدقة أكبر على أنها تزييف أم أنها وقاحة. وفي الحالتين، فقد ظلت دائماً أكنزوبة خيالية. بل إن وضع أوروبا الجغرافى ذاته، مجرد اختراع، فهي ليست قارة في حد ذاتها - ناهيك عن كونها «القارة» كما ظل غالبية مدّعى المركزية الأوروبية يسمونها منذ زمن طويل - إذ إن أوروبا، المركز المكانى لـ «الغرب» - جغرافياً - ما هي «إلا شبه جزيرة متسعة غربي آسيا».

ثمة الكثير من الأباطيل أيضا فيما يقال عن مكانة أوروبا الثقافية. إن أصل مصطلح «أوروبا» ذاته يرجع إلى اللفظ الفينيقي erub، الدال على «مكان في ظلام العالم السفلي» وعلى الجهل. ربما يكون من البديهي أن هؤلاء الذين كانوا يسكنون منطقة ظل ينظر إليها لما يربو على ألف عام على أنها لا تعدو أن تكون موضعا متخلفاً ثقافياً تلفه ظلمة الجهل، ولا علاقة له البتة بشئون المجتمعات المتحضرة، لابد لهم وأن يكمنوا، فيما بعد، مشاعر الاستياء والحقد، وبنفس الدرجة، فمن المرجح أن تلك المشاعر قد أججها حس لا يهدأ بالنقص الثقافي مضى يتعمق. وفيما قام «الغرب» فيما بعد بزعم أن أصوله الثقافية تعود إلى حضارة الإغريق القديمة، وقام منذ القرن الثامن عشر صعودا، بتلفيق «طبخة» إثباتية معقدة مليئة بالتفاصيل قصد بها تقديم «البراهين» على هوية الإغريق «الآرية»، فإن حقيقة الأمر هي أن اليونان الكلاسيكية، وسابقتها، كانت أكثر ارتباطا، ثقافياً وحينياً، بمصر وبلاد الشام من

ارتباطها بأية منطقة في الشمال. علاوة على ذلك، فقد كان يفصل بين ظهور الغرب وبين «سلفه» المزعوم [أى اليونان القديمة]، فترة زمنية استمرت عدة قرون بعد سقوط روما، «عصر مظلم» بحق، قامت أثناءه «الكنيسة، عن عمد، بقمع المعرفة الإغريقية الكلاسيكية [الوثنية]».

تم الحفاظ على الموروث الفكرى لليونان الكلاسيكية وتوسيع مداه، وتنقيحه، ويشكل حصري، من خلال الجهود الثقافية والعلمية العربية/ الإسلامية لمدة تريبو على سبعمائة عام. كان للغرب أن يتعلم فى نهاية المكان كتابات أرسطو وأقرانه من خلال الجامعات الإسلامية العظيمة التى أقيمت فى قرطبة وطليطلة وبغداد ودمشق والقاهرة والمغرب وتونس وأصفهان والتى أنتجت كبار الفلاسفة من أمثال الفارابى (توفى ٩٥١). وابن سينا (٩٨٠ - ١٣٧) وابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨). وفى واقع الأمر، فإن الدور المفتاح الذى لعبه الفكر الإسلامى كان جليا فى مولد «الهوية الغربية» ذاتها، وهو شأن يعود إلى تنويع الإمبراطور شارلمان عام ٨٠٠م وما لازمه من إقامة «إمبراطوريته الرومانية المقدسة»، ذلك الكيان الذى يعرف أيضا باسم «العالم المسيحى الغربى».

وبما أن الهدف من تلك الممارسة كان هو توكيد سطوة ما أصبح يعرف فيما بعد بالكاثوليكية الرومانية على أرثوذكسيات العالم المسيحى المشرقى (أى بيزنطة) كان من الضرورى لـ «الكاثوليكية الرومانية» تمييز نفسها عن الأرثوذكسية البيزنطية على أسس لاهوتية. تم تحقيق هذا المطلب، إلى حد كبير، من خلال السطو على التأويلات الإسلامية للكتاب المقدس، دونما ذكر المصدر. وكما ذكر المؤرخ البارز ماكسيم رودينسون:

«أعطى ابن سينا الغرب اللاتينى نموذجا للتجميع الإبداعى بأن جمع بين بُعد الخلاص الدينى وقدره الإله على الخلق، وكلاهما من أساسيات الفكر الكاثوليكي الرومانى. وأبعد من هذا، فإن عمله يشير إلى أسلوب إبداعى من حيث إعادة النظر فى الروابط بين الله والعالم والإنسان من خلال إحاطته بنظريات أرسطو الخاصة بالمعرفة وتضمينها [فى تفسيراته].. لم يُصِفْ فلاسفة اللاهوت الغربيون سوى استخدام مصطلحات ابن سينا الإسلامية بما يتوافق مع الاستخدامات المسيحية. مثلا، قام روجر بايكون بتطبيق ما قاله ابن سينا عن الإمام المسلم، على البابا المسيحى».

وحتى فيما كانت تلك العملية مازالت قائمة، كان يجري تدعيم أسس الإمبراطورية التي أقامها شارلمان وتوسيعها من خلال جهود خلفائه الكارولينيين باتباع نموذج شارلمان الذي كان يقوم على أساس الغزو، وإجبار «القبائل الوثنية» التي تقطن المناطق الواقعة غربى أخنا، عاصمة الإمبراطورية، وشمالها وشرقها على اعتناق المسيحية. تم اتباع وسائل ذرائعية متنوعة وتجربتها من أجل حسم المشكلة المتأصلة بشأن أفضل الطرق لتجسيد حس محدّد بهوية غربية على المستويات القاعدية الجماهيرية. تم العثور على الآلية التي من خلالها يمكن تحفيز الوعي بالهوية وإثارته حينما اتخذ قرار شن أول حملة صليبية أثناء انعقاد مجمع كلارمونت الكنسى عام ١٠٩٥.

كان الهدف المُعلن لأول اجتياح غربى أوربى لـ «المشرق» هو «استعادة» الأرض المسيحية المقدسة من مالكيها العرب المسلمين. تفضح الحملة الصليبية الأولى ومعها الحملات الثمانى التي تلت الرغبات العارمة من جانب النخب الأوروبية الغربية البازغة للقيام بعمليات نهب شامل لمراكز التجارة المشرقية ذات العائدات المالية والثروات الهائلة مثل صور وعكا وبافا (المصادر المباشرة الوحيدة لحرب الصين الأسطوري، والشاي والتوابل وأيضا العاج، والأحجار الكريمة، والعطور، والفواكه الغربية، وغير ذلك من الرفاهيات)، بل وأيضا للتحكم الكامل فيها. بيد أنه، فقد تم تحويل مسار ثلاث من الحملات الصليبية على الأقل: الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤)، والخامسة (١٢١٧ - ١٢٢١)، والسابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٤) عن الذهاب إلى الأرض المقدسة، واستهدفت بدلا من ذلك غنائم القسطنطينية، ودمياط (مصر) الأكثر ثراء.

على نفس الدرجة من الأهمية من منظور تلك النخبة، هو أنه تم تنظيم الحملات كوسيلة لتعظيم المشروعية/ السلطة المتأصلة فى مفهوم البابوية الرومانية وتجسيدها على أرض الواقع، وبالتالي كمشروعية/ سلطة تراتبية النبلاء ممن يحظون بمصادقة البابا لممارسة أشكال علمانية من السلطة. يمكن قول الشيء ذاته أيضا عما أسمى بإعادة الغزو [الفتح] Reconquista، والذي كان نتيجته تقليص مساحة أراضي الأندلس الإسلامية متسعة الأطراف وجعلها تقتصر على المساحة المحيطة بغرناطة بحلول عام ١٢٤٩.

بالطبع..

بالطبع، كان المجهود الحربي العدواني بأكمله يتوقف على تجنيد أعداد كبيرة نسبيا من عامة الناس وحشدتهم بحيث يشكلون وقود تلك الحملات التي لم تكن سوى حرب عدوان. من ثم، كان من الضروري، وفي استعارة منا لمصطلح من كتاب رودينسون، «شيطنة» الذين كانوا يؤمنون بتعاليم الإسلام في الوعي الشعبي، وكانت تلك عملية دعائية اضطلع بها رجال الدين بحماس لا يهدأ ولا تتطفئ جذوته، بلغت خبث محاولات ترسيخ تلك الصورة في الوعي الشعبي درجة من الشر والكيدية بحيث، وخلال فترة قصيرة، أصبح من الشائع النظر إلى المسلمين، ليس فقط على أنهم أغراب، بل أيضا على أنهم خطر مهدد، بصفتهم «الأخر» الذين لا ينتمون إلى أشكال الحياة البشرية، ومن ثم، من الواجب، حرفياً، لا من الجائز فقط، القضاء عليهم.

وهكذا تجسّد سلوك «مقاتلي الرب» الذين شكلوا الحملات الصليبية التي شنّها العالم المسيحي الغربي منذ اللحظة التي وُطنوا فيها «الأرض المقدسة». مثلاً، ووفقاً للروايات التي عاصرت الحملة كتلك التي سردها الأميرة البيزنطية أنا كومنتا مثلاً، التي قالت في وصفها لمسلك القوات الصليبية عندما استولوا على مدينة معرة النعمان وأعملوا القتل في سكانها: «قامت قواتنا بغلي الكبار من الوثنيين في أوعية الطهو. أما الأطفال فقد تم وضع أجسادهم في أسياخ. وأكلوهم مشويين». تم تسجيل بشاعات مماثلة، رغم حدوثها على نطاق أقل في نفس العام، في مدينة نيقيا، وفي أنطاكية في وقت مبكر من العام التالي. أيضاً، واكب سقوط القدس في يوليو ١٠٩٩ حدوث مذبحّة شاملة لسكان المدينة المسلمين والمسيحيين لم ينج منها النساء والأطفال «فيما أوقع باليهود داخل معبدهم وتم حرقهم أحياء. مثلاً هذا، في رأي البابا پاسكال الثاني «الذبح المقدس».

عملية التطهير «النفسي» التي جسّدتها تلك اللحظة التاريخية جلية ولافتة من حيث هولها وطبيعتها. كان الحس الجماعي بالذات الضروري لتكوين الهوية الثقافية، غير موجود واقعياً في «الغرب»، لكنه تلاحم فجأة، ليس كمدلول

إيجابى [مثبت] بل كسالب [نقيض]، أى موقف موحد من التمايز الواعى عن «الآخر» الإسلامى. بأبسط العبارات، تردى هاجس الغرب القهرى بإلغاء سمو الآخر الإسلامى ليس فقط إلى حد القضاء على وجوده، كما حدث بالقدس عام ١٠٩٩ بل بانتحال الخصائص التى شكلت المكانة الأسمى للآخر، من خلال إدماج إنجازات الآخر فى مفهوم الغرب عن ذاته وتخليه لها. تمت عملية الإدماج هذه بأسلوب حرقى لأقصى درجة ممكنة حينما أكل الصليبيون لحوم ضحاياهم المسلمين فى معرة النعمان، وعلى المستوى المجازى من خلال الاستيعاب الأوسع، والأكثر استدامة - أى التهام الفلسفة والعلوم والتكنولوجيا الإسلامية وهضمها.

وعلى الرغم من أن مثل هذا الاختلاس الفكرى كان قد بدأ يهدوه قبل ذلك بحوالى ثلاثة قرون كوسيلة لتمييز المسيحية الغربية عن منافستها البيزنطية، فإن السرقة إلى حد «الالتهام الثقافى» للحم الآخر لم تحدث حتى بداية الحروب الصليبية. وبحلول القرن الثالث عشر، كان توماس الإقوينى وغيره من (المفكرين الغربيين) يقومون بوقاحة بسرقة أعمال الفلاسفة من أمثال ابن رشد بزعم أنهم «يفضحون زيفها».

وحقا، فإن منظرى الإسلاموفوبيا الذين يقوم شيهى بتفكيك مزاعمهم فى هذا الكتاب يتجاهلون عن عمد، أو ينكرون عن مكر وخداع، الإرث الإسلامى فى «الحضارة الغربية»، هذا على الرغم من الاعتراف واسع النطاق بما تدين به جميع المباحث الفكرية تقريبا للعلوم والدراسات الاجتماعية لذلك الموروث. وبالمثل، فقد تم التهام معظم المعرفة الرياضية والعلمية والمعمارية والهندسية التى أدت إلى ظهور ما يسمى بعصر النهضة [الميلاد الجديد Renaissance] فى الغرب، التهامها من الإسلام وهضمها. وفيما ظل المؤرخون الغربيون ينسبون المنهج الجبرى (علم الجبر) إلى عالم الرياضيات الإغريقى ديوفانتوس الذى عاش فى القرن الثالث الميلادى، فإن ابن موسى الخوارزمى هو الذى توصل إليه عام ٨٣٠م. وعلى مدى الأربعمائة عام التالية شهد ذلك المنهج تطورا على أيدي خلفاء الخوارزمي، بل إنه، وحتى القرن

التاسع عشر، فإن كثيرا من «الأفكار اللامعة» التى أُدخلت على هذا المنهج ونسبت إلى الرياضيين الغربيين، كانت مجرد إعادة صياغة للأساليب التى أتقنها العلماء المسلمون.

التَّهَم الغرب إسهامات المسلمين فى التفاضل والتكامل وعلم المثلثات والفلك والهندسة اللاإقليدية، وابتلعها كاملة، ثم ادعى منذ آنذاك أنها من اكتشافاته. بل إنه حتى فى مجالات الدراسات المتقدمة المعقدة مثل نظرية الأرقام، فقد كان ابن هيثم، عالم الرياضيات العربى يطبق عام ١٠٠٠م ما أصبح اليوم يشار إليه على أنه «نظرية ويلسون» نسبة إلى جون ويلسون الإنجليزى الذى يُزعم أنه اكتشفها عام ١٧٧٠. كان أول من توصل للنظام العشري للكسور هو عالم الرياضيات الفارسى أبوالحسن الإقليديسى فى أواخر القرن العاشر، ثم قام خليفته چامشيد الكاشى بنقله إلى الغرب بعد ما يربو على القرون الأربعة، فيما كان الرياضى المغربى أبوبكر الحصار هو من اخترع أسلوب ترميز الكسور بوضع البسط أعلى والمقام أسفل والفصل بينهما بخط أفقى، وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى.

كان العالم الفارسى الموسوعى نصير الدين الطوسى هو من طور علم الفلك الإسلامى بدرجة كبيرة، لم يكتف بأن قدم البراهين على أخطاء بطليموس وما نجم عنها من حسابات مغلوطة، بل إنه، أتى فى عام ١٢٤٧ بنظرية تعرف باسم «مزدوجة الطوسى Tos,s Double» والتى تكاد تتطابق مع النظرية التى نشرها كوبرنيكوس فى عام ١٥٤٢. بل إن العالم ولى هارتنر، اكتشف أن برهان كوبرنيكوس الرياضى على الفرضية كان هو ذاته الذى توصل إليه ابن الطوسى عام ١٢٦١ وأنه من الجلى أن كوبرنيكوس قد نسخه بدون أن ينسبه إلى صاحبه الأصلي. كان أحد أسباب تقدم المسلمين فى الرياضيات واستبقاهم «الغرب» بكثير هو الأرقام العربية التى استخدموها - بما فى هذا الصفر الذى لم يكن معروفا فى أوربا حتى القرن الحادى عشر ولم يستخدم على نطاق واسع حتى القرن السادس عشر- والتى سهلت إجراء

العمليات الحسابية المعقدة وهو أمر كان من المستحيل إنجازه باستخدام الأرقام الرومانية. علاوة على ذلك، فإنه، وبدون الاستناد إلى الثورة العلمية التي أنجزها المسلمون لكان من المستحيل على الغرب تحقيق موروثة العلمى لأسباب أخرى كثيرة. بل فى واقع الأمر، فمن الممكن إرجاع أصول ما يعرف بالنهج العلمى ذاته إلى خطوات البرهان التى طورها ابن هثيم وابن زكريا الرازى حوالى عام ١٠٠٠م.

كان العلماء والأطباء المسلمون هم أيضا من اكتشفوا الأمراض المعدية، حيث تعرّف ابن سينا على مرض السل كأحد أخطر تلك الأمراض وأكثرها شيوعا فى القرن الحادى عشر وطرح أسلوب الحجر الصحى لمنع انتشاره، ثم توصل، عن طريق الاستقراء إلى مفهوم علم الأوبئة بما فى هذا تحليل عوامل المخاطرة وفكرة التناذر [مجموعة الأعراض التى تظهر فى وقت واحد] واستخدامها فى أغراض التشخيص. ألف ابن سينا كتابه «القانون فى الطب» المكون من أربعة عشر جزءا وانتهى من إنجازه عام ١٠٢٥. كان مؤلفه هذا شاملا متقدما بدرجة أنه ظل أحد دعائم تدريس الطب فى الجامعات الغربية حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر، فيما أن كثيرا من التطبيقات والممارسات التى أوردها فى «القانون فى الطب» - مثل التجارب [الاختبارات الإكلينيكية]، التجارب العشوائية المتحكم بها، اختبارات الفاعلية - مازال معمولاً بها حتى يومنا هذا.

لم تكن منطقة جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا مصدر كثير من مفاهيم الغرب الطبية المفتاح فقط، بما فى هذا نظرية الجراثيم، بل كانت أيضا مصدر مؤسساته الطبية. كان أول مستشفى عام [بیمارستان] هو ذلك الذى أقامه هارون الرازى ببغداد عام ٨٠٥م، ومن هناك انتشرت المستشفيات سريعا فى أنحاء العالم الإسلامى، كذلك أيضا، فقد أقيمت أولى الصيدليات ببغداد فى مطلع القرن العاشر الميلادى، حيث اشترط على الأطباء والصيادلة، بداية من عام ٩٢١م، تلقى التدريس الرسمى، والحصول على الترخيصات المطلوبة كى يتعاطوا مع حوالى ٧٦٠ نوعا من النباتات

الطبية والعقاقير المشتقة منها، بما فى هذا مواد التخدير التى تستخدم فى العمليات،
والتي صنفها ابن سينا فى مؤلفه «القانون فى الطب».

ومع إلمام الطب الإسلامى بالتخدير، أضحت إجراءات العمليات الجراحية - بما فى
هذا أشكال من جراحة الأعصاب - وفهم تشريح الجسد البشرى أكثر تقدما بكثير
من أى شيء كان يعتقد الغرب فهمه واستيعابه. مثلا، كانت الأساليب التى وصفها
الطبيب الأندلسى أبو القاسم الزهراوى فى «المقالة فى عمل اليد على فن الجراحة»
تُطبق كاملة فى أوروبا لحوالى ستمائة عام. علاوة على ذلك، وبما أن الإنجازات
الدوائية فى العالم الإسلامى كانت تستند إلى إلمام تام بعلم النبات والكيمياء، فقد
شكل انتقال المعرفة الطبية الإسلامية وتملكها من قبل الغرب الأساس الذى قامت
عليه «العلوم الغربية» فى تلك المجالات.

بل إن الفكر الإسلامى فى مجال الفيزياء استبق بقرون عديدة الفيزياء الأوروبية
التي يقال إنها العلم الأوربي بامتياز. بحلول القرن الثامن الميلادى، كان جعفر بن
الصديق العالم الموسوعى المولود بالمدينة المنورة قد قام بتفنيد فكرة أرسطو عن
«العناصر الأربعة» [الماء والهواء، النار والتراب]، بل من المرجح أيضا أنه قد أتى
بنظرية أولية عن جزيئات المادة. وفى القرن التاسع، استبق عالم الفلك جعفر بن
موسى بن شكير قانون نيوتن للجاذبية الكونية بنظرية نقحها ابن الهيثم فى القرن
الحادى عشر وقام العالم الموسوعى أبو الفتح الخزنى بتوحيد أجزائها فى القرن
الثانى عشر. أيضا، تم استباق قوانين الحركة لنيوتن التى عبر عنها لأول مرة عام
١٦٨٧، فى أعمال ابن الهيثم وابن سينا والعالم الأندلسى الموسوعى ابن باجة،
والعالم العربى اليهودى أبو حمزة البغدادى الذى عاش فى القرن الثانى عشر. من
الجدير بالذكر، أنه وعلى الرغم من نظرية نيوتن، فإن مفهوم ابن سينا العام عن كمية
التحرك مازال يطبق فى مجال الفيزياء.

من خلال الإنجازات التكنولوجية التى تمت فى العالم الإسلامى على مدى مئات

من السفين، تسربت إلى الغرب التوجهات العقلانية الجديدة. كان من المحال حدوث «النهضة الغربية» بدون الأسس التي وضعها العالم الإسلامى للعلوم المعمارية التطبيقية والهندسة. نُقلت الأقواس مستدقة الرأس وكذلك أساليب إقامة الأسقف المضلعة والمنحدرة، الأساسية فى المعمار القوطى وما تلاه من معمار باروكي، نقلت وانتُحلت مباشرة من النماذج الإسلامية فى بلاد المشرق العربى [الشام] والأناضول وصقلية وأيبيريا. وبنفس الأسلوب، كانت التقنيات الإسلامية التى ابتكرها المسلمون، وبخاصة تلك المتعلقة بنقل المياه، وضخها، وخزنها، واستخداماتها فى الري، ومعها أنواع مختلفة من المحاصيل التى طورها علماء الزراعة المسلمون، كانت هى سبب ما أحرزه الغرب من تقدم زراعى قبل القرن السادس عشر.

وأخيرا، هناك ما يتعلق بالتكنولوجيا، مثلا عُرفت ساعات الحائط فى بغداد منذ عام ٧٥٠م، كما أنه كان من المحال إبداع النظارات بدون الفهم المصقول والمتقدم لعلم البصريات الذى وفرته قرون من أبحاث المسلمين فى هذا المجال. شاع استخدام ألواح الزجاج، والزجاج الملون على نطاق واسع فى المناطق الإسلامية قبل أول ظهور لها فى أوروبا بوقت طويل جدا. فى عام ١٠٠م اخترع تسائى لون الورق فى الصين، وفى عام ٨٣٠م، كان يصنَّع بكميات كبيرة فى بغداد. وبالمثل، كان أول ظهور لآلة الطباعة فى الصين حوالى عام ٦٠٠م فيما اخترع بى شنج وليس رجل الطباعة الألمانى جوهان جوتنبرج الأحرف المتحركة عام ١٠٤١. استوعب المسلمون هذه الاختراعات وطوروها، وحصل عليها الغرب من خلالهم.

ينطبق الأمر ذاته على المدافع، والبارود الذى بدونه لم تكن ثمة جدوى للمدافع والبنادق. وعلى الرغم من أن الغرب بذل ما فى استطاعته لينسب اختراع البارود إلى روجر بايكون فى القرن الثالث عشر، فقد كان الصينيون هم من اخترعوه قبل ذلك بخمسمائة عام وأخذهم المسلمون حوالى عام ١٢٤٠. ومع أخذ هذا التسلسل التاريخى فى الاعتبار، فالمرجح أن الصينيين أيضا اخترعوا المدافع حيث يرجع تاريخ

أول نموذج لها ظل موجودا إلى عام ١٢٨٨. من المحتمل أن تكون جيوش المسلمين والمخترعين منهم قد طوروا مثل تلك الأسلحة في وقت سابق على هذا التاريخ إذ إن أسقف ليون ذكر استخدام قوات المسلمين لهذه الأسلحة في إشبيلية عام ١٢٤٨، وكذلك ذكر ابن الحسن استخدامها في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠. ظهرت أول «صورة» للبندقية في الغرب عام ١٣٢٦، وأول استخدام معروف لدينا للمدفع عام ١٢٤٦ في معركة سرسي Crécy. والأرجح أن أول مدفع «غربي» كان قد تم شراؤه من مصدر إسلامي.

نجح الغرب في تطوير البارود المعمر المحفوظ ذي الفاعلية الهائلة من خلال خلطه بالملح، ومن ثم، غدا يمتلك ميزة حاسمة على أعدائه. بيد أنه بدون تقنية تنقية الملح الصخري التي كان الكيميائيون المسلمون قد اكتشفوها قبل ذلك بسنوات طويلة، ما كان للبارود المحسن ليوجد كي يحفظ. وعلى أية حال، فائيا كانت الميزات التي حصل عليها الغرب من حفظ البارود وما رافق ذلك من تقدم في صناعة الأسلحة، فإنها لم تكن كافية للتغلب على قوة العثمانيين الذين سدوا عليه طرق الحصول مباشرة على سلع الصين وهندوستان [الهند] والتربح منهما. ظل هذا هو الحال حتى بعد هجمات المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر - والذين تحالف العالم المسيحي الغربي معهم - والتي دمرت، تكرارا، بغداد ومراكز الحضارة الإسلامية الشرقية الأخرى وتركتها خرابا.

تمكنت القوة العثمانية، مؤقتا، من تعويق رغبة القوى الأوروبية المنذرة للتغلغل الأعمق في آسيا. من ثم، أُجبر الغرب على تغيير وجهة محاولته. أثناء السنوات المبكرة للقرن الخامس عشر، حاولت البرتغال الالتفاف حول «العائق الإسلامي» بالإبحار جنوبا بمحاذاة الساحل الإفريقي، ثم شرقا عبر المحيط الهندي. بيد أنه لم يكن حتى عام ١٤٩٨ أن تمكن فاسكودا جاما من الوصول إلى كالكوته عن طريق رأس الرجاء الصالح. لكن، في تلك الأثناء كان بحار آخر يدعى كريستوبال كولون

(كولومبوس) قد فتح أفاق «عالم جديد» تماما فيما كان يحاول الوصول إلى «الشرق الأقصى» بالإبحار غربا. أوجدت المغامرتان طرقا يتفد الغرب من خلالها أسلوبه لافتراس النوع البشرى ونهبه بمدى لم يسبق لأحد تخيله. لم يقتصر الأمر على أراضى قارتين بأكملها - ثلاث قارات إذا أضفنا إفريقيا - غدت متاحة لهم فجأة كى يستولوا عليها، بل الأهم فى تلك اللحظة، كانت إتاحة موارد تلك القارات: الموارد البشرية والمعدنية والزراعية.

أدت النتائج إلى تحول تام وحقيقي. كان تدفق المعادن النفيسة إلى إيبيريا من القارات «الأمريكية»، ذلك الاسم الذى أطلقه الغرب على نصف الكرة الأرضية الذى اكتشفه كولومبوس، كافيا لضمان قيام «الثورة الصناعية» فيما بعد. ولم تكن الأرباح التى اكتسبتها إنجلترا وفرنسا من خلال الاتجار فى العبيد والسكر، ثم القطن فيما بعد فى نهاية القرن الثامن عشر، لم تكن بأقل من الثروة التى تدفقت على أيبيريا. من هنا يتضح لنا أصل الرأسمالية، بالمعنى «الحديث» للمصطلح. وأيضا، الأساس الذى كان للغرب أن يطور عليه تكنولوجيات معينة وينتجها على نطاق واسع وبكميات هائلة - بخاصة فى مجالات الأسلحة والنقل والاتصالات - التى مكنت حفنة من بلدان غرب أوروبا من توسيع المناطق التى تهيمن عليها أثناء القرن التاسع عشر بدرجة أنه، وفى مطلع القرن العشرين، كان لهم ولذرياتهم ممن استوطنوا أمريكا الشمالية أن يزعموا حقوق ملكية معظم سطح الكرة الأرضية.

جوهرياً، عكس مسار التوسع الغربى بأكمله، والذى كان قد بدأ فى السنوات المبكرة للقرن الخامس عشر، علة جوهريّة نفسية غير سوية أخذة فى النضج والتى انبثقت عنها هوية «الغرب» بدرجة أن تم إسقاط مفهوم مجرد «الآخرين» من الآدمية، إسقاطه ليشملهم جميعا فى كل مكان، مفهوم مضى ينمو ويزداد زخما وخبثا وسُمية. لم يقتصر الأمر على ممارسة الاتهام الثقافى/ الفكرى للنوع الذى مارسه الغرب ضد الإسلام كما هو ثابت فى كل خطوة له على الطريق، لكن ذلك الاتهام تم توسيع

مداه فيزيقيا وممارسته ضد السكان الذين وُضِعوا مؤخرا في مصنف «الآخر» بمدى واسع النطاق كاد يطغى على المذابح التى ارتكبت فى معرة النعمان والقدس فى الحملة الصليبية الأولى.

بحلول عام ١٨٣٠ كان قد تم نقل عشرين مليون إفريقي أسود من ساحل إفريقيا الغربى للاتجار بهم عبدا، توفى منهم مليونان على الأقل أثناء شحنهم من إفريقيا إلى القارات الأمريكية. وعلى الرغم من ذلك، تُولى الحملات التى يطلقها دعاة الإسلاموفوبيا من الليبراليين والمحافظين الجدد اهتماما أكبر كثيرا لتجار العبيد العرب فى الجنوب الإفريقي^(١) من الاهتمام الذى يولونه لآلاف المسلمين الأفارقة الذين استرقوا وتم نقلهم مصفدين إلى القارات الأمريكية. لم يتوان تجار العبيد الغربيون عن أعمال القتل، بأسلوب مباشر وغير مباشر، أثناء الغارات التى كانوا يشنونها باستمرار لحصد السلع التجارية البشرية من وسط إفريقيا. وهنا، يجب إضافة الأعداد المهولة من الأفارقة الذين قتلوا فى موجات المذابح التى لازمت اجتياح الداخل الإفريقي فى السنوات النهائية للقرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين.

يتضح هول الكارثة البشرية التى حاقت بإفريقيا وأعداد من فقدوا من سكانها من حقيقة أنه ما بين عامى ١٦٥٠ و١٩٠٠ ارتفع عدد سكان أوروبا من ١٠٤ مليون نسمة ليصبح ٤٢٣ مليون نسمة فيما ارتفع عدد سكان إفريقيا من ١٠٠ مليون نسمة إلى ١٢٠ مليون فقط. أما فى القارات الأمريكية فكان التأثير أعظم كثيرا. قُدِّر عدد سكان القارات الأمريكية ككل فى اليوم الذى رسا كولومبوس على شواطئها بمائة وخمسة وأربعين مليون نسمة، وفى غضون قرنين كان هذا العدد قد تقلص بنسبة حوالى ٩٥٪.

تعزيز صراع «الغرب» من أجل الحفاظ على وضع هيمنته الكوكبية من خلال

(١) كان هؤلاء العبيد يباعون للمساعدة فى الأعمال المنزلية فى غالبية الأحوال وكانوا يلقون معاملة أفضل، ويعتق الكثيرون منهم فى نهاية المطاف. لا يعنى هذا بآى حال تبرير تلك الممارسات من قبل التجار العرب، (الترجمة)

أسلوب الاستعمار «الكلاسيكي» طوال نصف القرن الذي بدأ من منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، تميز بالأسلوب الضار في القضاء على السكان «الآخرين» والتهامهم. ابتداء من الفترة ما بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ كان البريطانيون رواد استخدام أساليب القمع الوحشية ضد «الثورة الفلسطينية»، وهي ذات الأساليب التي استخدمها الفرنسيون طوال العقود التالية في الهند الصينية والجزائر، واستخدمتها الولايات المتحدة فيما بعد في فيتنام. فقد حوّل مليون هندي حياتهم فيما بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٨ من خلال محاولات بريطانيا التحكم في مغبات تخلص الهند من الاستعمار. نجم عن محاولات الهولنديين إحباط استقلال إندونيسيا فيما بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٩ حوالي ١٠٠٠٠٠ قتيل. أدت محاولات بلجيكا لإعادة تثبيت هيمنتها على إقليم كاتانجا الغني بالمعادن الثمينة بالكونغو التي كانت قد نالت استقلالها مؤخرا في عام ١٩٦٠ إلى سقوط أعداد لا تحصى من القتلى تقدر بمليون أو أكثر. كانت تلك هي حشرجات الموت لما وصفه فرانز فانون بأنه «الاستعمار المحتضر».

في واقع الأمر، فقد لازمت المفارقة الرهيبة نجاح حركة العالم الثالث للتححر من الاستعمار الذي كان قد أنجز بنهاية السبعينيات. وبدون التفاضل عن التضحيات الاستثنائية التي بذلتها الشعوب المستعمرة أثناء نضالاتها من أجل التححر، أو الأثر الموهن لتلك النضالات على قدرة المستعمرين للحفاظ على النظام الإمبريالي الذي كان قائما، فلا بد من التأكيد على أن ما أنهك الإمبراطوريات وأخرج أحشائها كان هو تطبيق أدولف هتلر للمبادئ الكولونيالية الخالصة على «القارة» [الأفريقية] ذاتها أثناء الحرب العالمية الثانية. تركت الأوضاع التي فرضت هكذا - من النوع الذي كان «الآخرون» المستعمرون يعانونه بشكل روتيني لعدة قرون غالبا - تركت أوروبا الغربية منهكة منسحقة بعد مجرد خمس سنوات بدرجة أنها لم يعد لديها القوة لإخضاع «الآخرين» بأسلوبها المعهود.

من ثم كان «عصر التحول» بعد الحرب، وهي فترة ميزها ليس فقط التحول المفترض من الواقع الكولونيالي إلى ما «بعد الكولونيالي» بل أيضا انتقال مركز «الغرب» ذاته

من العالم القديم إلى العالم الجديد. واكب هذا الانتقال الأخير إعادة ترتيب سريعة للآليات التي من خلالها يُبقى الغرب هيمنته على العالم خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وكانت الولايات المتحدة هي من هندست عملية إعادة الترتيب تلك، بشكل رئيسي. استغل هذا النهج الجديد الحضيف، والذي سرعان ما أسماه كوامي نكروما وغيره من دعاة التحرير في العالم الثالث، «الكلونيالية الجديدة» *neocolonialism*، استغل حالة البؤس والإملاق ذاتها والتي كانت تعانيها المستعمرات السابقة نتيجة استيلاء الغرب المستدام على ثرواتها ونهبها لها، استغلها وسيلة أساسية كي «تلتزم [تلك البلدان] مكانها». تم إنشاء مؤسسات جديدة كاملة، كان الأبرز بينها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، اللذان أقيما من أجل إقراضها الأموال التي حُصدت نتيجة استغلال تلك البلدان، بذريعة تمكينها من التغلب على أوضاع «التخلف» الحادة التي تعاني منها.

ولكى تصبح «مؤهلة» لتلقى مثل تلك «القروض التنموية» طُلب من حكومات العالم الثالث في البداية أن تبرهن على «التزامها باقتصاد السوق الحر»، وهو أمر يتوقف بأسلوب ثابت على تفعيلها لسياسات داخلية تمنح الأفضلية للأرباح التي تجنيها الكوربوريشنات الغربية من المشاريع التي تنفذها داخل تلك البلدان، وترجعها على رفاه سكانها وسلامتهم. من ثم، ظلت الثروة التي يسلبها الغرب من العالم الثالث بنفس المعدلات التي كانت سائدة في ظل الكلونيالية في شكلها الكلاسيكي، بل وتفوقها في بعض الحالات. عمل هذا ومع نفقات خدمة القروض التي ترتفع باستمرار، على ترك كثير من المستعمرات السابقة أشد فقرا مما كانته قبل حصولها على الاستقلال. تضمينات مثل تلك الترتيبات يستعصى على المبالغة. في سبعينيات القرن العشرين، أوضحت التقديرات أن حوالي ٢.٢٥ مليار نسمة من الأمم «ذات البشرة السمراء»، يحاولون يائسين العيش على دخل سنوي للفرد يقل عن ٢٠٠ دولار سنويا، وأن حوالي ٨٠٠ مليون من هؤلاء يعيشون على أقل من ١٠٠ دولار سنويا.

بمنتصف الثمانينيات كان الوضع قد وصل لنقطة «الإبادة الجماعية الصامتة» حيث ذكرت تقارير منظمة الصحة العالمية أن ثمة ١١ مليون طفل فى العالم الثالث، فى المتوسط، يموتون سنوياً نتيجة سوء التغذية و/أو عدم وجود أدوية لا تكلف الجرعة منها أكثر من عدة بنسات. فى عام ١٩٩٠، وفقاً لبيانات البنك الدولى، بلغت الأرباح المتدفقة من «البلدان النامية» إلى الغرب مستويات قياسية، فيما ذكرت تقارير واكبت تلك البيانات أن نصيب البلدان الواحد وأربعين الأكثر فقراً من الثروة الكوكبية قد انخفض ليصبح ١٨٪ بعد أن كان ٢٣٪ فى العقد السابق. وفقاً لصندوق النقد الدولى، فقد زاد تدهور الأوضاع فى تلك البلدان الواحد وأربعين بحلول عام ٢٠٠٩. يكفى أن نقول إن ما وصفته منظمة التجارة العالمية على أنه إبادة جماعية «صامتة» لم تكن أبداً صامتة بالنسبة للسكان الذين كان أطفالهم - وكبارهم فى واقع الأمر - يموتون، ومازالوا يموتون بالملايين. كما أن أسباب ذلك لم تكن أبداً خفية عليهم (ليس من الصعوبة المطلق أن يتبينوا أن حياتهم وحياة أعزائهم قد فقدت قيمتها بدرجة أن أصبحت لا تستحق الحفاظ عليها بأكثر مما تستحقه أوراق التواليت). ونظير ذلك فقد سعت تلك الشعوب باستدامة، وبأسلوب أو آخر، إلى الإطاحة بأنظمتهم التى أقامتها الولايات المتحدة والتى ظل سبب وجودها ذاته، إلى جانب إثراء أنفسهم، هو ضمان «الحد الأقصى من الأرباح لاستثمارات» الكورپوريشنات الغربية على حساب شعوب كل منها مباشرة.

دفع هذا بدوره، ومنذ ستينيات القرن العشرين، الولايات المتحدة إلى الحفاظ على استقرار «بيئات البيزنس فى الخارج» بأن أمدت الأنظمة العميلة فى العالم الثالث بتدريبات عسكرية/بوليسية، وبقوائم من الأسلحة تتزايد كميتها باستمرار، وبالنذخائر، وبتكنولوجيا الاتصالات/بيانات التخزين/والرقابة، وغير ذلك من التجهيزات التى لا تستخدم سوى فى قمع رغبات الشعوب فى تغيير الأوضاع القائمة. ضاعف النظام الناجم عن «فاشية العالم الثالث» التى ترعاها الولايات المتحدة المعاناة التى ظلت

شعوب المستعمرات السابقة تخضع لها، بأن جعلت من التعذيب والعنف القاتل الذي يمارس على نطاق جماهيري واسع أحيانا، شأنا روتينيا. أثناء ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين تم قتل ما لا يقل عن ٢٠٠٠٠٠ شخص، أى حوالى ٨٥٪ من سكان جواتيمالا الأصليين من قبائل المايا على أيدي الجيش والشرطة الجواتيمالية فى مسعاهم لقمع المقاومة الشعبية، لسياسات استخدام الأراضي الحكومية. وهذا مثال واحد، ويوجد الكثير غيره.

وينظرة ارتجاعية، فإن الأبعاد العنصرية والشوئينية ثقافياً للنظام العالمى الجديد الذى بدأت الولايات المتحدة وقادته أثناء فترة ما بعد الحرب يبدو جلياً لدرجة الشفافية. فعلى حين لم يكن إصلاح مغبات الحرب فى العالم الثالث وتعويض بلدانه عنها جزءاً من خطتها لهذا الجزء من العالم بعد رحيل الاستعمار الأوروبى عنه، فإن الولايات المتحدة لم تبخل بالوقت أو الأموال كى تسهل عملية إعادة إعمار بلدان أوربا الغربية بما فيها ألمانيا واستردادها لقدراتها الصناعية بعد ما ألحقته الحرب بها. وهكذا فعلت أيضاً بالنسبة للبنية الأساسية الإنتاجية لليابان، ذلك البلد الذى كان قد تغربن تماماً بحلول ثلاثينيات القرن العشرين بدرجة أن هتار دخل فى تحالفات معه. تم تصعيم تلك الخطوات والإجراءات وقصد بها تحديدا توليد النتائج التى نجمت عنها - أى تمكين الغرب من أن يتغذى بكفاءة تفوق أى وقت مضى على لحوم الكتل البشرية الكوكبية لـ «الآخرين» الذين جُردوا من آدميتهم بشكل كلى - تلك النتائج التى كانت واضحة منذ المستهل.

وفى واقع الأمر، فقد غدا الترتيب ثلاثى المحور للقوة الكوكبية التى أنشأتها الولايات المتحدة فيما بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٦٥ وسيطا مثاليا يمكن من خلاله تولى أمر «التخطيط النخبوى لإدارة العالم»، وهو أمر انعكس جلياً فى تشكيل اللجنة الثلاثية فى عام ١٩٧٢، تلك اللجنة التى وصفت نفسها بأنها «نظير للقطاع الخاص لمجلس العلاقات الخارجية الحكومى»، زعمت أن مهمتها هى طرح توصيات سياسية

تؤدي إلى «تطور سلس وسلمى للنظام الكوكبي». وفيما يبدو هذا الهدف نبيلًا، فقد تم الكشف عن معناه الحقيقي بأسلوب قاضح في إحدى أوائل الدراسات التي أجرتها اللجنة ونُشرت عام ١٩٧٥ حيث انتهت إلى أن «الديموقراطية المفرطة» ومعها «تدخل الحكومات القومية في أسعار صرف العملات الدولية» تشكل العوائق الرئيسية لـ «التطور السلس» للنظام. أي أن الحد من هاتين المشكلتين معا - أو القضاء عليهما - سيجعل النظام أكثر «سلمية» في نهاية المطاف.

إن غرض النظر عن هذا بذريعة أنه لغو يميني نمطى سيكون خطأ كبيرا. فإن بين أعضاء اللجنة ثلاثية الأطراف كثيرا من صنّاع السياسة النافذين في العالم الرأسمالي، هذا علاوة على أنه قد تم تنفيذ التوصيات المضمرة في تقرير اللجنة لعام ١٩٧٥. تم تقليص «تدخل» الحكومات في التبادلات الدولية وأسعار العملات من خلال الاتفاقيات، مثل اتفاقية التجارة لدول شمال أمريكا NAFTA، كما أنه يجري الآن التوصل إلى ترتيبات أشمل في اجتماعات منظمة التجارة العالمية التي تفرض حولها الحراسة المشددة. أما بخصوص تقليص «الديموقراطية المفرطة»، فإن الكثير مما ذكرناه عن رعاية الولايات المتحدة للفاشية في العالم الثالث يكفى للدلالة على هذا. وعلى الرغم من ذلك، فإننا ندعو من مازالت الشكوك تراودهم لمناقشة الموضوع مع أى شخص فلسطينى أو للاستماع إلى موميا أبوجمال التى كتبت تمهيدا لهذا الكتاب وهى من مواطنى الولايات المتحدة الملونين.

وبإيجاز، فإن الواقع الملموس هو أن القوة الساحقة تستخدم بتزايد ضد أى أحد، ويشمل هذا شعوبا بأكملها، يقوم بمقاومة ذات معنى، لما يقصد به أن يكون الترسخ النهائي للهيمنة الغربية، ولأسباب مباشرة، وأيضا جد معقدة بدرجة عدم استطاعتنا تفصيلها هنا، فإنه، وعلى مدى العشرين عاما الأخيرة، فإن أقوى التحديات لهذه الطموحات، ظلت تضطلع به الجماهير الإسلامية، وأحيانا أيضا بعض الحكومات الإسلامية. من ثم، فقد اكتملت الدائرة مرة أخرى، حيث يقف الإسلام مرة أخرى

حائلا بين الغرب وبين تحقيق فنتازياته المرضية التي منها وُكِدَ إحساسه بذاته والتي قام هذا الحس على أساسها دائما. ومرة أخرى، لابد من تقديم الأمثولات والعبر: وفاة أكثر من نصف مليون عراقي في التسعينيات نتيجة للعقوبات التي فرضتها الولايات المتحدة، وذلك كي يستوعب قادة ذلك البلد خطورة مقولة جورج إيتش. دبليو بوش الماثورة «إن ما نقوله ينفذ». ومرة أخرى يتم «تبرير» هذه البشاعات من خلال حملة متناغمة للتشهير بالضحايا وتشويه سمعتهم.

هذا إذن هو سياق ظاهرة الإسلاموفوبيا التي بُعثت من جديد والتي يُخضعها ستيفن شيهي للتحليل الدقيق الصارم في الصفحات التالية. ويعمله هذا، فهو يقدم خدمة متسامية، ليس فقط للأسلوب الذي به يلقي الضوء على الظاهرة التي يصفها مباشرة، بل أيضا بما أن الإسلاموفوبيا تتضمن قالب الأصل الذي منه اكتسبت تنويعات العنصرية الغربية التي تلت شكلها، ومن ثم، فهو يلقي الضوء أيضا على مدى أوسع وأكثر عمقا من الظواهر المرضية المختلفة. إنه فقط من خلال نزع الأغلفة عن فحوى عقلية السمو/ الأوروبي - أو عن عدم وجود فحوى لها - نستطيع أن نُحكم القبضة عليها ونستوعب مكنوناتها وبهذا، فقد نستطيع أن نعثر على وسيلة لشفاء ذلك المرض الذي تُشكّل الإسلاموفوبيا أهم أعراضه، ومن ثم يمكن لـ «الفكرة الجيدة» التي قال بها غاندي أن تتحقق أخيراً، وإن لم نستطع هذا، فإن جدوى كتاب الإسلاموفوبيا ستكون في الآراء التحليلية المتبصرة وتساعدنا جميعا على فهم أفضل لما علينا مواجهته. وفي كلتا الحالتين، فإن قيمة هذا الكتاب لا تقدر، من ثم ندين لستيفن شيهي بأعمق درجات الشكر والإعجاب لشجاعته باضطراره بكتابته.

وارد تشرشل

«نحن الآن إمبراطورية» وحينما نتخذ الأفعال والإجراءات، فإننا نخلق الواقع الخاص بنا».

أحد كبار مساعدي بوش، لم يذكر اسمه دخول أحاديث الكراهية إلى التيار الأمريكي السائد؛ قال الرئيس جورج دبليو. بوش لقائد القيادة الوسطى الأمريكية الجديد الأميرال ويليام فالون والذي كان قد تجرأ لتوه قائلاً إن الأمريكيين كانوا بحاجة لإيجاد سبيل للتعاطي مع الإيرانيين والدخول معهم في حوار، قال له «إن هؤلاء الناس حمقى حقراء assholes». دفع هذا التعليق، الذي انتشر بصخب على نطاق واسع، إلى العن ما كان موضع شك من الكثيرين، أي أن البغض العميق الذي يُكنّه الرئيس للإيرانيين كان وراء استراتيجيته الإيرانية/ العراقية وهي استراتيجية لم «تقدم أي نهج» واقعي للتعاطي مع إيران أو مع المنطقة.

وبالتقابل، كان فالون يلقى الثناء بصفته القائد الذي كان يتصدى لخطاب الحرب الذي تبناه البيت الأبيض والذي كان دافعه الرغبة في الاستيلاء على النفط والغاز، حيث رفض فالون الخيار العسكري ضد طهران. وفي حوار له، بعد ذلك، مع قناة الجزيرة، انتقد فالون علناً قرع طبول الحرب المستدام الصادر عن واشنطن، وأضاف قائلاً إن ذلك «غير مفيد». كان عليه الاستقالة، في النهاية، حينما أصبح اختلافه في الرأي مع الإدارة علنياً بعد حوار له مع مجلة إسكواير. ونظراً لوصف الإعلام له بالبسالة لمعارضته الضغط من أجل الحرب وتبني تلك الصورة له، فقد تم تجاهل الكنية التي كان قد أطلقها على الإيرانيين، حيث كان قد أسماهم في حوارهم مع مجلة إسكواير «نملًا» سيتم «سحقهم في الوقت المناسب».

في أعقاب ١١/٩/٢٠٠١، تم نسف السقف الذي يمكن تقبله لحديث الكراهية ضد المسلمين، وضد العرب بخاصة. غدا بإمكان المحرضين متوسطي التطرف من



أمثال أن كولتر أن تُصرّح في الوسائط المطبوعة ما كان لابد أن يمنعه أى رئيس تحرير مسئول أو أى حس بالكياسة، حيث كتبت قائلة بعد يومين من أحداث ٩/١١ «يجب أن نجتاح بلادهم ونقتل قادتهم ونحوكهم إلى المسيحية. لقد قصفتنا المدن الألمانية وسويتها بالأرض، وقتلنا المدنيين. كانت تلك حرباً. وهذه هي حرب أيضاً» لم يتراجع عنف اللغة، بل تصاعد بما يتناسب مع التصاعد المساوى في عنف سياسة الولايات المتحدة الخارجية. ومثلما أسمى بوش الإيرانيين «assholes»، وسمع رئيس قوات الولايات المتحدة بالخارج يسميهم «نملاً» فقد قال الجنرال جيمس ماتيس بالمارينز، وقائد قيادة القوات المشتركة، بعد ذلك ببضع سنوات «أذهبوا إلى الداخل الأفغانى وستجدون رجالاً يصفعون النساء لعدم ارتدائهن الحجاب. تعرفون أن مثل هؤلاء ليسوا رجالاً من ثم، فإنها لتسلية عظيمة أن تطلقوا النار عليهم». واكب تبرير قتل المسلمين بالخارج وما يرافقه من متعة، وأبل من الأفكار عن الإسلام والمسلمين

لم يكن من المتخيل أن ينطق بها أحد من قبل، عبر عنها التيار السائد الأمريكي الأبيض. منذ ٩/١١، غدا المسلمون والإيرانيون والعرب والإسلام ذاته مواضيع للازدراء والسخرية العلنية على شاشات التلفزيون، وفي البث الإذاعي، والصحافة المطبوعة. نسمع، من الصباح وحتى المساء عن «الخصائص العظيمة الفاضلة لدين الإسلام الغائر في القدم: قتل النساء على الشرف، ختان الإناث، منع النساء من قيادة السيارات، نعت اليهود بالقردة والخنازير».

وفيما يُشيطن الكثيرون اليمينيين من دعاة الكراهية بعد أن تم تطبيع وابل أحاديث الكراهية التي يقصفون بها المسلمين وأصبحت ضوضاء بيضاء معتادة تنعبت من البرامج الحوارية بالتلفزيون والإذاعة، تمضى الدوائر الليبرالية تستخدم الأضاليل القائمة على الإسلاموفوبيا، وتنميطاتها وتروجها بزعم أنها نقيض وجهات نظرهم الخاصة، ولنا في تعليقات هوارد دين الزعيم الديموقراطى الليبرالى على إقامة مسجد بالقرب من موقع هجمات ٩/١١ [Ground Zero] مثال على هذا الخطاب. قال وهو يتحدث إلى راديو WABC إن بناء مركز إسلامى على مقربة من موقع مركز التجارة العالمى سيكون إهانة حقيقية لمن فقدوا حياتهم فى ٩/١١/٢٠٠١، ثم مضى قائلاً، بذات الأسلوب الذى يستخدمه الديموقراطيون للتخفيف من عنصريتهم «أعتقد أن إقامة المساجد فى المدن الأمريكية أمر طيب، لأن أعداد المسلمين الأمريكيين تتزايد وأعتقد أن غالبيتهم معتدلون. أمل أن يستطيعوا التأثير على المسلمين فى أنحاء العالم، وذلك لأن الإسلام عاد إلى ما كانه فى القرن الثانى عشر فى بلاد مثل أفغانستان وإيران حيث يقومون برجم الناس حتى الموت، وهذا يمكن إصلاحه، ليس بالضغط على المسلمين وإقصائهم، بل باحتضانهم والعمل على أن يصبحوا مثل غيرهم من الأمريكيين، ومن الأمريكيين الذين تصادف أنهم مسلمون». ليس حديث هوارد دين بالمستغرب أو الجديد. فى الواقع، وكما سيوضح هذا الكتاب، فإن الكثيرين من مختلف المشارب الثقافية والسياسية فى أمريكا، يتشاركون فى الروايات المضلّة الناجمة عن الإسلاموفوبيا. تقتضى رؤية هوارد دين استيعاب المسلمين [الأمريكيين]

وإدماجهم في الثقافة الأمريكية بحيث لا يمثلون تهديدا لهيمنة الولايات المتحدة، أو لتقافة البيض القائمة على الاعتقاد في سموهم، وتدعو للتأثير على جماعات المسلمين في جميع أنحاء الكوكب من أجل ضمهم إلى الحضيرة الأمريكية.

وعلى حين أن الليبراليين والتقدميين ظلوا ينقدون الأصولية الدينية المسيحية ويزدرون خطابها، إلا أنهم يرون أن المسلمين يمثلون تهديدا وتحديا كما توضح تعليقات هوارد دين. لا يُعتبر هذا أمرا فريدا في خطابات الليبراليين والتقدميين التي دائما ما تختص المسلمين [بالنقد والانتقادات]. مثلا، دائما ما نجد في كتابات ريتشارد دوكينز، العالم الملحد، أو كريستوفر هيتشنز، داعية الحرب الملحد أيضا هجوما على كل الأديان باعتبارها شعوزات لا عقلانية، لكنها يُوجَّهان الانتقادات للإسلام بخاصة لما يزعمان عن نزوعه الاستثنائي لقمع الاختلاف أو الخروج على الإجماع من خلال أعمال العنف، وحظره المتأصل للمساءلة الذاتية. بل إن المثقفين والنشطاء التقدميين حينما ينقدون عسكرة الولايات المتحدة وإمبريالياتها، فهم دائما يستدعون في خطابهم هذا تصلب الإسلام والمسلمين وتخلفهم بصفتها أسبابا لعدم جدوى إشعال الحروب ضدهم. مثلا، يدعو جوهان جولتونج، مؤسس «دراسات السلام» والناشط المعادي للحروب منذ زمن طويل، إلى نقلة في النموذج المعيارى لتفاعل الولايات المتحدة مع العالم - لكنه يستند إلى التعميطات في دعوته إلى تقويض الإمبراطورية الأمريكية وإلى العدالة الاجتماعية الكوكبية. يعيد تحليله استنساخ تحليلات اليمينيين والنيوليبراليين حيث يذهب إلى أن لدى المسلمين مفهوما مختلفا عن الوقت والمجتمع والتاريخ والسياسة وكذلك علاقة مختلفة بكل تلك الأمور حيث إنهم يتمسكون بعقيدة الدفاع عن الإسلام «ضد الكفار»، كما يُحظر عليهم الإذعان لحكم المسلمين واليهود لأوطانهم. من ثم، فليس ثمة جدوى للحرب على العالم الإسلامى لأن للمسلمين حساً مفتوحاً لا محدداً بالزمان مما يسمح لهم بالقتال ضد «الكفار» إلى ما لا نهاية. بتعبير آخر، فإن أفضل قرار تتخذه الولايات المتحدة هو إنهاء حروبها

مع المسلمين وذلك لأن داخل كل مسلم شخص أصولي سيحارب دون كلل أو ملل ضد هيمنة غير المسلمين على بلادهم.

تسود الإسلاموفوبيا جميع مستويات الحياة الأمريكية. من اليمين إلى اليسار، ومن المتدينين إلى الملحدون. يمكن القول إن بوش وداعميه أشخاص يسيطر عليهم هوس الإسلاموفوبيا ويعتقدون أن كل مسلم «حقير أحمق» وإرهابي.

ومن الناحية الأخرى نجد أن الديموقراطيين والليبراليين يعمدون بسهولة إلى نشر التلميحات التي تستدعي لا عقلانية العرب والمسلمين وعداؤهم للحدث من أجل تبرير دعمهم لهيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية.

وكما سنرى، فإن مشاعر الإسلاموفوبيا جلية فى قطاعات عديدة من المجتمع الأمريكي، تنفثها الوسائط الإعلامية ومراكز الأبحاث وهـ الخبراء المتفقهون المزعومون، وهـ المخبرون المحليون، والاكاديميون المارقون الأوغاد، واللوبيات، وتنظيمات النشاط. لا يشعر المسلمون فقط بالوابل اليومي لخطاب الكراهية، وأفعال الكراهية من خلال التحليلات والصور المهيمنة المزديرة، التي تجتاح شاشات التلفزيون والوسائط الإعلامية المطبوعة، وحتى لوحات الإعلانات فى الطرق السريعة، بل إنهم أيضا يخضعون للرقابة الحكومية، وتقتفى آثارهم وتحركاتهم فى الشوارع والمساجد والجامعات، وتُرصد تجمعاتهم، وأموالهم وتبرعاتهم الخيرية. علاوة على ذلك، فإن حكومة الولايات المتحدة تتجسس عليهم، وتقمعهم وتقاضيهم. تجسد جميع مناقشات المجتمع المدني والإعلام عن الحرب، وعن العراق وأفغانستان الإسلاموفوبيا. تشكل الإسلاموفوبيا بنية جميع النقاشات حول الحرب على الإرهاب، تذيّل جميع النقاشات حول «إصلاح العلاقات مع العالم الإسلامي» نوازع هوس الإسلاموفوبيا. تغلب على جميع النقاشات حول فلسطين مفاهيم الإسلاموفوبيا، فيما غدت جميع النقاشات حول إيران وقدرتها النووية ودورها الإقليمي تعبيرا عن الإسلاموفوبيا. كما تشكل الكراهية الاستراتيجية المتعمدة للمسلمين والخوف منهم حدود جميع النقاشات حول الهيمنة على النفط والطاقة.

الإسلاموفوبيا والتشكيل الأيديولوجي للإمبراطورية الأمريكية:

وبعد أن قلنا كل هذا، ليست الإسلاموفوبيا أيديولوجيا سياسية فى حد ذاتها كما أنها ليست دوجما منعزلة بمثل ما أن الإسلام ذاته ليس أيديولوجيا سياسية أو دوجما منعزلة. لا تملك الإسلاموفوبيا برنامجا سياسيا أو حتى رؤية سياسية، إنها أمر جوهري، مجرد، مستدام، متأصل، وسائد. يذهب هذا الكتاب إلى أن الإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجي. لا يعنى هذا أنها الرؤية الجوهرية لأى حزب سياسي. الأخرى هو أن التشكيل الأيديولوجي تخلقه ثقافة تنشر مجازات، وتحليلات، وعقائد محددة بصفتها حقائق تؤطر بها السياسات الحكومية والممارسات الاجتماعية. يزعم هذا الكتاب أن الإسلاموفوبيا هى تشكيل أيديولوجي جديد تم التعبير عنه باكتمال منذ انهيار الاتحاد السوفييتي. لا ترجع أصول الإسلاموفوبيا إلى إدارة بعينها، أو أحد المفكرين، أو الفلاسفة، أو النشطاء، أو إلى أى منفذ إعلامي، أو مجموعة مصالح خاصة، أو مركز أبحاث، أو حتى قطاع اقتصادي أو صناعي هذا على الرغم من أن كل هؤلاء مسئولون بأسلوب جمعي عن نشر التعميطات الخبيثة المعادية للمسلمين والمعادية للعرب وعن تداول تلك المعتقدات من أجل تطبيع هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية على الكوكب وتبريرها. منذ اليوم الأول لتولية الرئاسة، أظهر بوش وإدارته بوقاحة الاحتقار للعرب والمسلمين، وبلا أدنى مواراة. ستوضح الفصول التالية أن إدارتي كلينتون وأوباما تسودهما نماذج الإسلاموفوبيا والإجراءات المؤسسية عليها والتي تقترن بنظرة إمبريالية أمريكية مماثلة. وفى واقع الأمر، فإننا، منذ ٩/١١ نشهد الإسلاموفوبيا وقد أصبحت تيارا سائدا بأسلوب غير مسبوق. مثلا، كتب روبرت سبنسر، وهو شخص متطرف غريب الأطوار، مقالين طويلين عنصريين خبيثين عن الإسلام أصبحا ضمن قائمة النيويورك تايمز لأعلى المبيعات، فيما حظى كتاب «العدو الداخلي» المبتذل والمثير للفتن والذي ألفه بروس باور، بترشيح دائرة نقاد الكتب القومية ذات المكانة المرموقة كأفضل كتاب نقد.

وفيما عمل الأكاديميون والنشطاء والمجموعات المحلية، وأيضا الهيئات من أمثال

هيئة «الإنصاف والدقة فى التقارير» على ضم المدعين المنجورين والمثقفين الزائفين إلى التيار السائد، يتبنى هذا الكتاب مسلكا مختلفا. فبدلا من فهم الإسلاموفوبيا بصفقتها سلسلة من الأفعال والمعتقدات التى تستهدف المسلمين وتنتج عن سوء فهم نوعى للمسلمين والإسلام، فإنه يكشف أن الإسلاموفوبيا هى ظاهرة أيديولوجية توجد لتعزيز غايات سياسية واقتصادية على مستوى الداخل والخارج. يمكن لنتائج تلك الأيديولوجيا أن تكون سلسلة من الأفعال والإجراءات تضيف حكومة الولايات المتحدة عليها صفة مؤسسية وتتراوح بين شن الحروب والتعذيب المبرمج، إلى أعمال الخطف والاحتجاز والإعدام دونما إذن قضائي، إلى المراقبة ونصب الفخاخ والإيقاع بالأشخاص. يخبر المسلمون فى حياتهم اليومية آثار الإسلاموفوبيا، حيث يواجهون المضايقات والتحرشات، والتمييز العنصري، وحديث الكراهية فى الشارع، والجعجات المتبجحة المعادية للإسلام على شاشات التليفزيونات القومية فى برامج البث الإذاعي، وأفعال الكراهية مثل تفجيرات المساجد. بيد أن تلك الآثار قد تُفهم على أنها مجرد أفعال متفرقة تتماس أحيانا إذا لم يتم النظر إليها على أنها تقع داخل نموذج أصلى كامل للإسلاموفوبيا أو خطابها الذى يتخلل الثقافة الأمريكية والمجتمع الأمريكي.

ومن أجل أن تعارس تلك الآثار فى تناغم مع خطاب يبررها، لابد للإسلاموفوبيا أن تعمل على مستويين فى آن؛ مستوى الأفكار والأحاديث والإدراك؛ ثم المستوى المادى للسياسات والعنف والأفعال. من ثم، فإن بنية هذا الكتاب ذات نهج علمى مزدوج يُنقّب عن كيفية عمل الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجى مؤثر يقوم بتيسير أهداف الإمبراطورية الأمريكية. من ناحية، يقيم هذا الكتاب تحليلاته على كتابات أشخاص مثل برنارد لويس وفريد زكريا، وأعمال «المخبرين المحليين» من أمثال إيان هيرسى على وإرشاد منجي، وعلى خطابات لبوش وأوباما ووزرائهما وتابعيهما ومرؤسيهما من الذين توفر تحليلاتهم وفلسفاتهم السياسية الأساس الاستطردى الراسخ لتطبيع الإسلاموفوبيا وتبريرها كسياسة دولة خارجية، وسياسة نفطية وأمنية واقتصادية، داخليا وخارجيا.

من أجل تبسيط الصرح الأيديولوجي متعدد الأوجه للإسلاموفوبيا سنقدم توضيحاً تفصيلياً لـتمنوجين من الإسلاموفوبيا متماثلين ومتنافسين في آن، هما النموذج الذي تطرحه كتابات برنارد لويس وذلك الذي تروجه كتابات فريد زكريا. ومما يستحق التكرار فإن هذين الاثنين ليسا من ابتداع روايات الإسلاموفوبيا التي انتشرت بعد ٩/١١، لكن يمكن القول إن أعمالهما تعتبر تركيزاً لروايات الإسلاموفوبيا التي كانت قد ظلت قيد التداول والتراكم طوال العقود السابقة. قام لويس وزكريا بعملية تقطير لكثير من معتقدات الإسلاموفوبيا وتكثيفها في خطابين منفصلين ومتقاطعين في آن يهدفان بوضوح إلى شرعنة نشر قوة الولايات المتحدة السياسية في منطقة الشرق الأوسط، وإلى التحكم في سكانها المحليين. يتم تكرار النقاط الداعمة في هاتين النسختين من الإسلاموفوبيا في جميع وسائل الإعلام السائد، والدوائر السياسية، ومن خلال المخبزين المحليين (أشخاص من أصول مسلمة أو عربية يُزعم أنهم أفضل من يُعرفون المشاهد الداخلية للثقافة العربية/ الإسلامية وينقدونها) وتتردد أصدائها في خطابات بوش وأوباما.

ومن جهة أخرى. سيوضح هذا الكتاب أن خطابات الإسلاموفوبيا هذا لها نتائج واقعية ملموسة. بتعبير آخر، فإن مفردات الإسلاموفوبيا هي الهراوات والحجارة التي بها تكسو عظام المسلمين، من خلال هندسة الخوف الأوروبي/ أمريكي من المسلمين وكراهيتهم وإدارته وتوجيهه والعمل كوسائل له، داخل الولايات المتحدة وفي أنحاء الكوكب، كما يمكن تبرير السياسات الداخلية الجديدة التي كانت تعتبر سابقاً لا دستورية، بل حتى لا أمريكية، بصفتها أمورا ضرورية للأمن والحفاظ على الذات. كان التعذيب، بدءاً من الإغراق بالماء والعزلة المفرطة للعتهمين الأمريكيين بالولايات المتحدة إلى الوسم العنصري، والخطف، وعمليات التسليم الاستثنائي لبلاد تقوم بتعذيبهم، والاختيالات بدون إذن قضائي، وتجميد إجراءات الاستدعاء القضائية، والحرب الشامل ضد بلدان ذات سيادة واحتلالها من نتائج نشر مزاعم الإسلاموفوبيا وتنميطاتها، ونماذجها وتحليلاتها.

سيبحث هذا الكتاب النتائج العنيفة للإسلاموفوبيا، التي تكاد ألا تخفي ويوضح

بخاصة تعدّد شعاب الهجمات علي المسلمين والعرب في الولايات المتحدة. تعمل المنظمات والوكالات الحكومية مع المجالس التشريعية، والهيئات التنفيذية، بل وحتى القضائية علي استهداف الأمريكيين المسلمين والعرب. وتحديد ملامحهم، وتجميع ملفات عنهم وتجريدتهم من حقوقهم الدستورية. تعمل جماعات المصالح السياسية. واللوبيات، ولجان الفعل السياسي مع السلطات المحلية وسلطات الولايات المتحدة والسلطات الفدرالية من أجل عزل الجاليات المسلمة والمنظمات الطلابية والنشطاء والاكاديميين المسلمين وإثارة الذعر بينهم ومضايقتهم والتحرش بهم. وبالمثل، يبيث الإعلام بكفاءة دعايات صريحة معادية تعمل علي شيطنة العرب والمسلمين وتزيد من حجم عدااء التيار السائد للإسلام ومعتقيه. سنري كيف ترتكب أفعال متطرفة ضد العرب والمسلمين وضد أقليات أخرى يعتقد خطأ أنها منهم، علي خلفية وابل ضوضاء كراهية الإسلام هذه التي يطلقها البيض.

وفي الواقع، فإن هذا الكتاب ليس شاملا ذلك، لأنه من سوء الحظ فإن قائمة الأفعال والخطابات والأحاديث والأحداث والنشطاء والمشرعين المعادين للعرب والذين يبيثون كراهية الإسلام والخوف منه أكثر من أن نستعرضها هنا.

يحتاج سرد أفعال الإسلاموفوبيا وإجراءاتها، تلك التي ترتكبها الحكومة، والمواطنون العاديون، والمنظمات العامة، وموليوود، والوسائط الإعلامية إلي مجلّد ضخم من عدة أجزاء لا بد له وأن يبدو أنه كتالوج لتجليات الكراهية والبغضاء. وفيما أن العمل الجاد علي استقصاء كراهية العرب والإسلاموفوبيا أمر مهم، فإن هذا الكتاب يأمل أن يكشف تعقيدات التشكيل الأيديولوجي ذاته، من أجل فهم بنيته وتنظيمه، والملاحظة الناقدة لتجلياته في المجتمع الأمريكي. ولهذا السبب، نقوم بتعريف الإسلاموفوبيا وفحصها من منطلق نماذج أصلية استطرادية أخذناها علي شكل روايتين رئيسيتين، هاتين اللتين أمدنا بهما برنارد لويس وفريد زكريا. وبدلا من مناقشة جميع الأوغاد، والاكاديميين الزائفين، والسياسيين المأجورين، والمخبرين المحليين الدجالين، والناقدين الانتهازين، والصحفيين النشطاء، مناقشتهم كل علي

حدة، فإن أعمال حفنة من دعاة الإسلاموفوبيا ومروجيها تساعد علي تحديد السقالات التي عليها تتسلق سياسات الإسلاموفوبيا وإجراءاتها، وتجد السياسات الأمريكية الخارجية والداخلية تبريراتها.

كلينتون / بوش / أوباما، استمرارية الإسلاموفوبيا

كُتب الكثير عن كيفية استخدام بوش لأحداث ٩/١١ من أجل تغيير طبيعة الحريات المدنية، والرئاسية، والسياسية في الولايات المتحدة. يسرت حرب بوش علي الإرهاب، وما تلاها من حرب أوباما علي القاعدة أعمال قمع أنصار البيئة، والنشطاء من مناهضي الحروب، والأناركيين وغيرهم من الخارجين علي الإجماع، كما عملت أيضا علي استمرار تردي الحريات المدنية. بيد أن هذا الكتاب يجزم بأن الإسلاموفوبيا سبقت ٩/١١، وأيضا استمرت بعد إدارة بوش. توالى الاستمرارية من رئيس آخر منذ جورج إيتش. دبليو بوش. استمر ظهور المسئولين ممن خططوا للإسلاموفوبيا، وعملوا علي أن تصبح تيارا سائدا، وأضفوا عليها الصبغة المؤسسية ورسخوها في عقول الأمريكيين، بل وفي النظام القانوني ذاته، استمر ظهورهم وعودتهم إلي الظهور في مناصب وأماكن مختلفة طوال العقود التي تلت سقوط الاتحاد السوفييتي. ثمة استمرارية قوية من إدارة بوش إلي إدارة أوباما، كما أن تسرب السياسات التي استحدثت ضد العرب والمسلمين واستخدامها ضد قطاعات اجتماعية أخرى، مازال قائما مثلما يوضح عمل كريس كوياتش عن التحري عن السكان. كان كوياتش قد عمل مدعيا في إدارة بوش وساعد جون أشكروفت المدعي العام [وزير العدل] علي استحداث «تسجيل الدخول/ الخروج الخاص بالأمن القومي» وهو برنامج للتقصي، يتطلب أن تؤخذ بصمات جميع المواطنين من البلدان العربية في الغالب، ورصد تحركاتهم أثناء إقامتهم بالولايات المتحدة. كان أول ظهور لهجمة كوياتش علي الحريات المدنية للمواطنين من غير الأمريكيين أثناء تولي أشكروفت منصب وزير العدل. ثم عاودت تلك الهجمة الظهور في مذابح الحريات المدنية الأخيرة ضد اللاتينيين، حيث ساعد كوياتش علي صياغة قانون في ولاية تكساس يسمح لهيئات فرض القوانين بتوقيف أي شخص يشتبه في أنه غير مسجل بالوثائق الرسمية أو لا يحمل وثائق.

ما زالت أعمال الكراهية الخاصة، وسياسات تكوين الملفات عن الأشخاص وتحديد ملامحهم، والرقابة والإيقاع بالمسلمين الأمريكيين والمهاجرين وتقديمهم للمحاكمة من خلال استخدام مستقزين عملاء، وتوجيه اتهامات غامضة فضفاضة زائفة مثل «دعم الإرهاب مادياً»، ما زالت مستمرة علي الرغم من تغير الرئيس. تستمر مقاضاة المسلمين الذين تم اختطافهم بوسائل غير مشروعة وتوقيفهم بواسطة جيش الولايات المتحدة، من بينهم متهم في الخامسة عشرة من العمر كانت المعايير تقتضي أن يخضع لمعاملة إصلاحية بوصفه أحد الجنود الأطفال، فيما تصاعد تسليم المشتبه بهم إلي جهات خارجية تقوم بتعذيبهم، وكذلك تنفيذ الاغتيالات المتعارضة مع الإجراءات القضائية. وبدلاً من مقاضاة ديك تشيني، ودونالد رمسفلد وألبرتو جونزالز كمجرمي حرب نظراً لانتهاكهم الواضح للاتفاقيات الدولية الراسخة ضد التعذيب، وحول معاملة أسري الحرب، فقد جاهد إريك هولدر المدعي العام بإدارة أوياما من أجل استمرار قمع حريات المسلمين المدنية بالولايات المتحدة. تحدي مكتبه شكاوي أشخاص مثل ماهر عرار وخالد المصري، ومظالمهما، حيث كانت الولايات المتحدة قد قامت باختطافهما ثم أخضعاً للتعذيب في سوريا والولايات المتحدة علي التوالي. وما هذه إلا القليل من إجراءات مماثلة كثيرة توضح لنا بقوة أن الإسلاموفوبيا ليست ظاهرة عرضية، بل علي النقيض، فإنها حملة مستدامة تعود أصولها إلي صعود العالم أحادي القطب. وهكذا، فإن القضايا التي يتعاطي معها هذا الكتاب تمتد خارج نطاق الأيام العنيفة المتهورة لنظام بوش الذي انتهك بصفاقة حقوق المسلمين والعرب، واستهدف النشطاء والأكاديميين والجانايات العربية والمسلمة. واستخدم العسكرة أداة رئيسية في سياسته الخارجية القائمة علي أساس الإسلاموفوبيا، فيما نقوم بتضمين أمثلة حديثة كثيرة من خطابات الإسلاموفوبيا، وأعمال الكراهية والبغضاء من أجل إثبات ما نعرض له. وفي واقع الأمر، فإننا لم نورد أعمال عنف كثيرة مثيرة للقلق، بل وصارخة، ارتكبت ضد المسلمين والعرب في الولايات المتحدة أثناء فترة رئاسة بوش الأولي وذلك من أجل تضمين أحداث وخطابات وسياسات ومحاكمات حدثت منذ عهد

قريب. علاوة على ذلك فإن هذا الكتاب يورد مصادر كثيرة متاحة من التيار السائد يمكن للقارئ العام غير المتخصص الوصول إليها بسهولة. أي أن النهج الذي يتبعه هذا الكتاب يتوخى الصرامة الأكاديمية ويذكر الهوامش بدقة، كما يجتري جميع الأحداث والمصادر والنصوص التي يحيل إليها. وعلى الرغم من ذلك، وكأساس لهذا المنهج الأكاديمي، فقد استندت عامداً إلى المقالات والوثائق والكتب التي يمكن لغير المتخصصين الحصول عليها بسهولة، وهذا الاستناد بأسلوب شبه حصري إلى إصدارات التيار السائد يتضمن الأنجلوفونية ومنافذ إعلام هذا التيار. بتعبير آخر، لم أستخدم إلى قائمة المهارات المتخصصة التي تميز بين طرق الباحثين الأكاديميين وبين مناهج بحث صناع السياسة والصحفيين الآخرين من غير المبتدئين والذين ينتمون إلى التيار السائد.

يمثل تعقيد الإسلاموفوبيا تحدياً حيث إن التطورات الخطيرة التي حدثت في السنوات الأخيرة جعلت من الصعب إكمال هذا الكتاب بسبب توفر مادة غزيرة إلى حد الإفراط. أنني للمرء أن يتوقف عن ملاحظة التطورات المهمة الدالة وتحليلها في وقت تتكشف فيه تطورات جديدة يومياً؟ يساعد النهج المزدوج المستخدم في هذا الكتاب علي إطالة أمد الاستبصارات التي نأتي بها وأهميتها إلى زمن تكون فيه تلك الأحداث والمحاكمات، بل وحتى النقاد والمنظرون الذين استشهدنا بهم قد دخلوا في ذمة التاريخ منذ وقت طويل. وفي النهاية، فإن الإسلاموفوبيا تركيبة سياسية وثقافية، ولذا، فليس في نية هذا الكتاب الدفاع عن الإسلام حيث إن الإسلام لا يحتاج إلى دفاع. إنه دين معقد وبسيط، راقٍ وحصيف، مركب وحَمَال للأوجه تماماً مثل المسيحية واليهودية والبوذية والهندوسية. إنه متنوع متباين يضم طوائف ومدارس ومجموعات أرثوذكسية [تقليدية] وأخرى جديدة مبتدعة. ليس هذا كتاباً يدافع عن الإسلام كدين أو عن المسلمين حيث إنني أذهب إلى أن فكرة أن الإسلام بحاجة إلى دفاع هي نوع من الإسلاموفوبيا، حيث إنها تمحو تماماً تعقيدات الدين وتختزل تنوعاته الثقافية والإقليمية وتؤولاته العقائدية إلى دين أصم أوحده، ويختزل المؤمنين به في شخصية مفردة تسمى «المسلم».

الإسلاموفوبيا وشطحاتها: أوروبا والولايات المتحدة:

صادمة هي حقيقة أننا ما زلنا نناقش «ما الإسلام؟» و«من المسلمون؟» و«لماذا يكرهوننا؟» إلخ.. وبخاصة أن أبحاث ودراسات المستشرقين البارزين من أمثال چاك بيرك، ومكسيم رودينسون، وألبرت حوراني قوضت فكرة أن الإسلام دين واحد أصم لا يتضمن أية تنوعات بين الشعوب والأزمنة والجغرافيات. بيد أنه فقد صدرت أعداد مفرطة من الدراسات التي تبرر استمرار ما يمكن اعتباره تفتيشا [قضانيا] في هوية المسلمين وعقيدتهم وضمايرهم، وليس تفحصا لها وبحثا فيها. تدل هذه الظاهرة علي أن الإسلام [في نظر هؤلاء] لم يعد في عصر العولمة هذا، ممارسة دينية فقط، بل إنه اكتسب وضعا أكبر كثيرا - وبخاصة في ضوء حقيقة أن القوي الإسلامية تبدو وأنها هي التي تقاوم، بشكل أساسي، غزو القوات الأمريكية، أو تلك التي تنوب عنها، لأوطان المسلمين. وكنتيجة لذلك، فمن الممكن القول إن الإسلام لعب دوراً في العقود الأخيرة في إعادة تشكيل «سياسات الهوية» للمسلمين، بيد أن الإسلام كمحدد للهوية يعني أشياء مختلفة لمختلف الناس في مختلف الأماكن. وعلي الرغم من ذلك، لن يتفحص هذا الكتاب المسائل المتعلقة بهوية المسلمين الأمريكيين التي تغري بطرح أسئلة مثل ما إن كان من المستحسن أن ترتدي المسلمات الأمريكيات الحجاب أم لا ترتدينه، أو لم تختلف أسبابهن لارتدائهن عن الأسباب التي أدت إلي ارتداء النساء المصريات له كتحد للدولة «السلطوية» العلمانية. أو الأسباب التي تجعل الجاليات المسلمة في الولايات المتحدة تندمج في المجتمع، وتحقق أعلى متوسط للدخل ومستوي التعليم بين الأقليات الإثنية هناك، علي حين تنزع الجاليات الإسلامية في أوروبا لأن تظل أكثر انعزالا.

ومع معرفة أن الإسلام أخذ في الانتشار كمحدد اجتماعي / ثقافي سياسي للهوية فلا بد وأن يتجنب هذا الكتاب أيضا مناقشة الفروق بين الإسلاموفوبيا الأوربية ونظيرتها شمال الأمريكية. ليست الإسلاموفوبيا حالة شمولية أو مفهوما أيديولوجيا أوحده أصم. أزعـم أن الإسلاموفوبيا الأوربية ونظيرتها الأمريكية ظاهرتان

اجتماعيتان/ سياسيتان منفصلتان، وأذهب أيضا إلي أن الإسلاموفوبيا العربية/ المسيحية اليمينية، سواء تلك التي يعبر عنها المواردنة أو المسيحيون الأرثوذكس، أو الكلدانيون أو الأقباط هي أيضا ظاهرة منفصلة تنبثق عن أوضاعهم الخاصة التاريخية والاجتماعية. ومثلما يكتسب الإسلام معاني داخل إطار مفهوم سياسات الهوية التي يشكل جوهرها الأوضاع السياسية المحلية والسياقات الاجتماعية، فإن الإسلاموفوبيا يجري بثها بهدف أيديولوجي محدد ومن أجل إحداث آثار تعتمد علي أوضاع اجتماعية وسياسية وتاريخية واقتصادية محددة ومتنوعة. يختلف موروث الإسلاموفوبيا شمال الأمريكي عن نظيره الأوربي.

تأتي البرامج الوثائقية الأوربية التي بُثت مؤخرا، مثل وثائقيات البى بى سى بعنوان «جيل الجهاد» مشبعة بالقلق الناجم عن ماضي بريطانيا الاستعماري حيث يُنظر إلي المهاجرين المسلمين في بريطانيا بصفاتهم جالية منعزلة منبوذة، تجعلهم فلسفتهم المعارضة للاندماج عرضة لأخطار التطرف الإسلامي، لمخاوف أوروبا من المسلمين جذورها في مواقفها الأبوية تجاه الشعوب اللاغربية في وقت لم تعد السلطة الأبوية المطلقة موجودة. ظلت المراكز الكولونيالية تشعر بعدم الارتياح دائما من التفاعل مع ذوي البشرة السمراء كأنداد متساوين، وبخاصة هؤلاء الذين كان الأوربيون قد قدموا أنفسهم لهم على أنهم مفوضون من أجل جعلهم شعوبا متحضرة. يعود توتر الأوربيين من ذوي البشرة السمراء إلي تاريخهم الكولونيالي وإلي هزائمهم في عصور ما بعد الكولونيالية علي أيدي حركات التحرر القومية التي سرعان ما تبعتها استعادة السطوة الأوربية الاقتصادية من خلال الكولونيالية الجديدة. بيد أن للإسلاموفوبيا الأوربية أصولها أيضا في قلقها من «الآخرين» الأوربيين أي اليهود الأوربيين، وبغضها لهم من ثم، فإنه في زمن ما بعد الهلوكوست وما بعد إسرائيل، أسقطت أوروبا نزوعها إلي معاداة السامية وبغضها لليهود علي المهاجرين المسلمين الجدد. بيد أنه أيضا، فإن إسقاط معاداة السامية علي الجاليات المسلمة في أوروبا هو تحويل لمشاعر الخسارة والاستياء والغضب الناجمة عن فقدان قوي أوروبا الإمبريالية السابقة إمبراطورياتها

الكوكبية في الوقت الذي عليها فيه تحمل العبء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ومسئولية ماضيها الكولونيالي. نتيجة لهذا، غدا صعود الإسلاموفوبيا في أوروبا يعبر عن نفسه من منطلقات الخوف من «أسلمة» أوروبا مثلاً، أو تردي العلمانية الراسخة، أو إفلاس دولة الرفاه الاجتماعي، أو «القنبلة الديموجرافية» الموقوتة، لكننا لن نبحث في هذا الكتاب سوى الإسلاموفوبيا الأمريكية فقط.

الاستشراق مقابل الإسلاموفوبيا: تنويعات تاريخية؛

لا يجزم هذا الكتاب بأن الغرب ظل عدواً أبدياً للإسلام. كما أنه لا يقدم الإسلام علي أنه الدين القويم الوحيد الذي ليس له تاريخ مارس فيه المسلمون العنف، أو ماضٍ إمبريالي. كما أنه لا يقدم جميع المسلمين بصفتهم ضحايا أو يدافع عن أعمال العنف السياسي حينما لا يجوز الدفاع عنها. كما أنه أيضاً لا يقطع بأن الأمريكيين جميعهم يكتفون بقضا متأسلاً للمسلمين حيث إنه في واقع الأمر، فقد أوضح الباحثون بأسلوب مقنع وجود علاقة تاريخية حميمة بين الغرب والعالم الإسلامي، وبخاصة العرب المسلمون والسلافيون والبربر والأتراك، بل إن بعض من قاموا بمراجعة تاريخ الحروب الصليبية يذهبون إلى أن العلاقات بين المسلمين والأمراء الصليبيين والإمارات الأوروبية كانت أحياناً أكثر حميمية من العلاقة بين هؤلاء الأمراء، ومنافسيهم المسيحيين. يتيح لنا فهمنا للإسلاموفوبيا بصفتها تشكيلاً أيديولوجياً داخل سياق الإمبراطورية الأمريكية، استلابها من أيدي «الثقافة» أو من الأسطورة التي تقول بوجود سلف واحد لها سواء كان هذا شخصاً أم تنظيمياً أم جماعة. من ثم، فإن هذا الكتاب يحيد مبتعداً عن الاعتقاد المتفق عليه في أوساط التقدميين والقاتل بأن الإسلاموفوبيا قد ظلت موجودة بشكلها الحالي في الولايات المتحدة منذ عقود. فالأمر ليس كذلك ولا بد من التمييز بين الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجي وبين أشكال العنصرية والتحيز في الماضي، بما في هذا الاستشراق، وهذا لا يعد تبرئة للاستشراق وأشكال كراهية العرب السابقة من ماضيها الخبيث. الأحرى أن هذا الكتاب ينوي تأريخ الإسلاموفوبيا في سياقها السياسي الصحيح وذلك من أجل إبراز مدي تجلياتها العنيفة.

في الواقع، فقد ظل الاستشراق موجودا منذ بزوغ فجر عصر الكولونيالية. يكشف كتاب إدوارد سعيد، والذي يعتبر معلما في هذا المجال، كيف تم تشكيل مفهوم «المشرق» والموضوع «الشرقي» من خلال الأعمال البحثية الأكاديمية في العواصم الكولونيالية، حيث قامت تلك الأعمال بوضع الأساس «المنطقي» لتبرير الاستعمار، ولمهمة نقل المدنية إلى تلك الشعوب، والسياسات الكولونيالية، ولإعادة تنظيم العالم العربي وترتيب أموره. يوضح سعيد لنا أن الاستشراق ليس ظاهرة واحدة موحدة لازمانية. بل إنها تشكل أيديولوجي. وبصفته هذه فقد تعرض الاستشراق لتحويلات وتعديلات، كما أن له تنويعات. وعلي الرغم من أن الاستشراق لا ينضوي علي كراهية العرب إلا أن كثيرا من المستشرقين يزدرونهم. لكن أيضا، ومما يسبب الأسى للصهاينة والإمبرياليين اللاحقين، فإن كثيرا من المستشرقين كانوا محبين للعرب. اخترق الاستشراق تفكير الغرب وسيطر عليه إذ إنه شكل بنية الأسلوب الذي نفكر به «نحن» عن الشرق ابتدع «الاستشراق» «المشرق»، والعالم الإسلامي والشرق الأوسط، والشرق بأكمله كموضوعات للدراسة، وموضوعات للتحكم وموضوعات للإصلاح والفاننازيا والسيخر والازدراء.. ابتدع «الشرق» من أجل تمييز «الغرب» عن «الآخرين الساميين» المجاورين له.

بيد أن الاستشراق ليس مرادفا للإسلاموفوبيا، بل إنه مهد الطريق لها؛ حيث يمكن القول إن الإسلاموفوبيا هي وريثة الاستشراق الذي نجح سعيد وآخرون في إبطال مزاعمه وإثبات زيف أمثلته ونماذجه. أستطيع القول إن الاستشراق، بالمعني الذي استدعاه سعيد، استُخدم أحيانا لشطينة العرب كإثنية أو عرق. كان الإسلام مجرد سمة ثقافية تم أخذها في الاعتبار ودراستها في سياق أوسع لدراسة المشرق العربي وتحديده، إذ إن النماذج المعيارية التي أوردها الاستشراق ذات توجه إثني وعرقي. ومن هذا المنطلق، يتم النظر للعرب والفرس والأتراك كمجموعات متميزة. وفقا للاستشراقيين المؤسسين البارزين من أمثال إرنست رينان، فإن كون هؤلاء جميعا من المسلمين لا يعدو أن يكون من شطحات التاريخ، وفي هذا، فالاستشراق يختلف عن الإسلاموفوبيا.

إن شيطنة المسلمين والعرب عملية تهدف إلى صرف الانتباه وتحويله بقدر ما هي عملية تبريرية، حيث إنها تحول دون استيعاب الأمريكيين للحقائق المؤسفة للإمبراطورية الأمريكية أو علي الأقل تحول دون تعرفهم علي آدمية ضحايا الإمبراطورية. بيد أنه، في ظل الوجود المستدام لظواهر الإسلاموفوبيا وكراهية العرب، يمضي المثقفون، والنقاد، ورجال الدين، والأكاديميون في الغرب والعالم الإسلامي يتصدون لها ناقدين، رافضين مزاعمها التبسيطية، وتعميماتها الفجة، والتجانس المطلق الذي تضفيه علي ثقافة المسلمين وهويتهم. برزت تنميطات الوسائط الإعلامية والمنتجات الترفيهية في مقدمة التفحصات الناقدة لهؤلاء. ولا غرو في هذا إذا نحن أخذنا في الاعتبار أن اللوحات التي رسمها الفنانون الاستشراقيون في القرن التاسع عشر قد واكبت الاستعمار والإمبريالية الأوروبية، وقدمت للمشاهد الغربي رؤية مُشَيَّئة لـ «الآخر»، أي أنها جعلت منه «شيئاً» يمكن تشكيل مفهوم عنه بمقارنته بالذات الغربية الأسمي، شيئاً غريباً، تهديداً، موضوعاً رومانسياً. شيئاً يُستدعي إخضاعه. أما في القرن العشرين، ومنذ الأفلام السينمائية الأولى، فقد ظلت جماهير المشاهدين الغربيين تتلقي الصور الاستشراقية للعرب والمسلمين وتستوعبها في وعيها ولا وعيها.

توضح لنا هوليوود كيف أن الخوف من المسلمين وكراهيتهم لا يعدوان في واقع الأمر أن يكونا تنويعاً أُخري علي ظاهرة كراهية العرب العنصرية. منذ بزوغ فجر السينما، ظل يُضفي علي العرب سمات غريبة، فهم البدو المفعمون بالحياة، أو البرابرة الذين يتسمون بالفحولة ويمتطون الإبل، أو الهمجيون الأجلاف النبلاء. ثم تغيرت فيما بعد تمثيلات العرب ليصبحوا يساريين راديكاليين علمانيين متطرفين، أو حلفاء الشيوعيين أو مشايخ النفط. ثم تطورت الصور تدريجياً في الثمانينيات لتصبح صور المسلمين / العرب المتطرفين، لكنها كانت مازالت تقدّم علي أنها نقيض للمجاهدين المسلمين الأبطال من أتباع رامبو. ظل العرب الأمريكيون، المسلمون منهم والمسيحيون دائماً علي معرفة بهذه التمثيلات، ومضي الباحثون والأكاديميون ينشرون دراسات قيمة تتناول تنميطات العرب في أفلام هوليوود وفي الإصدارات

المطبوعة والتلفزيون، لكن ما يفوق دراسة تنمطيات العرب الخبيثة وتحليلها أهمية، هو أن أعمالاً مثل «تغطية الإسلام» و«لقاءات ملحمة» قد أوضحت أهداف العمل على انتشار شيطنة العرب والنتائج الأيديولوجية المباشرة المترتبة على ذلك. تمدنا الآراء الثاقبة في الدراسات الناقدة للاستشراق والتنميطات والتبسيطات بأدوات لفهم كيف تخدم الإسلاموفوبيا أهدافاً مماثلة لأهداف المخططات الأمريكية السياسية.

يتبع هذا الكتاب نموذج هؤلاء المفكرين الناقدين من خلال تفحص الإسلاموفوبيا في أمريكا الشمالية، مع التركيز على فترة ما بعد ٩/١١، لكن أيضاً يحدد أصول انتشار الإسلاموفوبيا بظهور عالم القطب الأحادي، مع سقوط الاتحاد السوفيتي وصعود الولايات المتحدة كقوة كوكبية مهيمنة لا يتحداها أحد، تمازجت أشكال سابقة من الاستشراق والعربوفوبيا مع أشكال جديدة من الإسلاموفوبيا السياسية. وفي واقع الأمر، وكما سنرى، فما زال يتم تحديد العرب (في شمال أمريكا وأوروبا والعالم العربي) بصفتهم مصدر جميع «الشُرور» التي يتسم بها الإسلام. بيد أن الفرق بين أشكال الاستشراق السابقة و الإسلاموفوبيا المعاصرة هو أن «خطايا» العرب المسلمين المزعومة يعاقب عليها الآن جميع المسلمين حيث إنهم جميعهم يحملون مسؤولية الإخفاقات، والتخلف واللاعقلانية التي كان المستشرقون قد اختصوا بها ثقافة العرب السَّامية وتاريخهم. الإسلاموفوبيا في أمريكا الشمالية اليوم هي الاستشراق وقد تطاير وانتشر وارتقت منزلته لتصبح تلك النسخة الجديدة ما بعد الحداثيّة التي نعرفها اليوم. وفيما كان العرب ذوو البشرة السمراء في السابق يشكلون مجموعة الأنجاس المنبوذين، فقد أُسقطت تلك النظرة على المسلمين بعامّة وأُدمجت في لا وعي أمريكا العنصري.

ظل التيار السائد في أمريكا منذ وقت طويل يستهدف المسلمين السود ويخضعهم للتنميط. هذا على الرغم من أن منظمات المسلمين السود، بما في هذا منظمة أمة الإسلام، ظلت تعمل بجد واجتهاد لتمكين جماعات السود الفقراء، وظلت في مقدمة المكافحين ضد تسرب المخدرات والكحوليات، وأنشطة العصابات إلى جماعات السكان السود. كما أن تلك المنظمات والأفراد يعملون كقوة أمن ذاتي، وتعليم ذاتي في أوساط

الأفروأمريكيين، وأيضا ظل لهم حضور إيجابي في إعادة تأهيل كثير من المسجونين السود الذين تعج بهم السجون الأمريكية بدرجة لا تتناسب مع أعدادهم في المجتمع الأمريكي. كانت شيطنة تنظيمات «المسلمين السود» في الماضي مرتبطة بشيطنة حركة السود التحررية، وأنت كرد فعل علي نجاح تمكين السود الذين رفضوا صراحة الذوبان في مجتمعات البيض وتبرنتهم من أجل إنهاء المظالم العنصرية التاريخية. بيد أنه، ومنذ وقت ليس بالبعيد، بدأ التيار السائد في أمريكا في شيطنة تنظيم «المسلمين السود» زاعما أنهم دعاة فتنة يشكلون أقلية داخل أقلية. قام الصحفيون، والمنظرون والناقدون والنشطاء بإبراز صورة لنظام السجون في أمريكا بصفته مركز المراكز لردكلة أمريكا السوداء والعمل علي تطرفها، ولم يخطر لهؤلاء المعلقين القول إن هذا الخطر لم يكن لوجود إذا لم تقم الولايات المتحدة بسجن واحد من كل ثمانية رجال سود ممن هم في العشرينيات من أعمارهم، وبدلا عن ذلك، تؤكد منافذ التيار السائد للمهتمين بعلم الإجرام أن معتقلات أمريكا تحولت إلي مراكز لتجنيد المسلمين المتطرفين وتدريبهم حتي أن مؤسسة راند أصدرت تقريرا تحذر فيه من أخطار ردكلة نزلاء السجون الأمريكية السود.

الأسلوب الذي امتزج فيه تحرر السود بخطر الغزو الإسلامي يخاطب التوترات العرقية التي تشكل الأساس التحتي للإسلاموفوبيا، فبعد كل شيء فقد كانت المجموعة الأولى من المسلمين الذين استقدموا إلي الولايات المتحدة هم الأفارقة المسترقون. برهنت عدة دراسات قوية مقنعة علي أن رحلة العرب والمسلمين الأمريكيين لم تكن سهلة علي الإطلاق، وفيما تطغي المحن التي تعرض لها الأفارقة المسلمون المسترقون علي معاناة نظرائهم العرب وتفوقها كثيرا، فقد أخضع المهاجرون العرب، وكان غالبيتهم من المسيحيين، لوابل من التشريعات العنصرية، وسوء المعاملة الاجتماعية، والتحيزات، والانتهاكات والتحرشات. تضمنت محن الأفارقة «اللينش» [أي الإعدام شنقا دونما محاكمة قانونية] في الولايات الجنوبية، والمثول أمام المحاكم في حالات التزاوج [زواج السود بالبيض]. لا يمكن فصل قضية «العرق» عن الاستشراق وكرامية العرب

والإسلاموفوبيا. ما يميز أعمال العنف العنصرية تلك ونماذجها الأصلية هي الأوضاع والسياقات السياسية التي فيها يتم استخدام الإسلاموفوبيا من أجل حشد الجماهير وتعبئتهم، ومثل أعمال العنف والإجراءات العنصرية التي يرتكبها البيض الأمريكيون من منطلق شعورهم بالسمو العرقي، ضد السود واللاتينيين فإن الإسلاموفوبيا جزء من تشكيلات أيديولوجية أوسع موجودة داخل ثقافة الولايات المتحدة وسياساتها. أتت الإسلاموفوبيا بهذا الشكل المركب كمزيج أيديولوجي داخل ثقافة التسعينيات وسياساتها مواكبة للعولة وصعود الإمبراطورية الأمريكية. من ثم، ستوضح الفصول التالية كيف أن الإسلاموفوبيا هي أحدث تشكيل أيديولوجي يتم نشره من أجل تيسير السطوة الأمريكية، السطوة الأمريكية في لحظة أحاديثها القطبية.



نصویر
أحمد ياسين
فونیر

@Ahmedyassin90

شبيكات السياسة الخارجية النخبوية

الإسلاموفوبيا ليست مجرد غيزات

في عام ١٨٦٧، حذّر بطرس البستاني، وكان مؤسوعياً بارزاً تحول إلى البروتستانتية، حذّر إخوانه العرب من أن عليهم الدفاع عن أنفسهم في مواجهة هجمة «جحافل» العادات الأوروبية على العادات العربية والتي تُشنّ بعزم وإصرار. ظل العرب دأماً منذ القرن التاسع عشر على دراية بتعدييات الغرب الثقافية، وبياتهاماته الأخلاقية لهم، وآرائه المُستَحَقَّة بهم، وفيما أوضحت الدراسات أن العرب كانوا قد أظهروا مشاعر تنم عن الثقة وروابط القربي تجاه الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية، إلا أنهم ألفوا تدريجياً حدث الولايات المتحدة لوعودها لهم وفقدانها لمصداقيتها علي مدي الأعوام المائة وخمسين الأخيرة. لم تأت أحداث ١١ سبتمبر بأي جديد.

لم تستحدث الإسلاموفوبيا أو تضاعف مخططات الولايات المتحدة للشرق الأوسط. لكنها حرّرت أسوأ خطاب الكراهية، وأفعال الكراهية، والمخططات السياسية والسياسات التي كانت تكبحها من قبل المحاذير السياسية والفلاتر الأخلاقية. منحت هجمات سبتمبر ٢٠٠١ التراخيص للأمريكيين من مُعلقين وصحفيين وسياسيين ومنظرين لتبني خطابات الإسلاموفوبيا التي كان قد أعيد تشكيلها أثناء التسعينيات. في تلك الأثناء انضم المناجورون السياسيون إلى الأكاديميين والمنظرين الأوغاد من أجل إحياء التتميطات الشائعة باللغة البشاعة المعادية للإسلام والعرب وإعادة تشكيلها واستثمارها بذريعة «فهم» العقل العربى واكتشاف «لماذا يكرهوننا».

لفتت الشيطنة الكوكبية للمسلمين انتباه وسائل الإعلام العربية منذ بداية التسعينيات وقبل صعود جورج دبليو. بوش بوقت طويل. تصادف أن واكب ظهور القنوات التليفزيونية الفضائية فى العالم العربى مَقْدِم العالم أحادى القطب، حيث



تناولت البرامج الجديدة والبرامج الحوارية النصوص والنظريات التي كان لها أن تُشكل الأساس الأيديولوجي لسياسة الولايات المتحدة بمجرد نشرها، وبخاصة تلك الإصدارات من أمثال «أصول غضب المسلمين وحنقهم» لبرنارد لويس، و«صدام الحضارات» لصمويل هنتنجتون و«نهاية التاريخ» لفرانسيس فوكوياما. كانت تلك النصوص بمثابة مؤشر أن ثمة نقلة في اللغة السياسية لحكومة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، نقلة استشفتها الوسائط الإعلامية العربية الجديدة المعولة.

كانت محطة «راديو وتلفزيون العرب ART» هي أول قناة فضائية عربية انطلقت عام ١٩٩٢، فيما بدأت كل من الجزيرة وقناة ال بي سي اللبنانية بثهما عن طريق الأقمار الاصطناعية عام ١٩٩٦. كان لهذه القنوات أن تُعرّف جماهير المشاهدين العرب بلغة العصر أحادي القطب الجديد وبخطابه السياسي، وأيضاً أن تعيد صياغة

الخطاب المدنى والسياسى فى العالم العربى، أصبح تعبير «صدام الحضارات» عبارة تتداولها الشفافة فى جميع البرامج الإخبارية العربية وتستدعى النماذج المعيارية المألوفة التى تقابل بين الثقافات الغربية ونظيراتها العربية/ الإسلامية بصفتها فى حالة حتمية دائمة من الخصام والتناحر. فى التسعينيات، أصبح المشاهدون العرب، من خلال إعلام القنوات الفضائية، ثم الإنترنت فيما بعد، على إلمام تام بسجل الإسلاموفوبيا وشفراتها ولغتها والتى على أساسها تشكلت بنية السياسية الخارجية الأمريكية التى بلغت ذروتها فى «أجندة الحرية» لجورج دبليو. بوش ثم أضفت عليها رئاسة باراك أوباما الصبغة المؤسسية.

يتتبع هذا الفصل الخطوط السطحية فقط للعلاقات السياسية والشخصية العميقة بين مهندسى الإسلاموفوبيا الأيديولوجيين، ومروجيها، والانتهازيين وغيرهم ممن ساهموا فى إعادة صياغتها منذ التسعينيات. تفجر التواطؤ بين الدولة، ومراكز الأبحاث، واللوبيات، ومجموعات المصالح الخاصة من جهة، وبين الأكاديميين، والناشطين، والصحفيين من جهة أخرى مع تفكك الاتحاد السوفيتى و«نجاح» عملية عاصفة الصحراء. دعمت شبكة العلاقات تلك «الحرب على الإرهاب» التى شنها بوش، لكنها أيضا تغلغل فى أعماق إدارة كلينتون. وعلى الرغم من عدم تواجد مختلف أعضاء هذه الشبكة بكثرة فى إدارة أوباما، إلا أن النماذج المعيارية والسياسية التى روجتها الشبكة وعملت على تطبيعها يجرى الآن إضفاء الصبغة المؤسسية والقانونية عليها بواسطة الإدارة الحالية. بتعبير آخر، يرسم هذا الفصل كفاف الكيفية التى تداخلت فيها النماذج المعيارية للإسلاموفوبيا فى عصر العولة والإمبراطورية الأمريكية فى نسج صنع السياسة والإعلام بالولايات المتحدة ونظرة التيار الأمريكى السائد على العالم بغض النظر عن الإدارات الحاكمة.

ليست الأيديولوجيا مؤامرة أو برنامجا حزبيا؛

على مدى العقدين الأخيرين، نجحت شبكات المشتغلين بالسياسة والخبراء الاقتصاديين والمعلقين والأكاديميين، تلك الشبكات التى تمضى لتوسع دوما، نجحت فى جعل كثير من نماذج الإسلاموفوبيا المعيارية تهيمن على التيار السائد فى المجتمع

المدنى الأمريكى وتشكل مدركاته. أثناء سنوات إدارة أوباما، وصل حديث الكراهية الموجّه للمسلمين والتحيزات ضدهم إلى مستويات غير مسبقة. أوضحت استطلاعات الرأى أن ٤٩٪ من الأمريكيين عن الإسلام «سلبية» وأن ثلثهم يعتقدون أنه دين «يشجع» العنف. من المعروف أنه ثلث أعضاء الحزب الجمهورى يعتقدون أن أوباما يعتقد الإسلام سرا، كما أنه من المعروف أيضا أن معاطلة أوباما بشأن حق المسلمين لبناء مسجد بمنهاتان لا تُعزى إلى الجبن السياسى. فاعتقاد الجمهوريين ذلك ومعاطلة أوباما هما تعبيران عن الإسلاموفوبيا الراسخة والتي لا تمثل أمرا شاذًا عرضيا. لا تنجم الإسلاموفوبيا عن «صدام للحضارات» متأصل بين الشرق والغرب، أو عن سوء ظن تاريخى ومشاعر فظة يكنها المسيحيون لنظرانهم المسلمين. لكن الإسلاموفوبيا هى نتاج سهل لتاريخ أمريكا البيضاء العنصرى، وعدم ارتياحها إزاء ذوى البشرة غير البيضاء، وبخاصة حينما يؤكد هؤلاء وجودهم ويثبتون أنفسهم. لكن العنصرية ليست وراثية، بل هى ظاهرة اقتصادية وسياسية تتواجد دائما فى سياقات تاريخية. فى حالة الإسلاموفوبيا، تنجم المشاعر الفظة تجاه الإسلام والمسلمين عن دور أمريكا السياسى كقائد كوكبى للعالم أحادى القطب، قائد يمارس كثيرا من سطوته وقوته فى الشرق الأوسط بخاصة. من ثم، لم يكن لخطابات التيار السائد عن الإسلام والمسلمين أن تكون متاحة كى تنشرها قطاعات جمهور التيار السائد إن لم يكن قد ظلت تُبث بكفاءة وفاعلية، وتستخدم كمبررات سياسية وتفسيرات ثقافية بواسطة شبكة الصحفيين والمنظرين والمعلقين و«المخبرين المحليين» والأكاديميين طوال العقدين الأخيرين. بتعبير آخر، فإن التفاعل الذى نرسم ملامحه فى هذا الفصل بين كبار «المثقفين» الأوغاد وبخاصة برنارد لويس وفؤاد عجمى وفريد زكريا، وبين اللاعبين السياسيين الرئيسيين، ومراكز الأبحاث و«اللجان» هو الوسيلة التى بواسطتها يتم إدخال الإسلاموفوبيا إلى أعماق المجموعات الليبرالية والمحافضة معاً متخفية فى هيئة تحليلات سياسية وتفسيرات ثقافية قائمة على أساس من المعرفة والاطلاع. علاوة على ذلك، فإن الشبكات التى نتقصاها فى هذا الفصل هى فقط واحدة من سلسلة

من الأساليب التي بواسطتها يستمر سياسيو الولايات المتحدة، ومجموعات المصالح الخاصة، والمنظرون وصناع السياسة في صياغة التحليلات المعادية للعرب والمسلمين ونشرها واستخدامها من أجل تبرير الإجراءات الاقتصادية والعسكرية والسياسية في الداخل والخارج.

مهدّ وأبل الكتابات الزائفة التي نشرها المؤدلجون، والصحفيون المأجورون والمعلقون السياسيون الطريق لبينة لحصار العالم العربي تعمقت وتفاقت بعد ٩/١١. نحن وقد قلنا هذا علينا أن نوضح أن هذا الفصل يرفض فكرة وجود علاقة تأمرية صريحة تجمع هؤلاء الأكاديميين والمنظرين الناقدين، والصحفيين، وقادة الحكومة وصناع السياسة والسياسيين ورجال الأعمال والصناعة ومراكز الأبحاث ولجان العمل السياسي ومجالس الإدارات والنوادي الخاصة واللجان والمجالس والمجموعات.

يؤكد هذا الكتاب على المكوّن الأيديولوجي للإسلاموفوبيا، وكيف أنها تكوين يخترق الخطوط الحزبية والارتباطات السياسية والقطاعات السياسية كي يدعم الضرورات المزعومة لوجود أمريكا كقوة عظمى وتبريرات ذلك. ومن أجل كشف هذا، يلقى هذا الفصل الضوء على الطبيعة السياسية والأيديولوجية لتلك العلاقات بين مختلف الأطراف، ويبين أنها متوطنة في النظام السياسي للولايات المتحدة النزاع إلى القوة والسطوة.

وفي واقع الأمر لا تبرهن فاعلية التحالف بين المحافظين الجدد وصقور الديموقراطيين والمسيحيين الإنجيليين الصهاينة الأمريكيين المتعصبين وهـ مثقفهم المذللين - على وجود مؤامرة بقدر ما تثبت وجود بنية منهجية تعمل من خلالها جماعات المصالح السياسية والمنظرون السياسيون والمصالح الاقتصادية وصناع السياسة بتكافل على خدمة بعضهم.

وبالمثل، فإن هذا الفصل ليس شاملا في تحديده للعلاقات المتداخلة بين الأكاديميين الزائفين والمعلقين السياسيين والصحفيين بالشبكة سالفة الذكر. كما أننا لا نرغم أن شبكة الأطراف الفاعلة السياسية والأكاديمية والإعلامية تشكل جماعة سرية تحيك

المؤامرات خلف الأبواب الموصدة من أجل اضطهاد المسلمين والقضاء على الإسلام. نقول بوضوح إن تلك الشبكة الهلامية ليست مؤامرة، بل الأخرى أنها طبقة أيديولوجية من الأطراف الناشطين الذين لا يتشاركون في معتقدات عامة؛ بل يتشاركون في مصالح وأهداف تسعى بشكل أساسي إلى إطالة عمر الرأسمالية الكوكبية وهيمنة الولايات المتحدة على العالم. بتعبير آخر، يمكن أن يحل مصطلح «النخب» محل الشبكة العالمية. وعلى الرغم من ذلك، فإننى أستخدم مصطلح «الشبكة» وذلك لأن الشخصيات الجديرة بالذكر في هذا الفصل هم مجرد عينة عشوائية من طبقة أوسع من النخب القومية. بتعبير آخر، فإن «الشبكة» التى نورد تفاصيلها فى هذا الكتاب ما هى إلا عينة عشوائية من العلاقة المتداخلة بين أصوات مختلفة، ومساهمين، ومراهنين يعملون على تحديد الخطابات التى تمكن سياسة الولايات المتحدة الخارجية وتدعمها. ولسوء الحظ، فإنهم مجرد قمة مُمتلئة لجبل جليدى من عدااء أيديولوجى عميق الجذور تجاه المسلمين. بل ولشعوب الجنوب، فى الثقافة السياسية شمال الأمريكية.

منذ صعود جورج دبليو بوش وسقوطه، قام الباحثون والصحفيون الناقدون بتحديد معالم الانقلاب الأيديولوجى الذى نفذته المحافظون الجدد فى انتخابات عام ٢٠٠٠. يوضح دايفيد ألثيد، فى دراسة مُقنعة، كيف أن أصحاب «مشروع القرن الأمريكى الجديد، اشتركوا فى وضع «مؤامرة عامة» بداية من عام ١٩٩٢، وتبنوا الدعوة إلى تدخل عسكري فى العراق وتخيير نظامه. غذت هذه الحملة الدعائية الهائلة الوسائط الإعلامية المذعنة بمعلومات انتقائية لا سياق لها عملت على تشكيل أساس لغزو العراق واحتلاله».

لا يمكن لهذا الفصل تقديم ما هو جديد حول الكيفية التى كانت تعمل بها عقول بوش وزمرته أو تفاصيل الألاعيب المعقدة التى تم بها تنفيذ هذا الانقلاب، بيد أن هذا الفصل يسعى لإيجاد الروابط بين النقلة الأيديولوجية الماركسية التى تم التخطيط لها فى تسعينيات القرن العشرين وبين تنشيط الإسلاموفوبيا لتبرير الأجندة السياسية والاقتصادية التى واكبت عولمة هذه الفترة وتخطتها. يفسر هذا الترابط إحدى الوسائل

التي بها صيغت الإسلاموفوبيا وتم نشرها من أجل الدفع بالأجندات السياسية الأمريكية في الشرق الأوسط من خلال غرس التعميطات والتحليلات العنصرية في أذهان الجماهير الأمريكية بما يتوافق مع تكوينات لا وعيهم العنصري.

أحد المثقفين الإلزاميين وشبكتهم:

بعد هجمات ٩/١١ مباشرة، دعا دونالد رمسفلد، وريتشارد بيرل، وويل وولفويتز مجموعة «من الأكاديميين» وصناع السياسة و«الخبراء» إلى اجتماع سرى في البيت الأبيض. يذكر بوب وودوارد أن وولفويتز أخبر رئيس أميركان إنتربرايز إنستيتوت (AEI) كريستوفر دموث أن «حكومة الولايات المتحدة، والبنّاجون بخاصة، لا تستطيع إنتاج نوع الأفكار والاستراتيجيات المطلوبة للتعاطي مع أزمة بحجم أحداث ٩/١١ وهولها».

والى جانب كبار العسكريين ومسئولى وزارة الخارجية ووزراء من إدارة بوش، كان للنقل الفكرى والثقافى لمجلس «الحرب على الإرهاب» هذا أن يركز على فريد زكريا وبرنارد لويس وفؤاد زكريا ومعهم منظّرون ونشطاء ظلوا طوال عمرهم معادين للعرب وموالين لإسرائيل.

كان زكريا النموذج المحبب إلى اليمين، حيث كان نجما صاعدا، وكان بالفعل أصغر من تولى رئاسة تحرير النيوزويك سنا. كان قد شبّ ابنا لإحدى الأسر المعروفة فى الهند حيث كان والده مسئولاً فى حزب المؤتمر، ثم أصبح شخصية لافتة فى التسعينيات بسبب مواقفه السياسية المحافظة. تخرج فى هارفارد وحصل منها على درجة الدكتوراة ونظر إليه على أنه صنيعة صامويل منتنجتون، ونظرا لأنه شخص وسيم طلق الحديث، أصبح متحدثا رئيسيا باسم اليمين الجديد. وفيما وصل إلى منصب رئيس التحرير الإدارى «لمجلة فورين پوليس»، ثم مجلة نيوزويك، طوّر روابط مع الحرس القديم فى الحزب الجمهوري، ومع صقور المحافظين الجدد. بيد أنه، وبالتقابل مع لويس، أعاد، بكياسة، تشكيل توجهاته ليصبح شخصية إعلامية وسطية يتحدث إلى جماهير أوسع بكثير من المحافظين الجدد الذين عفا عليهم الزمن.

أما برنارد لويس، الأستاذ الفخري بجامعة برينستون، فقد تصرف كشخص مُسنٍّ مميز، «ضليع» في دراسات الشرق الأوسط. في عام ٢٠٠٨، كان زكريا ولويس ضمن قائمة مجلة فورين بوليس لأبرز مائة مفكر على مستوى العالم. وبالتقابل، فإن فؤاد عجمي أستاذ بجامعة جون هوبكينز ظل يحاول منذ ثمانينيات القرن العشرين كسب ثقة اليمين. وفي واقع الأمر، فقد ظل لويس وعجمي متواطئين منذ عقود مع مجموعة المحافظين الجدد، أي أنهما كانا ضمن مجموعة أكاديميين مارقين انضوت أبحاثهم وأعمالهم الأكاديمية على أجندات سياسية مصغرة أحيانا، ويمكن استشفافها أحيانا أخرى، أدرك كلاهما بوضوح حاد الأهمية السياسية لتحلل الاتحاد السوفييتي وعلاقة هذا بالسياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط. أثناء عملية عاصفة الصحراء، غدا لويس وعجمي من «المتقنين العامين» المتحمسين وسرعان ما تبنتهما مختلفة الأجنحة الحزبية داخل دوائر المحافظين الجدد.

كانت الاجتماعات التي عقدها وولفويتز. وبيزل ورمسفلد معالم على الطريق، عملوا خلالها على إضفاء صبغة قانونية على بيان سياسي حدّد غزو العراق والإطاحة بصدام حسين بين أولى أوليات السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الحرب الجديدة على الإرهاب. يزعم زكريا أن معلوماته عن تلك الاجتماعات المغلقة أنها لم تكن أكثر من جلسات لتوليد أفكار عاصفة تهدف للإعداد للتوجهات الجديدة. بيد أننا نعلم أنه شارك في تلك الاجتماعات في وقت كان فيه من بين أكثر الدعاة المفوهين المرتنين المؤثرين لتغيير النظام في العراق. في غضون أسبوع واحد فقط من أحداث ٩/١١، كان زكريا ولويس وعجمي يعتبرون الهيئة الاستشارية لورقة «مثلث الإرهاب» التي كتبها وولفويتز، ولسياساته التي كانت قد أصبحت بحلول نوفمبر ٢٠٠١ أمرا شبه منجز.

معقدة هي العلاقات بين البيت الأبيض وبين زكريا ولويس وعجمي وغيرهم من زمرة المرتزقة الأيديولوجيين الأقل منزلة والذين يتظاهرون بأنهم مثقفون، بمثل ما هي محبطة. تموضع هؤلاء الأكاديميون المارقون والصحفيون المأجورون واحتلوا أماكنهم

داخل شبكة الدوائر السياسية ومراكز الأبحاث النافذة والتي فتحت لهم الأبواب كي يضطلعوا بأدوار عامة في «الحرب على الإرهاب».

مراكز الأبحاث والمؤسسات السياسية:

ظلت مراكز الأبحاث، واللجان، والمراكز والمعاهد والتنظيمات السياسية الدعامة الأساسية لثقافة واشنطن «الفكرية» على مدى عقود عديدة. بيد أن مستنبت الأنشطة اليمينية في التسعينيات جعل من تلك المؤسسات ذات تواجد لافت بخاصة. وفي واقع الأمر، فمع بداية عهد بوش، مضت تلك الكوادر التي تتشارك في روابط مؤسسية تقفز إلى الواجهة لتشكل مجموعات أيديولوجيا تضطلع بمهام كثير في أجناس البيت الأبيض. تعتبر عضوية زكريا في العديد من اللجان والهيئات دالة حيث إنها تعتبر مثالا على الشبكة السياسية التي يكمن المعلقون السياسيون والصحفيون والأكاديميون الانتهازيون داخلها، تكشف هذه العضوية والارتباطات عن علاقة حميمة بين مشاهير الصحفيين، والمعلقين السياسيين، والمحربين، وبين النخب الاقتصادية والسياسية النافذين، ليس من المهم إن كانت هذه العلاقات تشكل جماعة سرية أو أخوية تآمرية. إن ما تشكله في واقع الأمر هو ثقافة سياسية تقوم بصياغة سياسات الولايات المتحدة الخارجية والاقتصادية ثم تقوم بتبريرها، كما أنها تنتج حملات تعمل على إدماج هذه السياسات بسهولة في التيار السائد من أجل استجلاب دعمه لها. بتعبير آخر، تعمل هذه المجموعات والأخويات واللجان والجمعيات وسائر لرسم السياسات الخارجية والداخلية والاقتصادية وأيضا لاستنباط الأساليب التي بها يمكن إقناع الشعب الأمريكي بها والحصول على دعمه لها، ذلك لأن الأمريكيين ينزعون إلى مماهاة مصالح النخب السياسية والاقتصادية الأمريكية مع مصالح الطبقة الوسطى من البيض.

تتداخل روابط زكريا وانتساباته لمجموعات داخل المؤسسة السياسية مع روابطه المتشعبة المتسعة بالإعلام والقطاع الخاص. وكريس تحرير لإحدى أهم المجالات الإخبارية شمال الأمريكية، فإن مكانه داخل المؤسسة السياسية دلالاته الكاشفة.

مثلا، كان زكريا عضواً في «مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية» (CSIS) أثناء فترة بوش. كان ذلك المركز قد أسسه دايفيد آبشاير أحد صقور الحرب الباردة والمستشار السابق للرئيس ريجان، ومعهُ الأميرال الأسطوري أرلى بيرك، أعاد المركز، الذي يرأسهُ السناتور المخضرم السابق صمويل نان تنظيم نفسه بعد انتهاء الحرب الباردة ليصبح أحد معاهد السياسة الرائدة التي تقدم الاستشارات للهيئة التنفيذية، والكونجرس، ووزارة الخارجية، ووزارة الدفاع ووزارة الداخلية ووزارة الطاقة. يعمل كثير من أعضائه أعضاء في مجلس سياسات الدفاع، وهو لجنة استشارية خارجية لوزارة الدفاع، يضم CSIS عدداً كبيراً من أعضاء الحزبين المطلعين على بواطن الأمور بواشنطن، ومسئولين عسكريين سابقين، ومصرفيين ورجال نفط، و«معلقين سياسيين»، وهو في هذا يختلف عن كثير من مراكز الأبحاث والمجموعات اليمينية التي يرتبط بها زكريا، يؤمى المركز مقاتلى الحرب الباردة الذين تجمعهم عقيدة مفادها أنه ينبغي أن تلازم التواجد العسكرى القوي في الشرق الأوسط استراتيجية للاشتباك.

نجح زكريا في تمييز نفسه بين حلفائه وأنداده من المحافظين الجدد بصفته براجماتياً وواقعياً، وتعود أهمية هذا إلى أن هذه المواقف تربطه بالمحللين السياسيين والشخصيات المؤثرة من مختلف الأطياف بمن فيهم زميله في عضوية CSIS وأحد صقور الحرب الباردة زيجنيو برجنسكي، مستشار الأمن القومى السابق في إدارة جيمى كارتر والذي كان مسئولاً عن ترتيبات تسليح المجهدين الأفغان حتى قبل الغزو السوفييتي، بحيث نجح في أن يجعل منهم قوة سياسية قتالية. وفي واقع الأمر، يذهب بيتر دايلى سكوت إلى أن برجنسكى مسئول عن دعم الحركات الإسلامية الوليدة على حدود الاتحاد السوفييتي، بل إنه حتى تحول عن دعم شاه إيران إلى دعم أية الله الخميني. وكشخص يشارك زكريا عداؤه العميق للاشتراكية وارتباطه بالنيوليبرالية، فإن برجنسكي، الذي ينتمى للحزب الديمقراطي، يدعو بقوة إلى أهمية حفاظ الولايات المتحدة على هيمنتها الاقتصادية والسياسية في عالم أحادى القطب، مما يضمن أن

مصالحتها يجب أن تجب أية مصالح إقليمية. أيضا، يُعرف عن برجنسكى أنه مثل زكريا، متشدد من حيث برامجتيته وواقعيته السياسية. من بين أعضاء مجلس إدارة CSIS السابقين والحاليين شخصيات برامجتية من الحزبين بمن فيهم أشخاص من المؤسسة مثل هنرى كيسنجر ومادلين أولبرايت.

ليست الشبكة الثقافية/ السياسية التى تضم زكريا فريدة من نوعها. يمدنا الاستعراض لشبكة ارتباطاته المتفحص بمثال مبتذل صادم للشبكات التى تشكل بنية حياة الولايات المتحدة السياسية، وتتكون منها ثقافة «المُطلعين على بواطن الأمور» السياسية، وتشكل البنية النشطة للدوائر السياسية المغلقة. يتضح لنا فى حالة زكريا كيف أنه موضع نفسه كمتقف وسط مجموعة من السياسيين المؤثرين وسماسرة السلطة تتمدد عابرة للأحزاب ومحددة ببرامجتية أيديولوجية مشتركة.

وفى هذا الصدد، فإن CSIS نموذج يحتذى به حيث إن دائرته ليست على درجة من عدم الفعالية تجعل منها مجرد مجموعة من منظرى ما بعد الحرب الباردة البرجماتيين المهتمين بالمصالح الاقتصادية والأمنية الأمريكية. بل إن مجلس أمنائه يتكون من مجموعة مفعمة النشاط من كبار المسئولين الذين عملوا فى إدارات نيكسون وكارتر وريجان. يحافظ هؤلاء المسئولون على علاقات حميمة مع معظم شركات وول ستريت الاستثمارية والمصرفية وأيضا مع صناعات الدفاع والطاقة وبخاصة النفطية منها. إن السجلات الوظيفية لهؤلاء المستشارين وأعضاء المجلس مستفيضة بدرجة لا نستطيع معها مناقشتها هنا، كما أن تنوع ارتباطاتهم السياسية والمهنية مذهلة.

وإذا كانت البرجماتية السياسية العامة المشتركة توحد بين تلك التوجهات المتنوعة، فإن عضوية حفنة من المنظرين المتشددىن مثل زلمائى خليلزاد وجيمس شلسينجر وريتشارد فيريبانكس للمجلس جديرة بالاهتمام. ليس فيريبانكس بالبرجماتى أو الواقعى، لكنه منظر متصلب تتلخص رسالته فى وجوب ترسخ القوة الأمريكية فى العالم العربى. كان هو من أسس «كابيتال وان فاينانشيال كورپوريشن Capital one Financial Corporation» ويترأس الآن مجلس إدارة ليالينا Layalina

برودكشنز، وهي شركة غير ربحية، تُغدق عليها ملايين الدولارات، وتبث إعلاما داعما لأمريكا في أنحاء العالم العربي. مهمة ليالينا المُعلنة هي التعاطي مع «التنميطات السلبية للولايات المتحدة» وتحسين صورة أمريكا بين العرب. تتعاشق هذه المهمة مع قناعة زكريا بأن على الولايات المتحدة تسويق «قيمها» في العالم العربي وإقناعهم بها، وإرساء نقسها نموذجا لهم. تتباهى ليالينا، التي سنناقشها فيما بعد، بمجلس إدارة يضم المشاهير النافذين من أمثال جورج دبليو بوش، وكيسنجر، وجورج شلوتز، ولورانس إجلبرجر، ويرنت سكوكروف ودانييل يرجين.

يرتبط CSIS بأعداد لا تحصى من الهيئات السياسية النافذة، ومجموعات اللوبيات، ومراكز الأبحاث، وهيئات الحكومة. كثيرا ما تتشارك تلك التنظيمات في أعضاء بمجالسها ولجانها، فيما تقوم كل منها بوظائف محددة داخل لجان النظام السياسي للولايات المتحدة. وإذا كان CSIS هو مجمع السياسة الذي يتوجه إليه كبار رجال الصناعة والقادة الحكوميين، فإن مؤسسة نيو أمريكا فاؤنديشن (NAF) هي مركز الأبحاث البرجماتيين بالتقابل مع حذقة ويليام كريستول وروبرت كيجان كما تجسد في «مشروع القرن الأمريكي الجديد». NAF مركز أبحاث به أعضاء من الحزبين ويعمل على مباحث وقضايا متعددة ابتداء من سياسة الطاقة وحتى إصلاح العملية الانتخابية. أعضاؤه والمشاركون فيه متنوعو المشارب، ابتداء من الصحفي المستقل نير روزن إلى فوكرياما، وإلى إريك شميدت عضو مجلس الإدارة المنتدب لجوجل ولتر راسل مؤلف كتاب «الروعة الأخلاقية: الإمبراطورية الأمريكية في الفترة الانتقالية».

ومثل CSIS، فإن برنامج مؤسسة نيو أمريكا تجاه العالم الإسلامي يتناقض مع ما تذهب إليه كثير من مراكز أبحاث واشنطن إذ يؤكد على الاشتباك مع إيران وسوريا وحماس وعلى الالتزام التام بأمن إسرائيل وجيش أمريكي قوي. لكن وعلى الرغم من نسيج أعضائه متعدد المشارب، يتشارك مجلس NAF مع CSIS في بعض الأعضاء من كبار رجال النفط بمن فهم دانييل يرجين مدير NAF، وهو عضو بارز في «مجلس النفط القومي» ومطلع على بواطن الأمور في الشؤون النفطية منذ زمن

ليس بالقصير. يعتقد أن الاستخدام المستقبلي المستدام للنفط يتوقف على تطوير للتكنولوجيا وإتاحة الوصول إلى المزيد من حقول النفط. وفي واقع الأمر، فإن الشبكة التي نورد تفاصيلها في تتبعنا لأنشطة زكريا تكتمل دائرتها حينما نعلم أنه أيضا عضو في مجلس إدارة NAF ومشارك نشط به.

مركز البرجماتيين:

قد يستنبط البعض أن عضوية زكريا في تلك المؤسسات، والمجالس، والهيئات السياسية لا تعتبر شهادة دامغة على مكانته المؤثرة في الوسائط الإعلامية الأمريكية. علاوة على ذلك، فقد يجزم آخرون بأن عمله عضوا في مجالس أمنائها لا يقتضى سوى قليل من التفاعل مع الأعضاء الآخرين وإسهام أقل في مجريات الأمور الفعلية لتلك المؤسسات. بيد أن تفحصا للشبكة التي تشارك في أعضاء مجالسها يثبت هذا التفسير التبسيطي لارتباطات زكريا المهنية وحجتنا في هذا مزدوجة. إن ما نورده من تفاصيل تفاعل زكريا ولويس وأمثالهما مع سيطرة السلطة، والخبراء الحكوميين وصناع السياسة يحدد الوضع الصحيح لارتباطاتهم السياسية ومعتقداتهم ودوافعهم، لكن عضويتهم لتلك الجهات وروابطهم المختلفة تبين بوضوح الدور النشط الذي يلعبونه في تشكيل الرأي العام بالولايات المتحدة وخدمة سياساتها الخارجية وصناع سياساتها. ولهذا السبب يركز هذا الفصل على دورهم النافذ كمنظرين مؤدلين أثناء تسعينيات القرن الماضي وسنوات رئاسة بوش.

وعلى حين أن زكريا، بل وحتى لويس، قد لا يكونان من واضعي السياسات أو الاستراتيجيات، فإن مشاركتهم في تلك المجموعات تضيف مصداقيتهما على تطبيع الفرضيات الجوهرية التي تشكل أساس قوانين «مناهضة الإرهاب» الداخلية، وسياسة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، وهي سياسة يزعم هذا الكتاب أن جوهرها هو الإسلاموفوبيا، وكراهية العرب. ظل زكريا، وزميله المعلق الصحفي توماس فريدمان، أكثر حرصا دائما من برنارد لويس وفؤاد عجمي ورجال الهجمات السياسية المناجورين من أمثال دانييل باييس، فعلى حين أنه يرتدى شارة النيوليبرالية

متلما يرتدى فريدمان شارة البرجماتية «الليبرالية»، فإن مواقف زكريا الخاصة بالبرجماتية ظلت تتيج له دائما الظهور بمظهر اللامتحيز «الموضوعي»، على حين أن أعماله وأنشطته، وكما سنوضح، تفضحه بصفته فأساً يُشحذ للهجوم على العرب والمسلمين وذلك من خلال عدائه الخبيث لهم.

من الصعب تحديد أعضاء مجالس مراكز الأبحاث والمؤسسات والهيئات السياسية ومستشاريها بدقة وذلك لأن صفوفهم تتمدد وتتقلص حسب التحاق الأعضاء بالخدمة العامة والإدارات الرئاسية وتركهم لها، وفي تلك الأثناء يتم إعداد منظرين مؤدلجين جدد ويتقاعد المستشارون المُسنون أو يُتَوَقَّون. يدعم هؤلاء الأعضاء أيضا مستوى آخر من العلاقات الاجتماعية مع أوساط نخب السلطة والنخب الاقتصادية. مثلا، فإن زكريا أيضا عضو في «مجموعة أسين الاستراتيجية» التي يضمها معهد أسين الذي يترأسه برنت سكوكروفت وهو أيضا عضو في مجلس CSIS. يشكل زملاء زكريا في أسين قائمة مألوفة من صناع السياسة والديبلوماسيين والوزراء وكبار المسؤولين الحكوميين السابقين من الحزبين. من بين هؤلاء مادلين أولبرايت، وريتشارد أرميتاج، ودينيس روس، ومارتن إنديك الأب، وريتشارد لوجار الأب. كان تشاك هايجل الأب، وريتشارد هاس وديان فينستين السفراء السابقون، وعضوا إيباك من جماعات الضغط الصهيونية دنيس روس ومارتن إنديك، كانوا جميعهم شخصيات بارزة في إدارة كلينتون، وكما سنرى، سيعاودون الظهور في إدارة أوياما. أيضا، فإن أسين جروب ملتقى مشترك لـ زكريا وفيربانكس، وهما أيضا أعضاء في «جمعية الزملاء» التي تتكون من هؤلاء الذين تبرعوا بأكثر من ٢٥٠٠٠ للمجموعة.

إن العلاقة الحميمة بين أعضاء تلك المجموعة وغيرها هي نقيض للروابط المهنية في أوساط صناعة السياسات بواشنطن ونيويورك. وأسـين جروب هي نسخة مصغرة من المجموعات السياسية الثلاث بالغة السطوة التي ينتمى زكريا إلى عضويتها جميعها. وهذه المجموعات هي بيلدربرج، واللجنة ثلاثية الأطراف، ومجلس العلاقات الخارجية. وجميع أعضاء تلك المنظمات لهم أصولهم في منظومة وزراء إدارات ريجان وكلينتون

وبوش، وكبار رجال الصناعة والمثقفين الذين نجدهم في CSIS وAFN وجهات أخرى. مثلاً يترأس ريتشارد هاس، عضو مجلس إدارة أسين، مجلس العلاقات الخارجية (CFR) واسع النفوذ. كان هاس أيضاً مستشاراً لكونلن باول وزير الخارجية، ولجورج إيتش بوش أثناء حرب عاصفة الصحراء.

ويبدو أننى شك، فإن مجلس العلاقات الخارجية هو المركز الأقوى تأثيراً ونفوذاً فى مجال السياسة الخارجية، وقد يليه CSIS. كان من بين أعضاء مجلس إدارته شخصيات أعضاء فى CSIS مثل برجنسكي، وجوزيف نايف، ومادلين أولبرايت، وكونلن باول، وريتشارد هولبروك، ورئيس معهد بروكينج، ومحرر تايم مجازين سابقاً، ونائب وزير خارجية كلينتون ستروب تالبرت، وعضو مجلس الإدارة المنتخب بمجموعة كارلايل دايثيد روبنستين. أيضاً، فإن زكريا عضو فى مجلس إدارة CFR (مجلس العلاقات الخارجية) ومعه الأكاديمى الوغد والصحفى المأجور فؤاد عجمى الذى سناقشه فيما بعد. مثيرة للاهتمام هى قيادة هاس لمجلس العلاقات الخارجية، حيث إنه لم يكن جزءاً من جماعة المحافظين الجدد السرية الذين تسللوا إلى إدارة بوش وترسخوا فيها. الأخرى أنه كان جزءاً من «شلة» منافسة من المحافظين فى دائرة بوش الأب الذين يتبنون مواقف تقليدية فى السياسة الخارجية. ساعده هذا على احتلال موقع ملائم مكنه من تشكيل مجلس «برجماتي» من أعضاء الحزبين يقدم الاستشارات لوزارة الخارجية والكونجرس والبيت الأبيض أياً كانت الإدارة الحاكمة.

استدعت هذه البرجماتية توجيه النقد من قبل مراكز الأبحاث الموالية لإسرائيل مثل «منتدى الشرق الأوسط» لمجلس العلاقات الخارجية لمعارضته «أحادية، الولايات المتحدة وعملياتها العسكرية» فى المنطقة. تخفى لهجة مجلس العلاقات الخارجية «غير المتحيزة» حقيقة أنه يضم كثيراً من المعلقين والمسؤولين السياسيين ممن يعبرون بوضوح واتساق عن وجهات نظر معادية للمسلمين ومعادية للعرب. ظلت المواقف التى يتخذها أعضاء مجلس إدارته بمن فيهم أولبرايت وتالبرت ليكودية موالية لإسرائيل

بأسلوب لا يتزعزع. وفي واقع الأمر، فإن إلقاء نظرة خاطفة على قائمة «خبراء» الشرق الأوسط بمجلس العلاقات الخارجية تبين وجود نخبة من اللاعبين السياسيين المعادين للعرب والمعادين للمسلمين بمن فيهم «مخبرون محليون» من أمثال محمد برّي.

بيد أن أكثر أعضاء المجلس جدارة بالاهتمام هو إليوت إبرامز المتخصص رفيع المنزلة في دراسات الشرق الأوسط، وهو أيضا عضو في مؤسسة هريديج، ومجموعة مشروع القرن الأمريكي الجديد، ومعهد هيسون ومنتدي الشرق الأوسط. أيضا، كان بين الموقعين على خطاب مفتوح يدعو للإطاحة بالنظام السوري، وأيضا الخطاب المفتوح سبى السمعة الذي دعا عام ١٩٩٨ الرئيس كلينتون للإطاحة بصدام حسين. لم يلعب فقط دورا مؤثرا في فضيحة إيران/ كونترا، بل كان أيضا مديرا رفيع المستوى لشئون الشرق الأدنى وشمال إفريقيا في مجلس الأمن القومي أثناء رئاسة بوش الأب. وبصفته مساعد بوش الابن الخاص والمدير رفيع المستوى للديموقراطية وحقوق الإنسان والعمليات الدولية، يُعترف به كأحد مهندسي «أجندة الحرية» التي تبناها بوش. عُرف بأنه أكثر المحافظين الجدد تطرفا وتعكس آراؤه عن الشرق الأوسط آراء مرشده وصديقه ريتشارد بيرل وتستمد جوهرها أيضا من ولاته القتالي لإسرائيل ولسياساتها الأكثر تطرفا تجاه الفلسطينيين. أدان إبرامز اتفاقيات أوسلو ودعا فيما بعد إلى إزاحة ياسر عرفات عن رئاسة السلطة الفلسطينية وصادق على حصاره داخل مبنى المقاطعة في رام الله الذي احتجز داخله لمدة شهرين.

وعلى الرغم من الدور القيادي الذي لعبه في تشكيل سياسة إدارة بوش للشرق الأوسط، فإن إبرامز لم يتلق أى تدريب مهني رسمي في دراسات الشرق الأوسط. يعتبر نموذجا معياريا للمستولين السياسيين من ذوى الإلهام الأيديولوجي والذين أرشدوا الأجندة الأجنبية للبيت الأبيض بعد ٩/١١. كان إبرامز دور مفتاح أثناء سنوات بوش في «تصنيع الإجماع» لعسكرة الولايات المتحدة وتدخلها في الشرق الأوسط بترويجه معتقداته الأيديولوجية التي تصور الأنظمة العربية بصفقتها أنظمة

منبوذة تشكل تهديدا دائما للديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ترويجها من خلال قنوات الإعلام الخلفية. قد يقال إن الاختلافات غير الخافية فى درجات التعصب للصهيونية بين إبرامز وزكريا تعطى مصداقية لحقيقة أن مجالس السياسات الخارجية «اللاحزبية» تمثل طيفا من الآراء المختلفة وبخاصة فى عصر أوباما. بيد أنه، فى واقع الأمر، فإن مثل هذه الاختلافات تمنح قوى جذب أكبر لزكريا حيث تظهر آراءه النيوليبرالية والكراهة للعرب محسوبة وحريصة بالتقابل مع آراء إليوت إبرامز غير المتوازنة.

مجموعات وضع الاستراتيجيات وهيئات الخبراء:

شبكات زكريا أكثر اتساعا وخبثا من شبكات برنارد لويس، حيث يلعب دورا بارزا ومرثيا فى تشكيل الثقافة السياسية الأمريكية، وفى الإعلام كما توضع عدة برامج حوارية يقوم فيها بدور المضيف وأحدثها برنامج الأسبوعى بشبكة سى إن إن المسمى «الميدان العام الكوكبي». وكما سنرى، فعلى الرغم من أن لويس يُبقى على صلات فى مراكز السلطة لكنه، وبشكل أساسى، مصدر للخبرة يلجأ إليه المحافظون الجدد واليعين الموالى لإسرائيل، متغما كان يحدث بخاصة أثناء إدارة بوش. وعلى حين أن صلة زكريا بتلك الجبهات ذاتها، ليست على نفس القدر من الحميمية التى تتيح له تقديم الإرشاد والمشورة الأيديولوجية، إلا أن زكريا من جهة أخرى، يتقاسم الطاولة مع نخب السلطة والسياسيين الموجودين على قوائم مراكز الأبحاث واللجان وغيرها من المنظومات التى تناولناها بالتقاش. وفى واقع الأمر، فإن براجماتية زكريا تمثل نقیضا «مثالية» لويس من حيث تعصب الأخير فى موالاته لإسرائيل.

من الجدير بالاهتمام أن زكريا ولويس لا يُبقیان فقط على عضويتهم فى المؤسسات التى تشكل سياسات الولايات المتحدة، بل أيضا فى أقوى تنظيمين دوليين أى «اللجنة ثلاثية الأطراف» و«مؤتمر بيلدربرج». وإذا تحینا جانبا نظرية المؤامرة، فإن اللجنة ثلاثية الأطراف هى المناظر الدولى لمجلس العلاقات الخارجية من حيث الجوهر، أنشأ اللجنة دايفيد روكفلر عام ١٩٧٣ وكان هدفها المحدد «تبنى تعاون أوثق بين

مناطق العالم الصناعية الديمقراطية الرئيسية التي تتشارك مسئوليات القيادة في النظام الدولي الأوسع». يتقابل أعضاؤها سنوياً كمجموعة، وأيضاً بشكل منفصل في مؤتمراتهم الإقليمية. علاوة على ذلك فهم يقومون بنشر أوراق بحثية سياسية مؤثرة مثل «الاشتباك مع إيران وإقامة سلام في الخليج الفارسي». إن الأسلوب الدوري الذي تتبعه اللجنة في العضوية والقيادة يعمل على إشراك أقوى السياسيين ورجال الصناعة والصحفيين والمصرفيين ورجال المال والمسؤولين العسكريين السابقين والأكاديميين على مستوى العالم في المسئولية. من المهم أن نبين أنه على الرغم من أن «اللجنة» تعترف بـ «الاستقلال المتنامي» للأمم، فلا يوجد أي فرد أو بلد عربي في عضويتها.

زكريا، ورنارد لويس ومعهم أكاديميون مُسيّسون آخرون من أمثال الراحل صمويل هنتنجتون وفرانسيس فوكوياما وجوزيف ناي أعضاء في «اللجنة». ثمة عديد من أعضاء مجلس العلاقات الخارجية يشاركون في عضوية «اللجنة» بمن فيهم برجنسكي الذي هو في واقع الأمر عضو مؤسس لـ «اللجنة». من بين الأعضاء الآخرين جيمى كارتر وجورج إيتش. بوش وبيل كلينتون وديك تشيني وبول وولفويتز وهنري كيسنجر، وبرنت سكوكروفت، وويليام كوهين، ولورانس إنجلبرجر ودايڤيد جرجن، ومعهم حفنة من السناتورات النافذات المعادين للمسلمين مثل توم فوللي، وديان فينستاين وچاك دانفورث. وفيما يُجزم دائماً أن «اللجنة ثلاثية الأطراف» تسعى لإقامة «حكومة عالم واحد»، فما علينا سوى النظر إلى بياناتها الصريحة كي نفهم أن مهمتهم هي الحفاظ على هيمنة الشمال المتقدم على البلدان المتخلفة من خلال حملات «عصف المخاخ». يسمون هذا الحفاظ على «القيادة» الدولية للبلدان المتقدمة في أمريكا الشمالية وأوروبا وآسيا من أجل أن «تظل المرتكزات الرئيسية للنظام الدولي الأوسع» فيما تأخذ «في الحسبان التحول الدراماتيكي في النظام الدولي» في وقت فيه «القوة [في سبيلها] للانتشار على مساحة أوسع»، وعلى الرغم من كل السرية التي تحيط بها اللجنة ثلاثية الأطراف «مهمتها، فإنها تبدو على قدر

كبير من الموضوع: الحفاظ على هيمنة الغرب الاقتصادية والسياسية وفى هذا الصدد فإن لويس وزكريا قد أسهما بما لديهما من «خبرة» لتيسير هذه المهمة.

وفى واقع الأمر، فقد كانت اللجنة ثلاثية الأطراف قد انبثقت من منظمة أخرى مغلفة «خاصة» نخبوية اسمها «مؤتمر بيلدربرج» - أسميت على اسم الفندق الهولندى الفاخر الذى عقد فيه أول اجتماع لها عام ١٩٥٤ - تجتمع مرة كل عام من خلال توجيه الدعوات فقط. اهتمام مؤتمر بيلدربرج المعلن هو توطيد العلاقات بين صناع الرأي، والكوربوريشنات، والحكومات من أجل إبقاء الغرب على قمة الهيمنة الرأسمالية. وبالإضافة إلى لويس، ظل كل واحد من زملاء زكريا من أعضاء مجلس مركز العلاقات الخارجية بين الأشخاص المائة والثلاثين الذين يُدْعَوْنَ إلى مؤتمر بيلدربرج. فى عام ١٩٧٩، حضور لويس المؤتمر وعرض نظريته عن «قوس الإسلام» وبلقنة الشرق الأوسط. تم ذكر حضور لويس لعدد من مؤتمرات بيلدربرج، ومن بينها ذلك الذى عُقد فى أعقاب عاصفة الصحراء عام ١٩٩١، ومؤتمر عام ٢٠٠١، على موقع المؤتمر الإلكتروني إلا أنه من الصعب تأكيد حقيقة حضوره إذ إن مُنظِمى بيلدربرج يحرصون على سرية قائمة المدعوين ولا ينشرونها إلا فى الأوقات التى تناسبهم. تتضمن القائمة الرسمية لمن حضروا المؤتمر عام ٢٠٠٩ شخصيات أمريكية بارزة من بينها بول وولفويتز، وريتشارد بيرل، وريتشارد هولبروك، ودايفيد روكفلر، وروبرت زوليك رئيس البنك الدولى والمدير السابق لمركز الدراسات الدولية والاستراتيجية CSIS، وكونداليزا رايس مستشارة الشئون الخارجية وعضو مجموعة أسين.

فى عام ٢٠٠٣، حضر زكريا الاجتماع المغلق بفرنسا الذى كان قد اقتصر على شخصيات من الذكور الغربيين ومعهم كثير من أعضاء المجالس واللجان المذكورة سالفاً بمن فيهم كيسنجر، وريتشارد هاس من مركز العلاقات الخارجية وعضو الكونجرس اليميني تشاك هايجل والصحفى توماس فريدمان. عقد ذلك الاجتماع فى مايو بعد أسابيع معدودة من بدء غزو العراق. تم تمثيل إدارة بوش، والصناعات النفطية، وكبار الشخصيات الإعلامية جميعهم فى ذلك المؤتمر. كان من بين المدعوين

الأخرين شلة ديك تشينى وپول وولفويتز وريشارد پيرل وچون بولتون، ومعهم بارونات النفط والإعلام والمصارف من أمثال دايفيد روكفلر، ورئيس شركة شل جيرون فان درشير وأندرز إلدروب رئيس الشركة الهولندية وكونراد بلاك، عملاق الإعلام ومالك صحيفة جيروسالم پوست المحافظة. وحقاً، فإن أحد أساليب فهم تلك المنظمات والمجالس والجمعيات، ناهيك عن المؤتمرات على شاكلة بيلدربرج، هو النظر إليها بسذاجة على أنها تنظمات مهنية تقام من أجل تجميع الأفضل والأكثر ذكاء فى محاولة لحل مشكلات العالم، فى حين أن الأسلوب الآخر، فهو رؤيتها بصفتها تنظيمات مؤامراتية. أما نحن، فنرفض بشدة نظريات المؤامرة التى تعتبر بيلدربرج واللجنة ثلاثية الأطراف مجموعات نخبوية ضمن فريق أوحده يحكم الكوكب. الأخرى أن مؤتمر بيلدربرج الذى عقد عام ٢٠٠٢ يوضح كيف تتجمع النخب الرأسمالية الكوكبية من أجل تشارك الاستراتيجيات ووجهات النظر حول كيفية الحفاظ على هيمنتها على الأسواق الكوكبية، وبخاصة أسواق الصناعات المهمة مثل الصناعات النفطية، وعلى قيادتها للسياسة العالمية وبخاصة فى أوقات الأزمات الكوكبية. بتعبير آخر فإن هذه المجموعات والمجالس هى تحديدا ما تصرح به عن نفسها. إن هذه المؤتمرات السنوية، واللقاءات التى تعقد فى المنتجعات والمعازل هى التى يلتقى رجال السلطة، والنخب الاقتصادية من أجل استباق التحديات الوشيكة لقبضتهم هم والدول الصناعية الكبرى على السلطة ووضع الاستراتيجيات لمجابهة ذلك. وحسب ما جاء فى بيان اللجنة ثلاثية الأطراف، فإن المجموعة تنوى أن تتداول «الأفكار المشتركة والقيادات للبلدان الأعضاء فى اللجنة (ومعهم المنظمات الدولية الرئيسية) والتى ظلت الدعائم الأساسية للنظام الدولى الأوسع». أو، وحسب ما جاء فى بيان صادر عن «بيلدربرج» فإن الاجتماعات هى «نقاش، ليس للنشر، حول موضوعات لها أهمية راهنة، بخاصة فى مجالات الشؤون الخارجية والاقتصاد الدولى». وعلى الرغم من الاختلافات المعترف بها فى مواقف الدول الغربية وتجاربها، فإن أعضاء المؤتمر يتفقون حول حاجة الدول المتقدمة للخروج برؤية موحدة حول الأمن والتنمية الكوكبية

بقولهم «تظل ثمة حاجة واضحة لتطوير مزيد من الفهم يمكن من خلاله الموازنة بين تلك الاهتمامات المختلفة».

وبوضوح تام، تستخدم تلك المؤتمرات، وورش العمل، والاجتماعات، سواء تلك التي ترعاها مجموعة أسين، أو الأخرى الأكثر تفصيلا وتحقيدا كذلك التي يرعاها بيلدريج، آليات تقنية تتبادل من خلالها تلك الشخصيات الأفكار، وتنسق الأساليب اللوجستية التي تنفذ بواسطتها تلك المخططات. بيد أنه، ومن أجل أهداف هذا الكتاب، فإننا نفهم تلك المجالس والمنظمات والمؤسسات، والمجموعات المنبثقة عنها، واقعيًا بصفقتها أخويات تتداول فيما بينها تفاهات ونماذج معيارية تشكل أساس السياسة الاقتصادية الخارجية للولايات المتحدة والعالم المتقدم، وبخاصة في الشرق الأوسط. فعلى مدى العقدين الآخرين، غدت النماذج المعيارية للإسلاموفوبيا، والمعادية للعرب دعائم للمدركات والسياسات المنبثقة عن تلك التجمعات. ليست شبكة نخب السلطة التي تضيء الشرعية على برنارد لويس وتريد زكريا وتمنحهما حق التحدث باسمها، ليست فريدة من نوعها أو حتى منذرة في حد ذاتها. بل يمكن القول إنها ليست ذات أهمية محددة. تتيج هذه الشبكات «النقاشات» و«تبادل الأفكار» التي تعمل على تطبيع النماذج المعيارية الأيديولوجية. لا يُعد المشاركون مولدين لتلك النماذج بقدر ما هم موظفون مهمتهم الأساسية مراجعة منظومة الروايات التي تجعل عددا من السياسات المحددة ممكنة. يعمل «المفكرون» والصحفيون ممن يشاركون في تلك المجموعات، مثل لويس وزكريا على إضفاء الاتساق والمنطق على تلك الروايات، وعلى انتشار تلك النماذج المعيارية ومنحها مظهر المصداقية الفكرية. سيبين الفصل التالي أنهما ليسا محدثين لأية فكرة أو نموذج (بخلاف ليوستراوس، مرشدهما النيوليبرالي مثلا). الأخرى أنهما يقومان بتجميع تنوعات من التوجهات الفكرية، والخطابات، والنماذج المعيارية التي تُداول في أوساط النخب السياسية والاقتصادية للبلدان المتقدمة، والمواقف الأيديولوجية وينظمانها على شكل روايات يمكن استخدامها مرتكزات أيديولوجية توضع حولها الاستراتيجيات التي تضمن طول عمر القوى المهيمنة.

لا يمكن التقليل من قيمة إسهام زكريا في الخطاب العام الذي أحاط بالحرب على الإرهاب التي تبناها بوش حيث إنه كان مروجاً مرئياً لسياسات بوش ودعا إلى تغيير الأنظمة منذ الأيام الأولى لإدارته. لزكريا مكانه الراسخ في شبكة من مراكز الأبحاث، والجمعيات، واللجان، والمنظمات التي تتشارك في مواقف برجماتية تحدد توجهات الاستراتيجيات التي تضمن الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة على العالم. بيد أن واقعية زكريا مشبعة بقدر مفرط من الإسلاموفوبيا الخصبة التي توظف لربط السياسيين البرجمائين من أمثاله بدعاة الإسلاموفوبيا المثاليين من أمثال برنارد لويس. أمد موقع زكريا داخل الشبكة المعقدة من الشخصيات والمؤسسات النافذة «الواقعيين» و«البرجمائين» من الحزبين، برواية توضح ضرورات تغيير الأنظمة في الشرق الأوسط. وفي هذا الصدد، جمع زكريا بين البرجماتية والمثالية الأخلاقية، وبين التوجهات المحافظة القديمة وتوجهات المحافظين الجدد.

شبكة برنارد لويس المؤسسية:

فيما أنه قد يكون لزكريا المكانة المهيمنة في التيار السائد، وفي شبكة نخب السلطة والقوة، يحتل برنارد لويس القمة في أوساط المستشرقين الجدد ودوائر المحافظين الجدد اليمينية والجماعات الموالية لإسرائيل في أمريكا الشمالية. وعلى حين أن هذه الشبكة قد تكون أصغر [من شبكة زكريا] إلا أنها أقوى، وعلى حين أنه ليس عضواً في جميع المجالس أو اللجان التي يتمتع زكريا بعضويتها، إلا أن رفاقه المقربين الذين يشاركون في توجهاته الأيديولوجية هم غالباً من قادة تلك المؤسسات والمنظمات أو من المشاركين فيها. في نهاية التسعينيات، وأثناء سنوات بوش، كانت أية إحالة إلى أعمال لويس المشبعة بالإسلاموفوبيا تعتبر دلالة على الثقافة الرفيعة في إعلام التيار السائد والدوائر اليمينية وجماعات النشاط.

يمكن الأخذ بكتابات وأقوال ريويل مارك جرتشت شهادة على حضور لويس القوى بين مجموعة المتعصبين الأيديولوجيين التي أُطلق عليها فيما بعد اسم «الفلاكنة». في عيد ميلاد لويس التسعين كتب جرتشت مقالا تم تداوله على نطاق واسع يطرى فيه

على لويس بعنوان «آخر المستشرقين». كان جرتشت، العميل السابق بالسي أي إيه، والمدير السابق لبرنامج الشرق الأوسط بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت. كان أيضا تلميذا للويس. مارس ضغوطا حماسية على البيت الأبيض من أجل غزو العراق. وكان مع زكريا ولويس ضمن دائرة ولفويتز المغلقة لعصف المخاخ. اكتسب شهرة بعد تصريح لاقى راجا إعلاميا حول إيران في برنامج قرانت لاين بتلفزيون PBS، حيث قال «أحد الأسباب التي من أجلها يريد الإيرانيون الحصول على أسلحة نووية هي أن الإرهاب موجود في دناهم DNAs».

وفيما لا يمكن اعتباره مؤهلا للحكم على الأعمال الأكاديمية، إلا أن هذا الجاسوس السابق على إيران يرى عن صواب أن للويس تأثيرا حقيقيا على دوائر القرار الداخلية. يقول في مقال له إن «كتابي [لويس] الموجزين اللذين صدرا في أعقاب ٩/١١ وكانا على قائمة أفضل المبيعات - «أين الخطأ؟» و«مازق الإسلام» - «لعبا دورا في مساعدة كبار مسئولى الإدارة على فهم أفضل للسياق التاريخي للمسلمين المتطرفين الذين اعتنقوا الإرهاب وسيلة للتعبير عن عقيدتهم». ثم يمضى جرتشت ليمتدح المدى الواسع لتأثير لويس:

«إن مقالاته الإبداعية عن النزعات القتالية الإسلامية بدوريات أطلنطيك مانثلي، وفورين أفيرز، وكومنتري ونيوريبابليك وجدت طريقها إلى داخل مؤسسة السياسة الخارجية.. وربما يمكننا القول إن كتابات لويس الحملة بظلال المعاني عن الديمقراطية في العالم الإسلامي، ومعها طلبته السابقون وأصدقائه العديدين قد ساعد على تبلور فهم الإدارة الآخذ في التطور سريعا لسياسات الشرق الأوسط وعقيدته بعد ٩/١١».

لا يجوز التقليل من دور لويس بصفته الوجه الأكاديمي لإدارة بوش. بيد أنه علاوة على ذلك، فقد كان للويس أثر كبير من خلال تقديمه رواية تاريخية وثقافية واجتماعية مهمة مكنت بوش/ تشينى من تأليف ترنيمتهم عن الحرب مهتدين بسطورها، وسنقوم في الفصل الثانى بفحص روايته ومعها رواية زكريا فيما يكتفى هذا الفصل بتوضيح

حقيقة أن لويس لم يكن شخصا على قائمة الانتظار مثل فؤاد عجمي وغيره من الأقل الأهمية الذين لا يصلحون سوى للاستشهاد بهم على أحابيل جماعة المحافظين الجدد السرية التي كانت قد استولت على واشنطن، ذلك لأن لويس كان جزءا عضويا من تلك المجموعة ذاتها.

ومثلما شارك زكريا في دورة «عصف المخاخ» التي قادها وولفويتز بعد ٩/١١ للترويج لغزو العراق، شارك لويس في ورشة عمل في نوفمبر ٢٠٠٢ بعنوان «العراق: استطلاع ما بعد صدام». كان حضور لويس لتلك الورشة عن العراق متوقعا إذ إن من نظمها كانت هي مجموعة المحافظين الجدد، والشلة الموالية لإسرائيل التي قامت بكتابة ورقة بنيامين نتانياهو البحثية بعنوان «القطيعة التامة Clean Break» عام ١٩٩٦، والتي تشكل منها أيضاً «مجلس سياسات الدفاع الخاص بالعراق» وعمل أعضاؤها مستشارين خارجيين للبنتاجون لمساعدته على صياغة سياساته؛ كان قادة هذا المجلس ومنسقو ورشة العمل هما ريتشارد بيرل ودوجلاس فيث مساعد وزير الدفاع السابق، وفيث، مثل بيرل، صهيوني يميني شهير، أسماه الجنرال تومي فرانكس، الذي كان آنذاك قائد قوات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط «أغبي رجل على الكوكب». يذكر تقرير ورشة العمل المؤلف من ست صفحات أن تلك المناسبة التي استمرت يومين «جمعت بين أكثر من سبعين أكاديمياً، وخبيراً، وممارساً، لمناقشة تحديات ما بعد التدخل والتي تواجه صناع السياسة في العراق». كانت هذه الورشة من بنات أفكار تشيبي نفسه بنفس القدر الذي كانت به من إبداع مجموعة إندرو كارد وكارل روف من البيت الأبيض الذي، وكما يبين توماس ريكس، كان بحاجة لتبريرات لغزو العراق لا يستطيع سوى الأكاديميين و«المثقفين» توفيرها.

خطاب المعلم ورؤية التلاميذ:

لويس صديق قديم لپول وولفويتز وريتشارد بيرل وأيضا لزملاي خليلزاد، وفي واقع الأمر، فقد اعتبر بيرل لويس مرشده في شئون الشرق الأوسط، أثناء سنوات بوش، كان البروفسور يتباهى بأنه قام بزرع لاعبين مفتاح في وزارة الدفاع والبيت

الأبيض، وكان بين هؤلاء هارولد رود الصهيوني المتعصب وصنيعة لويس وصديقه الحميم، عمل رود محللاً مقيماً لـ «الإسلام» بوزارة الدفاع أثناء أكثر أيام إدارة بوش قتامة، ويقرر البعض أن مكالمات هاتفية أجراها لويس مع بيرل ضمنّت تعيين رود في ذلك المنصب بوزارة الدفاع. وفي وزارة الدفاع، عمل رود عن قرب مع دوجلاس فيث ودايفيد ويرسمر للتخلص من المتخصصين غير المؤهلين الموجودين بالمناصب المفتاح بالوزارة والإتيان بأمثالهم من المعادين أيديولوجيا للعرب والمسلمين الذين يتوقع منهم أن يقوموا بالتخطيط لإعادة ترتيب مراكز القوة في العالم العربي بدءاً بتشكيل عراق جديد. كان قد تم تعليق إخلاء طرف رودس الأمني في التسعينيات وذلك للاشتباه في أنه قام بتمرير أسرار إلى إسرائيل، كما قام الإلف بي آي بالتحقيق معه عام ٢٠٠٤ لنقله معلومات عسكرية سرية للغاية إلى الموساد.

بيد أن رودس ليس سوى لاعب واحد فقط في شبكة أوسع من عملاء المحافظين الجدد السياسيين، واللوبيات، ومراكز الأبحاث التي كانت تشكل شبكة مجموعة بوش السرية. غير أن دور لويس في تلك الشبكة لم يبدأ في أعقاب ٩/١١، الأخرى أن علاقته بحركة المحافظين الجدد ترجع إلى ثمانينيات القرن الماضي حينما تصدى نيابة عنهم لتشويه سمعة إدوارد سعيد، وكان هذا بالطبع جزءاً من حملة أوسع ضد سعيد الفكر والناشط الفلسطيني الأمريكي البارز. بحلول التسعينيات كان لويس قد تحالف مع وولفويتز. وغيره من البارزين في دوائر القرار الداخلية بعد أن قام الشاب، ريتشارد بيرل «بتقديم الرجل الإنجليزي [لويس] إلى تلك الجهات بواشنطن»، حيث تعرف لويس في تلك الدائرة على عدد من الشخصيات القوية المحافظة الموالية لإسرائيل والتي شكلت فيما بعد «شلة» بوش. لم يتركز وضع لويس في مجموعة وولفويتز/ بيرل على البيزنس فقط بل على حقيقة أنهم كانوا يتشاركون في تعصب أيديولوجي عام. عبّر عمق الروابط بين لويس وهذه المجموعة وولائه لها عن نفسه حينما تولى البروفسور دورا قياديا في لجنة الدفاع عن «سكويتر ليبي».

في عام ٢٠٠٧، منح ذا أمريكان إنتربرايز إنستيتيوت لويس جائزة إرفينج كريستول مما يقطع بالعلاقة الحميمة بينه وبين أعلى مستويات صنّاع السياسة، كان

من بين من منحوا هذه الجائزة قبله روبرت بورك، وديك تشيني، وچين كيركباتريك، وصقر المحافظين الجدد مايكل ثوفاك، ومرشد المحافظين الجدد نورمان پودهورتز، ورونالد ريغان، كان جرتشت، وريتشارد بيرل وچون بولتون من بين أصدقائه وتلاميذه السابقين الذين حضروا مراسم الاحتفال، كما ألقى ديك تشيني، نائب الرئيس، الخطاب الرئيسي. أوضح تشيني، فى معرض تكريمه لويس، إعجابه به بصفته المرشد الأخلاقى لنهج البيت الأبيض تجاه الحضارات، ونص تحديداً على أن:

«برنارد لويس يعرف عظمة الحضارة الإسلامية.. كما أنه، مثل أى شخص موجود آخر، يفهم طبيعة الصراع الحالى بين الحرية والخوف، بين العدالة والقسوة. كما يدرك أن الحرية ليست محنة - إنها حق لرجال ونساء فى نصف العالم البعيد عنا، مثلما هى حق لنا. وبما أن الصراع القديم من أجل التحرير والمساواة يتجدد مرة أخرى فى زماننا، سنستمر فى الاعتماد على أسلوب تفكير برنارد لويس الصارم».

فى خطابه هذا، ومثل خطاباته الأخرى، يحدد ديك تشيني بوضوح رواية لويس عن الحضارات التى سنتفحصها فى الفصل التالى بوصفها مصدر سياسات البيت الأبيض فى المنطقة.

الأهم من صداقته لولفويتز، أو دوره الإرشادى بالنسبة لبيرل، هو أنه قد نتج عن تداوله داخل تلك الدوائر علاقة مع ديك تشيني، بدرجة أن بوب وودوارد قال عن لويس إنه «أحد المفضلين لدى تشيني». داتما ما لجأ نائب الرئيس إلى لويس طالبا المشورة، ومثل عجمي، كان يسميه «صديقا». وفى واقع الأمر، فحينما اختبأ تشيني فى الأسابيع التى تلت ٩/١١، ذهب لويس عدة مرات لتناول العشاء معه بمفردهما فى «مواقع سرية». لم يوفر لويس لتشيني وشبكة المحافظين الجدد، والصهاينة، والمعادين للإسلام فقط الرواية التى تبرر التدخل، بل أمدهم أيضا بتبريرات ملزمة أخلاقياً للعسكرة، والإمبريالية، بل ولحرب صليبية جديدة.

دائما ما استخدم الصيت الذى يتمتع به لويس، وبأسلوب روتيني، لدعم السياسات التى كان عقل نائب الرئيس قد تفتق عنها بالفعل. مثلاً، اتبع تشيني اقتراح لويس

القديم بأنه ينبغي أن يكون للولايات المتحدة منفذ دعاية قوى فى العالم العربى من أجل نشر رسالة البيت الأبيض «الحقيقية» ولجابهة المدركات الخاطئة عن الديمقراطية الأمريكية. تحدث تشينى فى خطاب له بمعهد هيدسون المحافظ عن حاجة الولايات المتحدة للوصول إلى نخب البلاد العربية وجماهيرها. وقال إنه «تحدث إلى برنارد لويس فى هذا الموضوع تحديدا»، ذاكرا انعدام الحرية فى المجتمعات العربية، الأمر الذى يؤدى إلى التمثيل الخاطئ للولايات المتحدة فى الشارع العربى. ثم أضاف تشينى «إنه بليغ مقنع فى هذا الشأن. وأنا أوافقه. أعتقد أن مشاكلنا الكبرى فى الماضى كانت تتمثل فى غياب التدفق الصريح الصادق للمعلومات على شعوب هذا الجزء من العالم»؛ وقال بتوافق مع لويس «علينا الاستمرار فى تنفيذ هذا بعدوانية شديدة. نحن بحاجة إلى حملة معلومات عامة نشطة تبرز ما نفعله، وتوضح أهدافنا وغاياتنا وأغراضنا هناك». ولهذا الهدف، عمل لويس كمحك واضح موثوق بالنسبة لتشينى الذى كان يشارك لويس الرأى حول الحاجة لتحرير العرب من حكامهم الطغاة، ومن جهلهم، ووافقه أيضا جمهور «الخبراء» الذين كانوا حاضرين، والذين تمت استشارتهم فيما بعد حول سياسة الشرق الأوسط.

فى نفس الوقت الذى كان فيه عجمى ولويس يتسلمان جوائز اندولة، كان ديك تشينى، نائب الرئيس، يستشهد بلويس أمام معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، وهو مركز أبحاث موالٍ لإسرائيل كان يتمتع بقدر كبير من النفوذ على إدارة كلينتون. حذر تشينى ذلك الجمهور، المكون فى غالبيته من الديمقراطيين، من أن عليهم التعلم من أخطاء الماضى. وهنا، وفرت شخصية لويس ومشورته منبرا يتوحد حوله مسئولون من أمثال دتيس روس، وديك تشينى ويلتقون. ذكر تشينى الجمهور بأحد مزاعم لويس الشهيرة فى التسعينيات حيث كان قد صرح بأن الولايات المتحدة كانت تدفع ثمن أحد إخفاقاتها فى الماضى، وهو إخفاق عزاه لويس إلى نقطة ضعف مأساوى فى السياسة الأمريكية - أى موقفها الذى يبدو متساهلا تجاه الشرق الأوسط. رأى لويس أن سياسات الولايات المتحدة الخيرة فى الشرق الأوسط أثناء الحرب الباردة

قد فهمها المتطرفون العرب والأنظمة العربية المارقة على أنها نقاط ضعف! أقنع ضبط النفس الذي مارسته الولايات المتحدة في الماضي إزاء الإرهابيين هؤلاء المتطرفين بأنها متساهلة متراخية، بالتقابل مع السوفييت وحلفائهم في المنطقة الذين حفزت وحشيتهم مشاعر الاحترام. كان الدرس واضحاً على الرغم من عدم التصريح به: لا يفهم العرب سوى لغة القوة.

خطاب مفتوح للرئيس كلينتون:

في عام ١٩٩٨، تمت دعوة لويس للمشاركة في «لجنة السلام والأمن في الشرق الأوسط». كانت اللجنة من بنات أفكار «مركز الدراسات الأمنية» برئاسة فرانك جافنى ولم تكن فلسفة هذا المركز المعلنة «السلام من خلال القوة» مجرد شعار للقوة العسكرية بل عقيدة مفادها وجوب الحفاظ على قوة أمريكا القومية واستخدامها كما يجب، وذلك لأن لها دوراً كوكبياً فريداً في الحفاظ على السلام والاستقرار في جميع الأنحاء». وكعضو في هذه اللجنة وقّع لويس على التماس يدعو الرئيس كلينتون للإطاحة بصدام حسين. كان من بين الأسماء الموقعة على الالتماس وفقاً لترتيب توقيعاتهم، دونالد رمسفيلد، بول وولفويتز، دوجلاس فيث، وريتشارد آلان الذي أصبح مستشار الأمن القومي، وزلماي خليلزاد الذي أصبح سفيراً، ومايكل لدين من الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، ومارتن بريتز رئيس تحرير دورية نيوريانليك، وروبرت باستور مساعد الرئيس كارتر الخاص، وماكس سينجر من مشروع القرن الأمريكي الجديد ومعه دايفيد ويرمسر الذي كان آنذاك زميلاً بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت.

نقد الالتماس سياسة الاحتواء التي اتبعتها كلينتون (وكان قد أطلقها جورج بوش الأب)، ودعا الموقعون إلى العسكرية الفاعلة للسياسة الخارجية بالشرق الأوسط قائلين: «إن ما نحتاجه الآن هو استراتيجية سياسية وعسكرية شاملة للإطاحة بصدام ونظامه». تأتى الوثيقة بمخطط شديد التحديد لإثارة القلقة السياسية بالعراق - وهو مخطط اتبعه بحذافيره فيما بعد جورج بوش الابن. ينص الخطاب على أن الخطوة

المبدئية ينبغي أن تكون «الاعتراف بحكومة مؤقتة في العراق.. تأسيسها قيادات مجلس العراق الوطني INC». وفي واقع الأمر فقد كانت السى أى إيه هى التى أنشأت ذلك المجلس حيث كان جورج بوش الأب، وبعد غزو الولايات المتحدة الأولى لمنطقة الخليج، قد كلف السى أى إيه بمسئولية إنشاء جبهة معارضة تتبنى الإطاحة بصدام. ويدورها، قامت السى أى إيه بالتعاقد مع رندون جروب، وهى وكالة علاقات عامة مشبوهة للاستشارات الاستراتيجية، لإنشاء حكومة ظل عراقية فى المنفى. لم يكن المجلس يشكل معارضة مستقلة بقدر ما كان هيكلًا تنظيميًا استخدمته السى أى إيه فى الحرب الدعائية ضد صدام حسين. نسقت رندون جروب أنشطته، والمناسبات التى كان يقيمها، وعضويته وبياناته بواسطة فرانسيس برووك مستشارها فى الشرق الأوسط، والذي عمل مستشار «علاقات عامة» للجلبى وكان يرافقه دائما. ودُشِنَ ذلك المجلس بالتنسيق مع حملة دعائية جماهيرية تم شنّها من خلال منافذ إعلامية ومواقع علاقات عامة عديدة بمصادقة من وزارة الدفاع والسى أى إيه، وتضمنت هذه الحملة إنشاء قناة «الحرّة» التلفزيونية والإذاعية العراقية الفضائية.

وفى هذا الصدد، تم استخدام الالتماس الذى وقعه لويس وأصدقائه من الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت بالترادف مع البرنامج الدعائى للسى أى إيه. كان الالتماس صريحا بشأن الخطوط التى تلى ذلك. بعد الاعتراف بالمجلس الوطنى العراقي، لابد للإدارة الأمريكية أن «تعمل على توسيع مساحة المناطق المحررة من العراق من خلال مساعدة حملة الحكومة المؤقتة الهجومية ضد نظام صدام حسين لوجستياً ويوسائل أخرى». تضمن هذا الدعم «شن غارات جوية منهجية ضد دعائم سلطة صدام - وحدات الحرس الجمهورى التى تسانده والبنية الأساسية العسكرية التى تبقى عليه». وفى النهاية، نص الالتماس على أنه ينبغي «على الولايات المتحدة موضوعة تجهيزات قوات أرضية فى المنطقة بحيث تكون لدينا القدرة، وكملجأ آخر، على مساعدة القوى المعادية لصدام فى شمال العراق وجنوبه، وحمايتها».

يوضح هذا المخطط كيف وفر الأكاديميون من أمثال لويس مظهرا من المصادقية

لمجموعة الصقور القتاليين الذين كانوا ينادون بإعادة ترتيب الشرق الأوسط منذ تسعينيات القرن الماضي. ثم بدأ موقع الالتماس ومهندسوه في تنظيم أنفسهم في «شلة» أيديولوجية عملت فيما بعد أساساً لإدارة بوش الابن. أتاحت التسعينيات الفرصة لهؤلاء العملاء السياسيين، ومقاتلي الحرب الباردة السابقين، والصهاينة المتعصبين، وصقور الحزبين، والصحفيين المؤدلجين والأكاديميين المارقين، أتاحت لهم تشكيل سياسة خارجية أمريكية تقوم على أساس هيمنة الولايات المتحدة المطلقة. نجم عن الالتماس الموجه للرئيس كلينتون إصدار مشروع قانون «تحرير العراق» عام ١٩٩٨ الذي ينص صراحة على التزام الولايات المتحدة بتقديم المعونة العسكرية واللوجستية والإنسانية من أجل «الإطاحة بنظام صدام حسين عن السلطة في العراق وإحلال حكومة ديموقراطية محله». ثم وقع الرئيس كلينتون على مشروع القانون ليصبح قانوناً نافذ المفعول. الأهم من ذلك، فقد أُدمج في الالتماس موقف أيديولوجي تم الدفع به إلى مركز السياسة الخارجية للولايات المتحدة. مثل هذا تنسيقاً ناجحاً بين شبكة من العلاقات من مراكز الأبحاث والوسائط الإعلامية والقوى السياسية والتي كان لها أن تؤكد على ضرورة اتباع سياسة «الصدمة والترويع» الموجهة ضد العالم العربي مع صعود بوش.

لا بد من الاعتراف بالروابط المباشرة بين كل هؤلاء وبين لويس بصفته المنشئ الأصلي لهيئة الخبراء تلك. يمكن أن يُعزى صعود البروفسور إلى مركز الصدارة في التيار السائد إلى حقيقة ترسخ موقعه في شبكة المحافظين الجدد والموالين للصهاينة من المحركين والمخططين بأكثر حتى من زكريا وعجمي. كان الارتياح الخبيث في المسلمين والعرب مبدأ أيديولوجياً مركزياً في شبكة المحافظين الجدد في التسعينيات وفي إدارة بوش. وفر لويس رواية أيديولوجية أكاديمية تبدو مثالية ومؤسسة على الوقائع في أن تمكّن المحافظين الجدد والصهاينة الأمريكيين من تعليق بغضهم وكراهيتهم عليها.

شبكة خروب بوش:

فى ١٩ سبتمبر ٢٠٠١، عقد دونالد رمسفيلد، وپول وولفويتز، وريتشارد بيرل الاجتماع الأول من بضعة اجتماعات «عصف بالمخاخ» دينامية وفاعلة تبحث كيفية الرد على أحداث ٩/١١. بنهاية الاجتماع الأول كان الرد على ٩/١١ قد تقرر من قبل هذه المجموعة وثيقة الترابط من مؤدجى المحافظين الجدد: لابد من شن «حرب على الإرهاب»، وستكون عادلة بقدر ما هى واسعة المدى وطويلة الأمد. ستكون أيضا متعددة الشعب تبدأ فى أفغانستان، وتقوم بتغيير النظام عسكرياً فى العراق، وتعيد هندسة القوانين المدنية والجناثية فى الداخل الأمريكى من أجل القضاء على الإرهاب الإسلامى. كان الاجتماع استمرارا لجلسات سرية تامة ممتلئة عقدتها تلك المجموعة من المنظرين منذ سقوط بوش الأب. كُتب الكثير والكثير عن هذه المجموعة وعن كيفية حدوث انقلاب قادة الفلاكنة أثناء سنوات بوش. وفيما أن الفلاكنة كانوا يعتمدون بانتظام على اجتذاب شخصيات من وزارة الدفاع والإعلام، والأكاديميا، ومراكز الأبحاث، وهيئات صناعة السياسة، إلا أنهم كانوا «شلة» هدفها استمالة الرئيس، وتشكيل شرق أوسط جديد وسياسات داخلية جديدة، وكانت فى نفس الوقت، تعمل بوضوح وصراحة على استبعاد مسئولى وزارة الخارجية.

وعلى حين استبعد كولن پاول، وزير الخارجية، من هذا الاجتماع، ذكرت بعض التقارير أن زكريا ولويس وفؤاد عجمى لم يستبعدوا، بل إن لويس، فى واقع الأمر، لعب دورا مركزيا فى الاجتماع الذى تحدى فيه رمسفيلد المستشارين والمسئولين الذين ملئوا الغرفة لاستباق الأساليب التى بها سيحتج المجتمع الدولى والمشهد السياسى الداخلى على غزو العراق. كان على الحضور تدبر أساليب لاستباق المقاومة الداخلية والدولية لسياسات البيت الأبيض وحرفها عن مسارها. تجزم بعض التقارير بأن لويس كان هو قائد هذا الاجتماع فى معية صديقه الحميم أحمد الجلبى العميل العراقى الطموح.

كان الجلبى مصرفيا سابقاً وأستاذا للرياضيات، أدين فى إحدى وثلاثين جريمة

اختلاس وسرقة وتزوير في الأردن. بدأ ارتباط الجلبى بلويس في ذات الوقت الذي كانت السى آى إيه قد قامت بتشكيل المجلس الوطنى العراقى، كان الجلبى اختيار بيرل وولفويتز لـ «القائد المستقبلي» فى العراق، وذلك منذ أن قدم لهما مرشدهما اليمينى سيء السمعة ألبرت وهلستتر ذلك العراقى الأليف المدلل. قام وهلستتر أيضاً بتقديم الجلبى للويس الذى غدا أعلى دعاته مكانة ورفعة. يقول ريتشارد بوليت الأكاديمى المرموق إنه كان ينتظر أن يصبح الجلبى أتاتورك العراق. إلا أنه فى واقع الأمر فقد كان دجّالاً، وعميلاً لدى حكومة الولايات المتحدة وانتهازياً يعمل لمصلحته الخاصة وقام بالتسلل إلى داخل الدوائر المحافظة فى أعقاب «عاصفة الصحراء» من خلال تيسير إقامة العلاقات بين المجموعات الكردية والبنجابيون. كان المجلس الوطنى العراقى هو المجموعة «المعارضة» التى دفعت بها حكومة الولايات المتحدة وصنعتها. وعلى الرغم من تخلى إدارة بوش عن الجلبى، إلا أن لويس ظل حليفه ونصيره. وفى واقع الأمر، استمر البرفسور المتقاعد يدعو لـ «الحكم الذاتى» فى العراق أثناء سنوات بوش كرد على حالة الفوضى التى أتى بها الغزو. بيد أن لويس كان يعنى، بوضوح، حكماً ذاتياً يقوده الجلبى الذى قال إن بإمكانه أن يقود العراق بحرص نحو الديمقراطية لكن ليس «قبل الأوان». ليس من قبيل المفارقة أن الكثيرين على الجانبين النقيضين، بمن فيهم هيلارى كلينتون، وزيرة الخارجية الحالية، صادقوا على دعوة لويس لإقامة «حكم ذاتي» بالعراق، وأن السناتور ليبرمان، والسناتور بوب كرى دعما إصدار قانون يؤيد المجلس الوطنى العراقى.

بعد يوم واحد من الاجتماع سيئ السمعة الذى عقده وولفويتز بالبيت الأبيض، تم نشر خطاب إلى «الرئيس» فى صحيفة النيويورك تايمز يدعو إلى استهداف حزب الله بصفته منظمة إرهابية خبيثة، وممارسة الضغوط على السلطة الفلسطينية لوقف الهجمات على إسرائيل، ويضغط من أجل «إزاحة صدام حسين عن السلطة» حتى بالرغم من عدم وجود صلة بينه وبين هجمات ١١ سبتمبر. وعلى الرغم من دورهما المركزى فى النقاشات إلا أن الجلبى ولويس لم يوقعا على الخطاب. الأخرى

أن الخطاب نُشر برعاية مركز الأبحاث اليميني «مشروع القرن الأمريكي الجديد». تضمنت التوقيعات على الخطاب أسماء ستتكرر كثيرا في هذا الكتاب: ريتشارد بيرل، جين كيركباتريك، فرانك جافني، رويل مارك جرنشن، ويليام بنت، جفرى بل، فرانسيس فوكوياما، نورمان بودهورتز، وتشارلس كراوثرام. وعلى الرغم من التيار التحتي القوي داخل مجلس وزراء بوش الداعي إلى الإطاحة بصدام حسين وتنصيب الجلبى حاكما «ديموقراطيا» إلا أن الرئيس رفض مقترحات الخطاب حيث إنه لم يكن ثمة قرائن قوية على وجود علاقة بين صدام حسين والإرهاب الدولي - أو على إمكانية وجودها.

عمل فشل الفلاكنة، ولويس وزكريا وعجمي والجلبي في إقناع البيت الأبيض بشن حرب على العراق على بدء سلسلة من الأحداث أكثر شهرة انتشرت بسهولة وسط جو الذعر والإسلاموفوبيا في أعقاب ٩/١١. كان رفض الرئيس بوش لخيار الحرب على العراق وتفضيله شن الحرب على أفغانستان حافزا لولفويتز كي يسعى لفبركة قرائن على امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل ووجود علاقة بين صدام حسين والقاعدة، وفي واقع الأمر، فلم يعدل الفلاكنة ولويس وزكريا عن مسعاهم للإطاحة بصدام، وتنصيب عميل تابع مرزى يحابى المصالح الأمريكية ويطبع العلاقات مع تل أبيب، كان هذا المسعى قد ظل نشطا قائما منذ انتهاء عملية عاصفة الصحراء. ظل لويس يتبع لقاءاته مع الفلاكنة بنشر مقالات رأى متتابعة في الصحف الأكثر انتشارا وبخاصة في دورية وول ستريت. لم تكن تعليقاته مجرد تهليل يؤيد توجهات بوش العسكرية في الداخل وفي الشرق الأوسط، بل كانت ضرورة أيديولوجية. فإلى جانب بثه الحجج المشبعة بالإسلاموفوبيا التي يستند إليها في نقاشاته من أجل تبرير السياسة الخارجية أكاديميا، فقد كان المقصد من تعليقات لويس بث الذعر بين الجمهور الأمريكي بصفته أكاديمياً ذا مكانة راسخة في مجال دراسات العالم الإسلامي، وأستاذا بجامعة برينستون، حيث مضى يحذر الأمريكيين من المغبات المحتملة إذا فقدت الولايات المتحدة العزم على مواصلة ما لا بد وأن تصبح حربا كوكبية طويلة على

الإرهاب، حربا كوكبية من أجل بقاء «أسلوب حياتنا». وبالمثل، كان الهدف من مقالات لويس تركيز بؤرة الانتباه على العالم العربي، وممارسة الضغوط على الفلسطينيين، وأهم من هذا كله إبقاء أنظار الأمريكيين مركزة على رعاية صدام حسين له الإرهاب» ضد إسرائيل وعلى التهديد الذي يمثله على الأمن الإقليمي (النقطي).

خوادم عجمي: عربى أبيض بالبيت الأبيض:

على الرغم من فشل اجتماع ١٩ سبتمبر، ثابر وولفويتز وشركاه فى جهودهم لتحقيق رغبتهم التى تمنونها منذ وقت ليس بالقصير لتغيير النظام بالعراق. وفيما عملت وزارة الخارجية وعلى رأسها كولن باول على تعويق أحابيل المحافظين الجدد من أجل اجتياح العراق، مضت شلة رسمفلد / بيرل/ وولفويتز فى عقد اجتماعاتها السرية (التي أقصيت عنها وزارة الخارجية). أخذوا يصدررون أوراقا بحثية سياسية ومبادرات أساسها الخوف من وجود عراق قوى، وحركة مقاومة فلسطينية قتيية، وحزب الله مهيب الجانب، ومنظمة القاعدة الغيروسية. استمرت تلك الاجتماعات فى استغلال شبكة الأصدقاء المألوفة فى عالم الإعلام والأكاديميا، والحكومة وصناعة السياسات، فى نوفمبر ٢٠٠١، تأمر وولفويتز، وكريستوفر دموث، رئيس الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت للعمل على تشكيل شبكة لاعبين عابرة لمختلف المجالات والقطاعات لتجميع بورتقوليو عن الحرب على العراق. يبين بوب وودوارد أن وولفويتز عقد اجتماعا للمجموعة بحضور دموث وزكريا ولويس وعجمي. صدر عن الاجتماع بيان سرى مهم نال رضا نائب الرئيس، ومستشار الأمن القومى كوندليزا رايس التى رأت أن رسالته تنقل الطبيعة الشريرة للشرق الأوسط بشكل «مقنع جدا جدا». يخبرنا وودوارد أيضا أن الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت ومدرسة [كلية] چونز هوبكينز للدراسات الدولية المتقدمة (SAIS) يقعان على مسافة قريبة من بعضهما وكانا «منبرا لكثير من التلقيح التهجينى.. وأن الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت كان الملتقى الفكرى ومأوى المتقاعدين من محافظى واشنتون»: كان دموث صديقا قديما لولفويتز منذ أن كان هذا الأخير عميد SAIS بچونز هوبكينز.

ليس من قبيل الصدف أن نجد فؤاد عجمي أحد ملامح SAIS الدائمة وأرزقيا قديما في الدوائر السياسية. وفيما أننا لن نقوم بتفحص أعماله في هذا الكتاب، إلا أن أهميته ترجع إلى كونه مخبرا محليا [من الشرق الأوسط] وأكاديميا خبيثا مارقا منذ زمن طويل. وفي واقع الأمر، فقد جذب عجمي الانتباه على المستوى القومي كمعلق بتليفزيون CBS مع دان راذر أثناء حرب العراق الأولى، حيث أيد بصراحة ذلك الغزو، بل وشجع بوش الأب على المضي في الحرب حتى يصل إلى بغداد و«ينهى المهمة». في عام ٢٠٠٧، أسس مع لويس «جمعية دراسات الشرق الأوسط وإفريقيا» ASMEA والتي قُصد بها تجنب جمعية دراسات الشرق الأوسط MESA الأكاديمية المهنية ذات المكانة الرفيعة. وفي واقع الأمر، لم يتمتع عجمي أو لويس بالمصداقية أو المؤهلات التي تتطلبها MESA وذلك لضعف خلفيتهما الأكاديمية في هذا المجال علاوة على أنشطتهما السياسية من أجل إسرائيل وعسكرة الولايات المتحدة وأيضا مواقفهما العنصرية التي لا تتزعزع ضد العرب والإيرانيين والأرمن. وبالتقابل مع MESA، فإن مهمة ASMEA كانت «تنشئة جيل جديد من الباحثين والأكاديميين» والمتعاطفين مع إسرائيل ومع سياسة الولايات المتحدة الخارجية. ومنذ نشأتها، لم تتعد كثيرا كونها هيكلًا خارجيًا يؤوي الأكاديميين اليمينيين، والمتطرفين المواليين لإسرائيل. يضم مجلسها الأكاديمي جورج شولتز وزير الخارجية الأسبق ورئيس شركة بكتل سابقا، وكنت ستاين المدافع عن إسرائيل والذي استقال من منصبه كرئيس لمركز كارتر حينما اتهم الرئيس الأسبق الدولة الصهيونية بممارسة التفرقة العنصرية. كما أن عجمي «صديق حميم» لولفويتز ويقال إنه كان «مستشارا» لكونداليزا رايس.

وعلى الرغم من أن أعماله لا تحوز الاحترام في الأوساط الأكاديمية المتخصصة في الشرق الأوسط، فقد ضمن له موقعه في SAIS مكانة جيدة في أوساط صناعات السياسات، ومقعدا في مجلس مستشاري دورية فورين أفيرز، وهيئة تحرير ميدل إيست كوارترلي وهي دورية يصدرها مركز الأبحاث البارز الموالي لإسرائيل «ذا

ميدل إيست فورام». كثيرا ما كان ديك تشينى وكونداليزا رايس يذكران اسم فؤاد عجمي، بأسلوب مقصود يوحى بالعفوية، بصفته مرجعية في الشرق الأوسط، وكإحالة أكاديمية من أجل إضفاء المصداقية على سياسات بوش الفاشلة. بل إن تشينى في أحد خطبه أحال الجمهور إلى آراء عجمي من أجل تبرير الاجتياح الوشيك للعراق، الأمر الذي أحدث فضيحة مدوية شائنة.

وفي سنوات زواء إدارة بوش، كان اسم عجمي يُسمَع كثيرا في إجابات مسئولى البيت الأبيض حينما كانوا يُسألون عن التقدم الذى يحرزه الأمريكيون في العراق وإمكانية مواجهة إيران. مثلا، صرح تونى سنو، المتحدث الأسبق باسم البيت الأبيض قائلا «كان معنا الجنرال المتقاعد وين داوينج، والجنرال المتقاعد بارى مكفري، ومايكل فيكرز، وأمير طاهرى وفؤاد عجمي، ورعد القادري» في الاجتماع حول العراق وإيران. وحقا، فليس من النادر عقد مثل تلك الاجتماعات بين البيت الأبيض، ومسئولى البنتاجون رفيعى المستوى وشلتهم. منذ عقود، اعتادت وزارتا الدفاع والخارجية دعوة المتخصصين في مختلف المجالات من جميع التوجهات السياسية لطرح تحليلاتهم عن مناطق معينة، وللسياسات والأحداث. بيد أن إدارة بوش أنهت عصر المتخصصين في دراسات العالم العربي، أو «المستعربين» وهو مصطلح كان محل قدح من قبل كثير في الإدارة ومن المحافظين الجدد والحركات الأمريكية الصهيونية. وبدلا من ذلك اعتمدت إدارة بوش على المسئولين الذين نسّقوا تسليح السى أى إيه للمجاهدين مثل فيكرز، و«المعلقين» المنحدرين من أمثال طاهرى أو الأكاديميين المارقين المزيفين من أمثال عجمي. وفي هذه المناسبة بالذات استند سنو إلى تفاؤل عجمي بشأن الغزو والاحتلال وأطرى عليه، ثم استشهد بزيارات البروفسور للعراق ولقاءاته بآية الله العظمى على السيستانى كبرهان على أن الأوضاع على الأرض كانت أخذة في التحسن. ومن المفارقات الساخرة أن زيارة عجمي تزامنت مع تصاعد مُرَوِّع في أعمال العنف، ومع تحلل المجتمع السياسى والمدنى على أرض الواقع في خريف ٢٠٠٦. تضمّن تدمير الحياة العراقية مقتل أكثر من ألف عراقى من المدنيين في شهر إبريل فقط من العام ذاك.

وفى العام الدموى ذاك، أصدر عجمى كتاباً يطرى فيه على سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، مُركّزا بخاصة على جهدها «النبيل» فى العراق. تزامنت دعايته الصحفية لهذا الكتاب الذى كان عنوانه «هدية الأجنبي» مع تراجع لولبى فى الدعم الشعبى للحرب وما تلى ذلك من تخطيط لـ «الاجتياح» وتنفيذ له. وبما أن عجمى كان على أرض الواقع عميلا حكوميا أثناء سنوات بوش، يمكن للمرء بسهولة فهم السبب الذى من أجله يشير ديك تشينى إلى عجمى بصفته «صديقه الصدوق». وفى الواقع فقد كان صديقا صدوقا لسياسات تشينى طوال سنوات تلك الإدارة. وفى العام التالى، وبعد نشر تقرير بترووس، استشهد تشينى بزيارة أخرى قام بها عجمى للعراق للتحدث مع شيوخ العشائر، والشخصيات الدينية والسياسية، حيث أبلغ جمهوره أن بروفيسوره الأليف المفضل قد أكد له أنه على الرغم من أن «جميع أنواع الضراوة والعنف لم تخدم بعد.. فقد بدأ قدر من النظام يثبت على الأرض» فى العراق.

وبالتقابل مع زكريا البرجماتي، ظل عجمى مخلصا لرعاته من المحافظين الجدد طوال السنوات الأكثر قتامة لإدارة بوش. وفى مواجهة الإخفاقات المتتالية، كان يصر على تذكير الجمهور الأمريكى بأن الشرق الأوسط «بيئة خطيرة»، أجنبية، لا يجوز الثقة به بل يجب التعاطى معه بقبضة حديدية. دعا إلى استخدام «القوة الصلبة» فى الشرق الأوسط، وظل مروجا مخلصا لـ «أجندة الحرية» الكارثية التى ابتدعها بوش. ولذلك، فبمجرد أن أقسم باراك أوباما قسم الرئاسة، مضى عجمى يعلن صاخبا معارضته، بصفته ممثلا للنظام القديم، لسياسة «اليد الممدودة» تجاه العالم الإسلامى التى نادى بها أوباما وذهب إلى أن ذلك الموقف المتساهل يعتبر «تديلا» للطغاة و«طمأنة للمستبدين» واتهم الرئيس الجديد بأنه فشل فى استغلال اللحظة، والاعتراف «بأثر سلفه الثورى على بلاد المسلمين» ناهيك عن الاستفادة منه. فى كتاباته الأخيرة يدعو عجمى أوباما إلى الاعتراف «بالطبيعة المغايرة للبلاد الأجنبية» وإلى استخدام القوة والقمع لدى الحاجة، وعدم تكرار سياسات الاسترضاء التى اتبعتها كارتر.

علاقة عجمى الحميمة بمسئولى البيت الأبيض فى عهد بوش لم يكن يفوقها سوى علاقة معبوده برنارد لويس بهم. وفى واقع الأمر، فإن جون ميرشيمر وستيقن وولت يقرنان اسميهما حينما يذكران أنه يقال إن برنارد لويس من برنيستون وفؤاد عجمى من جونز هوبكينز كان لهما دور مهم فى إقناع تشينى بأن الحرب هى الخيار الأفضل.. يشكل الاثنان ثنائياً يكمل أحدهما الآخر، ودائماً ما يحضران معا نفس المناسبات والاحتفالات الحكومية. أسهما معا فى نفس ورش العمل التى شكلها أعضاء الشبكة الذين جاء ذكرهم فى هذا الفصل، كما مُنح الجوائز من نفس الهيئات الإمبريالية. وفى واقع الأمر، فقد اعترف البيت الأبيض فى عهد بوش بخدماتهما للنظام فى مناسبات عديدة. وفى إحدى تلك المناسبات كانا بين سبعة أساتذة جامعيين تمت دعوتهما لحضور عشاء مع الرئيس بوش احتفالاً بمرور ٤٠ عاماً على إقامة «الوقف القومى للفنون» و«الوقف القومى للعلوم الإنسانية». وحضره ١٢٠ مدعواً. وعلى الرغم من أن تخصص عجمى [العلوم السياسية] ينضوى ضمن مباحث للعلوم الاجتماعية إلا أنه مُنح هو ولويس «ميدالية الإنسانىات القومية» بعد ذلك بعام، وتلقى معهما هذه الجائزة عن العام ذاك هووثر إنسنيتيوت سيئ السمعة - على الرغم من أنه ليس معهداً للإنسانىات أو الدراسات المائتسة- وكذلك مارى لِفكوويتز أستاذة الكلاسيكيات ذات التوجهات اليمينية. وفى واقع الأمر، تكشف قائمة من منحوا الميداليات فى العام ذاك أن تلك الجائزة كانت مكافئة مُسيّسة لا اعترافاً محترماً بالإنجاز الأكاديمى فى مجال الإنسانىات.

الخلاصة:

ليس توجيه الاتهامات والإهانات والمواقف المتعالية بالنسبة للعالم الإسلامى بالأمور المستحدثة. تم دعم الاستعمار وعصر التوسعات بواسطة كتابات شكلت مجلدات ضخمة ضمت أعمالاً تميز وتعرّف وتقيس وترن وتستعزى بالشعوب، شعوب البلاد المستعمرة وأراضيهم. تم توظيف دراسات الشرق، والاستشراق من أجل تشكيل خطابات، وجمع معلومات عن شعوب الجنوب الكوكبي، واستخدامها فى

تبرير الحكم الاستعماري. بيد أنه، وكما أوضح لنا إدوارد سعيد، فإن الاستشراق ليس مبحثاً جامداً لا يتغير، تنامت المعرفة الاستشراقية وتغيرت النماذج المعيارية كي تستوعب الحقائق الكوكبية الجديدة، وبخاصة صعود الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي قوتين عظميين. من المفارقات أنه بمجرد أن بدأ الاستشراق كمبحث يفقد وضعه وتوجهه بسبب كتابات إدوارد سعيد الرائدة حتى ظهرت سلالة استشراق جديدة بدت وأنها قامت على أنقاض النماذج المعيارية القديمة التي كان قد تم تفكيكها.

في أعقاب عاصفة الصحراء (أو حرب العراق الأولى) ظهرت الإسلاموفوبيا كمزيج من تحليلات الاستشراق الأكثر عنصرية واختزالاً. وفيما أوجد الاستشراق متناً من المعرفة الضرورية لخلق مجال للدراسة يتبعه خلق موضوع للهيمنة، انبثقت الإسلاموفوبيا في البداية عن مراكز الأبحاث ومُعلقي دوائر واشنطن المغلقة. ليست الإسلاموفوبيا مبحثاً مثل الاستشراق، ولا تتطلب تعليماً أو تدريباً في مجال اللغات، وفقه اللغة، وتحليل النصوص والتاريخ والأنثروبولوجيا بل هي تشكيل أيديولوجي ينتقل من مراكز الأبحاث إلى جماعات الضغط ومجموعات الفعل السياسي، وفي نهاية المطاف إلى جميع فروع الحكومة الفدرالية، وحكومات الولايات، والحكومات المحلية من أجل العزل المباشر لمسلمي الولايات المتحدة ومسلمي العالم واستهدافهم وشتيتنتهم. ويتواطؤ مع الإعلام الجماهيري، وجماعات المصالح، والمعلقين، والمتحدثين والمرشدين المعلمين، ومركز الأبحاث، يتم تحويل التعليقات الأيديولوجية التوجيهية إلى «تحليلات» وصفية مقبولة بعامة لحقائق ثقافة العرب والمسلمين ومجتمعاتهم ودينهم. في ظل الرؤساء كلينتون وبوش وأوباما، واكب تفشى نماذج الإسلاموفوبيا مستوى جديداً من السياسة الخارجية الأمريكية العدوانية - بل وديبلوماسية المدافع - في العالم العربي. أما في الداخل الأمريكي، فقد وُظفت الإسلاموفوبيا كتبرير أيديولوجي لحرمان عشرات الآلاف من الحريات المدنية، وتكوين ملفات عنهم والاحتجاز غير القانوني لعشرات الآلاف من المقيمين الشرعيين، والتفاؤسي عن اختطاف المشتبه

فيهم وتعذيبهم، وتشريع التجسس على المواطنين الأمريكيين ومراقبتهم والإيقاع بهم؛ وحدث سابقة لاغتيال مواطنين أمريكيين. أصبحت الإسلاموفوبيا مبررا ثقافيا مقبولا لإرهاب المفكرين والباحثين والطلبة الناشطين والإخماد الاستباقي للمعارضة السياسية بالولايات المتحدة، ورغم نهج القفاز المظلم الذي يتبعه أوباما تجاه العالم الإسلامي، إلا أن اتحاد الحريات المدنية الأمريكي ACLU أوضح استمرار سياسات إدارة بوش، ومذكراتها ونماذجها المعيارية بخصوص العالم الإسلامي في ظل الرئيس الحالي، بل أيضا إن إدارته اتخذت الخطوات لإضفاء الصبغة المؤسسية على انتهاكات الإدارة السابقة للحقوق المدنية. ولم يكن لهذا أن يحدث بدون انتشار نماذج الإسلاموفوبيا في أنحاء المجتمع المدني والمجال السياسي بالولايات المتحدة وتطبيعها.

وعلى حين أن الاتهامات التي توجه للعالم العربي والتنميطات عن تخلفه شكلت الأساس التحتي لسياسة الولايات المتحدة الخارجية تجاهه منذ الحرب الأولى ضد البربر في شمال إفريقيا، فقد وسمت الإسلاموفوبيا العرب والمسلمين بالعداء العصابي المتطرف للسلوك الحديث المعيارى. يذهب هذا الكتاب إلى أن مثل تلك المفاهيم ليست من قبيل الصدفة، أو نتيجة فهم مغلوط أو جهل، أو عزلة ثقافية أمريكية أو حتى توجه اجتماعي/ نفسى روتينى لإسقاط الصور السلبية على «آخر» غريب. لقد رأينا أن شبكة المنظرين الكبار للتبريرات القائمة على الإسلاموفوبيا ومهندسيها من أجل توسيع مدى الإمبراطورية الأمريكية تصل عميقا وتتخلل الإعلام وقاعات المجالس، والغرف السياسية التي ترسم سياسة الولايات المتحدة. من ثم، فإن الإسلاموفوبيا ليست تحيزا غريبا أو مسيحيا ذا صبغة عالمية يعتد في الماضى إلى البيزنطيين أو المحاربين الصليبيين. بل العكس هو الصحيح حيث إنها ظاهرة تم ترقيع أجزائها من خلال تنويع من مجموعات المصالح، والتنظيمات، والمجموعات السياسية ثم تم التعبير عنها من خلال عدد وافر من المنظرين المرثيين يدعمهم جدار من ضجيج البيض الذى يصدر عن صغار المثجورين، والهواة، والمتحولين الذين اعتنقوا الإنجيلية والمدونين.

وُضعت «أجندة الحرية» فى التسعينيات بواسطة مزيج مُلقَق من صقور الحرب الباردة، والصهاينة اليمينيين، وعتاة النيولبيراليين القتاليين، ومع صعود جورج دبليو. بوش إلى سدة الرئاسة، تمكن اللاعبون المفتاح الذين توحدوا حول مشروع القرن الأمريكى، والأمريكان إنتيررايز إنستيتيوت، وأيضا مجلس العلاقات الخارجية، تمكنوا من تطبيع مخططاتهم لتتوافق الهيمنة الاقتصادية الأمريكية على الشرق الأوسط مع التحكم الأمريكى السياسى فى المنطقة. وكما رأينا، تأمرت شبكة العلاقات المتداخلة بين المثقفين والإعلام وصناع السياسة وجماعات الضغط لتبرير غزو العراق كوسيلة لسحق «نظام مارق» وذلك من أجل تغلغل المصالح السياسية والاقتصادية للولايات المتحدة فى الواقع السياسى شرق الأوسطى بأعمق مما هى عليه.

تولى باراك أوباما الرئاسة فى وجود واقع كوكبى وإقليمى أوجده نظام بوش. لم ينجم واقع العداء بين الغرب والعالم الإسلامى عن قرون من الارتياح وفقدان الثقة، بل من نشر الإسلاموفوبيا وإضفاء الصبغة المؤسسية عليها كتبرير أيديولوجى لسياسات الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن شبكة أوباما الخاصة استبعدت الكثيرين من شلة بوش إلا أنها مازالت تشارك فى نفس سياسات سابقتها، وهكذا، فقد استمر أوباما، وكما سنرى، فى اتباع السياسات القائمة على الإسلاموفوبيا، وفى تشجيع الظاهرة من أجل تبرير السياسات الداخلية والخارجية، ككف بذلك مناخ الحصار الذى يشعر به المسلمون فى الولايات المتحدة.

يزعم هذا الكتاب أن الإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجى اختصت به «لحظة أحادية القطب»، سنرى أن له تضمينات كثيرة، وتعديلات، وخطابات تحتية تسهل نسقاً من الأفعال والإجراءات الرسمية وغير الرسمية، المشروعة وغير المشروعة، ضد المسلمين داخل الولايات المتحدة وفى أنحاء الكوكب. وعلى الرغم من مدارسها وأطرافها المختلفة، فإنها مدعومة بالعنصرية وبالرغبة فى التحكم فى المعارضة والاختلاف فى الرأى، وإدارتهما. سيرسم هذا الكتاب خريطة لمنحنيات الاستطرادات «المنطقية» للإسلاموفوبيا، وتحولاتها، ليس فى سياق البحث الأكاديمى، بل لتوضيح تأثيراتها

الواقعية الملموسة جدا. سيبين الصلة بين أعمال الأكاديميين الخبثاء النفعيين والمنظرين والمرشدين والصحفيين الانتهازيين وبين سياسات حكومة الولايات المتحدة وإجراءاتها وأنشطة جماعات الفعل السياسي، ومراكز الأبحاث وجماعات الضغط. لا يجوز أن يُعزى صعود الإسلاموفوبيا في عصر العولمة إلى استغلال إدارة بوش لتلك المشاعر الكامنة والجلية داخل الدوائر الإعلامية والسياسية شمال الأمريكية، فإن خوف أوباما الضارى المستتر من المسلمين يدل على وجود أسباب أخرى. لقد ظهرت الإسلاموفوبيا كأيديولوجيا مغايرة مهيمنة وسمت السياسة الخارجية الأمريكية منذ نهاية الحرب الباردة. لقد أوضح هذا الفصل كيف تكمن روابط كبار منظري الإسلاموفوبيا في الثقافة السياسية للولايات المتحدة وفي سماتها السطحية المرئية وكيف ساعدت هذه الشبكة بنجاح على ترسيخ معتقدات الإسلاموفوبيا كحقائق طبيعية متفق عليها يُستند إليها في الأحاديث، وكأطر للنقاش حول الشرق الأوسط وضرورة هيمنة الولايات المتحدة عليه.



نصوب
أحمد ياسين
فونين

@Ahmedyassin90

صحفيون، وأكاديميون أشهر

و«مخبرون» محليون

حصار العقل العربي

مقدمة:

أثناء سنوات رئاسة بوش، توجّه الكثيرون من أفراد دائرته المحكمة الشهيرة إلى الأكاديميين والمحليين كي يمدّوه باللغة التي تبرر استخدام القوة كوسيلة ديبلوماسية، وتُمرّر تنويعاً من السياسات الداخلية التي تهدف إلى تقييد الحقوق المدنية في الولايات المتحدة. يعلّق بوب وودوارد على السرعة التي اجتمعت بها دائرة البيت الأبيض الداخلية لمناقشة مخططات غزو أفغانستان والعراق أيضاً، حيث يقول إن شلة بوش كانت على علاقة بعدد قليل من «المفكرين» العملاء الذين كانت توجه إليهم الدعوات بانتظام لحضور عدد كبير من النقاشات السياسية والاجتماعية السرية في الأشهر التي تلت ٩/١١، بل ولقيادة تلك الاجتماعات أيضاً.

في الفصل الأول، تفحصنا عددا من هؤلاء «المفكرين» ورأينا شبكات نفوذهم المختلفة والمتداخلة في أن التي تُشكّل قنوات اتصال مع الإعلام والسياسيين ومراكز الأبحاث ومراكز وضع السياسات، والحكومة، والتيار السائد. ساهمت أعمال لويس وزكريا وأنشطتهما بدرجة كبيرة في تطوير روايات كان البيت الأبيض ومجموعة الصقور «الفلانكة» بحاجة إليها لكسب أفئدة الشعب الأمريكي وعقولهم من أجل مواصلة «الحرب على الإرهاب» غير المحددة واللامنتهية. وعلى الرغم من إسهامهما، فلم يبتدع زكريا ولويس مدرسة محددة للإسلاموفوبيا أو قصيلا منها. الأخرى أن أعمالهما هي تكليف لنموذجين معياريين ثانويين كانا قد ظلّا موجودين داخل إطار الاستشراق وثقافة التيار السائد الأمريكية العنصرية لعدة عقود. تعكس الشبكتان المنفصلتان والمتداخلتان في أن، واللذان رسمنا كفافهما في الفصل الأول، نماذج معيارية متداخلة ومتنافسة للإسلاموفوبيا تغلغلت في واشتطون، وإعلام الولايات المتحدة، والمجتمع المدني شمال الأمريكي.

ومع غزو أمريكا للعراق و«تحرير الكويت» عام ١٩٩١، غدت الولايات المتحدة بحاجة لنماذج ميعارية أكثر شمولاً وتقبلاً من أجل فهم الشرق الأوسط. كان ذلك هو فجر العالم أحادي القطب. وكانت ثمة وفرة في استراتيجيات السياسات والرؤى الجديدة لدور الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. ولم يكن من قبيل الصدفة أن تبنى كلينتون منظمة التجارة العالمية، ومنظمة التجارة الحرة شمال الأمريكية NAFTA، وكان هذا إيذاناً بوجود حقائق اقتصادية جديدة تواكب الواقع السياسى المستحدث. كان على الولايات المتحدة إعادة تجهيز نفسها أيديولوجياً بحيث يمكنها التعاطي مع «انتصارها» على الشيوعية، انتصارها على منافس أصبح غائباً عن الساحة. ترك هذا الفراغ الذى وجدت فيه الولايات المتحدة نفسها القوة العظمى الوحيدة، ترك معضلات عملية بالداخل حيث عملت «ثورة الجمهوريين» على جرّ التيار الرئيسى الأمريكى نحو اليمين، وأقامت بذلك خطأً قاعدياً يمينياً ذا منحنى أخلاقى بالجهة الداخلية كان له أن يعمل أساساً لدور الولايات المتحدة الاستباقى كقوة هيمنة كوكبية.

سيتفحص هذا الفصل نماذج لويس وزكريا ورواياتهما المتداخلة للإسلاموفوبيا وكيف تعمل هذه الروايات على تطبيع السياسات المحلية والخارجية التي تستند إلى شيطنة المسلمين وتجريدتهم من صفات البشر، وتضفى على تلك السياسات قشرة من العقلانية. وفي نفس الوقت الذى كان كلينتون يفرض العقوبات المعوقة للحياة على العراق ويقوم باجتياح الصومال، ويقصف السودان وأفغانستان، دفع لويس بمفهومه عن أسباب «حق المسلمين» - وهو مفهوم مركزى كانت تستند إليه أعداد لا تحصى من مراكز الأبحاث الليبرالية واليمينية فى التسعينيات. وسرعان ما أصبح لويس أكاديمياً داخلياً لحركة المحافظين الجدد التى كان أفرادها قد التحموا فى تلك الفترة وجمعت هذه الحركة معاً متشددى الحرب الباردة، والصهاينة الأمريكين، واليمين الإنجيلي، والمحافظين الجدد المتطرفين. أمدهم لويس بحجة أخلاقية بعثت من جديد «المهمة الحضارية» التى كان الاستعمار الأوربي قد ابتدعها، وذلك على شكل صيغة إلزامية ملحة تحدّد بوضوح ضرورة تزايد تدخل الولايات المتحدة عسكرياً واقتصادياً وسياسياً. ويلا ريب فإن رواج حجة لويس أنبثق عن نفس الدافع القومى الذى دفع بـ «ثورة الجمهوريين» الأخلاقية إلى النجاح فى نفس الفترة.

وإذا كان لويس قد قام بتوفير السبب «النبيل» للسياسات الداخلية والخارجية القائمة على أساس الإسلاموفوبيا فقد قام زكريا بتبرير الضرورة السياسية لتقديم الإرشاد للعرب المسلمين والدفع بهم خارج «الاختلالات الوظيفية» التى تتسبب فيها ثقافتهم ومجتمعهم. دعم عمله بدوريتى الفورين أفيرز ونيوزيك دوره فى صفوف قيادات المفكرين المحافظين حيث تعاطت أعماله مع القضايا الداخلية والدولية. وإن كان لويس قد وفر القشرة الأخلاقية والفكرية للإسلاموفوبيا التى تفجرت فى أوساط التيار الرئيسى فى أعقاب ٩/١١، فقد وفر زكريا رواية صحفية «واقعية» توضح «لماذا يكرهنا» المسلمون. تضع كتابات زكريا مسألة اللبلة [التحرير] الاقتصادية فى وسط المسرح، وبحسب ما يذهب إليه، فإن السبيل الوحيد لتقدم العرب وتحديث مجتمعاتهم (ويعنى بهذا تحرير التجارة والحريات المدنية وحقوق المرأة) هو أن

يعتمدوا أنظمة مستنيرة غير ليبرالية. وفيما سار «معلمه السابق» صمويل هنتنجتون على نهج لويس حينما طرح فكرة عدم اتساق الثقافة الإسلامية مع نظيرتها الغربية وتصارعهما وشيك الحدوث، قلب زكريا هذا النموذج المعيارى رأسا على عقب حيث يطالب بأن تتخذ الولايات المتحدة والغرب إجراءات سياسية واقتصادية وعسكرية تدخلية استباقية بما فى ذلك تغيير الأنظمة - من أجل «نشر» الديمقراطية وتعزيزها وتنفيذ «الإصلاحات». يرى أنه ينبغي أن تدفع تلك الإجراءات إلى السلطة بحكام مستبدين موالين لأمريكا، أو تخلقهم فى حالة تغيير الأنظمة، حكام يستطيعون إدخال تلك الإصلاحات الاقتصادية ومكافحة «الإرهاب الإسلامى»، حيث يرى أن التحرير [للبرلة] الاقتصادية سيأتى، فى نهاية المطاف، بالإصلاح السياسى الذاتى. وهكذا، أمد زكريا البيت الأبيض بالكثير الروايات وضوحا لتبرير «أجندة الحرية» أو مهمة فرض الحضارة.

الذرائع الأكاديمية للإمبراطورية: برنارد لويس

كما رأينا، كان لويس المتحدث الأكاديمى لجماعة المحافظين الجدد. وذلك تحديدا بسبب رابطة البروفسور الوثيقة مع صهاينة واشنطن المتشددى فى ثمانينيات القرن الماضى وتسعينياته. فى مناسبة رعاها «مجلس الشؤون العالمية» أثنى ديك تشينى نائب الرئيس على لويس بصفته حكيما يسعى من فى السلطة لتوسل مشورته السديدة. قال تشينى «كتب لويس فى عام ١٩٩٠ «جذور غضب المسلمين وحقنهم» الذى تنبأ فيه بالأعمال الإرهابية التى وقعت فى ذلك العقد. «وفى قرننا الجديد هذا، يسعى صناع السياسة والديبلوماسيون وزملاؤه الأكاديميون، والعاملون بالإعلام الإخبارى، يوميا، إلى تلمس مشورته الحكيمة». وإلى جانب «مجلس الشؤون العالمية» رعا تلك المناسبة «صندوق پيو الخيرى» و«صندوق جلنميد»، وكان كلاهما يتبعان ملاك شركة صن للنقط. وإضافة إلى تشينى، وهنرى كسينجر وجودى وودراف من سى إن إن، وإيان هيرسى على من «المخبرين المحليين»، فقد حضر المناسبة جوزيف بايدن الذى أصبح نائبا للرئيس.

يعتبر مفهوم «غضب المسلمين» مجازاً ملائماً إذ إنه تفسير يحمل شكاواهم فى «بيتة» صوتية واحدة بحيث يبدو استيائهم من الولايات المتحدة بغضا عميقا متأصلا ورد فعل لا عقلانيا، مصدره أوجه قصور دينهم ومجتمعهم التى تحتّمها ثقافتهم. ليست رواية لويس نظرية تأمر هامشية عفا عليها الزمن كان يتم تداولها فى الدهايز الضيقة لمراكز أبحاث المحافظين الجدد وفى عقولهم، ثم يعهد بها إلى إدارة بوش، بل إنه ومنذ وقت قريب، أى فى عام ٢٠١٠ أشار توم بروكاو إلى «جذور غضب المسلمين» بصفتها عقبة كنود تستدعى صياغة «نموذج معياري» جديد من جانب الولايات المتحدة لدى تعاطيها مع العالم الإسلامى. من السهل على المرء أن يفهم سبب جاذبية مقال لويس: «غضب المسلمين» لشخصيات على شاكلة ديك تشينى ومجموعته من دعاة الحروب ومدمنيها، فعلى حين لم يرد بالمقال ما هو جديد، إلا أنه أتاح لصناع سياسة القرن الحادى والعشرين أطروحات معيارية جدلية معادية للمسلمين جاهزة للاستخدام فى الهجوم عليهم، بل يمكننا القول إن المقال واستخداماته المفرضة يعدّ نموذجا لجدوى أعمال لويس فى صياغة سياسات الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، حيث لا تكمن فاعلية تلك الأعمال فى قيمتها الأكاديمية أو تحليلها الثاقب للمنطقة، بل فى قدرتها على إضفاء مظهر أكاديمى خادع على عدد من التوكيدات الاختزالية والتبسيطة بل والمتطرفة فى عنصريتها التى تسوغ الأجندة الأمريكية للتدخل السياسى والاقتصادى والعسكرى فى الشرق الأوسط.

يقول لويس، بأسلوب سلس بسيط، ونقاش تبسيطى، إن أسباب غضب المسلمين اللاعقلانية تنبثق عن «تلك الظاهرة الجديدة التى تعمل على إضفاء هالة من القدسية على العالم الثالث.. حيث يقال إن الشيطان [الأفعى] الغربى سلب براءة آدم وحواء اللاغربيين وأفسدهما». لا يعتقد لويس أن أسباب «غضب» المسلمين من الولايات المتحدة تشمل دعمها غير المشروط لإسرائيل؛ ودعم واشنطن «المحدود» للأنظمة السلطوية وانتهاكات حقوق الإنسان، كما أنه لا يرى أن أصول هذا الغضب قد تكمن فى مخططات الغرب للاستيلاء على نفط المنطقة، ناهيك عن التاريخ الأطول

والأشمل للإمبريالية الأمريكية والأوربية فى جنوب شرق آسيا وشمال إفريقيا، وكذلك أنشطتهما الاستعمارية الجديدة. بل إن لويس يرى أنه لا يحق للمسلمين الشكوى من الإمبريالية الغربية، ذلك لأن تاريخ الاستعمار الغربى كان يواكبه دائما مراجعة ذاتية تأملية حول حق مجتمعات الغرب الليبرالية فى استرقاق العالم، واستغلاله وقمعه. وبأسلوب عرضى خارج أى سياق تاريخي، يقول لويس إن المعضلة الأخلاقية المتأصلة فى الاستعمار الأوربي، لم يكن لها وجود أبدا فى تاريخ المسلمين الإمبريالي.

وهكذا يتيح تحليل لويس للمسئولين الحكوميين، والمأجورين الأيديولوجيين تسويفا عقلانيا أخلاقيا لسلب المسلمين حقهم فى التظلم التاريخى أو الحالى من الإمبريالية، والاستعمار الجديد، والهيمنة السياسية والاقتصادية الغربية. وفى مثال كلاسيكى على لوم الضحايا، يعيد النقاش توجيه أسباب غضب المسلمين إلى أوجه قصورهم الثقافى المزعوم، أى أن لويس يقول إن أصول غضب المسلمين وحنقهم تعود إلى مشاعر الاستياء والغيرة والعجز تجاه الغرب الناجع ويرى أن المسلمين، وبأسلوب جوهري، أسرى شرك أوجه قصور ثقافتهم التى تجعل من الحداثة شأنا يتعارض مع «العقل» الإسلامى. وليس هذا بالرأى الجديد إذ إن له أصوله فى إرث الاستشراق الطويل الذى يرجع تاريخه إلى إرنست رنان عميد المستشرقين المعادى للسامية. وإن كان رنان هو الاستشراقى المكتمل الذى أمد استعمار القرن التاسع عشر بالمسوغات الأكاديمية، فإن لويس هو داعية إسلاموقويا الدولة ما بعد الحداثى. يقوم بإعادة تشكيل إرث رنان الاستشراقى ليعمل على خدمة احتياجات ما بعد الحرب الباردة لصناع السياسة والمنظرين والسياسيين الذين ينشئون أساسا «أكاديميا» لتصنيع سياسة أمريكية «استباقية» تخطط لمزيد من التدخل فى المشرق العربى. كما أنه يذهب إلى أن جذور مشكلة «العقل» الإسلامى لا تكمن فى جوهر ثقافات المسلمين جميعهم. ففى واقع الأمر، فلدى صناع السياسة من الحزبين حلفاء مسلمون يعتزون بهم مثل تركيا وماليزيا وإندونيسيا. وهكذا، لا يعود تخلف الإسلام والمجتمعات المسلمة إلى الإسلام ذاته بقدر ما يعود إلى أصوله فى ثقافته لأم، أى، الثقافة العربية.

يعتبر هذا النموذج الإثنى/ الدينى المعيارى مركزيا بالنسبة لأعمال أعداد لا تحصى من المنظرين المرشدين، والصحفيين، وأشباه الأكاديميين من أمثال زكريا، ورفائيل باناي، وتوماس فريدمان ودانييل باييس وغيرهم من «النجوم» الأقل مرتبة على غرار أيان هيرسى على ومارتن كرايمر وإرشاد منجى. وفى السنوات الأخيرة، استخدم صناع السياسة والاستراتيجيون فى إدارة أوباما النموذج الإثنى/ دىنى لإثارة المشاعر القومية الفارسية فى مواجهة الإسلاميين فى الداخل الإيرانى. وفقا لهذه النظرية، فإن «العقلية» العربية هى التى تحدد هوية الإسلام السنى وتعمل الهيمنة العربية على الإسلام على تنامى التطرف فى الثقافات الإسلامية الحميدة بطبيعتها. يقول لويس، بإصرار، إن المجتمع العربى ظل على مدى التاريخ «معتادا على احتقار البرابرة الكفرة خارج تخوم الحضارة الإسلامية» كما يؤكد على أن المسلمين ظلوا على مدى التاريخ ومنذ ظهور الإسلام منذ أكثر من ألف عام، يزدرون «الغربيين الكفرة» ويريدون غزوهم وإلحاق الهزيمة بهم. وعلى الرغم من أنهم أقالوا من إبداعات الغرب التكنولوجية، وبالذات فى مجال صناعة الأسلحة، إلا أن تلك الواردات الثقافية لم يكن لها سوى قليل الأثر على مدركات المسلمين [عن الغرب] أو مواقفهم منه، هذا إن وجد مثل هذا «الأثر». وعلى مدى القرون، ظل المسلمون يحصلون على الأسلحة الغربية ويستخدمونها «دونما أى تعديل فى نظرتهم إلى الكفرة الذين حصلوا منهم على تلك الأسلحة». وبحسب لويس، فقد أثقن المسلمون استخدام التكنولوجيا الغربية وحققوا نجاحا كبيرا فى هذا، لكن هذا لم يرانفه تبنيهم الأفكار الإنسانية والديموقراطية للثقافة الأوروبية، ورأى أن «تبنى مخترعات الكفرة أو محاكاتها شأن، وتعلمهم من معلمهم الكفرة شأن آخر». تعمل مرجعية لويس كمخصص فى تاريخ الشرق الأوسط على تشبع التوجهات المتداولة حديثا بتلك الأفكار الاستشراقية الجازمة التى عفا عليها الزمن، مثلما يعمل وضعه المزعوم كأستاذ «ضليع» فى دراسات الشرق الأوسط على تحويل أفكار الإسلاموفوبيا العقيمة الارتكاسية إلى مسوغات أكاديمية لسياسة الولايات المتحدة التدخلية.

فى التسعينيات تم توظيف مقولات لويس كطوق صلب ربطه عن كُتب بشبكة المحافظين الجدد من لاعبين وتنظيمات ومراكز أبحاث. وعلى النقيض من استخدام أوياما البرجماتى لـ «القوة الناعمة»، استخدم البيت الأبيض فى عهد بوش «مصادقية» لويس الأكاديمية حجر زاوية لتسوينج «أجندة الحرية أخلاقياً»، حيث كان لويس قد حول خلاصة الاستخدامات المجازية الاستشراقية القديمة إلى إسلاموفوبيا أيديولوجية تطورت لتصبح رواية دوجماتية إمبريالية نيوليبرالية وصهيونية استخدمت أداة لتنفيذ أجندة بوش الكوكبية. لكن، علاوة على ذلك، مضى صوته يدوى فى جميع الوسائط الإعلامية للتيار السائد فى رغبة جامحة منه لتبرير عدم ارتياحه الشخصى تجاه العالم الإسلامى وانزعاجه منه. أمدت آراء بروفيسور جامعة برينستون «الأكاديمية» الجازمة الجمهور الأمريكى والإعلام الأمريكى بدعامة أيديولوجية تسوغي هيمنة بلدهم الكوكبية فى العالم أحادى القطب. بتعبير آخر، وفرت تعاليم لويس للخطاب العام تحليلاً سهلاً مهدتاً يعمل على حرف الأبصار عن مغبات سياسة الولايات المتحدة المستدامة فى الشرق الأوسط التى عملت على توليد مزيد من المشاعر المعادية لأمريكا، وأتاحت أيضاً للتيار السائد تسوينج رغباتهم للتحكم فى الشرق الأوسط. من المؤهل لانتزاع الشرق الأوسط خارج سياقاته التاريخية أكثر من ذلك «الأكاديمي» ذى المكانة الراسخة؟ مكنت تلك المكانة لويس من إغفال جميع عوامل التاريخ والمجتمع والثقافة والاقتصاد والسياسة والدين والتى شكل جوهرها خبرة المنطقة بالاستعمار وإغراق المنطقة فى النظام الرأسمالي، وظهور الحركات القومية المحلية أو الإقليمية، وكذلك الحركات الاشتراكية وقياداتها؛ ومغبات الحركة الصهيونية والصهيانية على الفلسطينيين والمنطقة، وكيفية تشكل التضاريس السياسية والاجتماعية الحديثة فى البلدان العربية من خلال ضغوط الحرب الباردة وعواقبها من دفع وجذب. علاوة على ذلك، غدا بإمكان لويس إغفال قرنين من تعاطى البلاد العربية مع الحداثة حيث يقول إنه «بالرغم من كل الجهود، وبالرغم من إنشاء المدارس، وكليات العلوم فى جميع الجامعات تقريباً، فإن استيعاب العلوم الحديثة كان بطيئاً بشكل مؤسف كارثي».

يفسر لويس هذا التقدم الذى لا يكاد يذكر برواية اختزالية بالغة التبسيط حيث يذهب إلى أنه من المستحيل إحداث تغير ثقافى ونفسى وذلك لأن العرب لا يستطيعون مواجهة «الإجابات الحضارية والثقافية» عن الأسئلة والتحديات التى طرحتها الحداثة. كان ذلك الرأى الجازم هو الإسهام الأكثر قيمة فى الأيديولوجيا التى تدعم حجج سياسات الولايات المتحدة الإمبريالية فى الشرق الأوسط، من بين كل ما ألفه من كتب وما كتبه من مقالات واقتراحات صحفية.

وعلى غرار أمثلة رنان، فإن المقصد الدعوى المسيس لأعمال لويس يختزل الأخيرة المطلقة للعقل العربي/ الإسلامى فى جوهر «مزعوم». لكن، بالنسبة لأعماله ما بعد الحداثية وما بعد الحرب الباردة، يحدد لويس سياق تلك «الأخيرة» بعلاقتها بحداثة الغرب التى تروج لـ «مجتمعها المدني» العلمانى الديموقراطى نموذجاً لمجموعة معلومة من البلدان. ظل لويس دائماً يكن ألفة ومودة للنظم المسلمة السلطوية «المتغربة» وبخاصة للنظام التركى الذى يرى أنه حقق التقدم على الرغم من الإسلام وعلى الرغم من جذور هذا الدين فى الثقافة العربية. ظل لويس داعماً طوال حياته للكمالية [الأتاتوركية]: وبدلاً من أن يسائل ذلك النموذج التركى الذى يتبنى «الحداثة» ويتأقلم معها يجد من الأسهل أن ينكر، بصوت مفعّوه، مذابح الأرمن، أو يعارض حقوق الأكراد فى تقرير المصير. يرى لويس أن تركيا نجحت فى احتواء الإسلام داخل أطر علمانية مدنية محددة، وبذلك أتاحت الفرصة للحداثة لأن تتجذر وتزدهر. كانت عدم ملائمة العقل الإسلامى للمفاهيم الحديثة [الغربية] عن الذات والمجتمع والحداثة بشكل كلى وكامل جوهر مقال «الغضب الإسلامى» للويس، المقال المفضل لدى تشيى، والذى استمد منه صمويل هنتنجتون تعبيره الأكثر شهرة، حيث يقول لويس فى ذلك المقال «إن هذا يرقى لأن يكون صداماً للحضارات، رد الفعل اللاعقلانى ربما، والتاريخى يقينا من منافس قديم على مورثنا اليهودي/ المسيحى وحاضرنا العلمانى وعلى انتشار كليهما فى أنحاء العالم».

من ثم، لا ترجع أهمية أعمال لويس إلى فحواها المبتكرة، بل تكمن فاعليتها فى قدرتها على إعادة قولبة المجازات الاستشراقية الجديدة فى صورة نماذج معيارية

جديدة مشبعة بالإسلاموفوبيا تتواءم مع زمن العولمة وسطوة الولايات المتحدة فيه، وفيما قام لويس في التسعينيات بإدماج الإسلاموفوبيا في الرؤية السياسية لحركة المحافظين الجدد، فقد قام أيضا بتوضيح ضرورات استخدام قوة القطب الأحادي لصناع السياسة. علاوة على ذلك، فقد وجدت أطروحات لويس الثقافية أصداء لها في اللاوعي العنصري للأمريكيين البيض باستغلال مخاوفهم من اندماج العالم الإسلامي الأسمر [غير الأبيض] في النظام الكوكبي. ومع أخذ هذا في الاعتبار، يمكن أن نفهم بسهولة كيف أصبح الرد على الغضب الإسلامي الأولوية السياسية في نظر التيار السائد الأمريكي. للعالم العربي وإيران. بتعبير آخر، فإن تبني هتنتجتون في كتابه الشهير لمصطلح «صدام الحضارات» الذي ابتدعه لويس سيتم تقييمه كوثيقة شاهدة على لحظة تاريخية لعب فيها لويس دورا تثقيفيا بأكثر من النظر إلى الكتاب على أنه كتاب عنصري مليء بالأضاليل والأطروحات المغرضة. أي أن أعمال لويس «الأكاديمية» في التسعينيات أصبحت دالة على الحاجة إلى إعادة تشكيل أيديولوجي لوزارتى الخارجية والدفاع في زمن ما بعد الحرب الباردة. لم يخترع لويس فكرة أن العقل العربي نقيض للعقل الغربي العلماني، إلا أنه نجح في التسعينيات في توليد استراتيجية سياسية كان لها أن تزهر أزهارا سامة كان من المفترض لها أن تنتثر لدى أقدام قوات التحرير الأمريكية في كابول وبغداد في زمن بوش.

[مختص] الدراسات الأكاديمية الأيديولوجية:

لا بد من وضع تمسك لويس بالإسلاموفوبيا ما بعد الحداثي التي أسهم في تصنيعها في سياقها. في واقع الأمر، فعلى حين أنه ظل صهيونيا طوال حياته، إلا أن أنشطته السابقة كانت مختلفة عن أجندة ما بعد الحرب الباردة التي دفع بها في التسعينيات وبداية الألفية الجديدة، بل إن أيديولوجيا الإسلاموفوبيا التي اعتنقها كانت تتناقض مع رؤيته السابقة الاستشراقية والعنصرية أيضا لدور الولايات المتحدة في العالم الإسلامي. أثناء الحرب الباردة، شجع لويس غرس الإسلام السياسي ورعايته لمجابهة سلطة السوفييت وانتشار الشيوعية العلمانية في جنوب غرب آسيا

ووسطها. وتحديداً، فقد عُرف عن لويس أنه أطلق مع برجنسكى فى السبعينيات استراتيجية جديدة معادية للشيوعية حيث أكد على أنه ينبغي على الولايات المتحدة رعاية الأصوليين الإسلاميين فى أنحاء آسيا الوسطى وذلك من أجل استيلاء مشاعر معادية للسوفييت، وكان أن أصبح «قوس الإسلام»، الجنوبي هذا، «قوس الأزمة» بالنسبة للسوفييت، علاوة على ذلك، وبحسب ما أصبح يُعرف فيما بعد باسم «خطة برنارد لويس»، كان على الولايات المتحدة التخلّى عن دعمها للشاه، وأن تدعم بدلا من ذلك ناشطى الإسلام السياسى بالداخل الإيراني.

كان مصدر دعم الرئيس كارتر، وويليام كيسى مدير السى آى إيه وبرجنسكى للتيارات الإسلامية، وللمقاتلين الإسلاميين، وبخاصة فى أفغانستان هو ذلك التكافل الثقافى/ الأيديولوجي. كان لمنحنى الأزمة الذى ابتدعه لويس/ برجنسكى أن يعمل على تقويض أساسات المعارضة اليسارية القوية بالداخل الإيراني وأيضا أن يضع الولايات المتحدة فى وضع مُميّز لتصدير الأصولية الإسلامية المعادية للشيوعية إلى وسط آسيا، حيث تم النظر للأصولية الإسلامية بصفتها وسيلة فاعلة لاحتواء انتشار الشيوعية بالمنطقة بما فى ذلك فى أفغانستان حيث كان لحزب الشعب الديموقراطى الأفغانى، فى السبعينيات دعم شعبى واسع النطاق. بعد أن وصل ذلك الحزب إلى السلطة فى السبعينيات، عمل على إدماج النساء فى المجتمع المدنى بشكل كامل وحظر ارتداء البرقع والزيجات الإجبارية، وأطلق برنامجا للتنمية يفيد البلاد بأكملها. بيد أن خطة برجنسكى/ لويس كانت تدعم بقوة اللوردات الإقطاعيين والمجاهدين «الإسلاميين» فى أفغانستان حتى قبل الغزو السوفييتى عام ١٩٧٩، وكان لها استراتيجية تساعد فيها باكستان على تقويض حكومة كابول العلمانية الثورية المناهضة للإقطاع.

وعلى حين أن إسهام لويس فى تشكيل الجماعات الإسلامية المتطرفة، وتقويتها وانتشارها قد تم نسيانه بأسلوب ملائم مريح، فقد ثبت أن إسهامه فى تشكيل نماذج كراهية الإسلام السائدة أطول عمرا وأكثر تأثيرا بكثير. فعلى حين أن أوياما

قد تخطى إلى حد كبير عن ذلك النموذج، إلا أن نظرية لويس عن صدام الحضارات وتحليلاته مازالت تجد طريقها بدرجة لافتة في الإعلام والتيار السائد. وإن كان لويس قد ابتعد عن الأضواء في عهد أوباما، فما زال فؤاد عجمي يدعو إلى نموذج «صدام الحضارات» بحماس كبير، كما تفصح مقالته في دورية نيويورك تايمز بوبوك ريفيو التي تجزم بأهمية تلك الصياغة التي استلهمها هنتنجتون من لويس. يستند مثل هذا الخطاب «الحضارتي» إلى الاختلافات الثقافية، العدائية التي تفصل العقل العربي/الإسلامي عن العقل الغربي ذي التوجهات الإنسانية، وهذا الخطاب الذي تفصل به لويس بكل مرونة وسيولة هو نتاج مائتي عام من الدراسات الاستشراقية. تفحص إدوارد سعيد الكيفية التي ظل بها هذا الخطاب ذاته يتخلل جميع الدراسات الغربية عن «الشرق» طوال قرنين من الزمان. وفي واقع الأمر، فقد تعاطى سعيد مع لويس في عدة مناظرات عامة في الثمانينيات، وكشفه من خلالها بصفته تجسيدا لأكثر أوجه الاستشراق سوءاً، وفضح افتقاده لسعة الاطلاع والتعقيدات التي تميز هذا الموروث. وحقاً، فإلى جانب أوجه قصوره العديدة، فإن أعمال لويس تفتقد الصرامة الأكاديمية، والتحليل النصي المحكم الذي يميز مناهج البحث على أساس من فقه اللغة والتي تبناها الاستشراق. ولا تتمثل مشكلة لويس في أنه ليس استشراقياً متفهماً فقط، بل في أنه استشراقي رديء. وفي واقع الأمر، فإن ذلك التبسيط، وتلك المفاجأة الأكاديمية هما تحديداً سبب وجود أتباع كثيرين له في دوائر صناعة السياسة وإعلام التيار السائد.

مهمة نشر المدنية ما بعد الحداثة:

تتيح الزاوية الحضاراتية - طرح ثنائية التمايز بين الإسلام، والغرب- للويس وأتباعه فرصة لإغفال قرنين من التغيرات الدينامية الاجتماعية والسياسية والثقافية في العالم العربي، مثلما يبرئ خطاب صراع الحضارات بوضوح الغرب من أية مسؤولية عن الأوضاع السياسية والاقتصادية في العالم الإسلامي. علاوة على ذلك، يجد القراء، والمناصرون لتلك الرؤية من السهل تخطي الحاجة إلى التفحص

المتأني للحركات والتنظيمات والفنانين والمثقفين والنشطاء الذين تعاطوا مع الحداثة بأساليب معقدة، فيما مضوا أيضا يتحدثون الأشكال المتنوعة من الإمبريالية الغربية، والاستعمار والرأسمالية ويستبكون معها منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن. وحقا، فإن هذا المستشرق يقول عن خطأ إنه لا يوجد من بين هؤلاء المثقفين أو تلك الحركات من ساط «تلك التمايزات الثلاثة المقدسة التي ترسخ المكانة المتدنية للعبيد والنساء والكفرة». تعاود هذه التيمة الظهور في أعمال لويس بهدف إظهار العرب أناسا غير أسوياء يعانون من رغبة فطرية في الهيمنة على الآخرين، ويتضاعف الميل إلى العنف المتأصل في هذه الرغبة نتيجة الإحباط الناجم عن عدم القدرة المستدامة على النجاح في الهيمنة الثقافية على الآخرين. ويتحدي أكثر، يقول لويس، إن الثقافة العربية يعترها القلق الحاد إزاء تفوق الغرب اللإسلامي والحق على هذا التفوق، ومن ثم يضيف قائلا: إنه «ومنذ وقت طويل ظل هناك تيار متصاعد من التمرد ضد هذا التفوق الغربي ومكانته، ورغبة في إعادة ترسيخ القيم الإسلامية واستعادة مجد المسلمين»، ويرى أن لهذا تضمينات خطيرة من بينها «أن الشر الحقيقي غير المقبول هو هيمنة الكفرة على المؤمنين الحق». ونحن نشهد هنا جوهر أعمال لويس، وتفسيرا لهاجسه المرضى بالجهاد.

وحسب ما يذهب إليه لويس فإن «الجهاد» هو الرد الطبيعي للمسلمين على هيمنة الغرب الكوكبية. تُردد كتاباته بعد ٩/١١، مثل كتابه «من بابل إلى الترجمان» هذه التفسيرات، حيث تحدد المشكلة، على أنها سمة دينية/ إثنية وليست ظاهرة سياسية تاريخية. فإن كان العنف وإخضاع الآخرين خاصيات ثقافية متعضونة في نظرة المسلمين والعرب إلى العالم، تصبح الحرب إذن، في عصر صراع الحضارات هذا، ليست مجرد أمر يمكن تطبيقه عمليا، بل مسئولية أخلاقية. وسيعاود مفهوم الضرورة الأخلاقية التي تجبر الولايات المتحدة على تنفيذ «حرب على الإرهاب» الظهور بعد ذلك في جميع أعمال منظري الإسلاموفوبيا وتحليلاتهم. لكن اللافت بدرجة أكبر هو أن الحجة «الأخلاقية» كانت متوافقة تماما مع مفهوم بوش المخادع عن الديبلوماسية

التي بمقتضاها تشن القوة الإمبريالية حرباً من أجل فرض السلام. وبناءً على ذلك، كان لويس في لقاءاته على العشاء سرا مع تشيني في أعقاب ٩/١١ يحثه بقوة على شن حرب ضد المسلمين، ليس بدافع القلق من وجود أسلحة دمار شامل، بل، وكما أكد لويس لنائب الرئيس، لأن أمريكا بهذا تقاتل حضارة مريضة ينبغي عليها أن تهزمها حتى تستسلم. من ثم، فقد حث تشيني على أنه ينبغي على الولايات المتحدة «المضي قدماً دونما تردد».

تمكن لويس، حرفياً، من السيطرة على أسمع أقوى شخصيات الدولة حيث أمدهم بخطاب حضاراتي أتاح للولايات المتحدة إخفاء سياساتها التخيلية تحت عباءة أخلاقية بحيث تعيد هذه الضرورة الأخلاقية قولبة هذه «المهمة الحضارية» وتجعل منها سياسة خارجية قابلة للتطبيق في القرن الحادي والعشرين، والتي بدورها تعد مبادئ العولمة الاقتصادية والسياسية وأهدافها وألياتها بدعائماً الرئيسة. أيضاً، تُستخدم نغمة الخطاب الحضاراتي الأخلاقية تلك لتوحيد مختلف الأطراف، وهو تأثير مازال يعارس حتى بعد سنوات بوش، حيث نجحت النغمة الأخلاقية التي استخدمت في الدعاية لـ «الحرب على الإرهاب» في توحيد الفصائل المتنافسة في الحياة السياسية، بل وفي المجتمع المدني بالولايات المتحدة. مثلاً، نجحت مسألة قمع النساء في الإسلام، وكما سنرى لاحقاً، في حشد أعضاء الحزب الديمقراطي الليبرالي، والحركات النسوية، الذين اتفقت آراؤهم مع المحافظين الجدد من الحزب الجمهوري، ومع الحركات الإنجيلية. وهكذا توحد الرجال والنساء من الطرفين «النقيضين» على رفض قبول الممارسات «غير الليبرالية» و«المتخلفة» في البلاد العربية— وبخاصة تلك البلاد غير المتحالفة مع الولايات المتحدة. يفسر هذا المنبر المشترك، الذي يتشارك في موقف حضاراتي وأخلاقي واحد، سبب توافق معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، أو معهد بروكينز والذين يهيمن عليهما الديمقراطيون، على نفس الآراء التي يتبناها نى أمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، وغالبية من المحافظين الجدد، حول تدخل الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

ليست النظرية الحضاراتية الأخلاقية مجرد نظرية لا تمارس على أرض الواقع، أو تنحصر في دائرة صغيرة من المنظرين وذوى العقائد المثالية. إن آراء لويس عن الإسلام أبوكالية [تتناغم مع ما جاء بسفر الرؤية] لذا تجد لها أصدقاء لدى الإنجليين وتتوافق مع النظرة السائدة بالولايات المتحدة عن الشرق الأوسط، حيث إنه طرح سياسة الولايات المتحدة بصفتها معركة معادية حتمية بين الشرق والغرب، معركة تحتمها المبادئ الحصرية المتناقضة التي يتبناها كل منهما. يقوم إعلام التيار السائد الأمريكي ببث هذا التحليل في جميع الأنحاء إلى حد تشجيع الجماهير به، بعد صياغته بأسلوب يجعله يبدو وأنه تفسير عقلاني لسؤال «لماذا يكرهوننا؟». كان لويس مصدر كل استشهاد مرجعى استخدمه جميع المنظرين والسياسيين ممن قرعوا طبول الحرب في أعقاب ٩/١١. لم تكن الذريعة التي استخدمت لتسويق «تغيير الأنظمة» لتحظى بإجماع كامل إن لم تكن قائمة على أساس حافز أخلاقى لاريب فيه، وهذا أمد لويس البيت الأبيض برئاسة بوش بالخطاب الحضاراتى الذى يمكن له أن يشكل الأساس الأخلاقى للحرب على الإرهاب «المجيدة»، والتي يمكن لها أن تكون حرباً «كلية» تشمل منظومة من الحروب الفرعية مثل غزو أفغانستان، «وتحرير» العراق، والحرب الداخلية وذلك لأنها حرب من أجل البقاء، حرب ضرورة، وحرب إلزام أخلاقى.

وفيما أكد لنا بوش أنها ليست حرباً على جميع المسلمين، مضى لويس يمدنا بالحجج الأكاديمية ويؤكد لنا أنها يجب أن تكون حرباً على المسلمين جميعهم. لم تركز الأطروحة التي شكلت أساس حرب بوش، على أسامة بن لادن بصفته مسلماً ضالاً منحرفاً، على الرغم من أن بوش، وتشينى ورايس كانوا يقولون هذا أحياناً في خطاباتهم إلى التيار السائد، الأخرى أن التركيز كان على مسلمى التيار السائد وثقافتهم وعقائدهم المنافية، بل والمعادية له القيم الأمريكية». يضمّر هذا أنه لا يمكن النظر إلى غزو أفغانستان والعراق كعمليات معزولة مفردة، بل على أنها تشكل جزءاً من «حرب صليبية» أوسع، إذ إن هاتين الحربين وحدهما لن تجديا في مجابهة الانتشار الفيروسي للإسلام القتالي. بعد ٩/١١، مضى لويس يذكر المرة

تلقوا الأخرى أن ٩/١١ كانت مجرد «إطلاق النار الاستهلاكي في المعركة الأخيرة» بين الإسلام والعالم المسيحي، من ثم، ينبغي أن يكون الرد حرباً على الإرهاب الكوكبي، متواصلة، ومستدامة وأكثر عنفاً، حرباً أهدافها ذات أهمية مركزية بالنسبة «لقيمنا الديمقراطية الجوهرية ولأسلوب حياتنا». وعلى حين أن البيت الأبيض برئاسة بوش، مثل البيت الأبيض برئاسة أوباما، مضى يطمئن المسلمين ويؤكد لهم أن الولايات المتحدة لا تخوض «حرباً ضد الإسلام» فإن البيانات الواضحة لمن في البيت الأبيض، وسياساتهم اتبعت وصفات لويس بأنه ينبغي أن تتضمن الحرب على الإرهاب بالضرورة إعادة تشكيل شاملة للعالم الإسلامي، وإعادة تحديد للعلاقة بين واشنطن والبلاد العربية. وفي حالة عدم إعادة رسم الحدود كما كان لويس قد اقترح في الماضي يجب إجبار العرب على القيام بإصلاحات رغماً عنهم كي يتم قبولهم في مجتمع الأمم المتحضرة.

وفيما أن لويس ليس على وئام مع إدارة أوباما، فما زال مستمراً في الدعوة إلى ممارسة ديبلوماسية القوة في الشرق الأوسط بما في ذلك إيران، حيث يدعو هو وتلميذه ريويل مارك جرتشت الذي عمل جاسوساً بإيران ثم تحول ليصبح محللاً سياسياً، يدعوان إلى رد فعل عسكري ضد أحمدى نجاد وبرنامج إيران النووي المزعوم. وفي واقع الأمر، فقد برز لويس، في السياق الإيراني، شن حرب صليبية كرد فعل أخلاقي على التوجهات التوسعية الإسلامية، وكان قد ألقى هذا الخطاب بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت لدى تسلمه جائزة إرفينج كريستول في حضور ديك تشيني وجون بولتون وهسكوتتره لبي، وريتشارد بيرل. يوضح هذا الخطاب كيف تسمح مكانة لويس الأكاديمية له بالجهر بآراء جازمة ذات منطق خادع مضلل، آراء لو صدرت عن غيره لاستنكرها على الفور الخبراء الأكاديميون وأفقدوها مصداقيتها. ويمحاكاته مروجي الذعر المعادين للسامية، مضى لويس يصور المسلمين، في الماضي والحاضر، على أنهم ظلوا يسعون للسيطرة على العالم. قام، وهو يقوض اللحظات التاريخية ويطمسها، بربط إيران بالحركة الوهابية الأصولية ومبادئها، حيث يذكر

أن أحمدي نجاد لديه «رؤى أبوكالية عن الإسلام» ويحذر جمهوره من أن لهذا الشكل من التطرف الإسلامي - هذا على الرغم من معتقدات أحمدي نجاد الشيعية وتمسكه بالقومية الإيرانية - جذوره في الوهابية السعودية التي تعتبر أكثر الدعوات الإسلامية تشدداً وعنفاً وتعصباً والتي كان قد أسسها محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر وتبنتها الحكومة السعودية مذهباً دعمته الثروة النفطية غير المحدودة. ثم يمضى جازماً فيقول إن «الوهابية بالنسبة للإسلام، تماثل الكلوكلوكس كلان بالنسبة للمسيحية».

ويأسلوب لويس الكلاسيكي المعهود، يطرح حجته بحيث يستطيع القول بكل حسم إن الولايات المتحدة تتحمل مسئولية مواجهة أحمدي نجاد و«طموحه النووي» قبل أن يطرق الإسلام بوابات قيينا مرة أخرى. يترك هذا التحليل للولايات المتحدة خياراً وحيداً قابلاً للتطبيق، خياراً قوياً وأخلاقياً، يقتضى منها الاستمرار في «القمع» الفاعل للتطرف الإسلامي في الداخل الأمريكي كما في الخارج، ومواجهته عسكرياً إذا اقتضى الأمر. وفي نفس اليوم الذي ألقى فيه لويس خطابه ومُنِعَ جائزته، بثت البى بى نتائج «استطلاع للرأي» أجرته بين العراقيين حيث أيد غالبية المدنيين العراقيين شن الهجمات على قوات «التحالف» فيما عارض ٩٤٪ منهم أعمال العنف الطائفية. وبما أن هذا كان هو الوقت الذي جرى فيه انتشار مزيد من القوات الأمريكية «المتدفقة» على العراق رأى حوالى نصف العراقيين المستطلعين البالغ عددهم ألفين أنه كلما زادت الولايات المتحدة من عدد قواتها المنتشرة فستزيد أعمال العنف التي يتعرض لها المدنيون.

اصناف الحصار: فريد زكريا

استشهد أفراد مجموعة «الخبراء» الذين تداولوا لعب الأدوار في دوائر واشنطن بأعمال لويس التي شكلت بالنسبة لهم رواية رئيسية يستشهدون بها على عدم كفاءة المسلمين وبربريتهم وحنقهم العدائى تجاه الغرب. وإذا كانت كتابات لويس لم تظهر في الوسائط الإعلامية اليومية للتيار السائد، فإن اسمه كان هو المرجعية المصدقة

التي استند إليها كبار المتحدثين، والصحفيون، والمنظرون في تنفيذ حملتهم ضد المسلمين. كان يتم تداول ناشطى المرتبة الثانية بين مراكز الأبحاث والبيت الأبيض ووزارة الدفاع، والأمن الداخلي، والخارجية كى يمدوا المسؤولين ببعد حضاراتى للحرب على الإرهاب و«أجندة الحرية»، ثم يتم بث خطابهم بين صفوف صغار مثبى رأى العام ورجال الإعلام المأجورين من خلال المنافذ الإعلامية المحلية والقومية. تقول الرواية إن أصول «الخطر الأخضر» ترجع إلى المدارس الدينية السعودية، أما فى الداخل فإنه يتمثل بنفس القدر فى التنظيمات الخيرية والدعوية مثل مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية CAIR، والذي يعتبره الكثيرون طابورا إسلاميا خامسا فى الولايات المتحدة. كانت هذه الرواية الأداة الأكثر قوة وفاعلية لتبرير عسكرة السياسة الداخلية والخارجية أمام جمهور أمريكى كان يشعر بالصدمة والمرارة والرغبة فى الانتقام بعد ٩/١١.

وفيما كان لويس معلم التيار السائد حول الإلزام الأخلاقى الكامن فى قلب الخطاب الحضاراتى، كان فريد زكريا هو من عبر عن الرواية السياسية لـ «الحرب على الإرهاب» بأكبر درجة من الوضوح والإيجاز، وسوقها داخليا وعالميا. فبالى جانب شعبيته فى دوائر المحافظين الجدد، فقد حطقت شهرته عاليا فى أوساط التيار السائد فى أعقاب ٩/١١ بعد نشر مقاله الشهير «لماذا يكرهوننا؟» الذى دائما ما يتم الإحالة إليه والذي يعتبر نصا تكوينيا فى مجمل الأعمال المعادية للمسلمين والتي بدأها لويس بمقاله «جذور الحنق الإسلامى». يظل مقال فريد زكريا، بالنسبة للإعلام ودوائر واشنطن الداخلية فى فترة ما بعد ٩/١١، التحليل الأكثر أهمية بدرجة بحيث يغطى على محاولاته التقارب مع «المسلمين المعتدلين» بعد رئاسة بوش. بدلا من أن يسأل عن سبب غضب المسلمين الدائم، فإنه يسأل «لماذا يكرهوننا؟» و«لماذا ينبغى أن نهتم؟». ظهرت سلسلة مقالاته فى عدد أكتوبر ٢٠٠١ من مجلة النيوزويك فيما كانت الرضوض النفسية لأحداث ٩/١١ مازالت غضة، ثم تم إعادة طبعها ومعها مقال «كيفية إنقاذ العالم العربى» فى كتاب له بعنوان «مستقبل الحرية». ولد مقال «كيفية

إنقاذ العالم العربي» ردود فعل واسعة في العالم العربي تراوحت بين قبول عام لأفكاره من جانب النيوليبراليين، إلى اشتباك نقدي مع آرائه من جانب المثقفين، إلى إشارات هجومية ساخرة إليها في أغاني المطرب الشعبي شعبان عبد الرحيم.

وبالتقابل مع المنظرين، ومع الصحفيين المشاركين في الحملة المسعورة المعادية للإسلام، فإن زكريا ليس مانحاً أو إمعة تابعا للبيت الأبيض، فقد برهن على أنه لاعب ذكي حصيف، ملتزم دوجماتيا بالتوجهات النيوليبرالية بكثرة من التزامه بالأفكار الخشبية لحركة المحافظين الجدد، هجين يجمع بين الأيديولوجيا النيوليبرالية والمبادئ المحافظة القديمة، وهو أيضا نتاج لمدرسة السياسة الواقعية للحرب الباردة والبرجماتية السياسية. عملت تعليقاته بالنيوزويك على تأييد صناعات السياسة والسياسيين والقراء لها لمدة عقد من الزمان، من ثم، ضمن له ذكاؤه وحصافته وظهوره التليفزيوني النجاح في فترة ما بعد بوش. وفي واقع الأمر فقد سهلت المرونة التي تميزت بها برجماتية زكريا السياسية له التخلص من كثير من آرائه التي كان قد تبناها سابقا عن العالم الإسلامي، وتبنى آراء أخرى في عصر أوباما ويعد أن أصبح وجهاً تليفزيونياً مألوفاً ذا شعبية. لكن هذا الكتاب لن يناقش آراء زكريا المعدلة في برامج السبي إن إن، حيث إن كتاباته المؤثرة أثناء سنوات بوش أكثر أهمية بدرجة أنها وجهت طموحات الولايات المتحدة في تلك السنوات، كما أنها عبرت عن رواية الإسلاموفوبيا البرجماتية حول المجتمع المدني المسلم وسياساته، تلك الرواية التي تعاضمت شعبيتها بمرور السنوات.

نشأ زكريا في الهند ابناً للطبقة العلمانية الاقتصادية والسياسية الحاكمة، وهو مسلم اسمياً فقط، وهذا النسب النخبوي وما يصاحبه من مكانة سياسية أمر يألفه من قضي وقتاً في العالم الثامي. وزكريا نتاج الطبقة البرجوازية الهندية التي تدعو للسياسات الاقتصادية النيوليبرالية وتستغلها وتستفيد منها، وتبناها بصفتها أفضل وسيلة للتنمية والنمو الرأسماليين. لم يتغير إيمان زكريا في زمن أوباما بالطبيعة المسيانية [الدينية] للنيوليبرالية، أما أثناء سنوات بوش فقد تواصت تلك

النظرة بسهولة مع أفكار كونداليزا رايس وسياساتها، بحيث عثر زكريا، في شخص رايس، على تومر روحه. فالاثنتان شخصان نيوليبراليان و«متقفان» من غير البيض، يتحدثان بذكاء ووضوح بلسان السلطة فيما يخفيان انتهازيتهما. تأثر كلاهما، وهما المعاديان للشيوعية ومن صقور الحرب الباردة سابقا، بصمويل هنتنجتون وجوزيف كوريل ويؤمنان به الرسالة الديمقراطية كأساس لشرعة سياسة الولايات المتحدة الخارجية في العالم النامي.

وكوزيرة للخارجية، ومستشارة للأمن القومي، كثيرا ما كانت رايس تستشهد بكتاب «لماذا يكرهوننا؟»، هذا على الرغم من أن الكتاب المذكور لا يعدو كونه مقال رأى تم توسيعه، لكن رايس، والرئيس، ومعهم صناع السياسة والصحفيون روجوا له كبث إمبريقى مرجعى يشكل أساسا للسياسة الخارجية الأمريكية. كثيرا ما أشارت في أحاديثها إلى «مقال نيوزويك الشهير الذى ظهر عنوانه على الغلاف وكتبه صديقى فريد زكريا»، وكانت تقول «فى أعقاب ٩/١١ مباشرة، تساءل أمريكيون كثيرون «لماذا يكرهوننا» وتحليل زكريا يساعد على الإجابة عن هذا السؤال. اعتاد الرئيس بوش، ورايس، وتشينى الاستشهاد مرارا وتكرارا وإلى ما لا نهاية بالجزء من مقدمة زكريا حيث يقول «يكره المتطرفون فى العالم الإسلامى أمريكا وسيظلون يكرهونها دوما. يكرهون سياساتنا، قيمنا، حرياتنا، بل أسلوب حياتنا ذاته. وحينما يتم التعبير عن الكراهية من خلال أعمال العنف، فليس ثمة سوى رد ملائم واحد...». ثم تمضى رايس لتقول إن مدركات المسلمين المفلوطة عن أمريكا «تخلق مناخا من المرارة والشعور بالظلم يجد فيه التطرف أذانا مصغية متعاطفة. وبإستطاعة مثل تلك الآراء أن تبقى مجتمعات كاملة أسرى أيديولوجيات فاشلة، الأمر الذى ينجم عنه، بالنسبة للعالم الإسلامى، التخلف والفقر الدائم وغياب الحريات. علينا أن نوصل الحقيقة عن قيمنا وسياساتنا إلى شعوب الشرق الأوسط. ومثلما أن الحرية ينبغى دائما أن تكون أمرا يختاره الناس، فإن التقدم الدائم، وإصلاح المجتمعات يجب أن ينبثق من داخلها».

تلخص مقولة رايس بإيجاز روح مقال زكريا، ذلك لأنه يرى، على خلاف لويس، أن التطرف ليس متأسلا في الإسلام أو المسلمين، وأن «المشكلة التي يعاني منها الإسلام» تكمن تحديدا في الثقافة العربية وعقلية العرب المتأسلة والتي انتشرت إلى المسلمين من غير العرب. بعد ١١ سبتمبر، صاغ زكريا السؤال المفتاح للإعلام وصناع السياسة: «ما السبب في أن هذه المنطقة هي العاجزة سياسيا في العالم؟ المجموعة الشاردة عن مسيرة المجتمع الحديث؟» وحسب رأيه، لا تقتضى معرفة الإجابة عن هذا السؤال سوى النظر إلى الثقافة العربية، إذ إننا فقط حينما ننظر إلى الشرق الأوسط العربى «نرى بألوان متوهجة منذرة جميع الإخفاقات الوظيفية التي يستدعيها الناس حينما يتحدثون عن الإسلام»، وعلى سبيل المثال قال موضحا إن «أفغانستان كانت أرض المعسكرات التي منها انطلق جيش عربى لقتال أمريكا». يرى زكريا أن العرب متخلفون قبيليون أبويون يفتقدون النقد الذاتى ويفاخرون بثقافتهم التي كانت مجيدة يوما ما وغدت الآن فاشلة. تحول تلك السمات الثقافية دون «التقدم» الحق، ثم يمضى زكريا يقول جازما «إذا كان ثمة سبب واحد رئيسى للأصولية الإسلامية فهو ينحصر فى الفشل الكلى للمؤسسات السياسية فى العالم العربى»، ويرى أن هذا الفشل متجذر فى عدم قدرة العرب على فهم «الحداثة» وأن «تجربة» الحداثة بالنسبة للعرب انتهت بفشل فى أعقاب فشل.

ترجع أصول فكرة «العقل» العربى القبلى المتخلف إلى عقود من الكتابات الاستشراقية، وتبرز بخاصة فى أعمال برنارد لويس ورفائيل بطي. لكن ما يميز زكريا عن لويس هو أن تحليله للعالم العربى يعين حدود هذا الفشل بصفته فشلا فى استيعاب الحداثة وتبنيها، أى أنه فشل سياسى ومجتمعي. وعلى حين أن مسئولية لويس عن الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين تكمن فى أنه أتى بتفسيرات أكاديمية «مزعومة» عن أسباب اختلاف المسلمين عن الغرب واستحالة اندماجهم معه أو قبولهم موروثاته الديموقراطية وتوجهاته الإنسانية، فإن دور زكريا هو تسييس تلك الثغرات الثقافية والمساعدة على صياغة حلول عملية تُمكن الولايات المتحدة من التدخل وتوسيع

سيطرتها بزعم الحفاظ على أمنها ومصالحها السياسية والرفاه الاقتصادي العالمي، بتعبير آخر، لا تستند قيمة زكريا، بالتقابل مع لويس، إلى أى مسوغات أكاديمية، بل إنه يمضى يدعو بحماس إلى علاج فشل المسلمين من خلال تبنيهم اقتصاد السوق الحر، والخصخصة ولبرلة التجارة والتعديل الهيكلي لـ «المجتمعات العربية المغلقة».

وفيما أن لويس يعزو إخفاقات المسلمين إلى بربرية «العقل العربي» فإن زكريا يعزو كراهيتهم للغرب إلى إخفاقات الثقافة السياسية العربية ونظمهم الاقتصادية، ويذهب إلى أن التنمية فى العالم العربى اقتصررت على المحاكاة البيغانيّة لتفاهات العصر الحديث، أى أن حدثتهم هى مجرد «نسخة زائفة» مشوهة من الحداثة، إذ إنهم يحاكون الشكليات المادية ويغفلون المبادئ الحديثة؛ ثم يمضى ليقول «إن استيراد السلع الغربية سهل، لكن استيراد الحشو الداخلى للمجتمع الحديث - السوق الحر، الأحزاب السياسية، الخضوع للمحاسبة، حكم القانون - صعب، بل إنه يمثل خطرا على النخب الحاكمة»، ومن سوء الحظ أن العرب غير مؤهلين ثقافيا واجتماعيا وفكريا للاستفادة من العولة: «يشاهد العرب العروض والبرامج التليفزيونية الغربية، ويتناولون الوجبات السريعة ويشربون المشروبات الغازية، لكنهم لا يقومون بعملية تحرير حقيقى لمجتمعاتهم». من ثم، فإن ما نشاهده «هو عكس للعملية التاريخية فى العالم الغربى حيث أنتجت الليبرالية الديموقراطية، وتعزز الديموقراطية الليبرالية. أما الطريق الذى سلكه العرب فقد أنتج الديكتاتورية التى ولدت الإرهاب الذى هو أبرز تجليات علاقة الاختلال الوظيفى هذه بين الدولة والمجتمع».

وفى تحديده لمعالم إخفاقات المجتمع العربى «غير الليبرالى» يستشهد زكريا بتقرير برنامج التنمية الصادر عن الأمم المتحدة، وبخاصة الاتهام الخاطئ الذى جاء بالتقرير بأن العرب لا ينتجون كتباً مؤلفة أو مترجمة. تظهر تحليلاته العرب مفلسين فكريا وراكدين اجتماعيا ومعوقين اقتصاديا، وتصبح هذه النغمة معزوفة دائمة تستمع إليها الجماهير العربية حيث حظى تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم بتغطية واسعة فى الإعلام العربى. وفيما يركز التقرير على أزمة ثقافية واجتماعية واقتصادية

وشبكة في العالم العربي بسبب «تضخم أعداد الشباب»، فإنه يتجاهل، مثل زكريا، عن عمد كثيرا من الحقائق الموجودة على الأرض. مثلا، فعلى مدى السنوات العشر التي مرت منذ صدور تقرير التنمية الأول، ارتفعت معدلات الإلمام بالقراءة والكتابة في العالم العربي، وتنامت الطبقة الوسطى الحضرية في جميع العواصم العربية الكبرى، وقد حدث هذا على الرغم من العقوبات المعوقة التي فرضتها الولايات المتحدة على بلد مثل العراق باسم الأمم المتحدة. بيد أنه أيضا فقد شهدت تسعينيات القرن الماضي والسنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين حركات تقدمية دينية وعلمانية جديدة تنمو في معية منظمات ديموقراطية قاعدية عمالية وطلابية من المغرب وحتى سوريا، وفيما يمتدح زكريا الحكام والملوك المستبدين الليبراليين الموالين لأمريكا، فإنه يتجاهل ازدهار مجموعات الحركات القاعدية التي تحتج على السياسات الاقتصادية والبيئية المدمرة، وعلى القمع السياسي الذي تمارسه الدولة في آن. وفي واقع الأمر، فمنذ مطلع الألفية الجديدة، تبني زكريا والمنظرون السياسيون المؤدلجون الآخرون، بأسلوب انتقائي، بعض الحركات «الشعبية» في الشرق الأوسط. مثلا، لا يناقش زكريا أبدا «ربيع دمشق» حيث تضغط العديد من مجموعات المجتمع المدني، والشيعيون المعارضون، والبعثيون الإصلاحيون، والمثقفون من أجل إجراء إصلاحات داخلية وإجراء الحوار مع الدولة. وبالتقابل، تم تصوير «ثورة الأرز» بحسب تسمية الإعلام الغربي، على أنها حركة لبنانية جماهيرية ديموقراطية عفوية، وهذا ما لم تكن أبدا حركة «١٤ آذار»، إذ إنها كانت عبارة عن إعادة تحالفات بين النخب الذين قاموا بحشد المشاعر القومية الكارهة للأجانب في غالبيتها بين أتباع طوائفهم من أجل تحدى الوجود السوري بلبنان. من ثم، لا غرو أن زكريا كان على رأس الإعلاميين الذين شوهوا فوز حماس في الانتخابات الديموقراطية التي أجريت بالمناطق الفلسطينية. لا يتبنى زكريا الأحداث التاريخية اعتباريا ويؤولها بصفتها حركات ديموقراطية، لكنه يفعل ذلك لأن تحليلاته تتسق مع الخطاب الأعم الذي أصبح هو إحدى سماته. أي أنه يصور العالم العربي على أنه ينقسم بين «أنظمة مارقة» و«ديموقراطيات غير

ليبرالية»، ومن ثم فهو يتسم «بعلاقة خلل وظيفي بين الدولة والمجتمع». ومما لا ريب فيه أن زكريا يتفق مع أعمال لويس «المرجعية»، ومع النموذج المعيارى الذى يصور العقل العربى على أنه معيب جوهريا بأسلوب يكاد يكون وراثيا. إلا أن زكريا لا يهتم بحتمية لويس الدينية والإثنية بقدر اهتمامه بالتوصل إلى وضع تصور تخطيطى برجماتى يفهم من خلاله الثقافة السياسية العربية، إذ يذهب منطقته إلى أن الأسلوب الوحيد لإعادة هندسة تلك الثقافة هى فهمها كاملة بكل انحرافات وأمرضها. يبين فى تفسيره البنية التنظيمية للعالم العربى أنه «يقع الآن أسيرا بين الدول الاستبدادية والمجتمعات غير الليبرالية التى لا يمكن لأيهما أن يكون أرضا خصبة للديموقراطية الليبرالية، ثم يضيف قائلا «لقد أنتجت التفاعلات الدينامية بين هاتين القوتين مناخا سياسيا يملؤه التطرف الدينى والعنف». والحال هكذا. فإنه ينبغى الدفاع عن دعم الولايات المتحدة لتلك النظم العربية الاستبدادية: «على الرغم من أن حلفاء أمريكا فى الشرق الأوسط استبداديون وفاسدون وقمعيون، إلا أنهم أكثر ليبرالية وتسامحا وتعددية ممن قد يحل محلهم». يصر زكريا أن الحلفاء من أمثال المغرب والأردن ومصر [مبارك]، بل وحتى الأسرة المالكة السعودية أكثر ليبرالية وتسامحا وقابلية للإصلاحات الاقتصادية النيوليبرالية ومنح النساء حقوقهن وإقامة مجتمع مدنى «حر» من العدو المشترك، أى الإسلاميين.

أتاحت برجماتية زكريا له الاستمرار فى لعب دور فى الحياة السياسية بعد بوش، بل إنها مكنته من التباعد عن أجندة المحافظين الجدد القتالية فى الشرق الأوسط لدى فشلها الواضح أثناء فترة رئاسة بوش الثانية. وفى واقع الأمر، فقد نجح زكريا فى إعادة تشكيل نفسه ليصبح شخصية إعلامية، وتمكن بذلك من إن يكتب، بسلسلة، مقالات يدافع فيها عن أسباب ردود أفعال الولايات المتحدة المبالغ فيها بعد ٩/١١، دونما أن يتنكر لتحليلاته القائمة على أساس أيديولوجيا الإسلاموفوبيا، وذلك لأنه لا يعتمد أساسا فى تحليله على الكراهية المقيتة للإسلام والعرب وعلى الالتزام مدى الحياة بعصالح إسرائيل بنفس القدر الذى يتجلى فى أعمال لويس، بل على التمسك

بمصالح الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية بصفتها «قائدة العالم الحر». مكنه هذا النهج البرجماتى من البقاء طويلا فى عالم ظل يتأرجح بين أعمدة القوة «الصلبية» والقوة «الناعمة» لكن، وكما سنرى، فعلى الرغم من إعادة تشكيل نفسه كبرجماتى لا حزبي، إلا أن الرواية التى مضى يروجها طوال العقد الأخير تظل حاضرة فى سياسة أوباما شرق الأوسطية وفى خطاب كثير من مستشاريه بشأن الشرق الأوسط. وفى هذا الصدد، فإنه بإمكاننا القول إن زكريا هو المنظر المكتمل للإمبراطورية الأمريكية بالتقابل مع لويس المنظر المكتمل للإسلاموفوبيا ذاتها.

وعلى الرغم من أن زكريا يصر على أنه ينبغى على الولايات المتحدة دعم حلفائها التاريخيين ورعايتهم إلا أنه يرى أن اعتماد حلفاء الولايات المتحدة المستبدين على المعونة الأمريكية هو مصدر لسلبية الجماهير تجاه النخبة. يقرر، وهو ينكص إلى استخدام التنظيمات والمزاعم بشأن خمول العرب المتأصل أن دول العالم العربى تعتبر «نموذجاً نمطياً للدول التى تعيش على عائدات صناديق الائتمانات»، ثم يمضى قائلاً «إن دخل تلك الدول الذى لا تكسبه بجهدا» بل يأتيها كمعونات أو من عائدات النفط شجع الأنظمة شرق الأوسطية على «ألا تطلب سوى القليل من شعوبها، وفى المقابل، لا تعطى سوى القليل». ثم ينتهى تحليل زكريا من حيث بدأ حيث يقرر أن «الأموال التى تأتى بلا جهد لا تعنى سوى قليل من التحديث الاقتصادى أو السياسى». يبرى منطلقه هذا الولايات المتحدة من أية مسئولية عن طول عمر تلك الأنظمة الجامدة المحتضرة فى الشرق الأوسط، حيث يذهب إلى أن المسئولية لا تقع على الحكومات القمعية أو رعاتها فى واشنطن، بل على الجماهير العربية غير الراغبة فى المشاركة فى مجتمعاتها المدنية أو تقبل المسئولية عن قصورها وعدم كفاءتها أو تحمل عبء الحياة السياسية كاملاً. بدلا من ذلك، نراهم على استعداد دائما للاحتجاج ضد إسرائيل والولايات المتحدة، بدلا من مواجهة أوجه قصور مجتمعاتهم وأنظمتهم الحاكمة.

وفى واقع الأمر، يرى زكريا أنه من الواضح أن عدم وجود «المجتمعات المدنية»

أو «ثقافة الديمقراطية» [فى البلاد العربية] ينجم عن عقلية الدولة التى تعيش على عائدات صناديق الائتمانات». ويدورها، فإن فشل الحكومات العربية فى تحرير طبقاتها الوسطى ومنحها حقوقها، وأيضا فشل الشرائح الوسطى والعالية من الطبقات المتوسطة فى تشكيل ديموقراطيات مدنية فاعلة هو مصدر الإرهاب.

نجاهل التاريخ: النيوليبرالية بصفتها صنوا للحدثة؛

يعبر زكريا فى «لماذا يكرهوننا؟» و«مستقبل الحرية» بإيجاز وتحديد عن منطق أهداف السياسة الخارجية الأمريكية فى زمن ما بعد الحرب الباردة. فبدلا من أن يدفع بإدانة ثقافية عنصرية صريحة لنوازع العرب وميولهم، يقدم تحليلا اجتماعيا/ سياسيا وصفيا وموضوعيا فى ظاهره لكراهية المسلمين للغرب - وهى كراهية، كما يُذكرنا بالإمكان أن تنمو محليا بسهولة، وتستورد إلى الداخل الأمريكى، وتصدر إلى جميع أنحاء العالم الإسلامى غير العربى. وفيما يروج المؤرخ لويس للإسلاموفوبيا التى يُسوّقها على شكل مجازات عبر/ تاريخية وسمات متأصلة فى العقل العربى، يتمثل إسهام زكريا فى التشكيل الأيديولوجى ما بعد الحدائى للإسلاموفوبيا بربطه بين أوجه فشل المسلمين واللحظة الكوكبية الراهنة. ومن خلال دمج الحدثة بالعولة، والسياسات النيوليبرالية بالديموقراطية، يريد زكريا لنا أن نفهم كيف أن غياب الحرية [أى التجارة الحرة] يؤدى إلى التخلف الاقتصادى والاجتماعى وأيضا إلى تنامى مشاعر الاستياء من الغرب الذى يتمتع بمزايا الديمقراطية والحدثة.

ليست الفكرة القائلة بأن الأنظمة العربية تتشدد بمبادئ الحدثة فيما تعمل ضدها على أرض الواقع بالجديدة. قام جيل سابق من المفكرين العرب من أمثال صادق جلال العظمة وهشام شرابى ومحمد عابد الجابرى بمناقشة فشل العالم العربى فى الأخذ بالحدثة والتنظير لهذا، وليس ثمة حاجة لزكريا أن يعرف العربى ليعلم أن هؤلاء الكتاب مكانة مركزية فى الفكر السياسى العربى، ولا يبدو أن هذا الجهل المتعمد بأية معلومات ولو سطحية عن تاريخ الفكر العربى الحديث مصادفة. يختلف مفهوم الحدثة لدى هؤلاء المفكرين العرب عن استخدام زكريا المضلل له. قام

المفكرون من أمثال شرابي والعظمة والجابري، منذ خمسينيات القرن الماضي، ثم بعد عام ١٩٦٧ بمراجعة الأساليب التي بها حُدد أسلافهم في القرن التاسع عشر معنى الحداثة في العالم الماضي، وأضافوا أراهم. ومن المفارقات أن تلك الأعمال الفكرية ذاتها، والتي يمكن الحصول عليها مترجمة إلى مختلف اللغات، تناقض آراء زكريا ولويس التي تجزم بأن العرب يفتقدون تقاليد النقد الذاتي. ذهب هؤلاء المفكرين إلى أن الحداثة هي فترة من الأوضاع السياسية والاجتماعية. يجرى العمل فيها على القضاء على الممارسات والأفكار الإقطاعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التقليدية مع المحافظة على الهوية العربية. أي أن هؤلاء المفكرين يرون الحداثة هي حالة من التحرير الاجتماعي/الاقتصادي والسياسي وتحرير المرأة، لا كما يراها زكريا على أنها «مأسسة» مبادئ الديمقراطية الليبرالية والاقتصاد النيوليبرالي. إن الحداثة التي يدعو لها زكريا الذي تأثر بأستاذه صمويل هنتنجتون هي مجرد تمويه وذريعة لإجبار المجتمعات على إصلاح العيوب الاقتصادية والاجتماعية التي يعانون منها ليس من خلال ترسيخ إجراءات الحداثة ومبادئها كما يفهمها مجتمعهم المدني بعد عقود من التفحص الناقد والأنشطة السياسية، الأخرى أن «حداثة» زكريا تعني أن تتجرع المجتمعات العربية واقتصاداتها المدعومة أقراص النيوليبرالية والعولة السحرية كي تلحق بعصبة الأمم المتحضرة، أما إن رفضت هذا «الإصلاح الاقتصادي» المزعوم فإن هذا يعني أنها ترفض الحداثة وحقوق الإنسان والديموقراطية «وحكم القانون».

وفي هذا الصدد، تعكس أعمال زكريا فلسفة النيوليبرالية ونظرتها إلى العالم حيث تضع الأسواق الحرة والتنمية الاقتصادية الليبرالية في مقدمة تمكين الجماهير والمبادئ الديمقراطية. وعلى حين أن زكريا يتحدث عن إخفاقات المسلمين وتركز كتاباته الأخيرة على باكستان وإيران فإنه يرى إخفاقات تلك البلدان الإسلامية نتيجة لإخفاق العالم العربي، قلب العالم الإسلامي، حيث إنه وبسبب عدم قدرة العرب على استبطن الحداثة، وتطوير مجتمع مدني وتنمية اقتصاد حر غدا «العالم

العربي صحراء سياسية بدون أحزاب سياسية حقة أو صحافة حرة. لا يوجد به سوى مجالات قليلة للاختلاف والمعارضة، ومن ثم غدا المسجد المكان الذي تُناقش فيه السياسة». وتوضح مثل هذه الآراء الجارفة مدى خداع زكريا الفادح أو إفتقاده للمعرفة. فمثلا يتجاهل عقودا من نقد المثقفين لسوء إدارة التنمية والسلطوية في العالم العربي فإنه يتغاضى عن جماعات الناشطين القاعدية البارزة مثل كفاية بمصر والبديل في سوريا والمجتمع المدني أو شبكة المنظمات غير الحكومية للتنمية بלבناو و ATTac-Maroc بالمغرب وغيرها وغيرها، علاوة على التاريخ الطويل للجماعات العلمانية الديمقراطية الناشطة في العالم العربي.

ظل الحشد السياسي الجماهيري والوعي السياسي من نسيج التاريخ السياسي الحديث في العالم العربي. وعلى الرغم من أن أحزابا مثل جبهة التحرير الجزائرية، وحزب المؤتمر الشعبي باليمن، والحزب الوطني الدستوري بتونس وحزب البعث السوري قد استغردت بالسلطة وحولت بلادها إلى نظام الحزب الواحد إلا أنها كانت قد قامت على أسس أيديولوجية علمانية وكان لها لجان تنفيذية داخلية وفازت في الانتخابات وكان لها قواعد تأييد شعبية من جميع القطاعات. وعلى الرغم من ذلك، يوجد في الوقت الراهن الكثير من الأحزاب الإسلامية واليسارية الديمقراطية، مع حفنة من الأحزاب اليمينية تسعى، وعلى الرغم من الحكومات التي تدعمها الولايات المتحدة، إلى تفعيل التمثيل البرلماني. بيد أنه، وحتى لو ألم زكريا بدروس التاريخ وما يحدث على أرض الواقع، سيظل تحليله كما هو وذلك لأن نظريته إلى العالم الإسلامي تقوم أساسا الانتهازية الأيديولوجية التي تجعله يُحرّف الحقائق ويشكل منها رواية تنتهي إلى أن الغرب ظل دائما في جانب التاريخ المضى فيما ظل العالم الإسلامي ظله المظلم.

من إغفاق الأنظمة إلى الإصلاح المنهجي:

مع الأخذ في الاعتبار قراءة زكريا الانتقائية والأيديولوجية للتاريخ، نجد أن تاريخه يواجه ألغازا دائمة. كيف يتأتى لأي أحد إدخال الديمقراطية على مجتمع يعتنق

التخلف بإرادته ويأسلوب حماسي؟ تشكل إجابة زكريا قطيعة مع البيت الأبيض ومع برنارد لويس والآخرين الذين دفعوا بـ«أجندة الحرية»، وهي فانتازيا لهندسة ديمقراطية لا تصلح للعالم العربي وذلك بسبب ثقافته السياسية وأوجه قصور مؤسساته. من ثم، فهو يرى أن البلاد العربية تحتاج في الوقت الراهن إلى حكام مستبدين خيّر بين أو للوك على شاكلة عاهل الأردن، من أجل تنظيم مجتمعاتهم ولبرلتها حتى تصبح ديمقراطية. لكن على الولايات المتحدة أن «تطلب شيئاً» في مقابل المساعدة والدعم السياسي الذي تقدمه لهم، عليها أن تطلب مقابلاً نظير توضيحها بالمبادئ الديمقراطية وتعاملها مع الحكام المستبدين، على واشنطن أن تطالب «بإصلاح سياسي واقتصادي، وليس بإصلاح ديني». لا بد من التحايل على الشعوب العربية حتى تفتح أسواقها ومجتمعاتها، وتلتزم بالولاء السياسي ليس فقط للولايات المتحدة، بل للتعديلات الهيكلية. يرى زكريا أنه فقط عندما يحدث ذلك، ستسود نظم الحداثة المجتمعات العربية وتتوطد دعائمها.

وفي واقع الأمر، سنجد زكريا يوجه اللوم، مؤخراً، إلى سياسات تعددية الثقافة الأوروبية التي سمحت للمسلمين المهاجرين بالحفاظ على ثقافتهم الأصلية، بل وشجعتهم على ذلك، ويزعم أن ذلك هو مصدر التطرف الإسلامي في أوروبا. أيضاً، فهو يرى أن المسلمين في الولايات المتحدة ليسوا متطرفين بعامّة وذلك لأن أمريكا تعمل على استيعابهم بسهولة في ثقافة البيض المهيمنة، التي هي ثقافة مسيحية في جوهرها. يستخدم زكريا هذه الرؤية في إعادة تشكيل خطته التي كان قد تبناها أثناء سنوات بوش لإجراء الإصلاحات في العالم الإسلامي، أي أن ليبرالية زكريا في عهد أوباما هي إعادة تدوير لأعماله السابقة التي تركز على الإصلاح المستهدف واللبلة الاقتصادية، إعادة تدويرها لتصبح نسخة محدثة من الخطة الأصلية التي لا يفتأ يرددها عن تشجيع المسلمين «المعتدلين». وفي إطار تلك المعايير يؤيد زكريا إقامة مسجد في موقع أحداث ٩/١١ «Ground zero mosque». واكب موقفه من هذه القضية تنازله عن «جائزة الحرية» التي منحت إياها «جمعية مكافحة التشهير Anti-

Defamation League الصهيونية وذلك لمعارضة تلك المنظمة الشديدة لإقامة مركز إسلامي في Park 51، بل إن زكريا ذهب، أثناء الجدل بشأن إقامة المسجد، إلى حد تهنئة حزب الله على مصادقته على إعادة ترميم معبد اليهود ببيروت بوادي أبو جميل، وهو حي كان قد أزيل أثناء تنفيذ مشروع سوليدير الإعماري لرفيق الحريري.

يتعاشق البرنامج النيوليبرالي الإصلاحى لتخلف العالم العربي/ الإصلاحى بسهولة مع سياسات الولايات المتحدة التخليّة فى عهدى بوش وأوباما. أتاحت مرونة استراتيجية الإصلاح البرجماتية التى تبناها زكريا لها الازدهار فى إطار سياسة «القوة الصلبة» الأخلاقية التخليّة التى اتبعتها بوش والذى لم يكن انعزاليا بآية حال، وأيضا البقاء فى عصر «القوة الناعمة»، تلك السياسة الماكرة التى يتبناها أوباما. أثناء سنوات بوش استُخدمت رواية زكريا من قبل الإعلام والجمهور الأمريكى وسيلة يُمكنهم من خلالها توفيق غايتين متناقضتين ظاهريا. فمن جهة، كانت ثمة حاجة لحث الأنظمة العربية على بدء الإصلاح السياسى، أولا وقبل كل شئ من خلال مؤسسة السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التى كان بيل كلينتون قد دفع بها فى العقد السابق. ومن جهة أخرى، يمكن تبرير سياسة البيت الأبيض التخليّة الأخلاقية كما عبر عنها لويس، لأن استخدام أساليب «القوة الصلبة» هى الوسيلة الفضلى، إن لم تكن الوحيدة، التى من خلالها يمكن إحداث التغير السياسى والاقتصادى فى العالم الإسلامى، وذلك لأن الأنظمة العربية غير قادرة على إحداث الإصلاح ذاتيا بسبب أوجه قصورها المجتمعية والسياسية. وبدلا من التأكيد على العملية السياسية، يجزم زكريا بأن «الحريات الاقتصادية والمدنية والدينية هى جوهر الاستقلال والكرامة الإنسانية. فإذا مضت أية حكومة محدودة الديمقراطية فى توسيع تلك الحريات باطراد، لا يجوز لنا تصنيفها على أنها ديكتاتورية».

يرى زكريا أن هذا منطق سليم حيث يقول «إن الإصلاح السياسى والاقتصادى هو الحل الذى يبقى مدة أطول من غيره، ويجب أن تأتى الإصلاحات الاقتصادية أولا، حيث إنه على الرغم من أن مشاكل الشرق الأوسط ليست اقتصادية خالصة، فقد

يكن حلها في الإجراءات الاقتصادية. وكما رأينا، فإن التحرك باتجاه الرأسمالية هو الطريق الذي يضمن، بأكثر من غيره، إيجاد طبقة وسطى حقيقية ودولة تخضع للمحاسبة». ومرة أخرى، يشير تحليل زكريا إلى فشل آخر للجماهير العربية أي عدم قدرتها على إقامة طبقة وسطى مستقلة نشطة بحق، حيث إن الرأسمالية وبدلاً من أن تكون محرك التغيير في العالم العربي، فقد أفسدها اعتمادها على الثروة النفطية التي أنتجت طبقة وسطى متخلفة ورعتها. بالتالي، لم تصبح الطبقة الوسطى العربية رائدة التغيير بل تراجعت إلى حالة من الإقطاع والقبلية والأبوية، وأصبحت، بحسب تنظير زكريا الذي تعوزه الدقة، مستنبت الأصولية العربية الإسلامية ومصدر تجنيد المتطوعين للجماعات الإرهابية. يرى أن ثمة حاجة «لطبقة حقيقية من رجال الأعمال وأصحاب المشاريع والذين لابد لهم أن يشكلوا أهم قوة مفردة للتغيير في الشرق الأوسط»..

يتقاطع مبدأ پول وولفويتز عن تسيد الولايات المتحدة في العصر أحادي القطب مع نظريات زكريا في الاقتصاد السياسي. فمن جهة وجد وولفويتز في لويس توم روج الصهيونية، وكان هو عملياً من أبدع تسويغات التدخل الأحادي اللامتسق ودعا إليه منذ عام ١٩٩٢. ومن جانب آخر، كان هذا نقیضاً لممارسات وولفويتز للتنمية أثناء فترة رئاسته [الخلافية] للبنك الدولي وعمله سفيراً بإندونيسيا في عهد رجلها القوى وحاكمها المستبد سوهارتو. أثناء فترة عمله برئاسة البنك الدولي، طوّر وولفويتز، بالاتساق مع آراء زكريا، سياسة ليبرالية جديدة أصبحت الأساس الذي قام عليه «فرع» مشبوه داخل البنك يسمى «صندوق المستقبل» الذي كانت تموله بشكل أساسي وزارة الخارجية الأمريكية وتترأسه شاهه رضا، تلك الشخصية الخلافية التي كانت عشيقة وولفويتز ومسلمة كارهة لذاتها. كانت مهمة «الصندوق» تستهدف الشرق الأوسط تحديداً، حيث إنه، وبحسب ما قالت كونداليزا رايس «سيقوم بإعطاء منح تمكن الإصلاحيين من الاستناد إلى أفكارهم ومثلهم لإقامة تنظيمات قاعدية ورعايتها من أجل دعم نمو الديمقراطية».

تفسر هندسة زكريا السياسية ثناءه على الأردن والمغرب، وأمله في أن تصبح بلاد عربية أخرى مثل سنغافورة، أي «ليبرالية» «دستورية» وسلطوية على أرض الواقع. يذهب زكريا إلى أن الطريق للوصول إلى تلك اليوطوبيا الهويزية [نسبة للفيلسوف الإنجليزي توماس هوز]، أي نظام الدولة الخيرة السلطوية هي من خلال «فترة انتقالية مدتها خمس سنوات تجرى خلالها إصلاحات اقتصادية وتنمية مؤسسية تسبق إجراء الانتخابات متعددة الأحزاب». يعمل على تحسين سلسلة التناقضات التي يصفها زكريا عقيدة مهيمنة بأن الحريات المدنية والاقتصادية لها الأولوية على الديمقراطية وحكم الشعب. بوضوح وهو يصف «الديموقراطية الليبرالية» بتاريخ مفهوم «الحرية» في الصفحات الأولى لكتابه أن العالم العربي ليس مهياً لها، ويؤكد أن دروس التاريخ السياسي لأوروبا وأمريكا الجنوبية تعلمنا أن الحرية استبقت الديمقراطية على الدوام، وأنه ليس بوسع أي بلد إقامة ديموقراطية حقة تلقى قبولا سياسيا واقتصاديا من الولايات المتحدة إلا بعد أن يجرى لبرلتها اقتصاديا. وعلى حين أن الجماهير الأمريكية لم تلاحظ حقيقة أن فلسفة زكريا تحرم الملايين في العالم النامي من حقهم في المشاركة في حكم بلادهم إلا أن تلك الحقيقة لفتت انتباه الصحافة العربية، حيث علق عبدالنبي بن علي، الصحفي العربي بقوله إن وقاحة تلك الهندسة الفجة تؤكد أن فاعلية تعليقات زكريا على الأوضاع في الشرق الأوسط تكمن في طلاقته ك«نبي للديموقراطية النيوليبرالية».

فاعلية نماذج النجاح التي تنجز محليا:

على حين أن زكريا أعاد تشكيل نفسه كبرجماتي وسطي أثناء سنوات أوباما، فقد كانت سنوات بوش هي التي أتاحت له الفرصة لتطوير السياسات المحافظة التي كان قد نماها في العقد السابق، وللاستفادة أيضا من آراء المحافظين الجدد التي تبناها لويس عن الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أنه من المنطقي ترجمة الإصلاح النيوليبرالي إلى إصلاح سياسي ولبرلة اجتماعية إلا أن سنوات بوش مثلت فرصا واقعية غير مسبقة لتطبيق ذلك، استند إيمان زكريا بالنيوليبرالية إلى حقيقة قوة

الولايات المتحدة الجيوسياسية، وفي إطار هذا التوجه، رأى أنه ينبغي أن تظل للولايات المتحدة علاقة بما يجرى من أحداث من خلال سياسة خارجية استباقية، وأنذاك، كان بإمكان سياسة «القوة الصلبة» التي تبناها بوش ضمان هذا بأسلوب غير ملتبس. كانت الذريعة الأيديولوجية الأكثر إقناعا بشأن الحفاظ على علاقة الولايات المتحدة هذه هي فكرة الإلزام الأخلاقي كما طرحها لويس والمحافظون الجدد. وعلى الرغم من أن زكريا كان يتفق معهم على أن الولايات المتحدة واجبا أخلاقيا للدفع بالديمقراطية في العالم العربي، إلا أنه كاستراتيجي ومعلق سياسي، رأى أنه ينبغي أن يواكب «أجندة الحرية» إصلاح اقتصادي وفتح الأسواق العربية وتحرير للتجارة وإعادة الهيكلة البنوية.

من ثم، أخذ زكريا برأى غلاة المحافظين الجدد القائل بأن الشرق الأوسط بحاجة إلى قصة نجاح يتم إنجازها محليا، حيث تم الاتفاق على أن قصة النجاح تلك ستجزي في العراق. ذهب زكريا إلى أنه رغم ضعف قدرات شعوب المنطقة الدائم إلا أنهم ينبغي أن يضطلعوا بمهمة الإصلاح، كما أن على الولايات المتحدة أن تدعمهم، حيث إن التغيير يمكن أن يتجز فقط من خلال طبقة محلية من النيوليبراليين تساعدوا واشنطن، بل وتوجدها إذا اقتضى الأمر. كانت هذه تحديدا هي الأفكار التي عبر عنها وولفويتز. وبييرل ورمسفلد في الاجتماعات التي عُقدت بالبيت الأبيض في أعقاب ٩/١١ حيث ساد الرأي القائل بأنه إذا أطاحت الولايات المتحدة بحاكم مستبد، ستصعد طبقة جديدة من أصحاب المشاريع الأشخاص والديموقراطيين وتخلق «شرق أوسط جديد»، بحسب تسمية كوندليزا رايس له لاحقا أثناء عدوان إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦. ذهب زكريا وغيره من أمثال دونالد رمسفلد إلى أن العراق كان المرشح الأول لهذا التغيير بسبب تاريخه العلماني، ووجود طبقة وسطى راسخة وثروته النفطية. هنا، كانت كتابات زكريا في صحافة التيار السائد تعبيرا عن نفس المشاعر والتطلعات التي جاءت بالخطاب المفتوح للرئيس كلينتون عام ١٩٩٨ الذي وجهه أعضاء الأميركيان إنتربرايز إنستيتيوت.

فى عام ٢٠٠٣، نشر زكريا أمام الرأى العام الأمريكى ما يعتبر بروقة لرؤية اقتصادية وسياسية راديكالية جديدة للعراق حيث بينَ قائلا «لو أطاحت الولايات المتحدة بصدام» ومضت تتفد مشروعا طويل الأمد لبناء الأمة، فبإمكان العراق أن يصبح أول بلد عربى كبير يجمع بين الثقافة العربية والدينامية الاقتصادية، والتسامح الدينى والسياسة الليبرالية والنظرة الحديثة إلى العالم». كانت معاييرها للنجاح فى تغيير النظام واضحة حيث رأى أن العراق مرشح لهذا لأنه بلد به انقسامات منطقية وإثنية ومذهبية قوية. ذهب أيضا إلى أنه لا يجوز أن يفهم تغيير الأنظمة على أنه يقتصر على حالة واحدة، الأخرى أن فاعليته تكمن فى قدرته على استنساخ نفسه فى بلدان أخرى ثم يختتم قائلا إن «النجاح مُعَد». وفيما يصادق دوجلاس فيث فى «مذكراته» على أن ذلك كان هدف البيت الأبيض فى عهد بوش، يبين الجنرال ويزلى كلارك فى كتابه بعنوان «كسب الحروب الحديثة» أنه تلقى قائمة بسبعة بلاد شرق أوسطية عيّنها البيت الأبيض فى عهد بوش لتغيير أنظمتها وكان من بينها إيران ولبنان وسوريا والسودان، وكانت إدارة بوش قد أعلنت تلك الخطة الطموحة فى مذكرة نصت على أن هدفها هو تحقيق هذه الغاية فى غضون خمس سنوات.

أمدت كتابات زكريا التيار السائد بإطار تبدو من خلاله «أجندة الحرية» التى تبناها بوش منطقية جدا. صادقت تحليلاته على آراء «فلاكنة» بوش وصقوره وأكدت بأسلوب جازم أن مشكلات العالم الإسلامى على درجة من الخطورة بحيث أصبحت تمثل تهديدا لأمن الولايات المتحدة. من ثم، فإنه وفيما تحافظ واشنطن على أمن أمريكا يمكنها أيضا تحرير المجتمعات المسلمة التى أصابها الوهن نتيجة إخفاقاتها وبسبب أنظمتها الجامدة المحتضرة. وفيما يقر زكريا بأن المسلمين ليسوا جميعا متخلفين بالضرورة، فإنه يتفق مع لويس الذى يرى أن العالم العربى قد نجح فى تسميم معتقدات العالم الإسلامى من خلال مناهج الدعوة التى تُدرّس بالمدارس الدينية التى تمولها البترودولارات العربية من ثم يجب أن تضطلع الولايات المتحدة بدور استباقى تدخل فى إصلاح المجتمعات شرق الأوسطية. وإذا كان بوش قد وقف

[بعد غزو العراق] أمام لافتة كُتِبَ عليها «المهمة أنجزت»، فإنه وتشينى مَضِيًا يُكرّر أن المهمة الكبرى هي حرب شاملة على الإرهاب لا يمكن التنبؤ بنهاية لها، حرب «عادلة» و«ضرورية» تستهدف أعداء الحداثة والديموقراطية وحكم القانون.

الخلاصة:

ونحن نختتم هذا الفصل، لابد من توضيح بعض النقاط. إن السبب المباشر فى جو الحصار الذى يعيشه المسلمون فى أنحاء العالم هو سياسات الولايات المتحدة المستدامة منذ «عاصفة الصحراء». بيد أن هذا لا يعنى أنه لم يكن ثمة جو من الازدراء ومحاولات التقسيم وبيث الفرقة والتحكم قبل عام ١٩٩١، هذا على الرغم من أنه لم يكن يمثل هذه الحدة، فقد حدثت حالات تدخل أمريكية عديدة فى الشرق الأوسط قبل حرب الخليج. فى عام ١٩٥٨، أرسل الرئيس أيزنهاور قوات أمريكية إلى لبنان لدعم كميل شمعون رئيسها الموالى لأمريكا، والذى كان على وشك السقوط. كان شمعون قد أقال، بأسلوب غير قانونى، عددا من الوزراء الناصريين، وحاول، فى مخالفة للدستور، تمديد رئاسته فترة أخرى. وحينما قامت القوى التقدمية المسلمة فى غالبيتها، بالتمرد ضده، أمر أيزنهاور بنشر قوات المارينز فى لبنان لإنقاذ الحكومة، ثم قامت الولايات المتحدة، وفى وجود المارينز على الأرض بتتصيب فؤاد شهاب، وكان قائدا سابقا للجيش، ذا ميول قومية ويحظى بالاحترام، لكنه لم يكن ذا توجهات ناصرية أو اشتراكية. وفى نفس العام، أطاح الجنرال عبدالكريم قاسم بالنظام الهاشمى العميل فى العراق. ثم تحالف مع الاتحاد السوفىيتى وانسحب من حلف بغداد الذى كان يضم إيران وتركيا وباكستان والعراق وبريطانيا، والذى كانت بريطانيا قد عملت على تشكيله بعد عامين من الانقلاب الذى دبرته السى أى إيه ضد محمد مصدق، رئيس الوزراء الإيرانى المنتخب ديموقراطيا، وإعادة تنصيب الشاه. ثم مضت السى أى إيه، وقد شجعها نجاحها فى إيران فى لعب دور محورى فى الانقلاب البعثى الذى أطاح بعبد الكريم قاسم عام ١٩٦٣. أما المواجهة التى حدثت بين أيزنهاور، وبين إنجلترا وفرنسا وإسرائيل فى عدوان عام ١٩٥٦ فلم تكن يدافع

الحرص على سيادة مصر بل كانت خطوة حصيفة لتجنب أى تصعيد مع الاتحاد السوفييتى [وإنهاء دور بريطانيا فى الشرق الأوسط]، هذا على الرغم من أن مصر بقيادة عبدالناصر كانت من دول عدم الانحياز. بيد أنه أثناء الحرب الباردة، فإن قائمة التدخلات الأمريكية فى الشرق الأوسط وسياساتها العدوانية هناك، بما فى هذا دعم واشنطنون الذى لا يتزعزع للصهيونية الكولونيالية ومساعدتها على تحقيق أهدافها، كان مرده الأساسى التناقض بينها وبين الاتحاد السوفييتى على السيطرة على العالم.

يجسد تاريخ سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى العراق تغير سلوك واشنطنون تجاه الأنظمة العربية. فعلى حين أن السى أى إيه ساعدت الانقلاب البعثى عام ١٩٦٣، إلا أن العراق عاد إلى الحظيرة السوفييتية فى نهاية ستينيات القرن الماضى، ثم كان دفع العلاقات بين صدام حسين ورونالد ريجان إيذاناً بمقدم العصر الذى نعيش فيه الآن حيث إن هذا التقارب حدث فى أعقاب ظهور الإسلام الثورى بقيادة الخمينى على المسرح العالمى من ثم، طورت واشنطنون علاقات عسكرية وثيقة مع حكومة العراق «المعادية للديموقراطية» بل والاشتراكية أيضاً وذلك من أجل استخدامها للقتال ضد الإسلام الجهادى الذى تمثله إيران والذى كان يهدد باختلال توازن القوى الإقليمى وأيضاً اختلال سوق النفط العالمى. ومن جهة أخرى، كان صدام، الذى كان محاطاً بالأخطار، على أتم استعداد، وعلى الرغم من مزاعمه عن «إيمانه» بالاشتراكية والقومية العربية والعلمانية، أن يتلقى المعونات العسكرية من الغرب من أجل إنجاز مخططاته فى مختلف المناطق العراقية، وتحقيق طموحاته السياسية الإقليمية.

فى ثمانينيات القرن العشرين، بدأ التموضع الأيديولوجى للولايات المتحدة فى التحول من مواجهة النفوذ السوفييتى فى الشرق الأوسط إلى الحاجة للتحكم المباشر فى المناخ السياسى فى العالم العربى وإدارته، وبخاصة مع صعود الإسلام السياسى القتالى. ظلت سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى الشرق الأوسط سواء فى وجود الاتحاد السوفييتى أو فى عصر العولمة، تقوم على زرع الفرقة، واستخدام المؤامرات

وممارسة الضغط الاقتصادي أدوات رئيسية لها. أما الدوافع الأساسية التي شكلت تقليدياً الركائز التحتية لتلك السياسة شرق الأوسطية فقد ظلت مصالح إسرائيل وأمنها والمصالح النفطية. تم توثيق تاريخ اهتمام الولايات المتحدة بنفط الشرق الأوسط جيداً، وقد زاد هذا الاهتمام الآن بكثير من أى وقت مضى، حتى أن آلان جرينسيان بين آخرين، قد أكد بوضوح أن غزو العراق كان من أجل «أمن النفط».

كثيرة هي التعليقات والتحليلات التي تتناول دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، وسيتم مناقشة هذا الموضوع نقدياً فى الفصل السادس من هذا الكتاب حيث سنقوم بتفنيد كثير من النظريات السائدة عن هذه العلاقة الوثيقة ومنها تلك التى تفسر ولاء واشنطن للدولة اليهودية وإذعانها لها على أساس أن إسرائيل تعمل طابوراً خامساً للولايات المتحدة. أيضاً، يزعم جون ميرشيمر وستيفن وولت فى ورقتهما الشهيرة أن اللوى اليهودى الأمريكى والمسيحيين الإنجيليين الموالين لإسرائيل هم من يعززون دعم الولايات المتحدة لإسرائيل إلى حد كبير مستخدمين نفوذهم المالى فى العملية السياسية، ويذهبان إلى أن هذا الدعم أثر سلبياً على مكانة الولايات المتحدة فى العالم العربى، كما أنه يعمل ضد مصالح البلد الحقيقية. بيد أن الآراء الشعبية ونظريات المؤامرة عن الولايات المتحدة لدى شعوب الشرق الأوسط تشير إلى ما هو أكثر من شعب واهم مخدوع - بل العكس هو الصحيح. يذهب أحد تفسيرات تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية فى المنطقة، والتى تبدو لا مبالية وقصيرة النظر وإمبريالية وقاصرة، إلى أنها ذات دوافع أيديولوجية بحيث يمكن أن تنطبق عليها تفسيرات المنظرين بداية من ماركس وحتى ألتوسير. أى أن الآراء والتفسيرات الهجومية الخبيثة [عن العرب والمسلمين] والتى تفحصناها فى هذا الفصل ليست شذوذاً أو انحرافاً للثقافة السياسية الأمريكية، أو نتيجة عملية اختطاف للمبادئ الأمريكية بعد أحداث ٩/١١ التى روعت الأمريكين. الأخرى أن تلك النماذج التمييزية للعرب عضوية ومصدرها اللاوعى «الأمريكى» السياسى، وقد أوردنا فى هذا الفصل تفاصيل التحليلات التى تتسم بالإسلاموفوبيا، والتى أصبحت حقائق

مفترضة يُبحث من خلالها الشرق الأوسط ويناقش في الإعلام، وتبّير بها السياسات الداخلية والخارجية الأمريكية.

يذهب هذا الكتاب لاحقا في نقاشه للصهيونية إلى أن الولايات المتحدة تتعاطف جوهريا معها وذلك لأن لتلك الأيديولوجيا ذاتها أصدقاء عميقة تتناغم مع التاريخ السياسي والعسكري الأمريكي. للمسيحيين الأمريكيين إرث طويل من معاداة السامية، وعلى الرغم من الدور البارز لليهود الأمريكيين في الحياة السياسية للحزبين إلا أن معاداة السامية من مكونات اللاوعي الثقافي للأمريكيين البيض. من ثم، فإن هذا الدعم الذي لا يتزعزع لإسرائيل لا ينجم فقط عن مشاعر الذنب حول الهلوكوست أو القبضة الحديدية للوبي الصهيوني بقدر ما ينجم عن تماهى المسيحيين شمال الأمريكيين مع رغبات الأوروبيين في استعادة الأرض التي وعدهم الرب بها في سفر التكوين. مثلا، وعد الرئيس هاري ترومان المعادي للسامية حاييم وايزمان ودايڤيد بن جوريون بالاعتراف بإقامة دولة إسرائيل حتى قبل إعلان قيامها على الرغم من معارضة أصدقائه ومستشاريه القدامى كلارك كليفورد وإبراهام جرانوف وإيدي چاكسون ومحاولتهم إثناؤه عن ذلك. كان سلوك ترومان القسري نتيجة مشاعره الدينية العميقة من جهة، وقناعته بحق اليهود الأوروبيين في «أرض الميعاد» على الرغم من ملكية العرب الفعلية لتلك الأرض منذ أكثر من ألف عام.

من ثم، فعلى الرغم من أن برنارد لويس قد ظل صهيونيا متشدداً منذ زمن، وأن صهيونيته شكلت جوهر أبحاثه وكتابات ونشاطه السياسي لعقود، فإن قضية الإسلاموفوبيا ذاتها لا تتعلق بإسرائيل. كما أنه، ومن جهة مغايرة، فلا أهمية لحقيقة أن زكريا شخص مسلم. ونظرا لأن الإسلاموفوبيا تنمو من حطام الإرث الاستشراقي، فإنها تتمحور حول إسقاط الذات الأوربية على الشرق الأوسط، بل وغرسها هناك، فيما تقوم أيضا، بتحديد هوية شرق الأوسطيين وعزلهم من أجل «تطويقهم» في منطقتهم. تتعلق الإسلاموفوبيا بالتحكم في «الآخر» الذي يمثل تهديداً لنظرة أمريكا البيضاء إلى ذاتها، وإلى مصالحها الاقتصادية والسياسية الذاتية في

عصر العولمة. توضح لنا كتابات لويس وزكريا أن «العقل» الأمريكي الذي يتجلى في تلك الكتابات ليس من بقايا الماضي، وتخبرنا أيضا كيف ينظر المسئولون الأمريكيون المنتخبون والمشتغلون بالإعلام ومحترفو السياسة إلى العالم ويبررون التحكم فيه. يمثل هذا الوعي مرتكزات كشوفات هذا الكتاب: أى أن الإسلاموفوبيا أيضا هي تشكيل أيديولوجي ينجم عضويا عن نظرة أمريكا البيضاء المتعالية إلى العالم والتي تسعى إلى تبرير مصالحها السياسية التي تتناقض مع المبادئ الليبرالية التي يتبناها الأمريكيون.

يلور كتاب مايكل أورن «القوة، العقيدة، والفاننازيا» والذي يسرد تاريخ مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط من وجهة نظر صهيونية، صورة العرب في «العقل السياسي الأمريكي». ليس افتقاد الكتاب لأية قيمة أكاديمية هو المهم، بل اللافت أنه يعكس بوضوح شيطنة الأمريكيين للعرب والمسلمين، وافتتانهم بهم في أن. تؤكد رواية أورن أن الأمريكيين أبعد ما يكونون عن العنصرية ومعاداة السامية ويتشارك مع كتابات زكريا ولويس في التجاهل المتعمد لتاريخ الأمريكيين والغربيين العنصرى والإمبريالى بعمامة وجزم، بدلا من ذلك، بأن الإرث الثقافى والدينى الذى يتشارك فيه الأمريكيون مع إخوانهم اليهود فى أرض الميعاد يأسر لب الأمريكيين، وأن الولايات المتحدة ظلت دائما أمة ذات مبادئ تعمل وفق دستورها الأخلاقى (المسيحي) ويذهب إلى أن اليهود والمسيحيين الأمريكيين يمثلون قوة حضارية فى مقابل العالم العربى الذى يسوده التعصب والبربرية كواقع ثقافى. من المفارقات أن أوجه قصور الكتاب أكثر جاذبية بكثير من روايته المعتلة التى تنضح بالإسلاموفوبيا وكراهية العرب، ذلك لأن تحيز الكتاب المقيت، والذى كان موضع إطراء إعلام التيار السائد، يعكس بدقة الكيفية التى ترى بها الولايات المتحدة العالم العربى والإسلامى إذ إنها لا تنظر إليه فقط على أنه مستودع النفط الذى يغذى الصناعات الأمريكية، بل تراه أيضا تهديدا يجب احتواؤه والتحكم فيه.

فى واقع الأمر، فقد أظهرت الأنظمة شرق الأوسطية وقطاع كبير من سكان

المنطقة الود للعويلة والنيوليبرالية، حتى أن أعدادا لا حصر لها من المثقفين اليساريين والإسلاميين، والناشطين يقولون إن المنطقة أظهرت ترحيبا مفرطا بتلك التوجهات، وأن تطبيق تلك السياسات قد نجم عنه بالفعل قدر كبير من الدمار البيئي، وندرة الطعام، وإعادة توزيع الثروة وتركيزها في أيدي النخبة وزيادة ترسخ الطبقة السياسية ومأسستها. بيد أن بعض المسلمين والعرب ظلوا يقاومون ضغط الغرب من أجل فرض تحرير التجارة، والسياسة الخارجية النيوكولونيالية، والتدخل العسكري المباشر، وأيضا الحكم السلطوى الذى يمارسه من تدعمهم هذه السياسات وتبقى عليهم. وفى واقع الأمر، لم يكن المسلمون أبدا «ضحايا طيبين» حيث ظلوا دائما يرفضون الاستسلام والكُمون فى وضع «المعرضين للمخاطر».

نشاهد على شاشات القنوات الفضائية الإخبارية، الفلسطينيين والبنانيين والعراقيين وهم يلوحون بجثامين أطفالهم الذين قتلهم الأمريكيون، أو الأسلحة والنخائر الأمريكية، وعادة ما ينجزون، عن حق، وعودهم بالثار لقتلهم.

بيد أن إعلام التيار السائد الأمريكى لا يفهم مقاومة العرب لأعمال عنف المستوطنين والمستعمرين الصهاينة، ومقاومة المسلمين من باكستان إلى المغرب للنيوليبرالية والجرائم السياسية الأمريكية فى المنطقة، لا يفهمها سوى على أنها برهان على تخلفهم. بل إن رفضهم لأن تسحقهم قوة الولايات المتحدة أحادية القطب، أو العويلة النيوليبرالية، «تبرر» فى نظر الرأى العام الأمريكى، مزيدا من استخدام القوة سواء من خلال التدخل العسكرى المباشر، أو من خلال وكلائهم فى إسرائيل وأفغانستان وباكستان ومصر ولبنان والمغرب. لم يحدث وأن تم تجاهل القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة ومجلس الأمن، بشأن أى بلد فى العالم، ناهيك عن التحقيقات على غرار تقرير جالاستون، لم يحدث وأن تم تجاهلها بوقاحة، وصلف كما يتم فى حالة القرارات المتعلقة بالبلاد العربية، وبخاصة فلسطين ولبنان. لم يحدث وأن استخدمت قرارات الأمم المتحدة آلية للقمع والعزل والتحكم سوى تلك التى تصدر ضد بلدان العالم العربى (كما حدث فى حالة العراق)، لم يتعرض أى شعب لأعمال عنف إجرامية

من جانب الولايات المتحدة وحلفائها (بخاصة إسرائيل وتركيا) باتكثر مما تعرضت له الشعوب العربية (في فلسطين ولبنان والعراق). لذا هنا أن نذكر قول مادلين أولبرايت بأن مصالح الولايات المتحدة أكثر أهمية من موت نصف مليون طفل عراقي، وكذلك تصريح كوندليزا رايس بأن دماء مئات القتلى المدنيين أثناء عدوان إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦ هي مخاض ولادة الديمقراطية والشرق الأوسط الجديد. وفي واقع الأمر، فلا يسمح للعرب أبدا أن يعتقدوا أن حياتهم واستقرارهم ومستقبلهم تعادل في قيمتها حياة واستقرار ومستقبل الإسرائيليين أو الأمريكيين أو الأوربيين. مهما كان ثقل الواقع أو التاريخ، ومهما قاوموا هندستهم اجتماعياً واقتصادياً، أو ساروا في ركاب النيو ليبرالية، فإن العرب والمسلمين يدركون جيداً أنهم سيظلون أنجاساً منبوذين في أعين العالم الغربي.

القصل الثالث

«الخبرات» الخليات

النساء والذرائع الأخلاقية لهيمنة الغرب

لعبت النساء، كعمليات ورموز، دورا مركزيا في تسوين «الحرب علي الإرهاب»، التي شتها بوش وفي «أجندة الحرية» التي واكبتها، وأيضا في سياسة «اليد المفتوحة» التي انتهجها أوباما تجاه العالم الإسلامي. يري زكريا أن العرب تقبلوا مرغمين تخلص النساء من الحجاب كدلالة علي الحدائة بعكس نظرائهم المسلمين في أنحاء أخرى مثل تركيا الذين فعلوا ذلك بإرادتهم- هذا علي الرغم من توقف هذا التوجه حاليا في ظل صعود حكومة أردوغان. يؤكد زكريا، متحديا التجليات التي نشدها في مختلف البلاد الإسلامية والعربية، أن الأنظمة السلطوية الصديقة تستحق دعم الولايات المتحدة لأنها تحرص علي حقوق النساء بالتقابل مع الأصوليين الذين لابد وأن يسعوا لحرمانهن من تلك الحقوق، بل إن المجموعات النسوية التقليدية المعادية للحروب مثل تلك التي تقودها ميديا بنجامين وكود بينك قد ذهبت هذا المذهب. وتلك الأطروحة ليست بالجديدة، فقد كانت قد استخدمت مثلا من أجل دعم شاه إيران.

وبالمثل، كان لويس قد ظل لعدة عقود يلفت الانتباه إلى سوء «معاملة النساء»، «بيطريكية» العالم العربي التي رأى أنها سمة محددة للثقافة العربية، أى أنها أحد الاختلافات المفتاح التي تميزها عن الثقافة الغربية. يذكر فى كتابه «أين الخطأ؟» أن «وضع النساء قد يكون أكثر الاختلافات عمقا بين الحضارتين». كما يعتبر أن عدم تحرير النساء هو الملح المحدد الذى يؤكد تخلف المجتمع العربي/ الإسلامى «إنه محك الاختلاف بين التحديث والغربة، والغربة، بالنسبة للمحافظين التقليديين والأصوليين المتطرفين ليست ضرورية أو مُجدية، بل ذميمة ضارة، خيانة للقيم الإسلامية الحقّة».

تعاثل هذه الأطروحات ما جاء فى أعمال بعض المثقفين العرب مثل هشام شرابى وحليم بركات اللذين ساءهما ما قال به لويس، بل إنها مجتزأة من تلك الأعمال. يذكر شرابى فى كتابه «البيطريكية الجديدة» أن أساليب التفكير البيطريكية، وبخاصة



التفريق بين النوعين، أعيد العمل بها في العالم العربي أثناء فترة الحداثة، مما أدى إلى وجود ما يسميه زكريا أنظمة ومجتمعات «غير ليبرالية». من المهم هنا أن نذكر، وعلى الرغم من أن أعمال شرابي أكثر تعقيداً بكثير وإلماماً بالمعلومات من أعمال زكريا، أن استخدام الأصوات العربية النافذة للعرب هي استراتيجية استخدمت لخدمة «الحرب على الإرهاب» مثلما استخدمتها وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون في «الحملة الكوكبية من أجل النساء».

ظلت قضايا الجندر والجنسانية منذ وقت طويل نقاطاً جدالية في مناقشات العالم الإسلامي، داخلياً وخارجياً، وكانت قضايا الجندر تستخدم نقاطاً فاعلة في حشد الرأي العام للطعن في المسلمين جميعهم وفي الثقافات الإسلامية وبدءاً من أوريانا فلاسي، وبتى محمودى وأزار نفيسى وأزاده مواقنى وإسراء نعمانى، ظلت النساء تطلقن حملات نقد طنانة ضد الرجال المسلمين والثقافات الإسلامية التي تشجع على

كره النساء وعلى البطريكية بحيث بدت تلك الممارسات أكثر كثيرا مما يحدث في الثقافات المسيحية واليهودية والهندوسية في الغرب وجنوب أمريكا وآسيا وإفريقيا.

القائمة - B: دعاة الإسلاموفوبيا المحليين / المحليات

ظلت قضية الجندر شوكة رئيسية في الرمح ثلاثي الشعب الذي يستخدم استراتيجيا لتوحيد الحزبين والدعم الجماهيري لتدخل الولايات في العالم الإسلامي. ينهال على الإعلام باللغتين العربية والإنجليزية طوفان من الهجمات التي تشنها مدّعيات مسلّعات وعرييات مثل إيان هيرسي علي، وإرشاد منجى ودونى درويش ووفاء سلطان، وبريجيت جبريل، هجمات ذات مركزية أوربية على الإسلام. لا تذكر مراكز الأبحاث اليمينية، ومؤسسات العلاقات العامة، ومجموعات المصالح الصغيرة وغيرها من «المراكز» المزيفة التي تبنت هؤلاء النساء حقيقة أنهم لا يتمتعن بأية خبرة أو مسوغات أكاديمية أو سياسية. مثلا، نذكر أن جبريل مسيحية يمينية لبنانية عملت لحساب جيش لحد الجنوبي الذي كان ميلشيا عميلة لإسرائيل في جنوب لبنان المحتل آنذاك. بدأت عملها «الصحفي» في تليفزيون الميدل إيست، المنفذ الإعلامي لشركة البث الإعلامي المسيحي التابعة لرجل الدين المتعصب الأمريكي بات روبرتسون، في فلسطين ولبنان. ويدون أى تدريب رسمي كصحفية أو حتى درجة جامعية أصبحت شخصية إعلامية في محطة تليفزيون الميدل إيست الإخبارية بالقدس الشرقية المحتلة. تتحدث علنا وكأنها هي مرجعية مطلعة «من الداخل» على الرغم من أنها مسيحية لبنانية يمينية لا تربطها علاقات حقبة بمواطنيها المسلمين حيث إنها غادرت لبنان إلى إسرائيل بعد المرحلة الثانوية مباشرة. تقوم مكانة جبريل الوظيفية على أساس إطلاق التحذيرات الشوفينية التي تؤكد رغبة المسلمين في تدمير كل ما هو طيب وجميل، وعلى الرغم من فجاجة هذياناتها إلا أنها تتكون بشكل أساسى من سرقات أسوأ الأعمال الأكاديمية الزائفة التي تروج للإسلاموفوبيا مثل كتابات روبرت سبنسر، وستيف إمرسون وبات يانور ورفائيل بطى الذين يذهبون في هذيانهم إلى حد الجنون بحيث تبدو كتابات برنارد لويس أكاديمية وموضوعية بالمقارنة. بيد أن الفضل في

وصول جبريل إلى الجمهور الغربي يرجع إلى كتابين أصدرتهما لها، للأسف، اثنتان من دور النشر المحترمة وهما: «لماذا يكرهوننا: ناجية من الإرهاب الإسلامى تحذر أمريكا» وينبغي أن نوقفهم: لم يجب علينا هزيمة الإسلام المتطرف وكيف نستطيع ذلك؟».

ليست جبريل الوحيدة التى تستعمل لقب «صحفية» لإضفاء ما يشبه المصداقية على كتابات مبتذلة وعلى سيرة وظيفية خالية من المسوغات، نونى درويش مسلمة تحولت إلى العقيدة المسيحية الإنجيلية، وأسست جماعة «عرب من أجل إسرائيل»، تذكر فى سيرتها الذاتية أنها عملت لبضع سنوات فى شركة إعلامية تملكها الدولة بيد أنه ليس ثمة ما يثبت صحة هذا. تمكنت، كابنة لضابط مصرى قُتل أثناء إقامته فى غزة من أن تؤسس لنفسها مكانة فى الأوساط الإنجيلية اليعينية بصفتها «مخبرة من الأهالي»، بنشر عملين دعائيين عُصابيين ضد الإسلام والمسلمين بعنوان «بسموتى كافرة» و«عقوبة غير معتادة» ثم بثت «مقالا» على الإنترنت تتهم فيه الرجال المسلمين بزواج بنات قد يبلغن من العمر عاما واحدا، ثم يتملكونهن لدى بلوغهن التاسعة، ونونى التى لا تملك أية مؤهلات أكاديمية أو بحثية أو مهنية تسوغ لها الحديث عن الإسلام باستثناء «خبرتها» الخاصة وحياتها كمسلمة سابقة، تصور نفسها كضحية ويطة فى آن، وهو أمر معتاد فى كتابات «المخبرين/ المخبرات المحليات» وبخاصة النساء اللاتى يعلنن أراهن المعادية للإسلام.

بعد ٩/١١، ثم بتزايد بعد غزو العراق، تسللت أعداد أكبر من «المخبرات المحليات» إلى إعلام التيار الرئيسي، وتمثل وفاء سلطان النموذج الكامل لهذه الظاهرة حيث تجمع بين الانتهازية ومسوغات «المخبرات المحليات». أبحرت سلطان إلى إعلام التيار السائد الأمريكى تدفعها رياح الإسلاموفوبيا البغيضة التى انطلقت من صندوق پاندورا الملىء بالشروع والذى فتحه تعطش الإعلام لقصاص الرعب التى ترونها نساء مسلمات عن الآباء والأشقاء والأزواج المسلمين. ومثل درويش وجبريل، فإن ما اكتسبته سلطان من شهرة خاطفة لم يكن بسبب قوة روايتها أو مصداقيتها، بل

بسبب تعطش الجمهور الأمريكي واحتياج حكومته إلى رواية تبرر العسكرية الأمريكية، والحرب على أفغانستان والعراق والدمار الذي لحق بهما، والقصف غير المشروع لباكستان واليمن، والدعم العسكري لإسرائيل وإمدادها بالأسلحة الفتاكة لقتل المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين. أما الفرق بين سلطان ونظيراتها فهو أنها تسوق نفسها بصفتها «إخصائية نفسية» هذا على الرغم من أنها لم تمارس المهنة بالولايات المتحدة، كما لم تحصل على مصادقة أو اعتراف من «الجمعية النفسية الأمريكية». لا يعطى لقبها كإخصائية نفسية مصادقية لما تقوله عن «العقل العربي» بقدر ما يمنح التبريرات للسياسة الخارجية الأمريكية باعتبار أن مصدرها شخصية مهنية.

ليس ثمة أسباب قوية تجعلنا نصدق أى شيء تقوله سلطان التي حصلت على وضع قانونى بالولايات المتحدة من خلال ملابس مشبوهة بأن قامت بتقديم طلب إقامة بمقتضى خطة للعفو الشامل اختص بها عن المهاجرين غير الشرعيين العمال اللاتينيين. عملت بمطعم للبيتزا فى جنوب كاليفورنيا، وكانت بين الآونة والأخرى تقوم بكتابة مقالات لموقع إلكترونى سورى/ أمريكى يمينى يملكه مسيحى إنجيلى سورى. أدت دعايتها لنفسها فى الوسائط الإلكترونية العربية إلى تسلسلها وظهورها الأول على قناة فضائية إخبارية حيث استضافها فيصل قاسم فى برنامجه «الاتجاه المعاكس» على قناة الجزيرة (٢١ فبراير ٢٠٠٦)، حيث لم تُصَيِّع على نفسها الفرصة لخلق مشادة خلافية، فى مناظرتها مع شيخ أزهرى «درجة ثانية». مضت تجتر تأكيدات التي اختبرتها حول لا عقلانية الثقافة العربية وقمع النساء ثم هاجمت عدم قدرة الإسلام على السماح بالعلمانية وأصرت على وجوب صنع سلام مع إسرائيل. وعلى حين أن سلطان كانت نكرة مجهولة قبل ظهورها على الجزيرة فقد أक्सبها ذاك الظهور شهرة مؤقتة وسوء سمعة فى الوسائط الإعلامية العربية أيضا، سرعان ما بثت مجموعة MEMRI الإعلامية الصهيونية ترجمة لهذا الحوار حيث تم تداوله فى عدة قنوات مما جعل من سلطان الطفلة المدللة فى أوساط الإسلاموفوبيا المتطرفة. نتيجة لهذا استطاعت أن تؤسس لنفسها كيانا مهنيا فى هوامش الحياة السياسية الأمريكية وأن تشبع رغبة التيار السائد لمزيد من البذاءات اليمينية حول الإسلام.

ومثل كثير من نظيراتها، استطاعت سلطان استغلال النقاشات الخلافية التي ارتبطت بها لتحصل على عقد لكتاب نشرت به سيرتها الذاتية بعنوان «الرب الذي يكره: المرأة الجسورة التي أشعلت العالم الإسلامي تتحدث ضد شرور الإسلام»، حيث كالت الاتهامات غير المسنولة للمسلمين ولثقافة العربية واصفة إياهم بالعصابيين غير الأسوياء نفسياً.

هذا الصف الثانى من «المخبرات المحلية» يتشارك فى الكثير. يتناقض تحولهن السريع من نكرات إلى شخصيات شهيرة مع عدم وجود مؤهلات لديهن تمكنهن من التحدث كمرجعيات عن الإسلام والعالم العربى. كما يتعارض بغضهن العميق للإسلام ودفاعهن المزعوم عن النساء المسلمات مع كراهيتهن الواضحة لثقافة وعقيدة والمجتمعات المحلية لهؤلاء النساء. تسبب تبنى المنظمات اليمينية والإنجيلية والصهيونية لهن فى أن يحصلن على عقود لإصدار كتبهن من دور نشر «محترمة» كانت مستعدة فى تلك الحالات أن تهبط إلى مستوى الصحافة الصفراء. تتبع هذه المشتركات صيغة ثابتة فى صناعة «المخبرات المحلية» فى عالم ما بعد 9/11، حيث يحاولن جميعهن أثناء شهرتهن الاستهلاكية إقامة جبهات ذات صدقية يقاومن منها الانزلاق مرة أخرى ليصبحن نكرات لا أهمية لهن.

من ثم، غدا خلف كل «مخبرة محلية» منظمة أو معهد تولت هى إنشاء. شكلت جبريل «كونجرس الحقيقة الأمريكى من أجل أمريكا Act for America»، الذى يسعى لإقامة أفرع له فى المدن فى جميع أنحاء الولايات المتحدة من أجل «تعليم ملايين المواطنين الحقائق عن عدونا: الإسلام القتالي. وعلى الرغم من تباهى المركز بمجلس مستشاريه المكون من مشاهير الصهاينة اليمينيين ودعاة الإسلاموفوبيا من أمثال روبرت سبنسر وهارفى كوشنر ووليد فارس، فإن جبريل تعترف فى إيميل تحاول من خلالها جمع التبرعات بعدم وجود موظفين أو هيئة عاملين أو مجلس إدارة أو مكاتب أو تمويل للمركز.

وبالمثل أنشأت درويش تنظيمها السياسى النكرة المسمى «العرب من أجل

إسرائيل» وعلى حين أنها تذكر أن التنظيم لا يعادى الإسلام إلا أنه «يتذكر بعميق الأسى والاحترام العرب الشجعان، المعروفين منهم والمجهولين، الذين قُتلوا أو عوقبوا بسبب دعوتهم للسلام مع إسرائيل» فيما يتناسى الأعداد الهائلة من الفلسطينيين الذين قتلوا أو أنزلت بهم أقسى العقوبات لسعيهم السلمى للحصول على الحكم الذاتى وحق تقرير المصير. حينما لم يترك «العرب من أجل إسرائيل» تأثيرا يُذكر أعادت درويش اختراعه تحت اسم «المسلمين المرتدين المتحدين». وعلى حين أن هذه المجموعة كانت من بنات أفكار درويش التى تعمل مديرة لها، إلا أن وفاء سلطان، وابن الوراق (مؤلف «لم أننى غير مسلم» و«دفاعا عن الغرب» بين أشياء أخرى) وغيرهم يظهرون على قائمة المؤسسين لها. ومثل ACT، فإن الأهداف المعلنة لمجموعة درويش هى «تعليم الجمهور الأمريكى وبخاصة السياسيون ومن يعملون فى النظام القانونى للولايات المتحدة حول كيفية تشجيع الشريعة الإسلامية لفرض عدالة الشارع المتشددة وغير القانونية على المرتدين» وأيضاً القيام بالدعاية الكافية عن المعاملة التى يلقاها المسلمون المرتدون، بالداخل الأمريكى وفى أنحاء العالم، من نظرائهم المسلمين بما فى ذلك تهديد حياتهم، والعنف الجسدى، والامتهان، والنبد من المجتمع، والحرمان من الميراث، وتخلّى أسرهم عنهم».

من الأمور الدالة، أنه لا يمكن فصل الموقف «الإصلاحى» و«الناقد» للإسلام لهؤلاء عن تعصبهم/هن لإسرائيل. وفى واقع الأمر، فبمجرد وصولهم/هن الاستهلالى إلى التيار الأمريكى الرئيسى، يجد هؤلاء المخبرون والمخبرات المحليون جمهورهم الرئيسى بين الجاليات الصهيونية الإنجيلية واليهودية ويتلقون تمويلهم منهم وتعمل آلة العلاقات العامة والدعاية الإسرائيلية فى خدماتهم بحيث نجد أن الدرجة التى يدعم بها هؤلاء المخبرون/ المخبرات المحليون/ المحليات دولة إسرائيل صادمة وكاشفة لدرجة أن تحيزهم القاضح يأتى أحيانا بنتائج عكسية. بيد أنه، فليست محتويات بياناتهم وتصريحاتهم أو تكرارهم للدعايات المبتذلة التى عفا عليها الزمن هى المهمة بالنسبة لميكانيزمات الإسلاموفوبيا، وإمبراطورية الولايات المتحدة والسياسات الإسرائيلية،

بل نجد أن وجودهم وتموضعاتهم الهزلية تخدم هدفا مزدوجا. من ناحية، فهم يمثلون نموذجا للاحتضان الغربى والنجاح الذى ينتظر العرب والمسلمين الذين يتحولون إلى البروتستانتية الإنجيلية ويسخرون أنفسهم وهم جاثون لخدمة المصالح الإسرائيلية والأمريكية. ومن ناحية أخرى، فهؤلاء هم «المخبرون والمخبرات المحليون» المطلعون على بواطن الأمور الذين يتمثل دورهم فى إثبات صحة تنميطات الإسلاموفوبيا، ومن ثم تبرير السياسات الأمريكية والإسرائيلية وجعلها ضرورية.

من ثم، تمضى درويش، وجبريل وسلطان يتقيان بصفاقة ودونما خجل الصيغ الأكثر تطرفا من الدعاية الصهيونية اليمينية المعادية للفلسطينيين. يقدم «نموذجا» للإنجيليين المتطرفين، والمحافظين الجدد، والصهاينة اليمينيين على أن بإمكان العرب والمسلمين «المعتدلين» و«المنطقيين» أن ينكروا أن الفلسطينيين قد عاشوا أبدا فى «الأرض المقدسة»، وأن يوافقوا على أن إسرائيل لم تتعامل أبدا مع الفلسطينيين سوى بكل نبل وشهامة وعدالة. وإلى جانب «أكل العيش»، فإن سبب وجود درويش يكمن فى تعظيمها قدر إسرائيل، والتقليل من شأن الفلسطينيين والاستخفاف بهم إلى جانب التشهير بالمسلمين والإسلام. بعيد ظهور سلطان على الجزيرة، سرعان ما أجرى أحد المذيعين بالإذاعة الإسرائيلية حوارا معها، مضى يكرر أثناءه «كم أحبكم». وفيما بعد، وباستثناء ظهور نادر لها فى منافذ إعلام التيار السائد الأمريكية، غدت كل أحاديثها مقصورة على المناسبات التى تقيمها الجهات اليمينية الموالية لإسرائيل.

وبالمثل، فقد تواطأت جبريل مع قوات جيش الدفاع الإسرائيلى أثناء احتلالها للجنوب اللبناني، وبلغت فى انحيازها للصهيونية درجة قال فيها أحد محاورها بصحيفة الجيروزاليم بوست إنها تدمج بين القتال «ضد الإسلام الراديكالي» وبين خلاص الغرب وإسرائيل، وبلى والمسيحيين العرب. أيضا، تعتمد إلى تزيف تمثيل المجموعات المسيحية والمسلمة فى المنطقة مؤكدة أن المسيحيين ظلوا يعيشون لمئات السنين خاضعين لطغيان المسلمين وظلمهم لهم. وفى واقع الأمر، فإن جوهر ميولها الصهيونية وأنشطتها ونظرتها إلى العالم مستمد من إرث الموارنة اللبنانيين الفاشستي

الذي مثل الدعامة الرئيسية لأيديولوجيا حزب الكتائب اللبناني الانتهازية وجيش لبنان الجنوبي العميل لإسرائيل أثناء الحرب الأهلية. تتمحور مهمة جبرييل وجبهة ACT وأنشطتها المدنية حول ضمان أن يظل «المسؤولون المنتخبون في الولايات المتحدة متيقظين فيما هم يؤدون واجباتهم للدفاع عن الولايات المتحدة وحليفاتها إسرائيل، الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط وحمايتها» وأيضاً «أن يتم تدريب الأعضاء على اليقظة والرد السريع على التحيزات الإعلامية المناهضة للولايات المتحدة وإسرائيل ومعها السلوكيات الاجتماعية والسياسية والدينية».

قد يكون أكثر ما يثير القلق حول القائمة B من دعاة الإسلاموفوبيا المحليين/ المحليات هي الدرجة التي يتوحد بها التيار الرئيسي إليهن/ إليهم على الرغم من أصولهن/ أصولهم اليمينية المتطرفة ومواقفهن/ هم المعلنة. وفيما تكمن عائداتهن/ هم المادية في صلاتهن/ هم بالدوائر الإنجيلية المتطرفة والصهيونية، فقد تم الدفع بهن/ هم قدماً إلى واجهة التيار السائد بحيث أصبح هذا الاعتراف بهن/ بهم المصدر الرئيسي لمصادقتهن/ هم. ولا تعتبر هذه العملية علاقة طفيلية بأية حال، فعلى حين أن سلطان وجبرييل ودرويش طفيليات يفتتن على بغض الأمريكيين للإسلام وحنقهم على المسلمين إلا أن الإعلام الأمريكي والتنظيمات السياسية والمجموعات الدينية بالولايات المتحدة قد استخدمتهن بصفتهم مُطلعات على بواطن الأمور وحولتهن إلى أدلة تعمل على تحويل الإسلاموفوبيا إلى ظاهرة اجتماعية وثقافية، هذا علاوة على أن ما نقلته وتكتبته ضد الإسلام أصبح الأساس الوطيد الذي قامت عليه العسكرية الأمريكية. في عام ٢٠٠٦، اختارت تايمز مجازين، بأسلوب غير مسئول، وفاء سلطان واحدة من بين الشخصيات المائة الأقوى تأثيراً حيث إن «شكيمتها وموهبتها ونموذجها الأخلاقي يجعلها قادرة على تغيير العالم، وهذا ما هو حادث فعلاً». لدى نقاشنا لإيان هيرسي على، سنرى كيف أن قائمة تايم مجازين للشخصيات المائة الأكثر تأثيراً ظلت باتساق تُعلّي من شأن دعاة الإسلاموفوبيا لمستويات من الصدقية لم تكن متاحة من قبل. بيد أن مسار المخبرات المحليات للشهرة والمجد لا يقتضى أبداً أية مؤهلات أو

خبرة أو إنجازات. لا تحمل سلطان، مثل درويش أية درجة جامعية متقدمة فى مجال علم النفس أو العلوم السياسية أو الدراسات الدينية أو الأنثروبولوجي. وفيما أنها تزعم أنها حاصلة على درجة جامعية فى علم النفس، فليس لديها ما يثبت أن لديها أية خبرة إكلينيكية أو أنها مارست المهنة فى سوريا، وطنها الأصلي.

فى واقع الأمر، فإن الصف الثانى من المخبرات المحليات من أمثال جبريل ودرويش يعتمدن فى وجودهن على دعم المحافظين الجدد، والتنظيمات المسيحية الصهيونية، والمجموعات السياسية ومراكز الأبحاث والشبكات الإعلامية بالولايات المتحدة، حيث إنهن مديونات بكل شهرة أو «مجد» حصلن عليه إلى تلك الشبكة، وما تتمتع به هذه المجموعات من نفوذ على إعلام التيار السائد الأمريكي، وعلى التنظيمات السياسية، وتلك علاقة تكافلية وإن لم تكن متسقة. تعتمد تنظيمات ونشطاء الإسلاموفوبيا من أمثال «فريدوم سنتر» الذى يديره هورويتز على الأصوات المحلية لتعزيز رواياتهم وإثباتها. وتزويد الجماهير الأمريكية من الراغبين بأكثر الشهادات والأقوال تطرفا عن الإسلام والمسلمين، والتى يعمل مصادرها المحلية على عدم اعتبارها «عنصرية» كما لابد وأن يكون الحال لو أن مصدرها غير محلي. وفى واقع الأمر، فقد ظلت درويش وجبريل وسلطان أحد الملامح الثابتة فى المناسبة السنوية التى يقيمها هورويتز بعنوان «أسبوع الوعى بالفاشية الإسلامية». وبدورهن، تعتمد تلك الأروقيات المدعيات على مجموعات الطلبة اليمينيين، وتجمعات المسيحيين الإنجيليين، والمنظمات الصهيونية المتعصبة كوسائل لكسب معاشهن.

هنا تدخل قائمة A للدعاية: الضحايا الأبطال / البطلات

على الرغم مما حققته سلطان ودرويش وجبريل من إنجازات فى أوساط مجموعات المصالح الموالية لإسرائيل واليمينية، إلا أنهن مازلن من الهواة بحيث لا يستطعن إخفاء انتهازيتهن بدرجة كافية مقارنة بغيرهن من المخبرات المحليات اللاتى حققن نجاحات هائلة على المستوى الإعلامى من أمثال أيان هيرسى على وإرشاد منجي. وعلى حين أن هيرسى على ومنجي، ومثل نظيراتها فى القائمة B لا يملكن مؤهلات

علمية أو أكاديمية تمكنهن من التعليق المرجعي على الإسلام، فقد تمكنت كلتاهما من اكتساب صيت كناشطات وأكاديميات بناء على مزاعمهما عن اطلاعهما على بواطن الأمور في العالم الإسلامي بحيث وصلتا إلى عمق الأعماق بين جماهير التيار السائد وحققتا «مصادقية» كبيرة. يرجع هذا جزئيا إلى فطنتهما حيث إنهما لم تتحالفا بشكل حصري مع المنظمات الإنجيلية مثلما فعلت درويش وجبريل. أفادت هيرسى على (الصومالية) ومنجى (الكندية التي ولدت في أوغندا من أصول مصرية وجنوب آسيوية، حسبما تزعم) من سمار بشرتهما وجاذبيتهما في الصور التي تبدوان فيها ككائنتين من أراضٍ قصية تتصرفان وكأنهما هما نبيتان ونذيرتان تحذران الجماهير من أخطار الإسلام والمسلمين في وقت تسعى فيه أمريكا البيضاء للعثور على أوجه سمراء تثبت صحة اعتقاداتها العنصرية وتروج لها.

تحقق هيرسى على ومنجى نجاحات بأساليب لا تملك القائمة B سوى تمنّيها. تخفيان جعجعتهم ورطانتهم في الهجوم على الإسلام والمسلمين في هيئة توجهات نسوية «ناقدة للذات» وتبنيان رواية تتحدث لصالح المسلمين وضد الإسلام، فيما لا يجد إعلام التيار السائد أية غضاضة في تجاهل تناقضاتهما. وجدت الرواية التي تقمصتا فيها دور المدافعات عن تحرير المسلمين ضد طغيان دينهم أرضا خصبة في شمال أمريكا وأوروبا ما بعد ٩/١١ حيث كان قد تم إعادة ترتيب الخطط السياسية وتسخير الموارد في تلك البلاد بالكامل من أجل شن «الحرب على الإرهاب». يوضح تظاهرها بالولاء لارتباطاتهما «الليبرالية» المبكرة - هذا على الرغم من تبنيهما لرواية اليمين حول المهاجرين والمسلمين بالخارج - افتقادهما للنزاهة بدرجة أكبر. أيضا، فإن تقمصهما لشخصية كاسندرا Cassandra^(١) غذى رغبة الجماهير في العثور على «ضحايا للإسلام من بين معتنقيه لتبرير «ثأر» حكوماتهم من المسلمين، في الداخل والخارج، والذين كانوا يعتبرونهم مسئولين عن الهجمات على واشنطن ونيويورك.

(١) نبية إغريقية أسطورية تنبأت بشروع مستطيرة كانت علي وشك أن تحل بقومها ولم يصدقها أحد حتي فوات الأوان [الترجمة].

وفى الواقع فإن هيرسى على ومنجى تعلنان بصراحة، بل وبأسلوب هستيري، أن عليهما «إيقاظ الغربيين» من أوهامهم الرومانسية بأن الإسلام دين سلام وتسامح. تجد مزاعمهما وهجماتهما قبولا سهلا لدى الجماهير فى الغرب وتغذى دافعهم للنار من أحداث ٩/١١. حيث إن هيرسى على ومنجى لا تفتان تؤكدان أن تلك الهجمات لم يرتكبها «مجاهدين مسلمون هامشيون، بل إن ذلك العنف هو من سمات الإسلام الأصيلة». بهذا، فهما تتبعان خطاب صدام الحضارات الذى ابتدعه لويس ثم اكتسب شعبية عارمة بعد كتاب هنتنجتون، حيث تصران على أنها معركة بين حضارتين. وبأسلوب يستدعى معه مبدأ جورج دبليو بوش «إما معنا أو ضنا» فإنهما ترسمان خطأ واضحا بين «الحضارتين»، و بهذا تُجيبان بوضوح ويصفتهما امرأتين سمرائين على سؤال منجى: «أى حضارة يجب أن أمنحها ولائى؟».

لا تخفى هؤلاء المخبرات المحليات انتهازيتهن. مثلا، تعترف هيرسى على فى سيرتها الذاتية التى تمجد فيها نفسها بأنها انشقت على حزب العمال الهولندى الذى منحها الإرشاد والدعم التعليمى وفرصة العمل حينما كانت تسعى للجوء السياسى بهولندا لتنضم إلى منافسه اليميني VVD وركبت موجة المشاعر المعادية للمهاجرين والمسلمين، عقدت هيرسى على مع حزب VVD العنصرى اتفاقية تخدم مصالحهما معا بأن تكون هى مرشحة الحزب فى الانتخابات البرلمانية وأن يتركز برنامجها على معاداة الهجرة والمهاجرين، فيما بعد، حدثت مفارقة وأخذت العدالة مجراها حينما أُجبرت هيرسى على على الاستقالة من عضوية البرلمان بعيد انتخابها لأنها وُجدت مذنبه بارتكاب إحدى التهم التى كانت توجهها إلى المهاجرين فى حملتها عليهم، إذ اكتُشف أنها زوّرت الأسباب التى من أجلها هاجرت إلى هولندا وجعلتها مؤهلة لحق اللجوء السياسى، حيث إنها كذبت على السلطات حول الدوافع التى جعلتها تترك وطنها الصومال. نتج عن هذه الفضيحة سقوط حكومة VVD فيما بعد وحرمان هيرسى على، مؤقتا، من المواطنة الهولندية. لكنها، وبأسلوب انتهازى كلاسيكى، كانت قد قامت بترتيب استراتيجية للخروج فيما كانت مازالت عضوا بالبرلمان،

وتركت هولندا «الحبيبة» لتقبل منصبا بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت فى واشنطن
دى سى. وفى نفس الوقت، ظلت الترجمة الإنجليزية لكتابها «الكافرة Infidel» على
قائمة النيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعا لأسابيع عدة.

وعلى الرغم من أن مسار منجى للشهرة لم يكن مثيرا كمنظيرتها هيرسى على إلا أنه
لا يقل عنها من حيث المهارة والانتهازية. ومثل هيرسى على، فقد استخدمت ذخيرتها
كامرأة مسلمة، بل وأيضا كامرأة مثلية مسلمة، كى تحول شخصيتها العامة التى
تقمصتها من مضيعة من الدرجة الثانية فى برنامج حوارى للمثليين بإحدى القنوات
الفضائية الكندية، إلى «عالم» دولية فى شئون الإسلام. قذف بها كتابها «مشكلة
الإسلام» الذى حاز شعبية كبيرة إلى أفاق رحبية فى الحياة السياسية والإعلامية
الكندية تبعد مسافات كبيرة عن وظيفتها الباهتة فى التلفزيون الكندي. أكثر ما يثير
المخاوف بشأن منجى هو السرعة الفائقة التى أصبحت بها رطانتها المبتذلة وحياتها
الوظيفية الانتهازية جزءا من التيار السائد. وعلى الرغم من أنها تسمى نفسها
«أكاديمية» مثقفة إلا أنها لا تحمل أية درجة جامعية متقدمة تؤهلها للحديث كمرجعية
عن الإسلام والنساء والثقافة الإسلامية، وعلى الرغم من ذلك، فقد تمكنت من التسلل
إلى جهات شبه أكاديمية مثل «المؤسسة الأوروبية للديموقراطية» و«مشروع الشجاعة
الأخلاقية» بجامعة نيويورك ذى الارتباطات الملتبسة بمركز أبحاث القيادات للفعل
الإيجابى والذى يقع فى كلية الدراسات العليا للخدمة العامة التى أنشأها إف واجنر
حيث تعمل منجى أستاذًا زائرا. بيد أنه، تظل طبيعة «مشروع الشجاعة».. وعلاقة
منجى بجامعة نيويورك، وسؤال ما إن كانت مقيدة بكشف الرواتب بالجامعة، ومدى
إسهامات الجامعة فى أنشطة المشروع.. إلخ غامضة عن عمد، فيما تظل مسيرة
منجى الوظيفية نموذجا للمهارة فى التكيف والتشكل والدعاية المبتذلة لنفسها.

لا يتميز كتاب منجى «مشكلة الإسلام» أو كتاب هيرسى على «الكافرة» بأية بصيرة
أو بلاغة أسلوبية أو تحليل إبداعى، بل العكس، فلم تفعل سوى تبني أطروحات برنارد
لويس وفريد زكريا ونماذجها المعيارية. بيد أن تقشى الإسلاموفوبيا فى جميع

أوساط الطيف السياسى فى كندا وأمريكا بعد ٩/١١ دفع بهما إلى أفاق الشهرة وتحديدًا لأنهما رددتا، كنساء مسلمات، ما ظل لويس وزكريا يقولانه، بل إن موجة الإسلاموفوبيا كانت من القوة بدرجة أكسبتهما شيوعاً إعلامياً فى برنامج أوبرا، وفى التايم مجازين التى اختارت هيرسى على إحدى أكثر الشخصيات تأثيراً عن عام ٢٠٠٥، هذا على الرغم من التهم التى وجهت إليها فى هولندا وحرمانها من عضويتها بالبرلمان. وعلى الرغم من أن دعايتهما الفجة وتحريضهما على كراهية المسلمين قد فقدتا بعض الزخم فى زمن إمبراطورية أوباما الأكثر نعومة، تظل هيرسى على ومنجى تسهماً بانتظام فى مراجعات الكتب وكتابات الرأى فى صحف تزعم الموضوعية مثل الإنترنت ناشونال هيرالد تريبيون والنيويورك تايمز.

وبالتقابل مع لويس وزكريا، تزعم هاتان المرأتان، زوراً، إتقانهما للغة العربية هذا على الرغم من أن أية قراءة عابرة لما تكتبانه تكشف عن عدم إلمامهما بأساسيات اللغة حيث إنهما حينما تُحيلان إلى العربية فى كتبهما نَتَبِينَ أخطاء نحوية ولفظية مُزرية. يعنى هذا عدم قدرتهما على فهم المصادر «المحلية» التى تحيلان القارئ إليها بالرغم من مزاعمهما أنهما خبيرتان فى مواضيع كتابتهما. يفضح هذا سوء النية والأجندة السياسية التى تكمن فى جوهر كتابتهما، بل وأيضاً أجندة الوسائط الإعلامية التى تنشر لهما والتى لا بد وأن بإمكانها استشارة مرجعيات مُلمّة بالموضوع.

علاوة على هذا، لا تحوى كتابات تلك المرأتين أية بصيرة عميقة أو معقدة. تحاول هيرسى على متعثرة تبني لهجة تأملية وقورة تخفى بها روايتها التنبئية المنذرة: «حينما يقول الناس إن قيم الإسلام هى التراحم والتسامح والحرية أنظر إلى الواقع، إلى الثقافات والحكومات الموجودة، وأكتشف أنها ببساطة ليست كذلك، ثم تمضى تقول «يتقبل الناس فى الغرب مثل هذه الأشياء بسذاجة خشية اتهامهم بالعنصرية». وانتهى بصيرتها البطولية فى ٢٠٠١ حينما - كما تقول - «فُتح المصراع فى خلفية عقلى حيث تدفقت جميع أفكارى المتنافرة، وفُتحت عقلى بعد ٩/١١، ورفض الانغلاق مرة أخرى». وبالتقابل، نجد أسلوب منجى الخطابى يتميز بالحميمية والتعالى فى

أن. فإلى جانب وعظها المسلمين وإهانتهم بأسلوبها الذى يبدو عفويا بل ومسترخيا، فإنها لا تعتمد على البصيرة النقدية، أو سعة الاطلاع والتحليل بقدر ما تعتمد على التعبيرات الصبغانية الدارجة.

ورغم اختلاف تكتيكاتهما الخطابية، فإن هيرسى على ومنجى تتشاركان فى نهج يرأسى النموذج المعيارى لكتابات المخابرات المحليات: يستمدان مرجعيتهما للتحدث من مجرد «صدقية» كونهما مسلماتين. من ثم، يُعتبران نمطا لكل تلك الظواهر والرموز: تقوم المجموعة المهيمنة باختيارهما وتبنيهما والترويج لهما على أساس استعدادهما للأداء بما يتوافق مع احتياجات المجموعة - فى هذه الحالة حربان على بلدين مسلمين، وحرب ثالثة ضد إيران يتم التصعيد بالكونجرس من أجل شنّها، وفرت مواقفهما التى تدعيان أنها قديمة أخلاقياً، والتى تعمل على الحط من شأن المسلمين وبخاصة المسلمون العرب، لصناع السياسة والإعلاميين الأمريكيين مصدرا يستندون إليه فى أرائهم عن عدم الاتساق المطلق بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية.

الكتابات المبتذلة كحقائق: إرث لويس وزكريا والصحافة الصفراء:

لا تخرج كتابات هيرسى على ومنجى عن كونها نسخا مبتذلة مصغرة من كتابات لويس وزكريا من دون القشرة البراقة لحسن الاطلاع والذكاء والاتساق التى تتسم بها كتابات هذين الأخيرين. تستخدمات فى كتاباتهما سلسلة من الأساليب الخطابية التى تشكل واجهة نحيلة لأطروحاتهما ذات الطبيعة الكلية المعمة. ونظرا لعدم إمكان صمود المنطق المتلفف لهجماتهما الدعائية نجدهما تعتمدان على منطق قياسي مشترك، ومجموعة مشتركة من الأساليب الخطابية: التعميمات، التفكير الاستنباطي، الإدانة لمجرد الارتباط، لوم الضحية، قلب الأدوار، الاستخدام الانتقائي للمصادر، وطمس القضايا وخططها. تستخدمان ضمير المتكلم فى روايتهما لكنهما أيضا تملأن الثغرات الذاتية فى روايتهما الشخصية بتحليل يبدو موضوعيا ومرجعيا وأكاديميا مأخوذاً عن لويس وزكريا وأمثالهما. لم يوفر لويس وزكريا فقط «الحقائق» التى تستند إليها المخابرات المحليات، بل أيضا البنية المحددة بصرامة للخطابات العامة عن الإسلام، والثقافة الإسلامية والمسلمين.

يوفر منظور ضمير المتكلم قدرا من الحرية غير متاح لأمثال لويس وزكريا وتوماس فريدمان ودانييل بايس. يعفى الصوت الذى يستخدم فى رواية السيرة الذاتية الحكايات «المونولوجية» غير المترابطة من التزامات الاستشهاد بالمصادر، أو الدقة التاريخية أو أية صرامة أكاديمية تعمل على إضفاء درجة من الموضوعية. مثلا، باستطاعة منجى أن تجزم باسم التلقائية وعدم «الرغبة» فى ذكر المصادر، أنه حينما «يضطلع العرب بوضع أجندة الإسلام فإنهم يوضحون بما لا يدع مجالا للشك الكيفية التى حل بها الترويع محل العقل فى الإسلام. وأنه مثلما غدا العقل العربى مرتبكا ومشوشا فكذا غدا العقل الإسلامى. وعلى حين أن «حقوق النساء» فى الإسلام كانت صيحة حرب أطلقها لويس وزكريا، تسهم المخبرات المحليات من أمثال هيرسى على ومنجى بدرجة كبيرة فى الدعاية الهجومية ضد المسلمين والعرب فى تعليقاتهن على مواقفهم من الجندر وتوجهاتهم وممارساتهم الجنسية وتعتبر قضية الجندر من الخطابات القوية المعادية للإسلام لأنها تجد صدى من طرفى الطيف السياسى الأمريكى حيث يتوحد أنصار الليبراليين «التقدميين» مع نقضائهم من المحافظين الجدد والإنجيليين المتعصبين حول قضية النساء فى الإسلام، يجذبهم إليها تعصبهم العنصرى والدينى.

ليس ثمة أية كتابات للتيار السائد تصور ممارسات المسلمين الجنسية على أنها غير سوية وشائنة بأكثر من كتابات هيرسى علي، فبحسب ما تقوله، يعانى المسلمون من فسوق وفساد ثقافة نبيهم، تلك الثقافة التى تقوم على التراتبية والإذعان، ومن ثم على التشيؤ الجنسى للنساء. يعيد المسلمون إنتاج تلك الثقافة التى عفا عليها الزمن والتى تميزها «الأخلاقيات الجنسية» الإسلامية القائمة، حيث لا تتعدى النساء كونهن من أملاك الذكور القيمين عليهن».

علاوة على ذلك، تقول هيرسى على إن الإسلام كـ «ثقافة شاملة» يتميز بالإحباط الجنسى، مما يؤدى إلى أن يكون كل رجل مسلم «مغتصبا محتملا»، لذا نجد العنف ضد الفتيات والنساء شائنا روتينيا متقبلا. تزعم فى كتبها «العذراء فى القفص»

و«الكافرة» و«الببوى الرخال» أن الإسلام يجعل رجاله يماثلون التيوس [ذكر الماعز] حيث يجد الرجل من هؤلاء نفسه، وبأسلوب قسرى «يركب» الأنثى بمجرد أن يراها: «حينما يبصر الرجل المسلم امرأة سافرة يقوم على الفور بالوثوب عليها، حيث لا يجد الرجل المسلم أى سبب يجعله يتعلم التحكم فى النفس. حينما يرى الرجال المسلمون امرأة، لا يمكنهم التحكم فى شهواتهم، وما صغار الفتيات المسلمات سوى «ماعز- ضحايا سهلة» يغتصبهن «التيوس» من الرجال المسلمين المنحرفين.

تخبرنا هيرسى على أنه على الرغم من أن جميع الثقافات الإسلامية تشترك فى تلك «الأخلاقيات الجنسية» إلا أنها مستمدة أصلاً من القيم العربية القبلية. ونظراً لما تضيفه عليها نشأتها فى ثقافة إسلامية من مرجعية، تستطيع هيرسى على توجيه الاتهامات النمطية المتداولة دونما مساءلة: «العالم الذهنى للإسلام هو انعكاس للركود الذى وقع فيه هذا الدين أسيراً بعد مولده ببضعة قرون» بل إنها تتعدى كل حدود تقول «وفقاً لمعاييرنا الغربية فإن محمداً شخص منحرف وطاغية. بل إنه ضد حرية التعبير، وحقاً فهو شخص حقير، نموذج لحكام الشرق الأوسط المصابين بجنون العظمة مثل صدام حسين والخمينى وأسامة بن لادن».

وباستخدامهما ضمير المتكلم تقدم كل من هيرسى على ومنجى شهادتهما على أن الانحرافات الجنسية للرجال المسلمين مصدرها الانحرافات المتأصلة فى الثقافة العربية المتخلفة، ويعتبر هذا تنوعاً آخر على تحليل لويس وزكريا اللذين يذهبان إلى أن مشكلة الإسلام لا تكمن فى الدين نفسه بقدر ما تكمن فى ثقافة مُنشئه الأوائل وقياداته من العرب وفى عقولهم. وبتبسيط شديد، ترى هيرسى على أن الإسلام يقوم على ثقافة الخضوع [الاستسلام] والتراتبية ومصدرها ثقافة العرب الصحراوية حيث يقوم عالمه الذهنى على علاقة استسلام المسلم لله وخضوعه له والتى هى نموذج لجميع العلاقات الاجتماعية حيث يخضع الرجل لله، والمرأة للرجل، والأطفال للنساء وغير المسلمين للمسلمين. من ثم، تقول هيرسى على إن بنية الإسلام هى بنية الثقافة العربية وانعكاس لما أصاب هذا الدين من تأسل وركود.

وفيما تتقمص هيرسى على شخصية العلمانية الراديكالية ومنجى الإصلاحية

المسلمة، تتبع كلتاهما ادعاءات لويس بأن الإسلام يعكس نقائص الثقافة المحلية المتخلفة التي نشأ فيها وعيوبها. تقول هيرسى فى كتابها الأول إن الأخلاقيات الجنسية المستمدة من القيم القبلية العربية تهيمن على الدين. وعلى النقيض لرؤية الباحثين والأكاديميين من غير المسلمين، تجزم بأن القرآن ما هو إلا نسخة قبلية من الأحداث التاريخية وأنه أدى إلى نشر ثقافة وحشية متعصبة مثبتة على التحكم فى النساء، والضرارة فى الحروب. وفى الواقع، فإن هيرسى على ومنجى تتجاهلان الحقائق التاريخية بأن الإسلام منح النساء حقوقاً أنكرتها عليها الثقافة قبل الإسلامية بل والثقافة الأوروبية حتى بعد ظهور الإسلام بقرون طويلة، وأن الحجاب مستورد من الثقافتين الساسانية والبيزنطية.

ومن الواضح أن أيا من هاتين «المطلعتين على بواطن الأمور» لم تقرأ الشعر الكلاسيكى ما قبل الإسلامى الذى يصور ما تمتعت به النساء آنذاك من حقوق مثل حق الاجتماعات والحركة والتعبير عن آرائها السياسية واختيار شركاء حياتها. لم تذكر أى منهما أن الثقافة العربية الإسلامية لم تؤد إلى ظهور ثقافة أحزمة العفة أو حرق الساحرات، أو أن الإسلام كدين لم يحرم النساء من إنشاء المساجد أو دخولها كما حرمتهم البروتستانتية والكاثوليكية من إنشاء الكنائس.

من المغالطات التاريخية الزعم بأن الرسول كان من أوائل دعاة التوجهات النسوية كما نعرفها الآن أو أن مقدم الإسلام عمل على تحرير نساء الجزيرة العربية فى القرن السابع بالمعنى الذى يسعى إليه النسويون الغربيون فى القرن الحادى والعشرين، بيد أن «المخبرات المحلية» المتحذقات يرفضن الاعتراف بالأبحاث والدراسات الأكاديمية، التى تناقش أهمية النساء فى حياة الرسول بمن فيهن زوجته الأولى خديجة التى كانت سيدة أعمال تكبره بخمسة عشر عاماً- أو الدور النشط الذى لعبته آخر زوجاته، السيدة عائشة. من المفارقات أن دعاة الإسلاموفوبيا الغربيين يستخدمون خطبة الرسول لعائشة وهى فى التاسعة من العمر ليُجرّمونه بدلاً من أن يتحدثوا عن الدور السياسى والاجتماعى التكوينى المركزى الذى لعبته السيدة عائشة فى مجتمعه المسلم بسبب ما أوتيت من علم وما تمتعت به من مكانة.

تحكم «المخبرات المحليات» من أمثال هيرسى على الخبراء المتخصصين بأنهم «محللون أغبياء بدرجة تثير الحنق وبخاصة هؤلاء الذين يسمون أنفسهم مستعربين ولا يكادون يعرفون شيئا عن واقع العالم الإسلامي». وبالطبع، لا ينطبق هذا إلا حينما تُثبت الأبحاث الأكاديمية عدم صدقية مقولاتهن الخطابية الجازمة.

وفيما ترفض هؤلاء المدعيات الأبحاث والدراسات الأكاديمية الحديثة التي راجعها وعرضها أقران من قاموا بها ونظراؤهم، فإنهن يقبلن الدراسات الزائفة التي يستنبطها الخبراء «المحليون» مثل المدعو ابن الوراق الذي تمتلئ أعماله باستشهادات من القرآن ومن مصادر كلاسيكية، خارجة عن سياقها وبذلك - وبحسب المتخصصين في الدراسات الإسلامية من المسلمين وغير المسلمين - تعمل على تحريف تلك المادة تماما وتسئ استخدامها من أجل خدمة الأهداف الأيديولوجية. لكن من الأمور الأكثر دلالة أن هؤلاء المدعيات، وفيما يشهرن بمعظم الدراسات المعاصرة، نجدهن يُلَوِّحْنَ بأعمال سفهاء الأكاديميين والمرترقة من الصهاينة اليمينيين من أمثال لويس وفريدمان وزكريا ودايفيد پرايس - جونز وبات يئور بصفتهم مصادر أكاديمية مصدقة.

تتم شيطنة الرسول بأساليب لا بد وأن ينظر إليها على أنها عمل فاضح مشين وغير مقبول إذا تعلق الأمر بالرموز الأكثر قداسة لأي دين آخر. يعمد مدعو العلم والمعرفة العنصريون هؤلاء إلى قلب ما قام به الرسول رأسا على عقب كي يضمرو معنى نقيضاً لمقصد الرسول. يقال، مثلا، إن رسالته حظرت وأد الإناث وذلك لأنه كان يعشق صغار الفتيات. وإذا قيل إنه كان «سياسيا ممتازا محنكا» فإنه انفتح على اليهود ومدّ الأيدي لهم قيل إن تلك «الإيماءات المحببة» كانت مجرد حيل سياسية «لإبعاد الانتباه عن جانب الإسلام الخبيث الخفي». وبحسب هيرسى على ومنجى، فقد كان محمد النموذج الأصلي للرجل العربي الذي أضفى انحرافات وسلطويته على الدين الذي جاء به. إضافة إلى هذا فهما يريانه «رجلا قاسيا تطلّب السلطة المطلقة ومنع نمو الإبداع بأن وضع قيودا على الخيال وقصره على المسموح به فقط». وإلى جانب ميوله الجنسية ونزعاته الشخصية، فقد خلق الإسلام في صورة ثقافته العربية

وكلاهما مستمد من «العقلية القبلية» أو، وكما تكرر منجى دائما «عقلية العرب الصحراوية».

تسببت هذه العقلية الصحراوية في «زواء» العرب في العصر الحديث حيث تطاردتهم عدم قدرتهم على «إقامة مؤسسات ديموقراطية تحمى الحق في الحرية الغربية وتضع القيم النسبية للمعرفة العلمية والحكمة الدينية موضع الممارسة».

تذكرنا منجى في تحليل استلهمته من لويس وزكريا، ومن دافيد پرايس - جونز المستعرب البريطاني الذي ينتمى للمحافظين الجدد، والمستعد مباشرة من أعمال بات يائور التي تبث كراهية العرب، تذكرنا أن «الذهنية العربية قامت بتصنيع مفهوم أهل الذمة» الذي يثبت أن العرب فيما كانوا يقدرون مهارات الأقليات المسيحية واليهودية وذكاهم ويستغلونهم، فقد كانوا في ذات الوقت يشعرون بالغيرة والارتباب منهم، هذا على الرغم من اعتراف مرشدها لويس بأن اليهود ظلوا دائما يشعرون بالآمن في العالم الإسلامي بأكثر مما يشعرونه في الغرب. لكن الأسوأ من كل هذا بحسب منجى، هو أن عدم كفاءة العرب ودونيتهم لا تحتويها حدود جزيرتهم وثقافتهم المغلقة فقط بل إنها انتشرت من خلال هيمنتهم على الإسلام. تزعم منجى أن هذه الذهنية العربية هي مصدر شرور الإسلام والتي غدت تغذيها الآن البترو دولارات: «أُتقنت السعودية فن استعمار المسلمين» من ثم غدا المسلمون الآن في جميع الأنحاء يعانون «ضربات سياط الصحراء» وقتونة «الثقافة العربية الإمبريالية»، ويُجبرون على الخضوع «للتخلف الأخلاقي المتوطن فقط في سياق التاريخ العربي».

أنتجت أخطار تلك العقلية الواقع السياسي الكوكبي حيث نجد، على سبيل المثال أن «إسلام الصحراء قد شوّه واقع أفغانستان وقولبه في هيئة الحكومة الدينية في السعودية». يجعل هذا المزيج المؤلف من «عقلية الصحراء» التي هي جوهر الإسلام التقليدي، والجيوب العميقة من الوهابية، من الإسلام خطرا كوكبيا وذلك لأن المسلمين اليوم «ليسوا مجتمعا دوليا بقدر ما هم قبيلة عربية».

حينما يتعلق الأمر بربط التطرف الإسلامي المعاصر بثقافة التيار السائد العربية

لا نجد أى لبس لدى هيرسى على ومنجى حيث تقول الأخيرة بوضوح إن أسامة بن لادن، هو النتاج الطبيعي للثقافة العربية الإسلامية، ثم تتسائل بعبيثية وابتذال «أهى مجرد صدفة أن يقضى بن لادن كل هذا الوقت فى الكهوف مثلما كان يفعل محمد فى خلواته التأملية، إن لاهوته [بن لادن] لاهوت قبلى يساوى بين الوحدة والتنميط، وكل ما يقدمه هو مزيد من ديكتاتورية الصحراء». الرسالة واضحة للجماهير العربية والأمريكية: إن مبررات «الحرب على الإرهاب ثقافية وحضارية».

الغسل والسياسات الارتكاسية:

بصفتها «مخبرتين محليتين» توفر هيرسى على ومنجى بعدا جديدا، للآراء الجازمة التى تعترفان بأنهما اقتبسستاها من لويس وزكريا وتطرحانها باستخدام ضمير المتكلم. ويصفتها شاهدتين مزعومتين من الداخل، يصبح بإمكانهما سرد أصول كراهية المسلمين للغرب وملابساتها ودوافعها بصوت «مسلم» و«حقيقي» تتقبله الجماهير. ترويان قصة دونية ثقافية تعيق الثقافة العربية الإسلامية عن الاتساق مع الحداثة. ومن داخل إطار الثقافة الإسلامية، تمدنا الاثنتان بمشاهد تدعم ما يقال عن غباء المسلمين وتعصبهم، وميولهم الجنسية العدوانية والعنف الذى يمارسونه. وعلى حين أن هذه المشاهد تواكبها أحيانا أمثلة عابرة من تخلف المسلمين فى إفريقيا وجنوب آسيا، إلا أن بؤرة تركيز هيرسى على ومنجى هى المسلمون العرب. المقصود بالمشاهد والأمثلة هى أن تكون نظائر لعدم تكيف العرب والمسلمين مع المجتمع العالمى الحديث. بتعبير آخر، فإن سبب جهل المسلمين فى العالم الإسلامى هو تخلف الثقافة العربية، وأن أصول كل فشل اجتماعى وسياسى للمسلمين هى «الأخلاقيات الخائقة» الكامنة فى بنية العرب الأساسية.

وفى واقع الأمر فإن لويس يفسر التضمينات الكاملة لهذا الفراغ الأخلاقى فيقول «ما زالت الذرية غير الشرعية للقومية العربية والاشتراكية العربية موجودة فى عدد من الدول الإسلامية التى حافظت على أسلوب حكم فاشي/ نازي/ وعلى تلقين تلك المبادئ الاستبدادية لمواطنيها. تتكرر تلك الاتهامات وهذا المنطق فى جميع أعمال

دعاة الإسلاموفوبيا و«المخبرات المحلية» حيث نجد هيرسى على تقول إن مقاومة الإسلام تعنى مقاومة النازية ومعاداة السامية وبالمثل، تتهم منجى الفلسطينين بأن لهم ميولا نازية بل وبالتواطؤ فى الهلوكوست، وتؤكد أن المبادئ النازية تلهم العرب وبخاصة معاداتهم للسامية. كما يروج العرب الأساطير والبروباغندا النازية فى تصويرهم لإسرائيل والجنود الإسرائيليين.

وباستنادهما إلى لويس وزكريا، تؤكد هيرسى على ومنجى وأمثالهما أن النزوع الخطر للثقافة الإسلامية ليس صدفة تاريخية. ومن جانب آخر، يوضحن أن سجل الغرب البشع وما يحويه من حربين عالميتين، وإمبريالية واستعمار وأعمال القتل الجماعى والتطهير العرقى هو مجرد أمور عابرة فى تاريخ من الالتزام المتسق بحقوق الإنسان والحرية والتعبير عن الذات، إذ إن الفرق بين الغرب والشرق الإسلامى هو أن التطرف والتعصب خصائص ثقافية ناجمة عن «إسلام الصحراء»، أى متأصلة فى حضارة العرب المعاصرين عصر الأوسطية التوسعية الكارهة للنساء.

تنتهى منجى إلى أن القرآن «لا يعبر عن جهل شمولى فقط بل عن تخلف أخلاقى أيضا فى سياق التاريخ العربى». تجتزئ فكرة أن العرب هم أصل تخلف المسلمين مباشرة من أعمال لويس الذى يقوم باختزال عقود من كتابات المستشرقين والصهاينة المعادين للعرب فى روايته لما بعد الحرب الباردة. وفى واقع الأمر، فإن لويس يعتبر مسئولا عن بث فكرة أن العرب يسيطر عليهم هاجس الماضى الاستعمارى كما أنهم يبالغون فى تأثير الصهيونية ومن ثم، ينبغى عليهم «التخلى عن الشكوى والظهور بمظهر الضحايا»، بثها فى أوساط التيار السائد وذلك بعد مقاله «أصول الحق العربى» الذى أصدره فى شكل كتاب بعنوان «أين الخطأ؟». هنا، تصبح الأصوات المحلية مثيرة ومؤثرة بخاصة حينما تؤكد على مقولات لويس وزكريا، حيث تتفق هيرسى على ومنجى على أن التطرف والتعصب والعنف وبغض النساء ليست نتاجا للفقر المنتشر فى العالم الإسلامى. تقول هيرسى على ساخرة «إن إفريقيا هى القارة الأشد فقرا، ومع ذلك، لا يتسبب الفقر فى الإرهاب» متجاهلة بذلك الوقائع التاريخية فى أوغندا عيى أمين، وليبريا تشارلس تايلور، وأعمال الإبادة العرقية التى ارتكبتها

الهوتو فى حق التوتسى، ثم أعمال القمع برواندا فيما بعد الإبادة العرقية للتوتسى، والإرهاب الجنسى فى الكونغو، والبشاعات التى حدثت فى سيراليون.

إن خطابات الدونية الثقافية العربية/ الإسلامية، ورثاء الذات، وصدمة الحداثة وهاجس الإمبريالية، وكره النساء المتأصل فى تلك الثقافة هى خطابات استمدت بُناها تحديداً من أعمال لويس وزكريا. وبالمثل، تكرر هيرسى على ومنجى المزايم القائلة بأن العرب والمسلمين يلقون باللوم على الاستعمار والفقر والتمييز العنصرى والصهيونية بدلا من النظر إلى الداخل والقيام بإصلاح ممارسات الإسلام أو رفضها. تذهب منجى إلى أبعد من ذلك فى دفاعها عن الولايات المتحدة بصفتها حامية حقوق الإنسان فى المنطقة وتصر على أن «أصول تعاسة المسلمين ويؤسهم لا تكمن فى إسرائيل أو أمريكا». نجد أن المقولات التى توردها للتقليل من شأن مظالم العرب والمسلمين وشكاواهم المشروعة منتحلة من كتابات أمثال لويس ودانييل پاپيس، بيد أنها حينما تقول بها نساء محليات، سرعان ما يتلقفها «الليبراليون» و«التقدميون» الذين يؤيدون الحروب على المسلمين. مثلاً، يكيل كريستوفر هيتشيتز النجم الإعلامى والذى تأثرت به الدوائر الثقافية الجمهورية والديموقراطية، يكيل المديح لمنجى وهيرسى على بصفتها «أصواتا هادئة عقلانية» فى الحرب على الإرهاب.

يشعر المرء بالصدمة لدى قراءته لمنجى وهيرسى على وذلك بسبب درجة العنصرية الصريحة التى تميز تحليلاتهما. حيث تبدى المرأتان توجهات تكاد تكون مَرَضِيَّة فى تجاهلها الحقائق الواقعة وإنكارها، ومعها كل المتون البحثية والأكاديمية الموجودة، وأيضاً بسبب تعميماتهن الفجة الناجمة عن تضليل مقصود أو عما يشبه المجنون. بيد أنهما ليستا المشككة. بل المشكلة تتمثل فى حقيقة أن مزاعمهما يتلقفها التيار الرئيسى وتُعلى من شأنها بصفتها تحليلات جادة. وفى واقع الأمر فإن قيمة هيرسى على ومنجى الحقيقية لدى تيار الإسلاموفوبيا السائد هو أن أسلوب الصحافة الصفراء الذى تستخدمانه كأصوات محلية مطلقة يجد قبولا سهلا من الجمهور الجاهل بأكثر مما يجده الذين ينقدون الغرب على أسس من التاريخ والواقع. تقوم عملية جعل الإسلاموفوبيا جزءا من التيار السائد فى عصر العولمة على أساس التجاهل الضرورى لسنوات عديدة من الأبحاث النظرية والإمبريقية التى بينت كيف

أن المسلمين العرب وغير العرب قد أصبحوا «الآخر» من خلال الأعمال الأدبية والبروباغندا والإجراءات السياسية وانخفاض التنمية الاقتصادية. تقول هيرسى على «يمضى الناس يُنظرون للفقر وكيف يدفع الناس إلى الإرهاب؛ وللاستعمار والتوجهات الاستهلاكية، وثقافة البوب وتفسخ الغرب، بيد أن هذا التنظير الزائف لا علاقة له بالواقع». ومن سوء الحظ، تتشارك هيرسى على ومنجى فى النهج الذى يذهب إلى إنكار السجل التاريخى والتوصل منه ومن الأبحاث الأكاديمية الصارمة. من ثم، فإن نهج «أنا أعتقد إذن فهذا حقيقي» هو التكتيك الذى يشكل الأساس التحتى لكتابات جميع «المخبرات المحليات»- وذلك لعدم قدرتهن على تقديم ما هو أفضل. ليست مكانتهن كـ «محليات» هى التى تحوّل تفاهاتهن إلى حقائق وتحليلات، الأخرى هو أن الوسائط الإعلامية المحترمة للتيار الرئيسى هى التى تنشر أعمالهن وتروج لها وتتعاطى مع «نهجهن» بجدية أكثر مما تتعاطى به مع الأبحاث الأكاديمية الصارمة والوقائع والسجل التاريخى الذى يتم التوصل إليه نتيجة العمل الشاق من قبل الباحثين الغربيين أنفسهم.

تعمل مثقفات الصحافة الصفراء هؤلاء وسائل مباشرة أكثر مضاءً لنزع الصداقة عن عقود من الأبحاث التى تحدد أسباب الإسلام السياسى وتخلف التنمية السياسية والاقتصادية وتعزوها إلى فرض التنمية الرأسمالية على العالم اللأغربى وفى سياسات الحرب الباردة، والسياسات الخارجية والاقتصادية للولايات المتحدة وحلفائها وجرائم إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى.

تؤكد هيرسى على ومنجى بما لا يدع مجالاً للشك على أن المظالم المشروعة للعالم الإسلامى والعربى وشكاواهم من الصهيونية والكلونيالية مثلاً ما هى إلا ذرائع لتبرير تخلف العرب وسلطويتهم، وكما عبرت منجى فى دفاعها الوقع المهيمن عن الترميمات العنصرية بأن قالت إن الشعوب السمرء لا تستطيع توجيه اللوم إلى «البيض» و«اليهود» لتهميتهم جميع المسلمين على أنهم إرهابيون، إذ إن اللوم يقع على المسلمين العرب الذين يثبتون صحة هذه الترميمات. وبالمثل، تلقى هيرسى على

بمسئولية الفشل فى التقدم واللاحاق بالحادثة على العالم العربى وتؤكد أن «أفضل أسلوب تتحرر به الثقافة الإسلامية من تخلفها هو توقفها عن لوم الآخرين على هذا التخلف». وبالطبع، فإن هذا الجزم ما هو إلا ترديد لما جاء بالجمال الأخيرة لمقال لويس «جنود حنق المسلمين» و«أين الخطأ؟» وأيضا لموضوع جميع المقالات التى كتبها دانييل بايبس فى هذا الصدد.

لا تستند أهمية أمثال هيرسى على ومنجى إلى محتوى أعمالهن الذى يفتقد أية بصيرة أكاديمية أو إمبريقية أو تحليلية وإلى التفكير السليم بمثل ما تفتقد حسن العرض والأداء الكتابي، بل إن هويتهم كنساء مسلمات وأوجههن الجذابة إعلامياً وقدرتهن على التحدث بالإنجليزية هى التى تشجع الكتاب الكفاء على اقتباس ما يُقلنه فى أعمال أكاديمية وصحفية زائفة، الأهم من هذا كله هو الترويج لهن والإعلاء من شأنهن كوسيلة لإضفاء نغمة أخلاقية على الآراء العنصرية للإعلاميين وصناع السياسة الذين يصبح باستطاعتهم النطق بأراء نيوليبرالية مستبطنة من خلال أفواه «مسلمات حقيقيات» آراء تحمل الفكرة المضرة بأن المذابح وأعمال الإبادة الجماعية التى ترتكب ضد الشعوب الإسلامية هى أمور مُبررة عادة.

«الخضوع» فى الإسلام مقابل الجهاد الراسمالي

تناقض لهجة الادعاء التى تتبناها هيرسى علي، ولهجة منجى المتعالية مقصدهما الذى يرمى إلى إنكاء نيران الإسلاموفوبيا فى أمريكا الشمالية وأوروبا، لو وجدت أية درجة من الإخلاص أو الأمانة فى أعمالهما لكان بإمكانهما بذل جهد طفيف لتترك مجال لوجود ظلال من الفروق فى آرائهما عن العالمين العربى والإسلامي. كان بإمكانهما، ولو عرضياً، ذكر التاريخ الثرى والمتنوع للحركات النسوية ولنشطاء/ ناشطات حقوق المرأة فى العالم الإسلامى، بدءاً من قاسم أمين وهدى شعراوى ونوال السعداوى بمصر إلى ملالاى چويا ومرشحة الرئاسة مسعودة جلال بأفغانستان، وإن كانت منجى وهيرسى على ثلمان بالعربية كما تزعمان، لأشارتا، ولو على سبيل المجاملة للنسويات/ النسويين العرب والمسلمين العلمانيين منهم والمتدينين. ولو أنهما

كما تزعمان مفكرتان ناقدتان تهتمان حقا بقضايا النساء فى العالم الإسلامى، لأنكهنما الاستعانة بعينات من التعليقات والافتتاحيات فى الوسائط الإعلامية المطبوعة والإلكترونية والناطقة بالإنجليزية والتي تكتبها نساء ناشطات مسلمات بارزات، وباحثات وأكاديميات ولأنصتتا إلى تلك التنويع الهائلة الثرية من أصوات المسلمات بدلا من الاقتصار على سماع رطانتهمما الرتيبة المملة. تفضح حقيقة أنهنما ومثيلاتهما لا يطلعن على أنشطة النساء المسلمات العلمانيات التقدميات أو المتدينيات ويشتبكن فى حوار معهن على الرغم من وجود ترجمات بالإنجليزية لأعمال الناشطات النسويات العربيات والإيرانيات والإفريقيات وجنوب الآسيويات - حقيقة أن هيرسى على ومنجى ومثيلاتهما لديهن أجندات لا مكان فيها للصرامة الفكرية، أو الثقافة، أو نصرة الحقيقة.

بتعبير آخر، إن تجاهل تنوع أصوات الرجال والنساء المختلفة فى الشرق الأوسط ليس أمرا عابرا أو من قبيل المصادفة. فعلى الرغم من كل أحاديثهن عن حقوق النساء، وكراهية الإسلام للنساء وظلمه لهن، إلا أن «المخبرات المحلية» ومثل نظرائهن من الأكاديميين المغرضين، والمنظرين المؤدلجين المؤجورين هم جوهرنا نيوليبراليون كارهون للنساء. فإلى جانب انتهازيتهن/هن، فهم يضمرون كراهية رجعية للحركات التقدمية والنشطاء/الناشطات والمفكرين/المفكرات الذين يمارسون/سن ما أسماه عبد الكبير الخطيبي «نقدا مزدوجا» بحيث يُسائل العرب بطيركية مجتمعاتهم وأيضا إمبرالية الغرب ورأسماليته فى أن. من ثم، فإن «المخبرات المحلية» تتجاهلن الأنشطة التقدمية للمسلمين والمسلمات بمثل ما تتجاهلن أنشطة المسلمات المتدينيات اللاتى يلقين الضوء على تناقضات ممارسات الغرب وتعريفاته. علاوة على ذلك، تعتمد هيرسى على ومنجى ومثيلاتهن إلى طمس أية معلومات عن شبكات التكافل التى تقيمها التنظيمات النسوية الغربية والمسلمة، العلمانية والدينية، النسائية والذكورية، قبل ٩/١١ ويعدده، على المستوى الدولى والمحلى فى أمريكا الشمالية وأوروبا. تقوم هيرسى على ومنجى، باكثر من غيرهن، بجدل طمس المعلومات عن أنشطة النساء

المسلمات، وشيطة جميع الثقافات الإسلامية، وإنكار حقوق الفلسطينيين مع ولعها بالنيوليبرالية والفردانية والرأسمالية المطلقة. وفي هذا الصدد، فإن أعمال زكريا توظّر تفكيرهما، تؤكدان في كتاباتهما على أن معتقداتهما السياسية الليبرالية، وبخاصة هيمنة الحريات المدنية، والفردانية وحرية إقامة المشاريع، كلها تتناقض مع «العقل» المسلم والذهنية «القبلية الصحراوية». تبين هيرسي وهي تردد برنامجها الانتخابي حينما كانت مرشحة عن حزب VVD الهولندي، في كتابها وأيضاً في حوارات عديدة، أن السوق الحر هو السلاح الذي سيحوّل المهاجرين المسلمين إلى أفراد، والوسيلة التي تؤدي إلى تعريفهم بمفهوم الفردانية الغريب على «ذهنيتهم القبلية». ثم تذهب لتقول إنه وفقاً للإسلام «ليس من الضروري أن ينمو الشخص ليصبح فرداً متفرداً حتى أن الكثيرين، والنساء بخاصة، لا يطورون أبداً إرادة فردية واضحة. عليك أن تستسلم، وهذا هو المعنى الحرفي للفظ «إسلام». نجد أن مجاز الاستسلام يتكرر كثيراً في جميع أعمال هيرسي على ومنجى بصفته من الممارسات المهيمنة المتأصلة في بنية الإسلام الاجتماعية لبطريركية التراتبية، حيث يربى الوالدان المسلمان بناتهن ليصبحن فتيات طيعات مستسلمات.

ترى منجى أن الإسلام يعزز عادة الاستسلام دونما أي تفكير أو تمحيص وأن هذه الظاهرة هي نتاج «إسلام الصحراء» الذي تحذر من أنه أخذ في فرض نفسه على جنوب شرق آسيا مثملاً حوّل الإسلام السعودي أفغانستان إلى دولة دينية مشوهة. وفيما أن عدد المسلمين في العالم يبلغ ١.٦ مليار نسمة منتشرين في جميع القارات ويتحدثون العديد من اللغات وينتمون إلى إثنيات كثيرة تتخطى حدود الطبقات والانتماءات السياسية، ولديهم ممارسون خبراء في مجالات علمية وتقنية وفنية مهنية، فإن منجى تمضى في تأكيدها بأن «المسلمين اليوم لا يشكلون مجتمعاً دولياً بقدر ما هم قبيلة عربية». تعتقد منجى أن إسلام الصحراء هو ثقافة عربية وتتساءل «أيمكن فصل معايير الصحراء عن الإسلام؟» مؤكدة أن الإمبرياليين الثقافيين العرب قد فرضوا ثقافة الصحراء بقوة «السياسة» على المسلمين في أنحاء

العالم وسعوا إلى تسيد اللغة العربية وهيمنتها، وأجبروهم على التوجه نحو مكة في صلواتهم. ليست شتيمة منجى العنصرية للعرب مجرد أداة أسلوية أو بلاغية بل إنها تشكل الفحوى الحصرى لأطروحات أعمالها بعامة.

تستخدم منجى وهيرسى مفهوم «العقلية» الصحراوية استخداما أيديولوجيا يضمن أن يفهم المسلمون بصفاتهم النقيض المطلق للغرب، وبخاصة فيما يتعلق بالقيمة الغربية الأساسية أي «الفردانية». وفي واقع الأمر فقد كانت منجى ماهرة في ابتداعها «الشخصية» المستقلة التي تتقمصها والتي ترحب بالتوجهات الفردية وبالاختلاف، والتي، وكما تذكرنا باستمرار، تعكس جسارة «رحلتها كمنشقة على الإسلام». تكمن جذور «مشروع الشجاعة الأخلاقية» الذي تبنته منجى في عصر أوباما، في «عملية الاجتهاد» التي تبنتها في عصر بوش والتي كانت تهدف إلى تحرير عقل المسلمين من ذهنية الصحراء العربية وتقتضى «وجود نظام رأسمالى تقوده نساء يراعين الله كوسيلة لبدء الإصلاح الليبرالى للإسلام». وبما أن المسلمين غير قادرين على إنجاز مثل هذا التغيير، فعلى الغرب أن يسعى كهدف أول، إلى أن «يستحث التغيير فى الإسلام من خلال دعم صاحبات المشاريع من النساء وتمكين عدد أكبر من المسلمات من أن يصبحن سيدات أعمال»؛ وفى هذا فإن منجى تنتحل حرفيا مزاعم زكريا الذى يذهب فيها إلى القول بأن وجود طبقة رجال/ سيدات أعمال حقة تقيم المشاريع ستكون أهم قوة مفردة تحدث تغييرا فى الشرق الأوسط.

تتضح الأهمية الأيديولوجية لكتابات «المخبرات المحليات» حينما نتبين كيف أن تحليلاتهن السطحية تؤدي إلى استنتاجات سياسية حتمية تتسق مع مصالح الإمبراطورية الأمريكية. يذهب استنتاجهن إلى أنه إذا كان العالم الإسلامى أسير الثقافة الإمبريالية العربية والقائمين عليها الذين يعملون على هيمنة الإسلام وتسيده، وليس أسير الحكومات العميلة التى تتقبلها الولايات المتحدة فى السلطة كأمر واقع، إذن تصبح المشكلة التى تواجه المسلمين الإصلاحيين والغرب النبيل واضحة: لا يستطيع المسلمون وحدهم تحرير أنفسهم سياسيا أو ثقافيا أو نفسيا، وإقامة الديمقراطية.

تكمن الحالة المنحطة للعالم العربي، والعالم الإسلامى بمجمله فى «عدم قدرة المسلمين على إقامة مؤسسات ديموقراطية تحمى حق الأفراد فى الحرية وتضع القيم النسبية للمعرفة العلمية والحكمة الدينية فى المنظور الصحيح وتعمل على القضاء على التبعات الاجتماعية والنفسية الناجمة عن إخضاع النساء واستعبادهن»، ترى منجى أن «معايير الصحراء» هى المعايير الخبيثة الشريرة للعقل الإسلامى، وللمجتمع الإسلامى ونظام حكمه وثقافته.

تنصّب منجى وهيرسى على نفسيهما «مصلحتين» للإسلام، وتبينان بوضوح أن مهمتهما هى إثبات أن المسلمين «مذنبون» لتغاضيتهم عن العنف المتأصل فى دينهم، ومذنبون للخداع والأكاذيب التى يروجونها عن دينهم وطبيعته الحقّة.

استخدام القوة ضد النساء، ومن أجل النساء:

مسئولية المسلمين ومسئولية الغرب

يستخلص قراء منجى وهيرسى على استنتاجا واحدا مفاده أنه ينبغى تحرير المسلمات من مجتمعاتهن الإسلامية التى هى عبارة عن «مزيج من اللاعقلانية والخزعبلات» حيث تترسخ القسوة ويسود الظلم وعدم المساواة، وعلى حين تتخيل هيرسى على نفسها فيلسوفة وتتخيل منجى نفسها عالمة اجتماع ديني، تريان معا، ويأسلوب لا لبس فيه، أن «التحرير» يعنى «إصلاح» المجتمعات المسلمة من خلال الوسائل الاقتصادية والسياسية، بل والعسكرية إذا اقتضى الأمر. يتخذ ذلك الإمام الأيديولوجى قالباً واقعياً لأنهما تصوران الحكومات المسلمة والجموع المسلمة بصفتهما متواطئة فى وجود هذا الاعتماد المتبادل بين السلطوية وقمع النساء وخمول المسلمين وكسلهم. يتجسد خط التفكير هذا فى كتابات زكريا حيث يقول إنه إذا كان «العالم العربى هو النموذج الأمثل للدول التى تعيش على عائدات صناديق الائتمان. فإن المعونات السخية التى تقدمها لها الولايات المتحدة تجعلها أكثر كسلاً وبلادة. لقد شجعت تلك الدخول التى لم يبذل فى سبيلها أى جهد الأنظمة شرق الأوسطية على ألا تتطلب الكثير من شعوبها، وبدورها، على ألا تعطيهم الكثير».

تغلّف «المخبرات المحليات» اللاتى ينتمين إلى التيار السائد بالإسلاموفوبيا الكامنة فى كتاباتهم بتحليلات أكاديميى التيار السائد من أمثال زكريا وكثير من أنداده فى مراكز الأبحاث بواشنطن ونيويورك. تتبنى منجى وهيرسى على خطابات التيار السائد المهيمنة وترددان الآراء الأيديولوجية الجازمة التى تبرر سياسة الولايات المتحدة الخارجية وسياسة مسئوليتها؛ بل وتجعلها ضرورية. ويدفعهن قضايا النساء إلى المقدمة، تضيف المخبرات المحليات، فى أفضل الأحوال، مستوى من الصدقية. تلقى كتبهن رواجاً بدرجة أن يصبح باستطاعة صناع السياسة والسياسيين وجمهور القراء الأمريكيين إثبات شكوكهم بأن النساء المسلمات أسيرات «حبسات الأقفاص» دونما حرية أو شخصية فردية مستقلة، فى برنامجها الوثائقى على PBS، بعنوان «العقيدة بدون خوف» تؤكد منجى أن «الوحدة تعنى لهن التماثل والنمطية»، و«التطابق يأتى فى المقدمة قبل التعبير الشخصى»، وأن النساء يشكن الصف الأول حيث يطلب منهن التطابق، أى أن أعراف القرن السابع تستخدم للتحكم فى نساء القرن الحادى والعشرين لضمان امتثالهن. تروى هيرسى على نفس الشاعر من خلال قصتها الملفقة، حيث تبين موجية بالثقة من خلال استخدامها ضمير المتكلم، أن النساء فى المجتمعات المسلمة تمارس عليهن الأساليب البوليسية من خلال الدول القائمة، بحيث ينتهى أمرهن بالتماهى مع المعتدين ويقمن بدورهن بممارسة الأساليب البوليسية مع أطفالهن.

لا تخوض هيرسى على ومنجى عميقاً فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة بالشرق الأوسط، أو تناقشان التشريعات المحلية، أو المجتمع المدنى المحلى، أو مجموعات القوانين أو الثقافة السياسية فى أى بلد مسلم، بل إنهما، وكما رأينا، لا تكادان تكونان مؤهلتين للتعليق على مثل هذه الأمور. إننا وقد قلنا هذا يتضح أن عملهما سياسى محض، كما أنهما بدعوتهما إلى معالجة خارجية مباشرة لمشاكل الإسلام، تعملان أبواقاً دعائية للسياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط التى يحركها الصهاينة. وياتباعهما خط لويس وفريدمان، تقومان بدعوة المجتمع الدولى

للتأكد من إجبار العالم الإسلامي على الارتقاء والعيش وفقاً لقيم ما يسمى بالعالم المتحضر. تستشهد منجى بـ «خطاب مفتوح إلى أسامة بن لادن» الذي كتبه عزت مجيد، المليونير ورجل البر المستفز في نورية ذا نبش بن بعد ٩/١١ حيث نقد المسلمين لفشلهم كمجتمع مدنى وذلك من خلال عدم مواجهة «شياطيننا التاريخية والسياسية والاجتماعية التي تكمن داخلنا». تستخدم منجى هذا «الخطاب المفتوح» وثيقة تثبت بها أن المسلمين، فى بؤسهم وتخلفهم قد «تخلوا» عن مسئولياتهم. يعتبر استخدام منجى هذا مثالا على كيفية تعاطيها بانتقائية شديدة مع جميع مصادرها حيث تنتقى بعناية أسطرا من خارج سياقها لدعم ما تقوله. فى حالة «خطاب مفتوح» تتجاهل منجى كيف يذكر مجيد بن لادن أن الغالبية العظمى من المسلمين لا يلقون بالا إلى أقواله وإعلاناته ورسائله، وكيف أنه يقترح عليه أن يطور نظرة إلى العالم أكثر قوة وإيجابية وإقناعا عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً إن هو أراد أن يكون «ثوريا» ذا أهمية.

يذكرنا استدعاء منجى «المتعالي» لعدم تحمل المسلمين المسؤولية باعتماد هيرسى على أعمال توماس فريدمان كى تطرح رأيا مماثلا حيث تحيل إليه مباشرة حينما تطلب من المسلمين، وهى التى تنقمص شخصيته الداعية إلى تحررهم، أن يتبنوا نفس المعايير الأخلاقية السامية التى يتبناها الغربيون. تهاجم هيرسى على النسبية والتعددية الثقافية لأن ذلك يعمل على تنامي التعصب فى أوروبا حيث إن المسلمين الذين يعيشون هناك يفرضون على أنفسهم العزلة. لذا، فهى ترى أن على البلدان الغربية أن تعوض عن ترسيخها للتسامح والتساهل بأن تفرض معايير أخلاقية حضارية على العالم الإسلامي.

يعتبر هذا التحليل تسليما جدياً بإجابة عن سؤال أورده زكريا فى كتابه، وظل لويس يثيره بكيدية منذ عاصفة الصحراء: ماذا نفعل إزاء دين يهدد بتصدير فسادة الأخلاقى ونشر عدوى أمراضه الاجتماعية المتوارثة (إما من خلال الإرهاب أو السياسة الخارجية أو الهجرة)؟ كيف يمكن للغرب أن يفرض على الإسلام، والعالم

الإسلامي والمسلمين القدر القليل الأساسى من السلوكيات الأخلاقية التى تتشارك فيها الأمم المتحدة؟ كيف نُجرّد المجتمعات المسلمة من «معايير الصحراء» ونخلصهم منها؟ إذا لم نوقفها، ستؤثر مشاكل الإسلام وأمراضه (كره النساء، السلطوية البطيريركية، معاداة السامية.. إلخ) فى العالم الغربى وتنقل إليه. إن تخلف الإسلام ليس من بقايا الماضى غير المؤذية التى تُداول تداولاً حميداً فى العالم المتخلف، بل إن ممارسات الإسلام ومعتقداته هى التهديد الأساسى لأسلوب الحياة الغربى والأمريكى، وستنتشر عدواها فى أنحاء العالم من خلال الهجرات غير المكبوحة والتعددية المُضَلَّة، بل وحتى التحول إلى الإسلام، تؤكد منجى من خلال كتاباتها فى عهد أوباما بوضوح وحزم على خطر الإسلام القائم فعلاً على العالم المتحضر. وفى هذا الصدد تشارك هيرسى على ومنجى بأصواتهما التنبئية المنذرة بمنظور محلى فى حملة ترويج التهديدات السياسية التى يمثلها الإسلام الغرب، وتسهمان فى النوع الأدبى الفرعى المتنامى من كتابات الإسلاموفوبيا.

وعلى الرغم مما تتسم به كتابتهما من حذقة وتلف وعذوانية، بل وعدم فهم لدين الإسلام، فإنهما توفران تفسيرات سهلة الاستيعاب للتيار السائد الذى يخفى تحيزه بحذر ويتوق إلى أسباب يعفى بها نفسه من الإجابة عن سؤال «لماذا يكرهوننا؟». وفيما أنهما لا يتحدثان عن التغير الديموقراطى أو الديموقراطيات الدستورية، فإنهما يتحدثان جازمتين عن استخدام القوة كأسلوب ضرورى لتغيير الإسلام والرجال المسلمين. وعلى حين يرى زكريا أن النيوليبرالية هى الوسيلة التى من خلالها ستحرر النساء المسلمات أنفسهن سياسياً واجتماعياً واقتصادياً من هذا الدين البدائى العتيق، يقدم لويس لهن، متبعاً نهج رفائيل بطل الإرشادات الأيديولوجية لهذا التحرير، والتى يخلّزها فى أن العرب لا يفهمون سوى لغة القوة.

ومذكّرة إيانا بدعوة زكريا للاستعانة بالديموقراطيات اللالبرالية، تدعو منجى الحكومات الغربية إلى الاعتماد على الحكومات السلطوية التى تعمل نيابة عنها لمداومة الأصوليين واستخدام القوة ضدهم. نجدها، وعلى الرغم من كل حديثها عن

القيم الليبرالية تدعو بحماس إلى «استخدام قانون الطوارئ كي تتمكن الشرطة من مداومة الفتوات والبلطجية الأصوليين وسحقهم». ترى هيرسى على ومنجى، وبالتقابل مع آراء بعض مرشديهما من المحافظين الجدد الذين يحوزون أعظم درجات الإعجاب منهما، أن على واشنطنون استخدام ثقلها لدى حلفائها العرب من أجل قمع الاختلاف، وسحق الإسلام السياسي، والقضاء على التوجهات المعادية لأمريكا، فيما تقوم أيضا بإدخال إصلاحات «السوق الحر» النيولبرالية والبرلة السياسية إلى المنطقة، بل والتطبيع مع إسرائيل إن أمكن. من ثم فقد ساعدت هيرسى على ومنجى بهذا على تيسير العثور على ما يستند إليه لتبرير سياسات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. وفي واقع الأمر، فإن بساطة مقولاتهما و«موثوقيتها» الظاهرية حيث إنها صادرة عن مصادر «داخلية» مطلعة أضفت مزيدا من «المصداقية» على الخطابات حول الإسلام والشرق الأوسط والنساء والمجتمع المدني التي كان يروجها زكريا ولويس في أوساط التيار السائد من الشبكة الإعلامية، والمأجورين السياسيين، ومراكز الأبحاث ومجموعات المصالح. تروج الأسس الأيديولوجية لتلك الخطابات منطلق الإمبراطورية، وبخاصة منطلق «التحرير» من خلال الاستعمار، والحروب من أجل السلام وتحرير النساء بواسطة دعم حكام تابعين شبه إقطاعيين أو مساندة الأحزاب الدينية. مازالت تلك الأسس والدعامات الأيديولوجية حية نشطة في ظل السياسة الخارجية لأوباما مثلما كانت من قبل.

استيعاب الحركات النسوية وحروب نخبير (النساء):

تميز العقد الأول من القرن الحادي والعشرين بالعودة إلى خطاب شن الحروب ضد «أعداء» أمريكا ليس فقط من قبل المنظرين والإعلام والمستشارين السياسيين بل أيضا من قبل كل أفرع الحكومة على المستوى الفدرالي ومستوى الولايات المتحدة، والمستوى المحلي. ليست استراتيجية الحوافز والعقوبات، والعصي والجزر، حصرا على سنوات بوش بل إنها تميز أيضا أسلوب «القوة الذكية» المخملى الذي يتبعه باراك أوباما. ليس ثمة اختلافات تذكر في السياسة الداخلية والخارجية بين العهدين إذا استثنينا الدولة الأمنية لجورج بوش ودولة أوباما «الاشتراكية». وعلى حين أنه لم يكن ثمة الكثير من الحديث عن «الاشتباك» أثناء سنوات بوش مع شن الحروب

وتوسّعها، تميز بيت أوياما الأبيض بكثرة الحديث عن الاشتباك مع عدم اتخاذ سوى قليل من الإجراءات. وفي الواقع، فإنه بالإمكان القول إن بوش هاجم التعصب الذي تبدى أثناء فضيحة ميناء دبي العالمي عام ٢٠٠٦ باتساق أكثر من ذاك الذي تبناه أوياما للدفاع عن حق المسلمين في إقامة مركز إسلامي على مسافة غير ملاصقة لموقع أحداث ٩/١١. مازال أوياما مستمرا في إرث وشم الحكومات الأجنبية التي ترفض التعاون مع الأجندة النيوليبرالية الأورو/أمريكية متهما إياها بأنها «أنظمة مارقة» علاوة على لجوئه لاستدعاء شبح العنف الإسلامي من أجل تنفيذ أجندته السياسية الداخلية والدولية. من ثم، يستخدم التيار السائد الأمريكي رواية منجى وهيرسى على لتبرير الإسلاموفوبيا الثقافية التي ينتهجها أوياما ودعم تدخل حكومته العسكرية والسياسي والاقتصادي المستدام. وهنا تلعب المخبرات المحليات دورا مزدوجا إذ إنهن يشجعن الغرب على انتهاج سياسات فاعلة تجبر المسلمين على العيش وفقاً للمعايير «المتحضرة» من ناحية، وأيضاً يعملن كمشجعات «محليات» سمرات للحروب التي تشن على العرب والمسلمين ويبررنها، كما فعل لويس، بصفتها ضرورة أخلاقية. ولأن هذه الظاهرة هي تشكيل أيديولوجي تغذيه الانتهازية، نجدها تمتد عبر الإدارات وينتجها جميع الرؤساء.

ولو بدأ هذا الجزم مفرطاً في تجريده، فما علينا إلا النظر للدور المهم الذي لعبته «المخبرات المحليات» في الحملة الإعلامية المكثفة لتبرير الحرب على العراق ناهيك عن الإنذارات المضللة المبذولة مثل حرق نسخ القرآن أو مساجد مانهاتن، أو شائعات تفجيرات الكريسماس.. إلخ.

وفيما بعث الحديث المزدوج للبيت الأبيض ووزارة الخارجية عن المسلمين الأشرار بالتقابل مع المسلمين الأخيار برسائل مختلطة عن «الحرب على الإرهاب»، عملت أمثال هيرسى على ومنجى على التأكيد بما لا يدع مجالاً للشك على أن ٩/١١ هي بمثابة بيرل هاربور وذلك لتبرير قيام حرب طويلة - متوقعة ضد الأشرار. لكن هذه الحرب على الإرهاب، وعلى الرغم من تراجع بوش اللفظي وتأرجحاته، هي حرب على «الإرهاب الإسلامي»، الإرهاب المتأصل في الدين ذاته. تعترف هيرسى على قائلة إنه في ٩/١١ «أعلنت الحرب باسم الإسلام، أي عقيدتي، والآن على الاختيار: على أي

جاء أقف؟ هل نساند إمبريالية الإسلام وفلسفة أهل الذمة حيث يحتل غير المسلمين منزلة أدنى من المسلمين، وحرب ذلك الدين عصر الأوسطية على النساء التي أصبحت حرباً ضد الغرب والحضارة بعامة؟ من ثم، فهي ترى أى تدخل فى الشرق الأوسط مبرراً وذلك «لأننا فعلاً فى حالة حرب، ليس ضد التأسلم فقط، بل ضد الإسلام ذاته». لا ترى أن سبب الحرب يكمن فى الغرب الذى توجد قواته، بالفعل، على الأرض فى بلدان إسلامية عديدة، بل لأن الحرب قد «أعلنت باسم الإسلام ضد الحضارة الغربية».

وفى واقع الأمر فقد كانت مسألة حقوق النساء فى الجبهة الأمامية لغزو أفغانستان ومكوتاً رئيسياً فى احتلال العراق، وتظل هى الحال فى ظل إدارة أوباما. مازال البعض يتذكر أن لورا بوش لعبت دوراً قيادياً فى الحملة الدعائية لغزو أفغانستان باسم حقوق النساء الأفغانيات، فى خطاب لها بثته الإذاعة ولقى اهتماماً كبيراً، قالت السيدة الأولى إن النساء الأفغانيات كن «مبتهجات» وهن يشاهدن تراجع طالبان. بينت قائلة «نشاهد فى أفغانستان ما يود إرهابيو العالم أن يفرضوه على بقيتنا». شرحت للجمهور الأمريكى سياسة حرب الولايات المتحدة قائلة إن الحرب ضد الإرهاب هى أيضاً حرب من أجل حقوق النساء وكرامتهن، وأضافت قولها بأنها ابتهجت لأن النساء الأفغانيات لم يعدن سجينات منازلهن وذلك بسبب الانتصارات العسكرية التى حققتها الولايات المتحدة مؤخراً. بيد أنها حذرت من أن على الولايات المتحدة أن تبقى على عزمها ويقظتها لأن «الإرهابيين الذين ساعدوا فى حكم هذا البلد يخططون الآن ويتآمرون فى بلاد عديدة. ومن الواجب وقفهم والتصدي لهم».

ليس تبنى لورا بوش لقضية النساء الأفغانيات أمراً منعزلاً أو من قبيل المصادفة. فلا شك أنه كان قد تم تعيينها امرأة مكلفة بهذه الحملة، حيث إن إدارة بوش كانت قد كلفت «مكتب الديمقراطية وحقوق الإنسان والعمل» بجمع تقارير عن حالة النساء الأفغانيات وبث خطاب لورا بوش الإذاعى فى نفس اليوم.

لا غرو أن كررت أحاديث لورا بوش عن حالة النساء الأفغانيات مقولات زوجها حول الموضوع ذاته بأسلوب كاد يكون خرقياً، ورددت رسالته القائلة بأن النساء الأفغانيات حبيسات منازلهن حيث ينكر عليهن الحصول على الرعاية الصحية الأساسية والتعليم

وأن الولايات المتحدة ستواصل مطاردة العدو الذي يختبئ في الظلال والكهوف. أدى خطاب النساء الأفغانيات إلى تمرير مشروع قانون إغاثة الأطفال والنساء الأفغانيات لتمكين رئيس الولايات المتحدة من «توفير المساعدة التعليمية والرعاية الصحية للنساء والأطفال في الداخل الأفغاني واللاجئات/ اللاجئين في البلدان المجاورة». طُرح هذا التشريع من قبل الحزبين وقدمته في مجلس الشيوخ باربرا مكلوسكي من الحزب الديمقراطي وكاي بايلي هتشينسون من الحزب الجمهوري وتبنته جميع النساء في المجلس. وإلى جانب الرئيس، كانت إلينور سميل رئيسة الغالبية النسوية الليبرالية حاضرة مع لورا بوش. غدا المقصد الأيديولوجي من ذلك القانون واضحاً حينما بين الرئيس بوش بعد التوقيع عليه قائلاً «إن الهدف المركزي للإرهابيين هو قمع النساء الوحشي - وليس فقط نساء أفغانستان. إن الإرهابيين الذين يساعدون في حكم أفغانستان موجودون بالعشرات والعشرات في جميع البلاد حول العالم».

كان استخدام النساء الأفغانيات ذريعة لغزو البلد تكتيكاً فاعلاً لنظام بوش. وعلى حين أن تبني قضايا النساء بواسطة عناصر معادية للنسوية واكبت «حروب الثقافة» منذ الثمانينيات، فقد أتاح غزو أفغانستان والعراق للتنظيمات والنشطاء اليمينيين اختطاف قضايا تعليم المرأة، وسلامتهن وصحتهن التي كانت قد ظلت تقليدياً من اختصاص الحزب الديمقراطي. أحد الأمثلة التوضيحية هي أن شبكة النشطاء، ومراكز الأبحاث والمنظمات غير الحكومية ساعدت إلى حد كبير في حملة البيت الأبيض لنيل المصادقية لغزو أفغانستان والعراق واحتلالهما من خلال نشر الانطباع في أوساط التيار السائد، وبفاعلية، بأن إدارة بوش هي حامية النساء المسلمات ومحررتهن.

كان تفاعل إدارة بوش مع منتدى النساء المستقلات هو المثال الأبرز على هذه الظاهرة. والمنتدى منظمة مقرها واشنطن وعُرف عنها أنها تعمل تقليدياً منذ نهاية الثمانينيات على تقويض الأجندة السياسية للحركات النسوية.

في عام ٢٠٠٦، منحت المنظمة جائزة «المرأة الجسورة» لكونداليزا رايس، التي بينت في خطاب تسلمها الجائزة أن إدارة بوش تقود «حركة إلغاء استرقاق» جديدة للقضاء على الاتجار في البشر وبخاصة النساء وكيف أن إدارته قد فتحت إمكانات أمام النساء في أفغانستان والعراق وعملت على إصدار تشريعات لصالحهن

واستمرت في الضغط من أجل إعطاء النساء حق التصويت في الكويت. ليس من قبيل المصادفة أن «منتدى النساء المستقلات» كان قد تلقى ١٠ ملايين دولار من وزارة الخارجية لإنشاء «معهد تعليم النساء العراقيات» قبل ذلك بعامين. علاوة على ذلك، لدى كثير من قيادات المنتدى روابط مباشرة بإدارة بوش/ تشيني. كانت لين تشيني مديرة السابقة، وكانت رئيسته وقت منح راييس الجائزة ميتشل برنارد وهي محامية أفروأمريكية يمينية عملت عضواً في لجنة مراسم تدشين رئاسة بوش/ تشيني. عملت أن ترينلون، مديرة السياسة الخارجية بالمنتدى، مع السلطة الانتقالية التي تولى أمرها برمر بعد غزو العراق كما عملت في هيئة العاملين التابعة للورا بوش. تفسر هذه الروابط بين البيت الأبيض في عهد بوش / تشيني وبين المنتدى الهمة الفائقة التي روج لها المنتدى للإنجازات التي تحققت في مجال الرعاية الصحية والتعليم للنساء بعد «تحرير» العراق.

وإذا كان المنتدى منظمة ظلَّ عملُ على إضفاء المصادقية على حروب بوش من أجل «النساء» في العراق وأفغانستان، فإن البيت الأبيض قد عمل منذ وقت مبكر أيضاً على تشكيل مجموعات عمل، وإصدار تقارير حكومية، وإقامة مجالس لمناقشة أحوال النساء في أفغانستان والعالم الإسلامي، كان الأبرز من بينها «مجلس النساء الأفغاني/ الأمريكي»، وهو «شراكة خاصة/ حكومية تهدف إلى حشد الموارد من أجل تقدم النساء الأفغانيات وتمكينهن»، وقد أقامه جورج بوش عام ٢٠٠٢. وأثناء تولى إدارة بوش، كان «مجلس النساء الأفغانيات» عملياً مبادرة حكومية واكبت الغزو والاحتلال وكان يعمل به مسئولو وزارة الخارجية. فيما ظلت لورا بوش، وحتى بعد ٢٠٠٨، مستشارة شرفية للمجلس وإحدى الشخصيات البارزة به. كانت مبادرات المجلس تعليمية بشكل أساسي، مثل تعليم الأفغانيات التحدث بالإنجليزية، وإمدادهن بمبالغ نقدية تأسيسية وقروض صغيرة لإقامة مشاريع ربحية حسب ما تقوله منجى ممتدحة إياه. وعلينا ألا نخلط بين هذا المجلس ومجلس النساء الأفغانيات الذي شكلته الناشطة فاتنة جيلاني وبشكل جزءاً من شبكة التنظيمات الجامعة القاعدية التي ترأسها الأفغانيات وتديرها وتستهدف قضايا تمكين النساء وحققهن في التعليم والرعاية الصحية.

ومما لا ريب فيه أن البيت الأبيض في عهد بوش، والذي كان إحدى الإدارات

الأكثر عداء لحقوق النساء الإنجابية، قد علم أن تبنيه لقضايا «المرأة» سيُكسبه تأييد التنظيمات النسوية مقابل منافسيه. وكان هذا التكتيك فاعلا ومؤثرا حيث دعمت مجموعات النساء شمال الأمريكية غزو أفغانستان والعراق، وأبدت موافقتهن على رؤية الرئيس بوش بشأن وضع قوة الولايات المتحدة العسكرية في خدمة حقوق النساء وحقوق الإنسان. وفي واقع الأمر، فإن عضوات الكونجرس عن الحزب الديمقراطي واللاتى كن العليات صوتا فى الدفاع عن حقوق النساء، كن أيضا العليات صوتا فى تأييد غزو العراق وكان من بينهن هيلارى كلينتون وديان فينستاين اللتان تبنتا معا مشروع قانون الوطنية Patriot Act وعملتا على تمريره.

كانت ذريعة تحرير النساء مؤثرة بخاصة فى إقناع الكونجرس بالموافقة دونما تساؤل على غزو الولايات المتحدة غير القانونى لأفغانستان. تلقى البيت الأبيض برئاسة بوش معونة كبيرة فى هذه الحملة من الديمقراطيين وعلى رأسهم السناتور هيلارى كلينتون وياريرا بوكسر التى كانت قد ظلت لوقت طويل تدعو للتدخل العسكرى فى أفغانستان من أجل تحرير النساء. كتبت كلينتون مقالا بتاييم مجازين جاء به «شكرا لشجاعة جيش أمريكا ولحفائنا وإقدامهم الذين ساعدوا كثيرا من نساء أفغانستان وعائلاتهما على استعادة الأمل» مبينة أن الرئيس بوش وزوجته عملا على إلقاء الضوء على سوء معاملة النساء الأفغانيات. ولهذا المقال دلالاته إذ إنه يوجز أطروحات لويس وزكريا، ويستبق كتابات هيرسى على ومنجى. تتبنى كلينتون أطروحات الضرورة الأخلاقية والحضارية التى تصور الولايات المتحدة على أنها «محررة»، ويصفتها هذه، فإن لها حق توفير «الفرصة والحرية» للأفغانيات اللاتى أنكرت عليهن حقوقهن بواسطة «المخططات الشريرة» لأسامة بن لادن ورفاقه من جماعة طالبان.

طلبت لورا بوش من جمعية «فايتال فويسز» أن تمد الفتيات الأفغانيات بالأزياء المدرسية فى أعقاب الغزو، والجمعية هى منظمة غير حكومية كانت هيلارى كلينتون قد بدأتها حينما كانت سيدة أمريكا الأولى، وتعمل كائى بايلى هتشينسون عضو الكونجرس عن الحزب الجمهورى والتى شاركت فى تبني مشروع قانون إغاثة أطفال أفغانستان ونسائها، تعمل رئيسة شرفية للمنظمة بينما تشارك فى إدارته بوى جرين مكارثى رئيسة العاملين بمكتب هيلارى كلينتون حينما كانت السيدة الأولى. كانت كلينتون التى دعمت غزو أفغانستان والعراق قد تذرعت بالنساء الأفغانيات طوال

تلك الحملة كسبب ضروري لاستمرار الاحتلال. عملت، كوزيرة للخارجية، على وضع قضايا النساء على قمة أجندة أولويات السياسة الخارجية الأمريكية، هذا على الرغم من أن محنة النساء العراقيات والأفغانيات مازالت تشكل ذرائع لتبرير تدخل الولايات المتحدة العسكرى فى مختلف البلدان.

وفى واقع الأمر، فإن موقف كلينتون الإمبريالى المتعالى تجاه النساء المسلمات، وعلى الرغم من احتمال حسن نواياها، يدعم أوهام الحزبين الديمقراطى والجمهورى فى النظر إلى الولايات المتحدة بصفتها قوة تحرر، بالطبع، فإن موقفها ينجم عن النظرة الأيدوبولوجية إلى الإسلام بأنه يحوى جوهرى عناصر معادية للنساء لابد من السيطرة عليها وتصويبها بواسطة المسلمين المتغربين التقدميين. نجد هذا النموذج يتكرر فى ممارسات الناشطات، والوكالات والمنظمات غير الحكومية التي، ورغم معارضتها لبرنامج إدارة بوش الانتخابى المعادى للمرأة، فقد دعمت سياساتها التدخلية والعسكرية. مثلاً، من المفارقات اللافتة أن «مؤسسة الغالبية النسوية»، وهى منظمة مكرسة لمساواة النساء وصحتهن الإنجابية وعدم العنف ضدهن، ظلت بين الأعلى صوتاً فى مناصرة الاستعمار، إذ إنها بدلا من أن تطالب بانسحاب القوات، فإنها تؤكد باتساق على الحاجة لإرسال المزيد من القوات إلى أفغانستان من أجل حماية النساء هناك وتحريرهن،

حاولت بعض تنظيمات حقوق النساء الأخرى السير على جانبى الجدار السياسى، حيث إنهن صادقن على الغزو بدون أن يؤيدن إدارة بوش. دعمت منظمة حقوق النساء المسماة «المساواة الآن Equality Now»، بأسلوب غير مباشر غزو أفغانستان وطالبت بتدخل الأمم المتحدة. وفى العام التالى، دعت المنظمة «إلى توسع مَلِجَ لقوات حفظ السلام فى أفغانستان من أجل توفير الأمن للنساء الأفغانيات». ومن المفارقات أنه على حين أن كثيرا من المنظمات النسائية بالولايات المتحدة انتقدت بتزايد تدهور أوضاع النساء فى العراق وأفغانستان بعد الغزو، إلا أنهن يقترحن أن السبب هو سوء إدارة الولايات المتحدة للأوضاع بعد الاحتلال، موحيات بذلك أن قوات الولايات المتحدة وقوات الناتو على الأرض لم تتعاط بحزم مع نظامهم العميل وسمحت لكرزائى بعقد صفقات سياسية مع العناصر الرجعية فى المجتمع السياسى الأفغانى مما نجم عنه إعادة أسلمة البلد.

يظل هذا التحليل نوعاً من الإسلاموفوبيا المضمرة التي تستند إلى التسليم بأن ثمة حاجة إلى التدخلات الأبوية الأجنبية المباشرة لضمان حسن معاملة النساء من قبل أشقائهن القبليين المتخلفين. في عام ٢٠٠٩، ألفت منجي، فيما كانت تتأمل إمكانية انسحاب القوات من أفغانستان، بالمسؤولية على الثقافة العربية وذلك للتأثير الذي مارسه على القبائل الأفغانية، الذي نجم عنه تطبيق الشريعة الإسلامية في ظل كرزاي واغتيال الناشطات من النساء. لا تذكر سوى القليل من هؤلاء الناشطات والسياسيين/ السياسيات والمنظمات نسبة المشاركة العالية للنساء العراقيات في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية في ظل حكم البعث بمثل ما تتجاهل أن المعدل العالي لاندماج النساء في المجتمع المدني الأفغاني قبل طالبان كان نتيجة لمجهودات الحكومة الاشتراكية الموالية للسوفييت. وبالمثل، يمكن هنا ذكر تقدم أوضاع النساء وارتقائها في الجمهورية الإسلامية الإيرانية مقارنة بأوضاعهن في ظل حكم الشاه المتغربين.

الخاتمة:

رسم هذا الفصل كفاف بند أساسي في برنامج الإسلاموفوبيا أي العداء المزعوم الذي يناصبه الإسلام للنساء. ظلت قضية قمع النساء وتحريرهن جسراً فاعلاً يربط بين الجماعات السياسية المتنافسة في الولايات المتحدة، حيث إننا، وفيما نجد الديموقراطيين والجمهوريين والليبراليين وغيرهم مشتبهين في التجاذبات والتناحرات السياسية، نجدهم متوحدين في توجسهم من المسلمين، ناهيك عن كراهيتهم لهم. ليست أيديولوجيا الإسلاموفوبيا لديهم مجرد مصادفة أو جهل منهم، بل إنها تقوم على أساس الرغبة في الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية على الكوكب وتوسيع نطاقها. كانت قضية النساء مركزية في تبرير غزو أفغانستان والعراق واحتلالهما، وأيضاً في إضفاء المصادقية على وجوب الحفاظ على اليقظة في الحرب الكوكبية على الإرهاب. يدلنا استغلال انتهازية أمثال هيرسي على، ومنجي، وأيضاً الصف الثاني من قائمة المخبرات المحلية، على أن حكومة الولايات المتحدة ومراكز الأبحاث، والمنظمات السياسية والجامعات والمنافذ الإعلامية الأمريكية لا تلقى بالاً إلى استمالة الأصوات التي لا تخدم الرأي القائل بأن الرجال المسلمين يقومون بقمع النساء المسلمات وتؤكد عليه من منطلقات أيديولوجيا الإسلاموفوبيا. ولنكن واضحين. لا يدافع هذا الكتاب عن أي شكل من أشكال التمييز ضد النساء

أو قمعهن. وفي واقع الأمر، يسهم الرجال المسلمون، وبالتعاون مع النساء المسلمات في الحفاظ على البطيريركية وإعادة إنتاجها في ثقافتهم المحلية والقومية. لكن العقائد المسيحية واليهودية والهندوسية والبودية، جميعها، تميز ضد النساء، ولديها جميعها أشكالها الخاصة للحفاظ على الامتيازات الذكورية البطيريركية. بيد أن تلك الديانات تُمنح الاحترام الذي تستحقه. لا أحد ينكر الموروثات الأمومية أو العناصر التقليدية، في تلك الديانات. ولا أحد ينكر أيضا محاولات النساء للتغلب على هيمنة الرجال ومقاومتهم لها إلا حينما يتعلق الأمر بالإسلام. لا يتعرض أى من تلك الأديان لتشويهه واتهامه بأن التمييز ضد النساء وكراهيتهن سمة ثقافية له بل وأنها من ضمن تعاليمه سوى الإسلام.

حينما تفرض أديان أخرى، بما فيها اليهودية الأرثوذكسية، الحجاب على النساء لا تؤلف كتب حول الموضوع. حينما تربط بعض الدول المميزات والحقوق السياسية بالدين الرسمى للدولة لا يسميها أحد دولة دينية. حينما يُنصّب المؤمنون الأرثوذكس في بلد ما أنفسهم «حراسا للحشمة» ويخصصون «حافلات محتشمة» تفصل فيها النساء عن الرجال، لا يُكطخ دينهم بتهمة التمييز ضد النساء وكراهيتهن إلا إذا كان ذلك الدين هو الإسلام. حينما يبصق المتعصبون المتطرفون على السكان والسياح المسيحيين ويكيلون لهم الإهانات لا يعتبر هؤلاء ممثلين لدينهم أو يتم الطعن في موروّثهم التاريخي للتسامح والتعاطف إذا لم يكن هؤلاء مسلمين.

ذلك لأن القول بأن التمييز بين الأديان وكرامية النساء سمات ثقافية وتعاليم يلتزم بها المؤمنون بالمسيحية أو اليهودية سيكون خطأ وعبثا. بل إنه في واقع الأمر فإن المثقفين الفلسطينيين والنشطاء والمقاتلين الذين يناضلون من أجل تحرير فلسطين يوضحون مرارا وتكرارا أن إسرائيل لا تمثل اليهودية أو اليهود جميعهم هذا على الرغم من رغبة إسرائيل في تقديم نفسها ممثلة لليهودية العالمية. وكما سنرى، لم تمتد هذه المجاملة من قبل الغرب لتشمل الإسلام وذلك لأن كرامة المسلمين مكوّن أيديولوجى ضرورى للنظرة الأمريكية الراهنة إلى ذاتها كحامية للنظام العالمى، ورعاية النساء ذوات البشرة السمراء إضافة إلى حمايتها للديموقراطية والسوق الحر.

الفصل الرابع

النشطاء والأساتذة في مواجهة قمع السلطة

في الخامسة من صباح ٢٠ فبراير ٢٠٠٣ داهمت قوة مهمات خاصة مشتركة من عملاء الإف بي أي والأمن الداخلي بأسلحتها الثقيلة منزل البروفيسور سامي العريان وألقت القبض عليه أمام زوجته وأطفاله الخمسة. كان العريان أستاذًا لعلم الحاسبات مُعِينًا في جامعة جنوب كاليفورنيا. وكثعد المدافعين البارزين عن القضية الفلسطينية، كان العريان عضوًا مؤسسًا لمشروع الدراسات الإسلامية العالمي، والجمعية الإسلامية بأمريكا، وتحالف تامبا باي للعدالة والسلام، ومنظمة هيلزبورو للتقنم والمساواة. بعد مجرد أسابيع من ٩/١١، هاجم بيل أوريلى البروفيسور العريان مُصَوِّرًا إيّاه على أنه إرهابي في وقت كان الجمهور الأمريكي يبحث عن كباش فداء.

كان العريان ناقداً مُقوِّهاً لاحتلال إسرائيل لفلسطين، ومناصراً لحقوق الفلسطينيين، وناشطاً في مجال الحقوق المدنية. كان قد التقى الرئيس بوش وكلينتون، وحضر مع كارل روث مؤتمرًا بالبيت الأبيض لاستعراض المعلومات. كان مواظباً على العمل مع الحكومات الفدرالية والمحلية، وبحسب ما يبين ألكساندر كوكبيرن، كان كثيراً ما يلتقى «بالقيادات الاستخباراتية والعسكرية والقيادة المركزية بمكتب أمريكا الفدرالي بمكنديل، ويدعو «مسئولي الإلف بي أي وغيرهم لحضور اجتماعات المجموعات التي ينتمى إليها»، من المفارقات أن العريان مارس الضغوط على الكونجرس من أجل إلغاء القانون الذي يسمح باستخدام الأدلة السرية (HR2121)، وكان الدافع لحملته هو احتجاز مازن النجار، صهره ومدرس اللغة العربية بجامعة جنوب فلوريدا، بأسلوب غير قانوني وبناء على أدلة سرية، حيث لم توجه إليه أي تهمة بإطلاقه. بعد أن وضعته تحت المراقبة لعشر سنوات، اتهمت وزارة العدل العريان بأنه



يترأس العمليات شمال الأمريكية للجهاد الإسلامي الفلسطيني (PIJ). وفيما كانت جانيت رينو قد ظلت تُخضعه هو والنجار للمضايقات والتحرشات طوال التسعينيات، إلا أنها استجابت للقانون الدستوري لدى إلغاء تشريع الأدلة السرية. أما چون آشكروفت، فقد جعل شخصياً، من العريان هدفاً رئيسياً له بعد ٩/١١. ظهر على شاشات التلفزة في اليوم التالي لإلقاء القبض عليه وأعلن قائمة من الاتهامات الموجهة إليه وعددها ٥٠ تهمة من بينها مخططات مزعومة لشن هجمات إرهابية بالولايات المتحدة وإسرائيل. سبقت محاكمة العريان التي استغرقت ستة أشهر، فترة حبس انفرادي وحشي مدتها عامان كلفت الحكومة ٥٠ مليون دولار. تتضمن التفاصيل المغشية للمحاكمة وجود قاضٍ منحازٍ بفجاجة للادعاء؛ واستخدام ٢٠٠ من ٢١٠٠٠ ساعة لحادثات تليفونية عددها ٤٧٠٠٠٠ تم التنصت عليها وتسجيلها، ومُنع محامي الدفاع من الاطلاع عليها في البداية؛ والاعتراف بقرائن ظرفية تضمر الجرم بالتلازم،

وتوظيف كتيبة من الشهود المتحازين يتضمنون عشرات العملاء الإسرائيليين. وفى النهاية تمت تبرئة العريان واثنين من المتهمين معه من ثمانٍ من تلك التهم، وصوّت ١٠ مقابل اثنين من المحلفين على براءة المتهمين من باقى التهم. وعلى الرغم من دوافع المحاكمة السياسية الواضحة وتبرئة الغالبية الساحقة من المحلفين للمتهمين إلا أن المدعى العام للولايات المتحدة أقسم على إعادة محاكمة البروفسور.

أجبرت الضغوط النفسية والمالية على أسرته، العريان على القبول بأحد انفقوع حيث اعترف بأنه منسوب بإحدى التهم - أى أنه كان على اتصال بأناس «مرتبطين» بالجهاد الإسلامى الفلسطينى، كما اعترف بأنه وكّل محامياً للدفاع عن صهره فيما كان محتجزاً بناء على قرائن سرية، مما يعنى أنه وقّر الاستشارة لمتهم لم توجه له أية اتهامات ناهيك عن إدانته بأية جريمة. كان لهذا الدفع أن يؤدى إلى الحكم عليه بأقل عقوبة تتضمن الفترة التى قضاها فى الحبس على أن يجرى ترحيله من الولايات المتحدة فى أعقاب ذلك. بيد أنه أثناء المحاكمة أكد القاضى جيمس موودى أن محكمته لم تراعى مبادئ العدالة وذلك من خلال اتهامها العريان بأن «يديه ملوثتان بالدماء» هذا على الرغم من جميع الأدلة التى تثبت عكس ذلك، ثم الحكم عليه بالعقوبة القصوى.

احتجت منظمة العفو الدولية قائلة إن ملابس احتجاز البروفسور كانت «قاسية وعقابية» وبيّنت أنه أُخضع لمضايقات عنصرية، ولأنواع من الحرمان والترهيب الجسدى بواسطة حراس السجن والمسئولين. وفى تلك الأثناء، قام جوردون كرومبيرج المدعى الفدرالى المعروف بكراهيته للإسلام بإصدار ثلاثة أوامر استدعاء للعريان للإدلاء بالشهادة أمام هيئة المحلفين العليا بفرجينيا والتى كانت تُجرى تحقيقات عن منظمة خيرية إسلامية. رفض البروفسور المثول أمامها فى كل مرة لأن الطلب كان ينتهك «اتفاق عدم التعاون» الذى يسمح له بالامتناع عن الإدلاء بالشهادة فى قضايا أخرى. وبعد إضرابه عن الطعام لمدة ٦٠ يوماً فى عام ٢٠٠٧، بدأ العريان إضراباً آخر فى مارس عام ٢٠٠٨ احتجاجاً على قرار كرومبيرج بإعادة تشكيل هيئة محلفين

عليا ثلاثة عشية الإفراج عنه في إبريل، وبحسب ما قاله جون تورلي كبير مستشاري العريان فإن «وزارة العدل، وبعد أن خسرت القضية بفلوريدا سعت بصراحة إلى مدّ أمد احتجازه من خلال تشكيل سلسلة متصلة من هيئات المحلفين العليا».

لم تكن معاملة العريان على الجبهة الأكاديمية أقل بشاعة. قامت جودي جنشافت رئيسة جامعة جنوب فلوريدا، وذات التطلعات السياسية بإلغاء تعاقده مع البروفسور العريان مع تجاهل مطلق للإجراءات المناسبة. لم تتخذ جنشافت أى احتياطات لحماية العريان حينما تدفقت التهديدات بموته على الجامعة بعد اضطهاد أوريلي له وتشهيره به. بدلا من ذلك، قامت دونما إبطاء بتجاهل الإجراءات، وويخته، وأنهت تعاقده جورا وبمخالفة للقوانين هذا على الرغم من احتجاجات اتحاد الأساتذة الجامعيين. وبالمثل، أسمى ديك بيرد رئيس مجلس أمناء الجامعة العريان «إرهابيا» و«سرطانا» وألغى بذلك حقه في التحكيم العادل. كان جيد بوش هو من عين بيرد ومعظم أعضاء المجلس، وثمة شكوك كثيرة في أنه هو من دفع وزارة العدل لاتخاذ الإجراءات ضده.

وطوال تلك المحنة عملت معظم وسائل الإعلام المحلية والقومية ابتداء من تامبا تريبيون وحتى نيوزويك وفاكتور التي يترأسها أوريلي، على إثارة حفيظة الأمريكيين وحنقهم ضده. نُشرت عدة مئات من المقالات حول قضية العريان، خلطت جميعها بين المزاعم والاتهامات والوقائع وشيطنت العريان حتى بعد تبرئته بل إن بعض المقالات أوحى بأن قبوله بأحد الدفوع كان اعترافا منه بالجرم هذا على الرغم من الأدلة الساحقة على عكس ذلك. تعتبر قضية البروفسور العريان نموذجا على قيام الولايات المتحدة بمأسسة ثقافة التخويف والتهديد والتي كانت موجودة من قبل ضد المعارضين المفوهين لإسرائيل وسياسة أمريكا بالشرق الأوسط. ظل اضطهاد الناشطين والأكاديميين المناصرين للحق الفلسطيني قائما منذ عقود. بيد أنه، فقد قامت الدولة وإعلام الإثارة وأعضاء من الحزبين الجمهوري والديموقراطي بتشكيل رابطة مع المجموعات الموالية لإسرائيل، والإنجيليين المتطرفين، والتنظيمات الطلابية

ومراكز الأبحاث اليمينية والأكاديميين الفاشلين والانتهازيين من أجل خلق بيئة مستساغة لتخويف وترويع النشطاء والأكاديميين المناصرين للحق الفلسطيني في الولايات المتحدة منذ عام ٢٠٠١. يركز هذا الفصل إلى حد كبير على محنة الأبياتذة والطلبة المسلمين الذين يُستهدفون بالمضايقات والتحرشات ناهيك عن احتجازهم. وعلى الرغم من أن هذا القمع لا يقتصر على الأكاديميين والطلبة والناشطين العرب والمسلمين حيث إن الجاليات العربية والمسلمة الأمريكية تعاني من «ثقافة القمع» هذه بدرجة تفوق غيرها كثيرا.

ترمز قصة سامي العريان إلى الضغوط التي يزرع تحتها أفراد الجالية والأكاديميون. سبق اضطهاده ٩/١١ حيث قامت وزارة العدل بمطاردته وتوجيه تهمة تدميرية إليه، ثم قامت بتبرئته في التسعينيات. لكن براعته حفزت مكتب المدعى العام الأمريكي والإف بي آي على الاستمرار في التنصت على هواتف عائلته وإبقاء أفرادها تحت الرقابة. وفي واقع الأمر، فقد كان كلما ظهر صدق شخصيته العامة ونشاطه السياسي، عمدت الحكومة والإعلام ومجموعات المصالح والولاءات على تصويره على أنه إرهابي يُتقن أساليب التخفي. في عصر «الحرب على الإرهاب» ظهرت بصمات الرابطة المكونة من الشرائح الحكومية العليا، واللوبيات ومجموعات المصالح والولاءات، ومراكز الأبحاث و«خبرائهم» والإعلام لتثبت تورطهم في قضية العريان. كان الرئيس بوش أثناء انتخابات عام ٢٠٠٠ قد استخدم مصداقية البروفسور لخطب ود المسلمين بفلوريدا، لكنه سرعان ما انقلب عليه وحول العريان إلى «ببيع» متطرف وأرسي بذلك مسابقة لانتهاك حقوق الناشطين والأكاديميين المدنية. وإلى جانب أساليب ستيف إمرسون وبيل أوريلي المكارثية، تجاهل الإعلام بأسلوب صارخ وفج حقوقه المدنية وخرق افتراض براعته وأدانته في أعين الجماهير وتغاضى متعمدا عن الحكم ببرامته وجعل من إخفاق هيئة المحلفين في التوصل إلى إجماع رغم الغالبية الساحقة التي أيدت براعته، وكذلك استخدام العريان لأحد الدفوع، جعل منها حكما بالإدانة. كرست مجموعات المحافظين الجدد والصهاينة، والخبراء والمواقع الإلكترونية

(بدءاً من فريدوم سنتر لدايفيد هو رويترز، وميدل إيست فورم لدانييل بايبس إلى مواقع الناشونال ريفيو وهيرتدج فاوندیشن وميليتانت إسلام مونيتر) كرست طاقاتها ومواردها اللامحدودة لتجعل من العريان أمثلة. وفيما أنه من المحتمل أنها جميعها كانت تعمل مستقلة عن بعضها إلا أن مجمل أثر جهود تلك المؤسسات، والنشطاء والمنظمات مجتمعة وكذلك جهود البيت الأبيض والكونجرس أدى إلى إرساء مناخ من الترويع المضمر ناهيك عن القمع التام. كان لهذا المناخ أثره القاعل في إثباط المعارضة الصريحة المعلنة من قبل المجموعات العربية والمسلمة والأكاديمية للحرب على الإرهاب واحتلال العراق وأفغانستان ومعاملة إسرائيل الوحشية للفلسطينيين.

التحكم في دراسات الشرق الأوسط:

بعد ٩/١١، وفقاً للوثائق القانونية تم احتجاز ٥٠٠٠ عربي ومسلم، دون توجيه أية تهمة لمعظمهم. تم احتجاز كثير منهم في سجون سرية وإجراء محاكمات سرية لهم، وترحيلهم أو تسليمهم لبعض الأنظمة القمعية الحليفة لسجنهم وتعذيبهم. وكما توضح حالة البروفسور العريان، يشعر الأكاديميون العرب والمسلمون بالضغط الحادة العميقة لثقافة القمع القومية هذه. وينتمي كثير من الأكاديميين الذين مروا بضغط مهنية وخبروا الترويع، وتلقوا تهديدات بالموت، وواجهوا مشاكل تتعلق بعقودهم الدائمة مع الجامعات، ونقاشات خلافية حول التعاقد معهم، وعدم منحهم تأشيرات سفر، كثير منهم ينتمون إلى الجاليات العربية والإسلامية الأمريكية. كانت نادية أبوالحاج، وشهيد علام، وكفين بارت، وبشارة دومانى، وحسيد دباش، ورشيد الخالدي، وسارى مقديسى، وجوزيف مسعد، وعلى مزدوعي، وأمينة بشرلى مكلود ووديع سعيد من بين أبرز الأكاديميين الذين تعرضوا لتلك الضغوط. وبالمثل، استهدفت مجموعات المصالح السياسية والإعلام والحكومة، علناً، الأكاديميين في مجال دراسات الشرق الأوسط.

كان الاضطهاد قد بدأ منذ فترة، حتى قبل أن ينشئ جوزيف ليبرمان، وهو من صقور المحافظين الجدد، ولين تشيني، وشاؤول بيلو الصهيونى اليميني، وهانك براون

السنتاتور السابق وعضو المحافظين المتشددين، والذي كان، وبصفته رئيس جامعة كلورادو قد أنهى عقد وارد تشرشل دون سند قانوني، قبل أن ينشئ «هؤلاء» مجلس الأمناء والخريجين الأمريكي ACTA، الذي يزعم أن «تهديد الحرية الأكاديمية يأتي من الداخل، وأن البرابرة ليسوا على الأبواب، بل داخل الأسوار». المقصود بهذا الكلام المُشَفَّر هو إخضاع الأبحاث والدراسات النقدية في المجال الأكاديمي والتي قد تواجه سياسة الولايات المتحدة الأمريكية بل وتساؤل فرضيات سمو الثقافة الأمريكية البيضاء، إخضاعها للوائح والتنظيمات الرقابية. بعد ٩/١١، وجد السياسيون المواليون لإسرائيل والأكاديميون المزيّفون، واللويّهات، ومجموعات الولاءات والمناصرة أرضاً خصبة في إطار تلك الثقافة. انضمت كثير من تلك المجموعات والسياسيين إلى ACTA على أمل التحكم في دراسات الشرق الأوسط وصاغت على مشروع قانون الدراسات الدولية في التعليم العالي «الذي تبناه عضو الكونجرس باتريك تيبيري ومعه ثلاثة عشر عضواً من الحزبين».

كان مشروع قانون مجلس النواب H.R. 509 نسخة أعيد تشكيلها H.R. 3077 التي كتبها العضو اليميني بيتر هوكسترا وطرحت على المجلس في الذكرى الثانية لأحداث ٩/١١. قصد بالتشريع أن يكون «تعديلاً» على عنوان تشريع [يلخص محتواه] Title IV لقانون التعليم العالي عن العام ١٩٦٥ الذي يقضى بتوفير التمويل الفدرالي لبرامج دراسات المناطق. لا يمول Title IV فقط مراكز أبحاث دراسات المناطق بل أيضاً يوفر منحاً دراسية لمئات الطلبة الذين يحتمل لهم أن يصبحوا بعدئذ أكاديميين ومهنيين ومسؤولين حكوميين. تمت الموافقة على الفور على H.R. 3077 وأحيل إلى مجلس الشيوخ حيث دخل على النسيان بعد إرساله إلى لجنة الصحة والتعليم والعمل والمعاشات في ١٢ أكتوبر ٢٠٠٣. ظهر التشريع مرة أخرى مع H.R. 509 الذي كتبه تيبيري وتم تعديله في ١٦ يونيو ٢٠٠٦ في اللجنة الفرعية للتعليم المختار ويُعث به إلى لجنة التعليم وقوة العمل حيث يظل هاجعاً إلى الآن.

في واقع الأمر فإن المقصد من ذلك التشريع كان إعادة ضبط دراسات الشرق

الأوسط ووضع معايير لها أو بحسب ما قاله تيرى فإن مشروع القانون «سيشجع مؤسسات التعليم العالى لأن تكون أكثر استجابة للمناخ الكوكبى الراهن»، وأضاف أن «مشروع القانون يوضح أن البرامج المدرجة تحت العنوان ٧١ من قانون التعليم العالى عليها أن تدعم البرامج الفدرالية فى مجال اللغات الأجنبية ودراسات المناطق والبيزنس الدولى وتنسق معها»، ذلك لأن التشريع يهدف إلى إنتاج «الجيل القادم» من المتخصصين «الذين باستطاعتهم توفير المساعدة للحكومة وللقطاع الخاص». وإلى جانب نظرة التشريع النفعية والشركاتية والسياسية لدراسات الشرق الأوسط، فهو يحتل أرضا جديدة فى رغبة الدولة فى التحكم فى المجال الأكاديمى وبخاصة فى الدراسات البحثية والأبحاث الناقدة فى قاعات الدراسة وفى أوساط أعضاء هيئات التدريس والطلبة الذين يدرسون الشرق الأوسط. لا يخفى كاتبو التشريع رغبتهم فى إدارة دراسات المناطق جزئيا، بما فى هذا تشكيل مجلس استشارى يمد وزير التعليم والكونجرس بالمشورة حول ما تحتاجه الحكومة من خبرات وكذلك القطاع الخاص والتعليم وذلك من أجل الارتقاء بفهم أمريكا للعالم والاشتباك معه». سيقوم ذلك المجلس بإصدار «توصيات تعكس وجهات نظر متنوعة ومدى كاملا من الآراء بشأن مناطق العالم واللغات الأجنبية والشئون الدولية». وهذا المجلس بوثقة سياسية تتكون من ثلاثة أعضاء يعينهم وزير التعليم واثنين يعينهم مجلس النواب واثنين من قبل مجلس الشيوخ، وينبغى أن يمثل اثنان من هؤلاء السبعة «الوكالات الفدرالية المسؤولة عن الأمن القومي». من ثم سيكون هؤلاء مفوضين بدراسة عينة من الأنشطة المدعومة المدرجة تحت هذا التشريع ورصدها وتقويمها وتقييمها وذلك لإصدار توصياتهم إلى وزير التعليم والكونجرس من أجل تحسين تلك البرامج والتأكد من أنها توفى بمتطلبات هذا العنوان. وفيما أن «المجلس» غير مسئول أمام أحد، إلا أن اللغة الشركاتية للتحكم فى الجودة هى الوسيلة التى بها يكتسب الكونجرس، ووزير التعليم، والأمن الداخلى، ومجموعات الموالاة واللوبيات نفوذا على الأبحاث الأكاديمية والطلبة وقاعات المحاضرات. باستطاعة المجلس التهديد بإبطال استحقاق

إحدى المؤسسات لـ Title iv وللتمويل إذا لم تمثل نظرة «متوازنة»، أى تقوم بتكرس وقت متساو للنسخة الأمريكية والإسرائيلية الرسمية للسياسة والتاريخ.

يشترط H.R.509 أيضا على البرنامج الملتقى [للتمويلات] أن يتيح الهيئات التوظيف الحكومية والولاكات الخاصة لقاء الطلبة وإعطائهم معلومات عنهم وذلك بهدف منح الطلبة فرصاً للدراسات العليا أو الوظائف بعد تخرجهم» وإذ لم تدعن الجامعات المتلقية لتفسير المجلس الاستشارى لمهمة Title IV تمنع عنها التمويلات. نقدت معظم كبرى الجمعيات المهنية فى هذا المجال مثل جمعية اللغات الحديثة MLA، واتحاد أساتذة الجامعات الأمريكية AAUP واتحاد دراسات الشرق الأوسط MESA، نقدت هذا التشريع لأنه «يخفى أجندة سياسية خلف اهتمامه بالكفاءة».

يعمل قانونا H.R.509 و3077 بتناغم مع تشريع آخر من أجل إدارة حرية الكلام، والتقصى الناقد فى قاعات المحاضرات، والأبحاث الموضوعية حول الشرق الأوسط. يستهدف «قانون الوطنية PATRIOT Act» الأكاديميين العرب والمسلمين فى مجال دراسات الشرق الأوسط. تسمح الفقرة ٤١١ من القانون للحكومة بترحيل الأجانب ممن لهم أوضاع قانونية (بما فيها الإقامة الدائمة) بالولايات المتحدة على أساس «الارتباط» بمنظمات متهمة بوجود صلات لها مع «الإرهاب». استخدمت إدارة بوش هذا النص لمنع حصول طارق رمضان على تأشيرة دخول.

رمضان من مواليد سويسرا، وهو حفيد حسن البنا وأكاديمى فى مجال الدراسات الإسلامية ومثقف عام. وفيما تركز أبرز أعماله على المسلمين فى أوروبا، إلا أنه كتب مقالات ناقدة لإسرائيل واحتلال العراق، ولاستخدام التعذيب، وسجون السى أى إيه السرية وإجراءات الحكومة لتقويض الحريات المدنية الأساسية. كان قد قبل منصب أستاذ كرسى بجامعة نورثام بالولايات المتحدة لكن وزارة الخارجية ألغت تأشيرة دخوله على أساس أنه كان قد تبرع بتسعمائة وأربعين دولار لمنظمتين خيريتين (مجموعة فرنسية وفرعها فى سويسرا) ترعيان شئون الفلسطينيين. أيضا، لجأ مكتب المدعى العام للولايات المتحدة للاستناد إلى الفقرة ٤١١ من قانون Patriot

لمقاضاة سامى عمر الحسين طالب الدكتوراه السعودى بجامعة إيداهو البالغ من العمر ٣٤ عاما والاب لثلاثة أطفال، وذلك لأنه تطوع لإدارة عدد من المواقع الإلكترونية الإسلامية، وكان بعضها قد امتدح العمليات الانتحارية بإسرائيل والشييشان. لم يقدم المدعون الفدراليون أية أدلة أو قرائن على أنه كان يدعم العنف بالخارج أو بداخل الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن هيئة المحلفين بإيداهو برأته، إلا أنه، ومثل النجار، ظل معتقلا ثم تم ترحيله رغم قانونية إقامته بالولايات المتحدة.

ومثل قانون باتريوت، يسمح قانون REAL ID لعام ٢٠٠٥ للحكومة الفدرالية بترحيل أى شخص ينتمى إلى جماعات ترى الولايات المتحدة أنها مرتبطة بنشاط «يتصل بالإرهاب» أو يمدّها بالمال، أو يصادق عليها، أو يتواجد مع أعضائها أو مناصريها، ترحيلهم وعدم منحهم حق اللجوء. تبين منظمة العفو الدولية أنه وفقا للفقرة ١٠٣ من هذا القانون يصبح أى شخص عرضة للترحيل إذا عجز عن إثبات، وفقا «لأدلة واضحة ومقنعة» أنه/ أنها لم يكن يعرف/ تعرف أن المجموعة التى يؤيدونها لم تتورط فى أية أنشطة إرهابية وفقا للتعريف الغضاض لهذا اللفظ، وأن هذا النوع من التشريعات لا يقلب فقط مبدأ أن «الإنسان برئ» حتى تثبت إدانته «رأسا على عقب وذلك بإلقائه مسئولية إثبات البراءة على المتهم، بل أيضا يعرض الأكاديميين والباحثين الذين يدرسون التنظيمات السياسية فى الشرق الأوسط لمخاطر جمة.

يقترح مشروع قانون «منع الرذكلة العنيفة والإرهاب المحلي» الذى وافق عليه مجلس النواب مع معارضة ستة أصوات فقط إقامة «مراكز امتياز وفضائل» فى الأحرار الجامعية وذلك لنقل «الحرب على الإرهاب إلى مستنبتاته المحلية» لمواجهة «الإرهاب الذى ينمو محليا» و«العنف القائم على أسس أيديولوجية». كتب بريان جنكينز عضو مؤسسة راند والذى يُطلق عليه «صائد الإرهابيين» مشروع القانون هذا الذى ينص صراحة على أنه يطمح لقمع العصيان المدنى وأنشطة العدالة الاجتماعية التى يقودها داخل الأحرار الجامعية وخارجها مجموعات الطلبة المسلمين، والمنظمات المناوئة للعولمة والبيئيون والأناركيون.

أدت التشريعات القومية وتشريعات الولايات المتحدة إلى إرساء مناخ دفع الأكاديميين والنشطاء، وبخاصة غير المواطنين منهم، إلى ممارسة الرقابة الذاتية على أحاديثهم واعتراضاتهم، وإلى التقييد الذاتي لأفعالهم وإجراءاتهم العامة والعلنية، وإلى الحذر والحيلة البالغة لدى اختيارهم لرفاقهم ومعارفهم. تُبدي الحكومة علناً عزمها على مطاردة الأكاديميين الذين يتجاسرون على بث نقدهم لسياسة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط في أوساط التيار السائد. عمل هذا المناخ بفعالية على إخراس أصوات الأكاديميين العرب والمسلمين، وخاصة شباب الباحثين منهم، والمهاجرين القانونيين، ومن لديهم إقامات دائمة أو من هم مواطنون مُجنسون.

التنسيق من أجل خلق مناخ الخوف:

بدأ اضطهاد الأكاديميين والمثقفين مع صعود إدوارد سعيد واحتلاله مكانة مرئية مرموقة في وسائط الإعلام السائد الأمريكية وفي الحياة السياسية في ثمانينيات القرن الماضي، أُطلق على سعيد، في الثمانينيات والتسعينيات، بصحافة نيويورك والصحافة القومية لقب «بروفسور الإرهاب» وغير ذلك من النعوت العنصرية، ويُعتبر هذا خيراً مقارنة بتفجير مكتبه في جامعة كولومبيا بالقنابل الحارقة عام ١٩٨٥، أو بمخططات عصابة مكافحة التشهير اليهودية لقتله هو ورشيد خالدي عام ١٩٩٠. تصور «كتائب الصدمة» التي تشن تلك الهجمات أساتذة دراسات الشرق الأوسط أشخاصاً معادين للسامية، يساريين متطرفين ومتعاطفين مع الإرهابيين. بل يكادون يكونون متحالفين مع القاعدة، انهال البُحاث المتعصبون العنصريون من أمثال دانييل بايبس ومارتن كرايمر وفؤاد عجمي وبرنارد لويس ودعاة الإسلاموفوبيا من السياسيين «الأرزقية» من أمثال ديفيد هورويتز وروبرت سبنسر، انهالوا بالاتهامات على أساتذة دراسات الشرق الأوسط والأكاديميين في المجال بأنهم يسوغون «الإسلام المتطرف» ناهيك عن «تمكين» التطرف ذاته. فضح عدد غير قليل من التعليقات والمقالات أمر هؤلاء النقاد بصفتهم «أرزقيين» سياسيين وكتاباً عنصريين، كما تم نشر عدد من المصنفات الجيدة التي تبين تآكل حرية الكلام في الأوساط الأكاديمية و«حصار» دراسات

الشرق الأوسط، ومن أهمها تلك الدراسات التي قام بها بشارة دومانى، وجويل بينين وزخارى لوكرمان رئيس اتحاد دراسات الشرق الأوسط، وكلها دراسات لافتة وذلك لأهمية القائمين عليها وتمكنهم من هذا المجال.

وبما أن «اتحاد دراسات الشرق الأوسط MESA» هو أهم اتحاد مهني في هذا المجال على مستوى العالم، نجد أنه الهدف الرئيسي للهجمات، وبصفته المهنية هذه، فقد دافع بشدة عن حرية أعضائه الأكاديمية، وعرف الجمهور بمحنة كثير من الزملاء في مجال دراسات الشرق الأوسط. وبالمثل، فقد قام اتحاد أساتذة الجامعات الأمريكية AAUP بإعلان إدانته للتشريعات القومية التي تهدف بوضوح إلى إخضاع دراسات الشرق الأوسط للوائح التنظيمية ناهيك عن التجسس على أعضاء هيئة التدريس بها. وفي هذا الصدد، فقد غدا هذا الحصار لأقسام دراسات الشرق الأوسط وهيئات التدريس بها مصدر قلق معلن في الأوساط الأكاديمية. تتراوح الهجمات على الأكاديميين بين المضايقات، وتقويض إجراءات التعاقد معهم، سواء التعاقدات المؤقتة أو الثابتة، والتهديدات بالقتل، وإثارة القلاقل بقاعات الدراسة، والرقابة، وإلغاء الأحاديث أو التراجع عن الدعوات لها، إلى منع الأكاديميين خارج الولايات المتحدة من الحصول على تأشيرات دخول إلى البلاد. تأتي كثير من تلك الإجراءات والمضايقات من خارج الجامعات، تحفزها حملات مكارثية تقوم بها مجموعات المصالح والموالة والنشطاء المتطرفون. من بين أكثر هؤلاء شراسة مشروع دايفيد، ومرصد الأحرام الجامعية التابع لمنتدى الشرق الأوسط، وفرونتييدج مجازين، ورابطة بروين للخريجين، وجمعية «قف معنا Stand With Us» و«تحالف إسرائيل بالأحرام الجامعية»، وه المفكرون من أجل السلام في الشرق الأوسط. تتضمن تكتيكات تلك التنظيمات التي لا تنتمي للجامعات إطلاق حملات كلامية ضد من تستهدفهم وذلك من خلال نشر متزامن لمقالات ملتهبة على شبكة من المواقع الإلكترونية، وفي النهاية تجد تلك المقالات طريقها إلى إعلام التيار السائد. يقوم هؤلاء «الأرزية بالطعن في الصديقة الأكاديمية لأهدافهم، ويستخدمون لغة ملتهبة تحريضية، ويجتزئون مقولاتهم من خارج سياقها

أو يعمدون إلى اقتباسها بأسلوب خاطئ، أو يفبركون الأدلة والقرائن. وبناء على تلك المتون من المقالات والقوائم الاتهامية مثل «الحقراء الثلاثين» أو «المائة أستاذ الأشد خطورة» يقوم مهندسو تلك الحملات بترويع كل جامعة على حدة، أو استمالتها من أجل اتخاذ إجراءات تأديبية ضد من يستهدفونهم. يقومون بالضغط على الخريجين والمانحين لاستخدام نفوذهم للتدخل في العمليات الأكاديمية للجامعات مثل إجراءات التعاقدات، أو منع عقود دائمة، أو يقومون بتهديد تلك المؤسسات بالمقاطعة أو باتخاذ إجراءات قانونية إذا لم تلغ الدعوات أو التعاقدات غير المرغوب فيها.

ثمة تعليقات كثيرة على حالات المشاهير من الأساتذة مثل الإجراءات العقابية والتأديبية ضد العريان، و وارد تشرشل وجوزيف مسعد؛ وإلغاء تأشيرة رمضان؛ والاحتجاجات ضد تعاقد جامعة كولومبيا مع الخالدي؛ والعمل على إلغاء تعاقد جامعة ولاية واين مع وديع سعيد، وجامعة بيل مع جوان كول؛ والحملات ضد تعاقد جامعة دويول مع نورمان فينكلستاين وجامعة برنارد مع نادية أبوالحاج. تشمل الهجمات الشاملة ضد الأكاديميين الناقدين لإسرائيل حميد دباشي وجيل أفيجار بجامعة كولومبيا، وجون إسبوزيتو بجامعة جورج تاون، وساري مقدسي وساندرا هايل وجبريل بيتيريرج بجامعة يوسى إل إيه، وأمينة بقرلى مكلواد بجامعة دويول، وعلى مزروعى بجامعة صانى بينجامتون، وشهيد على بجامعة نورث إيسترن، وسنهال شينجافي ببركلي، ومارك لقانين بيوسى إرفين، وجوان كول بجامعة ميشيغان. أما الهجمات الشرسة الأخرى على أعضاء هيئة التدريس الأقل شهرة فهي أكثر من أن تحصى و نكتفى هنا بالحملات ضد كفين بارت بجامعة ويسكونسين وحاتم بازبان بجامعة كاليفورنيا ببركلي، وناتانا دولونج - باس بجامعة براندينز، ودوجلاس جايلز بجامعة رورزفيلت.

تقوم جماعات المحافظين الجدد والصهاينة ونشطاؤها، وإلى جانب حملات التشهير المباشرة، بممارسة الضغوط على الجامعات من أجل مقاطعة الأكاديميين والفتانين والنشطاء والسياسيين الذين ينقدون السياسات الإسرائيلية علناً. لم توجه الدعوة

إلى دزموند توتو وحنان عشراوي للتحديث بجامعة سان توماس وجامعة كلورادو على التوالي كما لم يُدعِ جون ميرشايمر وستيفن وولت كاتباً المقال الشهير الذي يهاجم لوبي إسرائيل إلى مجلس شيكاغو للشئون الكوكبية. وبالمثل، تم إلغاء الأحاديث التي كان من المفترض أن يلقيها طوني جودت، أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة نيويورك، إلغاؤها بالقنصلية البولندية بنيويورك سيتي، وكلية مانهاتن وذلك لمعارضة «عصبة مناهضة التشهير ADL الصهيونية. واللجنة اليهودية الأمريكية. كان جودت قد أدى الخدمة العسكرية بالجيش الإسرائيلي وأصبح منذ آنذاك ناقداً مُفَوَّهاً لدولة إسرائيل، ودعا في مقال جسور له بدورية نيويورك ريفيو أوف بوكس إلى إقامة دولة تضم الفلسطينيين واليهود معاً.

لا يجوز أن يغرى المرء بإلقاء مسئولية حملة «اصطياد الساحرات» الراهنة والمحاكمات الصورية الظالمة وحملات التشهير على المنظرين المتعصبين والنشطاء المتطرفين ومنظمات اللوبيات، ومجموعات الموالاة فقط، إذ إن وزارات العدل والخارجية والأمن الداخلي والتعليم ظلت تمارس أنشطة استباقية في إعاقه قدرة أساتذة دراسات الشرق الأوسط على التحديث والتدريس وإجراء الأبحاث. وكما بينتُ فإن أكثر الأكاديميين عرضة لإخضاعهم لتلك الإجراءات والضغط هم ذوو الأصول العربية و/أو الإسلامية، ومن هم من مواطني الدول الأجنبية، ومثلما حدث في حالة طارق رمضان عملت وزارة الخارجية على تعقيد الزيارات الأكاديمية أو تعيين عدد من المفكرين المسلمين أو منعها.

حينما سافر محمد رمضان حسن سلامة أستاذ اللغة العربية بجامعة سان فرانسيسكو إلى ترونتو من أجل تجديد أول تأشيرة دخول له إلى الولايات المتحدة وإطالة مدتها رفضت السلطات طلبه وحُظر عليه دخول الولايات المتحدة مرة أخرى، ثم، بعد ثلاثة أشهر من الاحتجاجات سُمح له بالدخول. وفيما أن العنصرية كانت أساس محنة سلامة، فقد تم منع أكاديميين عرب ومسلمين آخرين من الدخول ومن بينهم آدم حبيب الأكاديمي جنوب الإفريقي والدكتور رياض لطفا، كان حبيب في

طريقه لزيارة المعهد القومي للصحة، ومراكز التحكم فى الأمراض والبنك الدولي. ولأنه كان معارضا مفوها للحرب على العراق فقد اتهم بأن له روابط مع الإرهابيين وتم احتجازه لدى دخوله نيويورك ثم ترحيله. وبالمثل، فقد تم رفض منح الدكتور لطفة، وهو متخصص فى الأوبئة ويحظى بمكانة رفيعة فى الأوساط الطبية، تأشيرة دخول للولايات المتحدة بعد أن نشر مقالا أكد فيه أن ما يربو على ٦٥٠.٠٠٠ عراقى قد قتلوا منذ «تحرير» الولايات المتحدة للعراق.

تظهر الرابطة بين مجموعات مناصرة الصهيونية، والإعلام وإدارات الجامعات والحكومة فى أقصى تجلياتها فى حالتى مسعد والعريان.

مسعد تلميذ سابق لإدوارد سعيد ومازال ناقدًا للولايات المتحدة وإسرائيل والسلطة الفلسطينية لكنه هدف سهل، وُضِعَت محاضراته بجامعة كولومبيا تحت المراقبة من خلال «مشروع دايفيد» وهو تنظيم صهيونى يمينى مكرس لقمع أى حديث أو أعمال أكاديمية تنقد إسرائيل. فبرك ذلك التنظيم شهادات دامغة على أن مسعد معاد للسامية وإسرائيل يزيف الحقائق التاريخية ويلقن طلبته الأفكار المناهضة لإسرائيل، وفيما بدأت كولومبيا تحقيقا لقى دعاية واسعة، كان مسعد وزملاء له بالقسم يتلقون عشرات الآلاف من الإيميلات البذيئة، والخطابات المروعة، والتهديدات المشغاهية. الأدهى من ذلك والأكثر إثارة للقلق أنه تعرض للتحرشات والمضايقات من قبل الطلبة وأعضاء هيئة التدريس بكولومبيا وكان من بينهم أستاذ بكلية الطب قال لمسعد «أرحل عن أمريكا واذهب إلى الجحيم، إنك مدعاة، للعار، وكذاب عربى نمطي...». ومما فاقم الحملة ضده قيام بعض المتطرفين الصهاينة بسرقة بطاقة هويته واستخدامها وأرسلوا باسمه تهديدات إرهابية إلى البيت الأبيض والكونجرس. وفى تلك الأثناء، طالب أنطونى وينر عضو الكونجرس بفصل مسعد بفظاظة ودونما إبداء أسباب فيما هدد مجلس نيويورك سيتى بالقيام بتحقيقاته الخاصة مع البروفسور والقسم الذى يعمل به. توضح الحملة ضد مسعد والعريان تلاقى مصالح جماعات

مناصرة إسرائيل وتابعيها المتعصبين، ومستولى الحكومة، وإعلام التيار السائد بدءاً من النيويورك تايمز وإلى فيلديج فويس، ناهيك عن التنسيق بين جهودها.

كُتَيِّبات القمع والترويع:

ليس من قبيل نظرية المؤامرة القول بوجود جهود متسقة لقمع الآراء الناقدة لإسرائيل وسياسات أمريكا شرق الأوسطية، الأخرى أن هذا القول يوضح أنه ثمة رغبة مشتركة لدى المسؤولين الحكوميين والهيئات والإعلام، وجماعات النشطاء لقمع المعارضة وذلك من أجل الدفع بأجندتهم الخاصة. توضح البرامج والمشروعات والاستشارات والمخططات الصريحة للمجموعات المناصرة لإسرائيل كيف تتناسج السياسات الجامعية مع نظيراتها التي تتبناها مجموعات المصالح والهيئات الحكومية. تقوم تلك التنظيمات الصهيونية، والتي ليست يهودية بشكل حصري، بنشر الطلبة ليعملوا جنود مشاة في حملاتها للرقابة والتحكم، وتمول أنشطة الطلبة وتقدم لهم منحا لحضور ورش عمل في واشنطن وإسرائيل. الأنكى من ذلك أنها تقوم بتوزيع كتيبات وكتب إرشادية تمدهم بالتعليمات عن كيفية ترويع «الأجندة المناصرة لإسرائيل» ورصد الأنشطة والأحداث المعادية لإسرائيل بالأحرام الجامعية.

قيل الكثير عن حملات دايفيد هورويتز الفاشية الصريحة ضد أعضاء هيئة التدريس والطلبة والمنظمات العربية والإسلامية، لكن دوره لا يخرج عن نطاق تيسير تلك الأنشطة وتحفيزها ليلتقطها بعد ذلك الصهاينة الملتزمون والتنظيمات اليمينية مثل منظمة «يونج أمريكاس فاوندیشن» النازية. تدير التنظيمات من أمثال إيباك برامج تدريب بالأحرام الجامعية، وورش عمل ومعسكرات تدريب صيفية تعلن عنها بالقول «بإمكانك التأثير في مستقبل إسرائيل وتعزيز مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط من داخل جامعتك». تبعث تلك المعسكرات وورش العمل بالطلبة إلى إسرائيل في «بعثات مدتها عشرة أيام» وتقوم بإقامة شبكات بين الطلبة وأعضاء الكونجرس وذلك لمساعدتهم على «تحديد مجالات الجدل ونوعيته» و«التأثير في مناخ الرأي بالجامعات».

ليست العلاقات بين مجموعات الطلبة، ومجموعات مناصرة إسرائيل والتنظيمات الصهيونية، والمراكز، ومراكز الأبحاث، ليست سرا، تقوم مراكز الأبحاث بزراعة مجندين للدفع علناً بأجندات مؤازرة إسرائيل داخل الحكومة الفدرالية وفي الأحرام الجامعية، وُسْجَع هؤلاء المجندون على رصد أنشطة الأساتذة والطلبة الذين يعتقدون أنهم معادون لإسرائيل ناهيك عن ترويعهم. يتضح التنسيق بين تلك التنظيمات والمعاهد ومجموعات الطلبة بمجرد إلقاء نظرة عابرة على مواقعها الإلكترونية حيث نعلم «مثلاً» أن «تحالف إسرائيل بالجامعات Israel on Campus Coalition» يتكون من منظمات قوية تشمل هيلل، والمنظمة الصهيونية بأمريكا ZOA وإيباك وعصبة معاداة التشهير ADL وتموله التدفقات المالية من مركز تشارلس أند لين تشوسترمان. يجتذب ذلك التحالف، المنظمات اليمينية المتطرفة مثل أميركان إسرائيلى كونيتراتييف إنتربرايز وهاماجشاميم ومعها تنظيمات ليبرالية مثل حركة السلام الآن. يعلن هذا التحالف، متباهياً، عن علاقته بدولة إسرائيل وسفارتها وتنسيق أنشطته معهما، من بين أنشطة الترويع التي يمارسها التحالف في الجامعات نشر كتيبات تحمل تهديدات لا تكاد تخفى مثل «تحديد دور هيئة التدريس في دعم إسرائيل بالجامعات» ويزعم أنه يؤثر «قضايا مقلقة تتعلق بدولة إسرائيل، وهيمنة أعضاء هيئة التدريس المعادين لإسرائيل، وندرة الأساتذة المناصرين لإسرائيل، وما ينجم عن هذا من أثر على ما يتعلمه الطلبة عن إسرائيل، والمناخ الذي يسود الحرم الجامعي». يطرح الكتيب «مقترحات ملموسة لكيفية دعم أعضاء هيئة التدريس للطلبة المناصرين لإسرائيل، ومقترحات بمبادرات استباقية تهدف إلى تعزيز الدراسات والأبحاث المناصرة لإسرائيل بالجامعة».

ينصح هذا الكتيب الإرشادي مجموعات الطلبة، وأفراد هيئة التدريس المتعاطفين، والمواطنين المهتمين بالتحكم في عمليات التعاقد مع الأساتذة بحيث يرفضون التعاقد مع «الأساتذة المعادين». يقدم الكتيب إرشادات لإدارة الجدل الصهيوني/ الفلسطيني ودعم العناصر الموالية لإسرائيل وحلفائها في الجامعات والإعلام والدوائر الانتخابية بحيث يتم إنجاز ذلك من خلال تنمية صلات مع إدارات الجامعات، وممارسة الضغوط

على الممثلين المنتخبين من أجل «إصلاح» «قانون التعليم العالي» مع الإصرار على تمثيل «المنظور الإسرائيلي» فى جميع مناهج دراسات الشرق الأوسط، وإغراق الجامعات بالمناسبات الثقافية الإسرائيلية، ودعوة أعداد كبيرة من الأساتذة الإسرائيليين الزائرين. يتم توجيه الطلبة والخريجين الصهاينة والمانحين إلى «تقوية» العلاقة بين جامعات الولايات المتحدة وإسرائيل من خلال إرسال بعثات من الطلاب والإداريين وأعضاء هيئة التدريس إليها، وزيادة برامج الدراسة بالخارج، وتشجيع الأبحاث والمشاريع المشتركة مع الجامعات والبيزنسات الإسرائيلية، وفى إطار رؤية الكتيب طويلة المدى، يوحى بتجميع قاعدة بيانات للمانحين المحتملين، ومصادر التمويلات من أجل إيجاد مناصب أساتذة كرسى للدراسات الإسرائيلية والتحكم بها. أيضاً، ستوفر قاعدة البيانات تلك المعلومات عن مصادر للتمويلات، ورعاية شباب الطلبة الصهاينة من أجل خلق مستودع «للتعاقدات الأكاديمية الجذابة»، وفى نفس الوقت إيجاد التمويلات «لتدريب الأكاديميين الحاليين المتخصصين فى مجالات أخرى والذين يمكن أن يتعلموا قدرًا كافيًا عن شئون الشرق الأوسط يسمح لهم بطرح مناهج تعليمية فى هذا المجال فى الأقسام التى يعملون بها».

تعطى مثل هذه الكتيبات الموجودة فى متناول الجميع التعليمات للطلبة عن كيفية استهداف الأساتذة الناقدين لإسرائيل والربط بين توجهاتهم التقدمية والإسلام المتطرف. مثلاً، تؤكد الإصدارات من أمثال الكتيب الاستعراضى الذى ألفه جون تيرنى بعنوان «سياسات السلام: ما يكمن خلف الحركة المناهضة للحرب» تؤكد رأى إلن شيوكر التى تذهب إلى أن أساتذة دراسات الشرق الأوسط أهداف للمكارثية الجديدة. يقول تيرنى فى كتيبه إن «السلام فكرة يستخدمها منظمو الحركة استخداماً تكتيكياً حيث يستعملونها رافعة سياسية فى مواجهة صناع السياسة الأمريكين، علاوة على كونها رد فعل أيديولوجياً على إخفاقات المجتمع الأمريكى...».

يضيف قائلاً إن أهداف حركة السلام «الشيوعية الجديدة» تتضمن «النضال» ضد «القمع» و«الإمبريالية» وكل هذه «مفردات كودية فى معجم الاشتراكية الثورية».

أيضا يحذر جارى توبين وأريه وينبرج فى كتيب «صورة جانبية لأستاذ جامعى أمريكى: السلوك والمعتقدات السياسية» [الجزء الأول] من أن «أعضاء هيئات التدريس ينقدون، من منطلقات أيديولوجية، أمريكا وعالم البيزنس، ويعتقدون عددا من الأفكار المنحرفة الضالة من بينها نقد كثير من السياسات الأمريكية الداخلية والخارجية؛ ولديهم نزوع لتحميل أمريكا المسئولية عن جميع مشاكل العالم ويميلون بقوة لدعم المنظمات الدولية من أمثال هيئة الأمم المتحدة، ويعارضون بشدة أحادية أمريكا، وينقدون البيزنسات الكبيرة، ويرتابون فى قدرة الرأسمالية على المساعدة فى التعاطى مع مشكلة الفقر فى البلدان النامية». يطلق المؤلفان صيحة إنذار من أن هؤلاء الأساتذة الليبراليين ذوى التوجهات الإنسانية هم فى حقيقة الأمر يساريون متطرفون متكبرون يشنون حربا أيديولوجية بالجامعات «إنهم مناهضون للحروب، معادون لإسرائيل، وللعولة والبيزنس، وتلك المواقف جزء لا يتجزأ من الخبرة فى الجامعات، يصورون العراق فيتنام الجديدة، وإسرائيل جنوب إفريقيا الجديدة، والبيزنسات هى الاستعمار العالمى الجديد»، ثم يضيفان القول إنه حينما تصبح تلك «الأيديولوجيات السياسية هى المعيار، يتفاقم خطرهما وذلك لأن «الأساتذة الأقل تديناً يحتمل لهم القول بأن سياسات الولايات المتحدة هى السبب الرئيسى لظهور التوجهات الإسلامية القتالية».

يؤكد كنت سترن أن سبب هذا التمثيل المضلل هو انتشار معاداة السامية التى يروج لها الأساتذة التقدميون والتنظيمات الطلابية المناصرة للفلسطينيين: سترن هو عضو باللجنة اليهودية الأمريكية AJC متخصص فى معاداة السامية والتطرف، يروى فى إصدار له بعنوان «التعصب الأعمى فى الأحرام الجامعية» قرائن حكاية عن أحداث معادية للسامية ويربط بين نقد إسرائيل وأحاديث الكراهية المعادية لليهود، ومرة أخرى، يتم إدماج تصوير وضع اليهود كضحايا فى الماضى، بالنقد المعادى للصهيونية وتستخدم لحروب الانتباه عن هذا النقد من خلال طرح أسئلة بلاغية من قبيل «إلى أى حد يمكنك أن تشعر أنك موضع ترحيب كطالب يهودى إذا كانت

صحيفة الكلية تزعم أن الصهيونية ضرب من العنصرية ونقارن إسرائيل اليوم بألمانيا النازية؟». يوضح سترن فى كتيب بعنوان «لم ترسب الأنشطة الجامعية المعادية لإسرائيل فى اختبار منهج التعصب الأعمى الاستهلالى» يوضح ما يزعم أنه عدم الدقة الدعائية والأكاذيب التى يُعمل على استدامتها فى قاعات الدراسة والتى ترى معاداة السامية وتُعنيتها. يقول «تجاهل الجماعات التقدمية المعادية لإسرائيل حقيقة أن مصطلح الفلسطينيين كان يُشير فى واقع الأمر إلى الوجود اليهودى فى فلسطين ما قبل ١٩٤٨ وليس الوجود العربى. يتصيد الأساتذة المنحازون لإسرائيل ويتهمونهم بارتكاب البشاعات لكنهم لا يوجهون النقد للحكومات المسلمة. الأسوأ من هذا أنهم يدعمون التنظيمات الإرهابية التى تتسم بالفساد المطلق مثل تنظيم الجهاد الإسلامى وحماس وحزب الله». وبناء على هذا يصبح «المعادى للصهيونية» تعريفا «معاديا للسامية»؛ ويصبح مصطلح «صهيونى» لفظا «كوديا» لتسويغ التشهير بمجموعة ما، وكشف المواقف والأنشطة وتعريتها و«أداة للتعصب الأعمى».

يفتح تفنيد اللغة («الصهيونية» مثلا) وأدوات المقاومة (الكشف والتعرية أو المقاطعة) الباب أمام مجموعات على غرار «لجنة توخى الدقة فى كتابة التقارير عن الشرق الأوسط فى أمريكا Committee for Accuracy in Middle East Reporting in America CAMERA». للدخول إلى المؤسسات الأكاديمية. ما كتابات سترن إلا كتيبات إرشادية تستجدى العون الخارجى من أجل «الدفاع» ضد مروجى الكراهية المعادين للسامية والأساتذة الإرهابيين. كانت CAMERA قد أنشئت لترويج الأكاذيب حول اجتياح إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ وتبريره، وهى عبارة عن منظمة للرصد الإعلامى تصدر مجلة موجهة للطلبة اسمها كاميرا CAMERA داخل الجامعات. تقوم بإرشاد الطلبة لكيفية مجابهة الأدبيات والأنشطة والهجمات الدعائية الأخرى فى الأحرام الجامعية، تلك التى «تخلق مدركات مضللة عن إسرائيل». يقوم موقع CAMERA الإلكتروني بتوجيه الطلبة وتعليمهم كيفية «رصد» الأنشطة والأشخاص بجامعاتهم لاكتشاف «المقالات المشوهة وغير الدقيقة

عن إسرائيل، وتوثيق مشاكل الجامعات وذلك بجمع الأدبيات الشائنة أو المثيرة التي توزع بالأحرام الجامعية» وتتناقض مع «الرواية الإسرائيلية». تجند CAMERA الطلبة وأعضاء الجالية اليهودية كي يصبحوا «نشطاء» وتشجعهم على عقد تحالفات دائمة مع تنظيمات الطلبة المسيحية والجماعات السياسية من خارج الجامعات. ومثل كتيبات سترن، يوجه كتيبها الإرشادي الطلبة ويحثهم على «مواجهة الإجراءات المعادية لإسرائيل» بالأحرام الجامعية من خلال اجتذاب الإدارة والحكومة للعمل لحساب إسرائيل، يذكر الكتيب أن «الوسيلة الأبسط والأكثر فعالية للتعاطي مع البيئة المعادية [إسرائيل] في كَلَيْتِك هي التقدم بشكوى لمسئولى إدارة الكلية والبحث عن حلول معهم». تشمل تلك الاستراتيجيات تكوين شبكات مع مسئولى الجامعة، وشرطة الحرم الجامعي، والصحف الجامعية ومع مجموعات أخرى يهودية وغير يهودية، وينبغي أن تتخذ المجموعات الطلابية إجراءات استباقية بتقديم الشكاوى إلى وزارة التعليم، ومكتب المدعى العام وأعضاء الكونجرس المحليين، ومسئولى الولايات. تضيف التعليمات القول بأنه «ينبغي دعوة متحدثين مناصرين لإسرائيل إلى الجامعة ووضع برامج لهم مرة واحدة على الأقل كل فصل دراسي وذلك لمجابهة الرسائل المعادية لإسرائيل». كتيب «المجابهة Fighting Back» منذر وذلك لقدرته على إثارة مناخ من الترويع وذلك بخلطه المتعمد بين أنشطة التضامن من القضية الفلسطينية والإجراءات والأفعال المعادية للسامية بحق مثل رسم الصليب المعقوف على خلفية ذات دلالة يهودية على الجدران.

فك السلطة السُغلي:

يعتبر التشهير بالمجموعات والنشطاء والمفكرين المعادين للصهيونية بصفاتهم معادين للسامية حيلة دعائية مؤثرة لغواية الحكومة الفدرالية كي تتدخل بالأحرام الجامعية لحساب الجماعات المناصرة لإسرائيل، وهذا تكتيك صريح للكتيبات المذكورة أعلاه. يتضمن الكتيب الإرشادي لعصبة مجابهة التشهير الصهيونية المعنون «المجابهة: كتاب إرشادي للرد على التظاهرات المعادية لإسرائيل بأحرام الكليات والجامعات»، نصائح عن كيفية هندسة «مناظرات» إسرائيلية/ فلسطينية ثم حفز سلطات الولايات المتحدة على تعقب الأساتذة والمجموعات الطلابية المناصرين للفلسطينيين ومعاقبتهم»

تكنم خطورة الكتيب فى قدرته على التحدث دونما ذكر أسماء أو اقتراح إجراءات محددة. مثلا، فعلى حين أن التعديل الدستورى الأول يحمى الأحاديث غير المستساغة فى المؤسسات العامة فإنه أيضا يبين أن «الحديث ذا الطبيعة الإجرامية - مثل الذى يحفز التحرشات أو يوجه إنذارات أو يبعث على الترويع - ليس موضع حماية من التعديل الأول». والدرس واضح هنا: إذا حُكِمَ على الحديث المعادى لإسرائيل بأنه مفعم بالكراهية والبغضاء، أو مؤجج للمشاعر المعادية فإن الدستور لا يوفر له الحماية». يطمئن الكتيب القراء إلى أن «للجامعات الخاصة طرقا جانبية متوفرة يمكن من خلالها إخضاع الحديث للتنظيم والرقابة، بل وحظره بأكثر من الجامعات العامة». بأسلوب مضمّر، يرشد الكتيب القراء إلى كيفية استيعاب الأساليب التى بها يمكن إلغاء دعوات الزائرين للتحدث بالجامعات، وكيفية استخدام «قوانين الطلبة» بالجامعة رافعة للتحكم فى الاحتجاجات والمظاهرات أو استهدافها. وبالمثل، يتم تشجيع الطلبة على التواصل مع وسائل الإعلام المحلية والقومية وإبراز الإعلانات «المعادية للإرهاب» فى الصحف وتنظيم تظاهرات «تطالب بوضع حد للإرهاب».

بيد أن الغاية القصوى هى أكثر من مجرد التشهير وسوء السمعة، إذ إنها وكما تهدف المنظمة الصهيونية لمركز أمريكا للقانون والعدالة، هى دفع الحكومة الفدرالية لمقاضاة من يتحدثون ضد إسرائيل داخل الجامعات، وقد حققت تلك التنظيمات نجاحا خاصا بإقناع «مفوضية الولايات المتحدة للحقوق المدنية» بإجراء التحقيقات حول الأحاديث المعادية لإسرائيل داخل الجامعات. فى ١٨ نوفمبر ٢٠٠٥، دعت المفوضية الحكومية «هيئة من الخبراء» للاجتماع للإدلاء بشهادتهم حول الأنشطة المعادية للسامية داخل الجامعات، وبخاصة السلوكيات التمييزية بين الأنشطة حول الشرق الأوسط. تشكلت «هيئة الخبراء» من جارى توين (رئيس معهد الأبحاث اليهودية والمجتمعية) وسوزان تاتشمان (مديرة المنظمة الصهيونية لمركز أمريكا للقانون والعدالة ZOA) وسارا سترن (مديرة المركز الأمريكى اليهودى AJC للشئون الحكومية والعامة). تروج تلك المنظمات لنفسها بصفتها «مجموعات مناصرة إسرائيل» وهى متحالفة مع العناصر اليمينية الأكثر تطرفا على الساحة السياسية الإسرائيلية، وتكرس نفسها، أولا وقبل كل شئ، للحفاظ على «أمن إسرائيل وسلامتها». تطالب المجموعات من

أمثال ZOA بضم الضفة الغربية [يهودا والسامرة] إلى إسرائيل وترفض مسمى «الضفة الغربية»، بل إنها حتى تعارض «خارطة الطريق» التي اقترحها جورج بوش، وقامت برفع قضايا ضد وزارة الخارجية لأنها رفضت كتابة «أورشليم إسرائيل» على جوازات سفر مواطني الولايات المتحدة الذين ولدوا بالقدس التي تعتبر عاصمة فلسطين الأبدية وجزءاً لا يتجزأ منها. شهد أعضاء تلك الهيئة بأن معاداة السامية متفشية في الأحرام الجامعية وخلطوا بين وقائع معاداة السامية الحقيقية وبين الأنشطة الطلابية المؤيدة لحقوق الفلسطينيين، وبين ما يزعمون أنه تحيز الأساتذة في قاعات المحاضرات الذي يحول دون طرح مقاربة «متوازنة» لقضايا الشرق الأوسط.

شرطة الجامعات والآف بي آي بالأحرام الجامعية:

في مارس ٢٠٠٦ قام محمد رضا طاهري - آزا، وهو طالب إيراني أمريكي بقسم الدراسات العليا بجامعة نورث كارولينا/ تشابل هيل، بقيادة سيارته رباعية الدفع إلى مكان مزدحم بالجامعة وكان هدفه المعلن قتل عدد من الأمريكيين جرّاء سياسات حكومتهم في العالم الإسلامي. وبمجرد أن أذاع اتحاد الطلبة المسلمين بالجامعة هذا الفعل المستنكر، ارتفعت الصيحات المعادية للإسلام والتي أُلححت إلى التواطؤ بين المتهم وبين الاتحاد. ظل الاتحاد مستهدفاً في أمريكا الشمالية منذ فترة، وكان قرعه بجامعة نورث كارولينا قد أخذ موقفاً واضحاً من عدة قضايا خلافية بدءاً من الرسوم الكارتونية الدانماركية وحتى تضمين كتاب مايكل سل عن الإسلام ضمن الكتب المقررة على الطلبة المستجدين.

يوجز أحد دعاة الإسلاموفوبيا تلك الحملة الكلامية على المجموعة الطلابية [اتحاد الطلبة المسلمين] بقوله «سواء دعم الاتحاد التنظيمات الإرهابية مثل حماس، أو لعب دوراً بارزاً في الاحتجاجات المناهضة للحروب، أو شجع عدم التقارب مع إسرائيل، أو دافع عن قتلة رجال الشرطة المدانين من أمثال الإمام جميل الأمين (إيتش. راب براون سابقاً)، فإن اتحاد الطلبة المسلمين يدعم جماعات معادية لأمريكا وينشر تعاليم إسلامية أصولية تبدو غير مناسبة للحياة الأكاديمية».

شنت مفوضية الولايات المتحدة للحقوق المدنية (USCCR) عدة حملات للتحقيق فيما يجري بالأحرام الجامعية مستهدفة اتحاد الطلبة المسلمين والجماعات الطلابية

المناصرة لحقوق الفلسطينيين. الاتهامات الموجهة هي أن «الجهاديين» قد اخترقوا الجماعات الطلابية ومضوا يرسخون «فلسفة الاستشهاد» في «الداخل الأمريكي» ويلقونها للشباب. تتلاقى التنظيمات المناصرة لإسرائيل السابق ذكرها، وقانونا باتريوت، والسياسيون الانتهازيون، وإعلام الإثارة لتشكيل «كتائب» القرن الحادي والعشرين، التي تجزم بوجود «رابطة» بين الطلبة والأساتذة الأجانب منهم والمواطنون وبين الأنشطة الإرهابية وتلك ذات الصلة بالإرهاب بالولايات المتحدة، هذا على الرغم من جميع الأدلة على عكس ذلك. والطلبة أهداف سهلة معرضة للأخطار وذلك لافتقادهم الموارد والمعونة المهنية لدى تلقّيهم الضربات. وقعت أحداث «اصطياد الساحرات» الأكثر بشاعة بجامعة كارولينا الشمالية، وجامعة كاليفورنيا سانتا كروز، وجامعة جنوب فلوريدا، وجامعة كاليفورنيا / إرفين. بناءً على تقرير مفوضية الولايات المتحدة للحقوق المدنية قام مكتب الحقوق المدنية التابع لوزارة التعليم بالتحقيق مع طلبة جامعة كاليفورنيا / إرفين، لأنهم ارتدوا تى شيرتات عليها شعارات التضامن مع الفلسطينيين وأركان الإسلام الخمسة أثناء أسبوع مخصص للاحتجاجات والندوات عن القضية الفلسطينية، حيث اتُهم الطلبة بأنهم أقاضوا في «أحاديث الكراهية» ضد «اليهود الصهاينة».

اعترف الإف بي أى بأنه، أثناء تلك المناسبة، قام برصد أنشطة اتحاد الطلبة المسلمين ومضايقة أعضائه والتحرش بهم، في نهاية الأسبوع ذاك، قاد ياسر أحمد سيارة نصف نقل داخل الجامعة للمساعدة في تفكيك ماكيت لجدار الفصل العنصرى أقامه اتحاد الطلبة المسلمين. تبع عميل للإف بي أى بعربته مركبة أحمد، الذى قام بمغادرة الشاحنة بعد أن رأى أن سيارة الإف بي أى تتبعه وحاول النظر من خلال زجاجها الغامق. أنزل العميل زجاج السيارة معلناً أنه عميل فدرالي، ثم قام على مرأى من شرطة الجامعة والطلبة بدفع أحمد خلفاً بالسيارة ثم قادها مسرعاً واختفى. وفيما قامت مفوضية الحقوق المدنية بالتحقيق في الاتهامات بمعاداة السامية، فإنها لم تحقق في ترويع الإف بي أى لأحمد. لم يجد تقرير المفوضية أية دلائل أو قرائن على معاداة السامية بجامعة كاليفورنيا / إرفين، لكن «قوة المهمات» الخاصة بمعاداة السامية بالجامعة ذكرت في تقاريرها أن «أحاديث الكراهية» ضد الطلبة اليهود لا

تهدأ. تمثل «قوة المهمات» نفسها زيفاً بصفتها مستقلة ومرتبطة بجامعة كاليفورنيا/ إرفين، على حين أنها تابعة لمكتب هيلل فاونديشن بكاليفورنيا. أدان تقريرها، في مجمله، الطلبة وأعضاء هيئة التدريس والإدارة بمعاداة السامية في تكرار لموقف مفوضية الولايات المتحدة للحقوق المدنية بأن حرية شجب الصهيونية ما هي إلا «ستار» لأحاديث الكراهية.

الحفاظ على التهديد بتدخل الحكومة في المؤسسات الأكاديمية هو إجراء استراتيجي. في كاليفورنيا، كان هدف «مشروع قانون الحقوق الأكاديمية» (SB5) هو وضع التنظيمات لأنشطة الأساتذة، «وحماية الطلبة» ضد تلقينهم مبادئ وتعاليم معينة وتوفير الوسائل التي يعبر بها الطلبة عن «شكاواهم». هُزم مشروع القانون بأغلبية ضئيلة، لكنه وبمساعدة مركز المعلومات لمكافحة الإرهاب التابع للمدعى العام بكاليفورنيا عمل على ترسيخ مناخ من الرقابة الحكومية والتشريعية. قام الإف بي آى واستخبارات الجيش بالتحقيق مع الطلبة والأساتذة والنشطاء والمهنيين (المحاميين مثلاً) الذين يشاركون في مؤتمرات إسلامية أو مناهضة للحرب. قامت الجامعات المناصرة لإسرائيل بجامعات ميشيجان، وروترز، وولاية أوهايو، وجورج تاون وديوك، بالاحتجاج، بل ورفع قضايا في محاكم الولايات المتحدة لمنع عقد المؤتمر الطلابي القومي لحركة التضامن مع الفلسطينيين. أجبر الطلبة المنظمون للمؤتمر الخامس لحق «العودة» على عقد المؤتمر خارج حرم جامعة كاليفورنيا ريفرسايد وذلك لأن إدارة الجامعة أعاقته عقده داخل الجامعة. تباغت المنظمات من أمثال «قف معنا Stand With Us» و«حركة التضامن مع إسرائيل» و«فرننت بيدج Front Page» بأن تلك الخطوة عملت على تهميش «حركة التضامن مع الفلسطينيين».

وعلى خلفية هذا المناخ، أصبحت الجامعات نفسها أكثر نشاطاً في اتخاذ الخطوات الاستباقية لقمع المعارضة وحركات الناشطين وبخاصة من جانب الطلبة المناهضين للحروب والمناصرين للفلسطينيين. حينما قامت مجموعة صغيرة من الطلبة المناهضين للحروب بجامعة جورج تاون بتعليق ملصق يسخر من عنصرية «أسبوع إيقاظ الوعي بالفاشية الإسلامية» الذي ينظمه هورويتز، قامت الشرطة الجامعية بإلقاء القبض على أحد أعضائها وضربه، كما جرى التحقيق مع سبعة آخرين، فيما سارعت الوسائط

الإعلامية القومية بتجريمهم بصفتهن مثيرين للشغب بدون أن يمثلوا للمحاكمة. حدثت أيضاً مدامات مماثلة من قبل شرطة الجامعة على الأنشطة والأحداث المناهضة للحرب بجامعة كلمسون، وپایس، وهامپتون، وسنترال فلوريدا. ارتكبت الشرطة الجامعية فعلاً أكثر بشاعة بجامعة ميشيغان حيث قامت «الحركة الأمريكية من أجل إسرائيل» بدعوة رايموند تانتر، مستشار الأمن القومي في عهد ريجان، للتحدث عن ردود الأفعال على برنامج إيران النووي، تحدث تانتر مطالباً بتغيير النظام الإيراني من خلال تسليح الجماعات المناوئة له وتدريبها بالداخل الإيراني من أجل العمل على إذكاء حرب أهلية. حينما جهر المحتجون بمعارضتهم، تعاملت شرطة الجامعة بقسوة مع امرأة إيرانية ضئيلة الحجم. ووضعت طوقاً خائفاً حول رقبة أحد المتظاهرين مما أدى إلى فقدانه الوعي وتدفق الدماء من أنفه. وفيما بعد، ألقت الشرطة القبض على أحد الأطباء، وعلى كاثرين بابايان أستاذة التاريخ والثقافة الإيرانية بجامعة ميشيغان لاحتجاجهما على إجراءات الشرطة، ثم قام تانتر، وكان أيضاً أستاذاً سابقاً بجامعة ميشيغان، بالاتصال بمجلس أمناء الجامعة للاحتجاج على دور بابايان في المظاهرة. علاوة على ذلك، قامت صحيفة الجامعة «آن آربر نيوز» المعروفة بانحيازها لإسرائيل، وديان براون، المتحدثة رفيعة المستوى باسم الجامعة، بتزييف التقارير عن الحادث، وإدانة البروفسور بابايان، دونما إجراء تحقيقات.

الخلاصة:

مؤخراً تميزت أعمال القمع في الأوساط الأكاديمية بالدرجة التي تمارس بها جميع أجهزة الدولة في الولايات المتحدة تلك الحملة المستدامة ويحدثها: تشارك في تلك الحملة الأجهزة الحكومية، والحزبان الحاكمان، والإعلام، والإدارات الجامعية، ومجموعات مناصرة إسرائيل ومصادر التمويل، وغيرها وغيرها. مكن تأثير أحداث ٩/١١ القوى النخب الحاكمة من الذهاب بعيداً بالأحداث الأوروبية المبهمة المشوشة التي تساوى بين «الحرية» و«التوازن» وبين قمع التحليل الناقد، والفكر البديل، والسياسات المعارضة. لكن تلك الحملة لا تعمل من خلال التركيز على الهجوم على جميع الأكاديميين الناقدين في مجال دراسة الشرق الأوسط، أو على كل مفكر عربي. حيث إنها إن فعلت ذلك فإنها، كحملة إرهابية وقحة، لن تتسق مع الصورة الذاتية

للأمريكيين كمجتمع ليبرالى تلك الصورة التى يتدثرون بها وتعمل على رضاهم عن أنفسهم. الأخرى أن الجهود الموحدة المتسقة لجماعات المصالح الخاصة، والإعلام، الدولة، نجحت فى ترسيخ مناخ من الخوف يسوده التهديد بالقصاص. أصبح خطر فقدان الأشخاص لوظائفهم، أو تصويرهم كمنبوذين، أو معادين للسامية، أو «إرهابيين» أو حتى خطر احتجازهم، كلها دوافع لممارسة الرقابة الذاتية فى الأوساط الأكاديمية، وبين الجاليات العربية والمسلمين الأمريكيين، حيث توظف مجرد إمكانية المقاضاة، أو التعرض للمضايقات والتحرشات، أو فقدان الوظائف والترحيل، توظف كعامل ردع للمعارضة العلنية.

من ثم، يؤدى استهداف أعضاء هيئة التدريس بجامعة كولومبيا، ويوسى إل إيه بواسطة كتائب الترويع مثل «دايفيد پروچيكت» و«كامباس ووتش»، وظيفة حيوية ومكملة. إحدى هاتين الجامعتين خاصة، نخبوية وتقع فى منطقة الشاطئ الشرقى، فيما أن الأخرى جامعة عامة شعبية وتقع فى منطقة الشاطئ الغربى. من خلال استهداف هاتين الجامعتين المكملتين لبعضهما، يرسل هؤلاء العازمون على قمع أى أحاديث «معادية لإسرائيل» رسالة واضحة للجامعات فى جميع أنحاء البلد مفادها أن باستطاعتهم الوصول إلى جميع الجامعات النخبوية منها والعامة واستهدافها. نجح هذا الأسلوب فى ترويع عدد لا يحصى من الأكاديميين، وبخاصة هؤلاء الذين ليس لديهم عقود ثابتة مستدامة مع الجامعات، حيث يفتقدون الأمان الوظيفي، وكذلك الموارد اللازمة لمجابهة عزم التنظيمات المناصرة للصهاينة وتصميمها والتى تعمل دون كلل أو ملل. تباهى دانييل پايبس بفاعلية الحملة القومية لقمع الحديث، والأبحاث والأنشطة المعارضة، وقال إن «تدخل» المتهمين من خارج الجامعات فى عمليات توظيف العاملين والتعاقدات والقرارات التى تتخذ قد بدأ «مسيرة خلاص الجامعات»، تعمل حالات المشاهير من أمثال سامى العريان ووارد تشرشل، ونورمان فنكستاين نماذج لافقة لما يمكنه أن يحدث إذا جُرؤ أعضاء هيئة التدريس والطلبة على قول «الحقيقة فى مواجهة قمع السلطة».

العيش في حالة من الخوف

«من المثبط أن تكون عربيا مسلما تعيش في الولايات المتحدة هذه الأيام. حينما تذهب إلى الشرق الأوسط، يُنظر إليك على أنك دافع ضرائب أمريكي تعمل من خلال نقودك، على تدمير منازل الناس. وحينما تعود إلى الولايات المتحدة، يُرتاب فيك بوصفك إرهابيا محتملا وخاطفا للطائرات».

رائد جرّار

ناشط مراقبي أمريكي

ثقافة القمع القومية:

فى الذكرى الأربعين لاحتلال غزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان، أصدرت مجموعة من المثقفين والنشطاء والكتاب الأفارقة الأمريكيين البارزين «خطاباً إلى أمريكا السوداء حول الحقوق الفلسطينية وتنظيم مسيرة ١٠ يونيو» وطلبت من الجالية الأفروأمريكية الاضطلاع بدور قيادى للفت الانتباه إلى الأعوام الأربعين من انتهاك حقوق الشعب الفلسطيني. وكما كان متوقعا، هاجم دايڤيد هورويتز الموقعين، والذين كان من بينهم كورنيل وست، ومانينج مارابل، ومحمود مامداني، وياريرا رانسبى وبركسى سبيت وسدريك روبينسون، هاجمهم بصفقتهم «محبين للإرهابيين» و«معادين للسامية» و«كارهين لإسرائيل». وبدلاً من شجب أربعين عاماً من الاحتلال الإسرائيلي، نجده يقول إنه كان ينبغي على هؤلاء الأساتذة والنشطاء والشخصيات الدينية المعادين للسامية إحياء ذكرى خمسين عاماً من «الحروب القذرة التى شنها



العرب» على إسرائيل التي كان ينبغي عليها [إسرائيل] طرد الفلسطينيين من الضفة الغربية في عام ١٩٦٧ لولا أن تغلب عليها نزوعها للخير.

مثل هذا الهجوم مألوف ومجرب، وفيما أن هورويتز الذي لا يتمتع بالمصداقية وليس له سوى القليل من المسوغات، ما هو إلا مهووس بجنون العظمة متخصص في التشهير، فإن مثل هؤلاء «الأرذقية» المؤدلجين، يقومون بدور حاسم في حشد التنظيمات والمؤسسات وتأجيح المشاعر الجماهيرية. في الفصول السابقة، تم إلقاء الضوء على الأجندة العامة للأكاديميين المارقين، والمرتزة المؤدلجين، والمخبرات/المخبرين المحليين الانتهازيين، والصحفيين الشركاتيين، و«مراكز الأبحاث»، واللوبيات، وجماعات الموالاة، وأجندة الحكومة المحلية والفدرالية، للتحكم في النقاشات حول الولايات المتحدة وإسرائيل وفلسطين والعراق. تعمد الكتب الإرشادية والتي تكتبها الجماعات المناصرة لإسرائيل بشكل أساسي إلى إعطاء التعليمات

لكوادر الطلبة عن كيفية العمل بنشاط وبقظة لإشراك إدارات الجامعات، ومجالس الأمناء، والخريجين، والمناحين ومجموعات هيئات التدريس والزملاء من الطلبة، إلى جانب المجتمعات المحلية، والإعلام، والحكومة، إشراكهم في حملاتهم لوقف الأبحاث الأكاديمية الأخلاقية المصارمة، والأنشطة، والنقاشات الناقدة لسياسات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط وإجرائم إسرائيل في حق الفلسطينيين، بل وتجريمها.

ليس بالأمر الصعب اصطناع الاشتراك في الحركة المعادية للفلسطينيين ودعمها في وجود التحيزات القائمة السائدة المناصرة لإسرائيل في إدارات الكليات، والصحافة والدوائر السياسية بالولايات المتحدة والتي هي ثمار أنشطة مماثلة ظلت تعمل لعقود عدة. تم إثبات العلاقة بين لوبي إسرائيل، والسياسيين، بل والأكاديميين أيضاً، على المستوى العلني والعام من خلال مقال جون ميرشايمر وستيفن وولت الشهير. بيد أن هذا الكتاب وبدلاً من إلقاء المسؤولية على لوبي ماكر يعمل ذليلاً يحرك الكلب السياسى الأمريكى، فإننا نزعّم أن كراهية العرب والإيقاع بالمسلمين، هي من العناصر الأيديولوجية الثابتة في اللاوعى السياسى للولايات المتحدة. سناقش في الفصل السادس بإيجاز كيف أن تحالف الولايات المتحدة وانحيازها الطبيعى لإسرائيل، ودعمها الاقتصادى والعسكرى والسياسى للدولة الصهيونية، لا يرجع فقط إلى رغبة كليهما فى التحكم بالمنطقة، بل هو ناجم أيضاً عن أيديولوجيا الاستيطان/ الاستعمارى وتاريخ البلدين المتماثل.

تُجسّد حالة البروقسور العريان، ومحنة الأكاديميين العاملين فى مجال دراسات الشرق الأوسط (وغيرهم من ذوى العقائد المبدئية حول العدالة الاجتماعية فى الشرق الأوسط)، تجسّد محاولة النظام القانونى للولايات المتحدة - بالتناغم مع الهيئات والوكالات غير التابعة للدولة بدءاً من المجموعات المناصرة للصهيونية ومراكز الأبحاث التابعة للمحافظين الجدد وحتى إعلام التيار السائد والمؤسسات الأكاديمية - محاولاتها التى لا تقتصر على منع الأحاديث والأنشطة الناقدة للولايات المتحدة وإسرائيل من خلال الإجراءات القانونية التى تستند إلى اتهامات أخرى، بل وتجريم الذين يسعون

إلى ممارستها. لم يلتزم النظام القانونى بمراعاة الحقوق المدنية الأساسية بما فيها «الحريات» التى نص عليها الدستور وكفلها وبخاصة التعديل السادس والثامن والرابع عشر.

ومثل ما هو حادث مع كثير من الأقليات الأخرى، نجد أن النظام القانونى مُسَيَّس وهناك العديد من حالات ازدواجية المعايير. بيد أنه فى حالة العرب والمسلمين الأمريكيين، فإن الكثيرين غالباً ما يؤيدون هذا التسييس ولا ينتقده سوى القليلين وذلك تحديداً لأن التيار السائد الأمريكى ملتزم أيديولوجياً بأمن إسرائيل على حساب حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره - ناهيك عن حقه فى الحياة وعدم خضوعه للتعذيب والعقاب الجماعى وتجويعه من خلال الحصار. وفى أفضل أحواله يقتل النظام القانونى قضايا ضد المشاهير والقيادات البارزة الإسلامية والعربية من أجل مكاسب سياسية على الجبهة الداخلية، أما فى أكثر الحالات خبثاً وشرّاً، فإن هذه الممارسات تستغل إحدى الأدوات المفتاح فى حملة مستدامة تقودها الحكومة من أجل قمع المعارضة والاختلاف بالداخل الأمريكى.

تعتبر قضية العريان نموذجاً لأنها سبقت أحداث ٩/١١، حيث مضت وزارة العدل، وبأسلوب متكرر، فى مطاردته، منذ التسعينيات، واتهامه هو ومجموعاته من النشاط بمخالفة القانون، وبعد كل مرة يُبرئه فيها القضاء، كان مكتب المدعى العام الأمريكى والإف بى آي، يضاعفان الجهود لتوجيه تهم جديدة ومحاكمته. ومن المفارقات، وكدليل على العداء المسبق ضد العريان، أنه كلما كانت التهم الموجهة إليه واهية هشّة بدت صورته العامة الإنسانية السائدة قناعاً محكماً فى نظر الإعلام الأمريكى والجمهور المتعطش لضبط المتهمين بالإرهاب. تعكس حقيقة أن دماء خلق العريان شديدة الوضوح وبرامته تم تفسيرهما على أنهما يؤشران إلى وجود خلية هاجعة تتآمر ضد الحريات الأمريكية، تعكس الإسلاموفوبيا الثقافية المتأصلة فى الإعلام وفى المجتمع الأمريكى. ظل العرب، والعرب الأمريكيون، المواطنون منهم والمهاجرون القانونيون يعيشون فى الولايات المتحدة طوال عقود فى حالة من الحصار، وغالباً ما كان هذا

حصاراً حرقياً سادته العنف ومارسه التنظيمات المتطرفة اليهودية الموالية للصهيونية مثل عصابة الدفاع اليهودية (JDL) ووثقته المنظمة المنافسة لها أى عصابة مكافحة التشهير (ADL). فإلى جانب التخطيط لاختطاف طائرة عربية عام ١٩٧٠، قامت JDL بمهاجمة النشاط والسياسيين والتنظيمات الأمريكية العربية طوال سبعينيات وثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، وتهديدتهم وتدمير ممتلكاتهم وتفجير مقارهم. قاموا بترويع المصلين فى المساجد، وزرعوا قنبلة فى مكتب داريل عيسى العضو العربى الأمريكى بالكونجرس، وقتلوا فى عام ١٩٨٥ ألكس عودة، الناشط العربى الأمريكى. فى الفترة الممتدة من السبعينيات وحتى التسعينيات، سعى مخطط إرهاب ADL بنشاط إلى اغتيال القيادات البارزة من العرب الأمريكيين والمتحدثين باسم القضية الفلسطينية ووصل مخططهم الإرهابى ذروته حينما استهدفوا ألكس عودة وقتلوه بزرع قنبلة بمكتبه عام ١٩٨٥. قامت عصابة مكافحة التشهير المستهدفة من JDL بتاريخ سجل حملة العنف والإرهاب التى قامت بها تلك المنظمة، ومن المفارقات أن ADL الناقدة لـ JDL قامت فى التسعينيات بتجميع استخبارات عن اللجنة العربية الأمريكية المناهضة للتمييز ADC وإخضاع أعضائها للرقابة، وبتواطؤ من شرطة سان فرانسيسكو وسان دييجو، جمّعت سجلات شاملة عن أعضائها.

كراهية «الأخر»: السياق المعاصر لأفعال الكراهية وإجراءاتها:

بعد ١١ سبتمبر، تفجرت مستويات جرائم الكراهية ضد العرب والمسلمين وتدمير ممتلكاتهم بل وقتلهم (ومعهم غيرهم من غير البيض الذين اعتُقد خطأ أنهم عرب أو مسلمون) مما استدعى الاعتذارات والدعوة إلى التعقل بل والاستنكار أحياناً. وكما ذكرنا من قبل، بينت هيومان رايتس ووتش أن جرائم الكراهية ضد العرب تزايدت بمعدل ١٧٠٠٪ ومضت تندرج ككرة الثلج على خلفية من التعليقات وكتابات الرأى المليئة بالظعن والذم التى نشرتها ويشتها جميع وسائل الإعلام المحلية والقومية. لم يتصد سوى القلة القليلة للمشاعر التى عبر عنها المذيع مايكل سافيدج وما كاله من قدح للعرب والخط من شأنهم واصفاً إياهم بأنهم «لا آدميون» و«متعصبين، فاشيون

عنصريون» يستحقون القصف بالقنابل النووية. فى عام ٢٠٠١، طغت تلك المشاعر وانتشرت كالفيروسات فى جميع أنحاء الولايات المتحدة و أدت إلى ارتكاب عدد كبير من جرائم الكراهية. أصدرت ADC تقريراً عن جرائم الكراهية ضد العرب الأمريكيين التى ارتكبت فى الفترة ما بين عامى ٢٠٠٣ و ٢٠٠٨، وهو تقرير مثير للاهتمام لأن المنظمة تؤكد على التراجع فى أعمال العنف ضد العرب والمسلمين فى سياق ذكرها أن العنف تراجع من مستوى «المذابح» المنظمة حيث بلغ عدد الضحايا ٧٠٠ سنوياً إلى متوسط يتراوح بين ١٢٠ و ١٣٠ حالة سنوياً. وعلى الرغم من لهجة التقرير المتفائلة إلا أنها تورد قائمة كبيرة من أعمال التحرش والمضايقات والتمييز التى استمرت ضد العرب الأمريكيين طوال العقد الأول من الألفية الجديدة. بيد أن ثمة تقريراً عن أعمال العنف ضد المسلمين فى الغرب لمنظمة هيومان رايتس فيرس ت يذكر أن جرائم الكراهية ضد الأفراد، والمجموعات، والمؤسسات المسلمة تزايدت بين عامى ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦. تذكر إحدى الدراسات أن عدد جرائم الكراهية التى ارتكبت ضد المسلمين أعلى من العدد الذى ارتكب ضد السود الأمريكيين ويكاد يماثل عدد جرائم الكراهية ضد اليهود وضد المثليين والمثليات.

لكن ما لا تذكره هذه الدراسة هو أن معدل جرائم الكراهية ضد المسلمين والعرب هو الأعلى عن كل فرد على مستوى الولايات المتحدة.

وفيما تحاول الجماعات العربية والمسلمة الأمريكية التى تنادى بالاندماج أن تؤكد على الجانب الإيجابى بإشاداتها بتراجع عدد جرائم الكراهية ضد العرب والمسلمين الأمريكيين، هذا على الرغم من الواقع الذى يشهد على استمرار الهجمات واستدامتها. ليس من الصعب إثبات العلاقة المتبادلة بين حملات الإسلاموفوبيا وبين جرائم الكراهية. فى خريف عام ٢٠٠٨ وأثناء الانتخابات الرئاسية، وكما سترى فى الفصل القادم، كان يتم تقاذف مقولات الإسلاموفوبيا وتبادلها بأسلوب فج وقبح. قامت ميامى هيرالد فى سبتمبر من العام ذاك بتوزيع دى فى دى مجاناً بعنوان «الهاجس» مع ملحق الأحد الأسبوعى يحتوى على «تحليل» للإرهاب الإسلامى والتعصب الإسلامى

بالداخل الأمريكى وبالخارج. أعدّ الدي فى دى ما أسمته إحدى الدراسات «الدستة القنرة» ممن يجيدون إطلاق البذاءات والتشويهات. كتب مادة «الهاجس» وأنتجها «كلاريون فاند» وهو تنظيم مشبوه مناصر للصهيونية، قام بتمويل ٢٨ مليون نسخة من الدي فى دى وتوزيعها فى الولايات المتحدة علاوة على توزيع ٧٠ صحيفة متحيزة ضد المسلمين ومعها الدي فى دى أثناء حملة انتخابات ٢٠٠٨ بما فى هذا توزيعها فى كبرى مدن ولاية أوهايو، وبنهاية هذا الشهر كان قد تم إطلاق الغازات على أحد مساجد دايتون/ أوهايو فى وجود ٢٠٠ شخص داخله، وعلى الرغم من أن مقر الجمعية الإسلامية بدايتون الكبرى تعرض لهجوم بمادة كيميائية مهيبة خُددت على أنها «رذاذ القفل» إلا أن الإف بى آى وقوة شرطة دايتون رفضوا تصنيف الهجمة رسمياً على أنها «جريمة كراهية».

ظلت الهجمات على المساجد تحدث طوال عام ٢٠٠٨، وارتكب غالبيتها مجموعات فاشية مثلما حدث فى كولومبيا، تنيسى فى فبراير حينما تعرض المسجد المحلى لهجمات بالقنابل الحارقة ورسم الفاشيون الصليب المعقوف على جدرانه. وعلى حين أن القنابل الحارقة وإطلاق الغازات قد لا تكون أحداثاً مستدامة فإن التحرش بالمسلمين ومضايقتهم، وأعمال التخريب التى تلحق بالمساجد تقع يومياً. وفى هذا السياق، يعتبر المركز الإسلامى بميامى أحد الأمثلة الدالة حيث تعرض للأعمال التخريبية ست مرات خلال بضع سنوات وشمل ذلك إطلاق وإبل من الرصاص فى يناير عام ٢٠٠٩. لم تتراجع تلك الهجمات منذ تولى أوباما، حيث جرى اقتحام عدد من المساجد، وتدميرها، وتدنيستها وكان من بينها المركز الإسلامى بسايبيراس كاليفورنيا فى يونيو ٢٠٠٩، حيث جرى رش عبارات تشهير عنصرية بالألوان على جدرانه ومعها تهديدات من قبيل «سنقتلكم جميعاً»، وفى وقت لاحق من العام ذاك تعرضت أربعة مساجد فى كارولاينا الشمالية وأوريجون وكاليفورنيا للهجوم.

المضايقات والتشاحنات وحديث الكراهية، والهجمات التى يتعرض لها الطلبة المسلمون العرب، والمحجبات والملتحون والمساجد، والمراكز الإسلامية المحلية أكثر

من أن تحصي. وأيا كان عددها، فإن جرائم الكراهية ضد الأفراد والمؤسسات ظلت مفرطة، ومع الأخذ فى الاعتبار الجدل الخلافى حول ما عُرف باسم «مبادرة قرطبة» التى اشتهرت أيضا تحت مسمى «مسجد موقع الحدث Ground Zero Mosque»، فإن العداء ضد المسلمين يبدو فى تصاعد فى سنوات أوباما. ظلت اللجنة العربية لمناهضة التمييز، والمؤسسة العربية الأمريكية ومجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية CAIR ناشطين فى تسجيل تلك الانتهاكات، لكن يجدر القول إن ملفاتهم ليست شاملة أو مكتملة وبدلا من أن نستعرض القائمة المطولة للانتهاكات الصادمة لحقوق المسلمين والعرب الأمريكيين المدنية (ناهيك عن اللاتينيين، والأفروأمريكيين، والأمريكيين والهنود الهندوس، والسيخ والأرثوذكس اليونانيين الذين يُظن خطأ أنهم مسلمون)، فقد تعاطينا فى الفصول السابقة مع خطابات الإسلاموفوبيا التى تمت صياغتها ثم أعيد توجيه مسارها خلال «الحلقات الخارجية من المعلقين» الآخذة فى الاتساع على مدى العقدين الأخيرين وذلك كى تُفسر سبب تكرار حدوث المضايقات والتحرشات والانتهاكات ضد المسلمين والعرب وانتشار تلك الممارسات بالداخل الأمريكى. وكما أوضح مايكل ولش بإقناع فإن لوم العرب والمسلمين واتخاذهم كباش فداء أصبح ملمحا مفتاحا فى «ثقافة للتحكم» - ليس فقط التحكم فى العرب والمسلمين، بل ومن خلال بث الخوف والترويع، فى الآخرين الذين قد يضطلعون بالتعبير عن آراء معادية للحكومة، أو مجرد آراء غير مُحبَّبة.

أهم حقيقة ينبغى أن تُبقى عليها نصب أعيننا هى أن هذا المناخ الذى تقع فيه جرائم الكراهية والترويع والتحرش لم يوجد فقط الإعلام، وجماعات المصالح الخاصة والسياسيون، ولا إدارة بوش والإدارات السابقة التى كانت تتشارك فى نفس الأهداف فى الشرق الأوسط، بل إنه أيضا - وكما سنرى فى الفصل القادم، قد استمر واضحا فى خطاب أوباما «مفتوح اليد/ محكم القبضة»، بالرغم من تغير شكله.

سيكولوجية الاعتقال والاحتجاز:

ظل المسلمون والعرب، وعلى الرغم من احتجاجات المجموعات المناصرة وتنظيمات

الحقوق المدنية وأيضاً الليبراليون الذين يدافعون عن «التسامح» و«التفهم» - ظلوا يعيشون في حالة من الخوف في السنوات التي أعقبت ٩/١١. وصل هذان الإسلاموفوبيا في صورته الفجة المضخمة إلى مستوى هذان معاداة السامية الجماهيرى بألمانيا النازية في ثلاثينيات القرن الماضي. يعتبر كتاب ميتشل مولكين المخيف وعنوانه «دفاعاً عن الاعتقال» جوهره النقاشات اليمينية حيث تطرح المؤلفة بوضوح تام لا تشويه شائبة المنطق الوقح المريض لهؤلاء الذين يصادقون على تجريد الأقليات الإثنية والعرقية بالولايات المتحدة من حرياتهم المدنية. يعتبر الكتاب نموذجاً للنقاش القياسى المبهم المبتسر لهؤلاء الذين يدعون إلى عمل ملفات عنصرية للملاح العرب والمسلمين الأمريكيين ووسمهم وإلى التمييز ضدهم باسم الأمن القومى الأمريكى. فى مقدمة كتابها بعنوان «حان وقت التمييز»، تدافع مولكين بصراحة عن حق الحكومة فى أن تدرس مسألة احتجاز الأمريكيين العرب والعرب من غير المواطنين، بل وحاجتها إلى التخطيط لذلك وتنفيذه فوراً. وفى نفس الوقت، وبتابعها تكتيك اليمين المُجرب منذ القدم، تقلل من شأن الذين «يثيرون المخاوف من الاحتجاز» والذين يتخوفون من إمكانية، أو مخاطر، احتجاز الأمريكيين العرب واعتقالهم بمجملهم وفقاً لما تدعو له.

كسب كتاب مولكين دعماً كبيراً من جانب المعلقين الموالين لإسرائيل والمحافظين من أمثال دانييل بايپس الذى دافع عن الاعتقال غير القانونى لليابانيين الأمريكيين أثناء الحرب العالمية الثانية بصفته سابقة ناجحة للاعتقال بالجملة. لدى العرب الأمريكيين أسباب وجيهة للاعتقاد بأن مثل تلك المشاعر ظلت سائدة فى الولايات المتحدة بعد ٩/١١. مثلاً، قام پيتر كيرسانو من مفوضية الحقوق المدنية الأمريكية USCCR، علناً بتهديد قيادات العرب الأمريكيين أثناء زيارة له لميشيجان أكثر مراكز العرب الأمريكيين نشاطاً فى أمريكا الشمالية، بدلاً من الدفاع عنهم، حيث قال إنه ليس ثمة من سيعترض أو يبندى أسفه حول الاعتقال الجماعى للعرب الأمريكيين إذا وقعت هجمات أخرى على أرض الولايات المتحدة. بدت دعوات الاعتقال الجماعى

تأخذ شكل الواقع المموس لدى إعلان شركة هالبرتون فى ٢٤ يناير ٢٠٠٦ أن وزارة الأمن الداخلى تعاقبت لبناء «مراكز احتجاز» جديدة تابعة للوزارة من أجل «مواكبة التطور السريع للبرامج الجديدة».

تنهال على الجالية العربية بانتظام تهديدات مبطنة من جانب وسائل الإعلام والمعلقين اليمينيين والسياسيين بحدوث مذابح وهجمات واعتقالات.

الشيء المروع والمفيد فى أن فى كتاب مولكين هو أن الأمثلة التى تستخدمها للدفاع عن احتجاز العرب الأمريكيين - الذين تزعم أنهم فى غالبيتهم طابور خامس من دعاة الفتنة الهدامين- أن تلك هى الأمثلة ذاتها التى يجدها غالبيتنا نماذج للتعصب البغيض بل والفاشي. نجدها، مثلا، تستشهد بما قاله موارد كويل النائب عن كارولاينا الشمالية والذى يترأس اللجنة الفرعية القضائية للجريمة والإرهاب والأمن الداخلى، حيث قال فى دفاعه عن احتجاز اليابانيين الأمريكيين أثناء الحرب العالمية الثانية، إن تركهم فى الشوارع كان خطرا على الأمن وذلك لأنهم كانوا يمثلون تهديدا للولايات المتحدة «تماما مثل العرب الأمريكيين العازمين وفقا لجميع الاحتمالات، على الإضرار بنا».

وإذا أمكننا التغاضى عن مولكين لأنها وعلى الرغم من أنها بغیضة منفرة، فهى غير قادرة على إحداث الأذى، فإن التصريحات المؤججة العلنية التى يدلى بها مسئولو الولايات المتحدة المنتخبون أخطر من أن يتجاهلها المرء بسهولة بصفتها تافهة غير مؤثرة. ألمحت سو ميريك، وهى نائبة أخرى عن كارولاينا الشمالية، عامدة عن وجود «رابطة محتملة بين العرب الأمريكيين والإرهاب العالمى» وهؤلاء الذين يديرون «جميع محلات المعونات فى أنحاء البلاد». وبعد احتجاج كثير من تنظيمات العرب الأمريكيين على تعليقاتها، تراجعت ميريك قائلة إنها أرادت فقط أن تذكر الجاليات بالخطر الحقيقى للإرهاب بما فى ذلك «الاتجار غير القانونى فى كويونات الأطعمة من خلال تلك المحال بهدف غسيل الأموال لصالح بلاد معروف عنها أنها تأوى الإرهابيين». وإذا بدا خطر الاحتجاز الجماعى ضربا من الخيال للتيار السائد فى أمريكا، فإن النظرة العابرة تكشف عن الخطاب العنصرى السائد الذى يرى فى جميع المسلمين

والعرب الأمريكيين طابورا خامسا مخربا، وأن كل رجل وامرأة وطفل مسلم، بحسب ما قاله كنت أونو «إرهابي محتمل».

يستخدم الخطاب المعادى للعرب والمسلمين لمحاولة تحقيق أهداف أخرى: الفوز فى الانتخابات كما فى حالة مصادقة المرشح دان فانيللى على التمييز العنصرى بل والتعذيب، أو ما دعا إليه المرشح تي. بوون بيكنز من إطلاق الحملات ضد العرب لتشجيع الأمريكيين على الإقلال من استهلاك النفط الأجنبى [أى العربى]. أثار فوز ريما فقيه، الأمريكية المولودة بجنوب لبنان، فى مسابقة ملكة جمال الولايات المتحدة عاصفة كلامية حيث قال البعض إن هذا الفوز يثبت عدم وجود تمييز عنصرى فيما سخرت وسائل إعلام التيار السائد وذكرت أن ملكة الجمال «العربية» تمثل حزب الله وهو يرتدى البكيني. أما دانييل بايس فقد رأى مؤامرة فى زيادة قوادر فوز المسلمين والعرب فى مسابقات الجمال وألح إلى أن أنشطة «الفعل الإيجابى» فى عالم الاستعراضات ما هى إلا فرصة لخلايا الإسلام المتطرف الهاجعة لمزيد من تهديد الولايات المتحدة بهجمات إرهابية. وصل حصار المسلمين والعرب فى الولايات المتحدة درجة إطلاق بعض الشخصيات الإعلامية من أمثال جلين بيلد، على الهواء مباشرة التهديدات والتوبيخات لكيت إلسون، أول عضو مسلم بالكونجرس (عن نيويورك) قائلا إن على المسلمين «أن يكونوا فى مقدمة الصفوف أمام مكاتب التطوع من أجل إطلاق النار على رموس المسلمين الأشرار بالخارج». ثم مضى فى مصادقته الصريحة على احتجاز المسلمين الأمريكيين قائلا: «أبلغكم، والله شاهد على ما أقول، أن البشر، ولسوء الحظ، ليسوا من القوة بحيث يستطيعون كبح أنفسهم عن إقامة أسوار من الأسلاك الشائكة حادة الأطراف واحتجازكم داخلها».

أيضا، يقوم مسئولو فرض القانون والعدالة بتأييد فكرة أن العرب والمسلمين أقلية يحتفل لها إثارة الفتنة والبغضاء، ومن بين هؤلاء، إعلاميون ورجال قضاء بارزون مثل كبير قضاة ألاباما السابق القاضى جورج موور الذى كتب مؤخرا افتتاحية بأحد المواقع الإلكترونية اليمينية جاء بها «يوجد الخطر الأكبر على بلدنا حينما تُفتح

المكاتب والمؤسسات الحكومية أمام التأثير الإسلامي الذي يقوم غالبا على أساس الافتراضية الزائفة بأن الله هو نفس الرب المذكور بالإنجيل. أيضا يبلغ عدد المسلمين في جيشنا ١٠٠٠٠ فرد وهو عدد آخذ في التنامي هذا على الرغم من التحذير الداخلي من جانب وكالة استخبارات الدفاع بأن الجنود المسلمين يمثلون تهديدا أمنيا محتملا. إن الحفاظ على ثقافتنا وإيماننا بالرب أمر حاسم إذا أردنا الانتصار في هذه الحرب الجديدة.

تتناغم عقيدة رئيس القضاة عن تسيد المسيحيين البيض في الجنوب الأمريكي مع بارانويا الإرهاب المستتب محليا التي تم غرسا ورعايتها لأعوام طويلة في الولايات المتحدة. ظل الإعلام يسارع إلى اتهام العرب بارتكاب الأعمال الإرهابية الداخلية. مثلا، أصدر يد كويل، وكوني تشانج ووولف بليتز المراسل السابق لصحيفة جيروسالم پوست، والذي التحق فيما بعد بالعمل في منظمة إيباك، أصروا جميعهم على مسئولية «شرق الأوسطيين» عن تفجيرات أوكلاهوما هذا على الرغم من الأدلة والقرائن المتزايدة على أن مرتكبي الحادث هما اثنان من الأمريكيين البيض. وجد دانييل بايس، في إطار هذا المناخ، أرضية ممهدة للعب بورقة القتالين «المستتبين داخليا» بعيد ٩/١١ بشهرين. وبحسب بايس فإن المسلمين مجموعة من المهاجرين الخطرين من دعاة الفتنة والتخريب الطبيعيين الذين يعملون بسرية، لأن «التقية» والغدر من الممارسات المتقبلة في الإسلام.

بعد أن قام الميجور نضال حسن بإطلاق النار بقاعدة فورت هوود بالولايات المتحدة، تسارعت وتيرة التخويف من الغدر والمطالبة بتجميع ملفات عرقية وإثنية بذريعة وجود «إرهابيين مستتبين محليا». في مداخلة على فوكس نيوز بعد حادثة فورت هوود، قال جيرالدو ريفيرا بحماس، فيما كان غاضبا من وجوده على قائمة المحظورين من ركوب الطائرات ومن أن ركبته الاصطناعية تسترعى كثيرا من الانتباه والحذر، قال «إننا بحاجة لتجميع ملفات عرقية بملامح المسلمين وأخذ بصماتهم ووسمهم، وعلى الرغم من أن هذا أمر مهين إلا أن على المسلمين أن يقبلوا التضحية

ويكونوا على استعداد للتعاون لأنهم أيضا يريدون الوصول إلى وجهتهم». أتت دعوات مماثلة من السناتور جوزيف ليبرمان وهو من صقور الحزب الديموقراطى سابقا ومن أكثر الشخصيات المفوهة حيث أسمى حسن «إرهابيا مُستتبعا داخليا علّم نفسه التطرف».

سنرى فى النصف الثانى من هذا الفصل أن الخوف من أن الجاليات المسلمة الأمريكية، ومن أن مساجدهم بخاصة، هى أوكار للإرهابيين «المستتبعتين محليا»، وللخايا الهاجعة، وللمتطرفين الذين يقومون بتجنيد الشباب، هذا الخوف هو أساس التشريعات التى تهدف مباشرة إلى التحكم فى العرب والمسلمين بالولايات المتحدة، حيث إن دعاة الإسلاموفوبيا قد فاقموا هذا الخوف منذ ١١ سبتمبر، هذا على الرغم من أن التنظيمات الإسلامية الأمريكية تبذل جهودها لأبعاد المخاوف المتحيزة التى لا أساس لها والتى يبيثها التيار السائد. وفى واقع الأمر، فقد أوضح استطلاع الرأى الذى أجرته مؤسسة پيو فاوندايشن أن القلة القليلة فى أوساط الجاليات المسلمة الأمريكية هى التى تدعم الإرهاب، وبالمثل، فقد أوضحت دراسة مستفاضة أجراها مجلس العلاقات الخارجية أن العرب والمسلمين الأمريكيين يبذلون جهدا كبيرا مع هيئات فرض القانون المحلية والفرالية لاكتشاف مصادر التهديدات الحقيقية. تبين هذه الدراسة أيضا أن مسلمى الولايات المتحدة أكثر اندماجا فى المجتمع من الجاليات المهاجرة فى أوربا، وأكثر ازدهارا من الناحية الاقتصادية. وعلى الرغم من ذلك، فقد كتب پايپس فى الأسبوع التالى لهجمات ٩/١١ يقول «إن الجالية المسلمة فى هذا البلد لا تماثل أية مجموعة أخرى لأنها تضم بين ظهرانيها مجموعة كبيرة من الأشخاص - يبلغ تعدادها أضعاف عملاء بن لادن - يشاركون الخاطفين الانتحاريين كراهيتهم للولايات المتحدة والرغبة فى أن يرونها، وقد تحولت إلى بلد يربح تحت قيود الإسلام القتالي. وعلى الرغم من عدم مسئوليتهم عن بشاعات سبتمبر، إلا أنهم يُضمرون مخططات لهذا البلد تستدعى الانتباه الجاد الملح». بعد ذلك، يورد پايپس حفنة من الأمثلة توضح كيفية تصوير المسلمين الأمريكيين (ومعهم

المسلمون غير المقيمين وغير الأمريكيين) الإسلام لجمهور التيار السائد الأمريكي على أنه دين منطقي محب للسلام، لكنه يذهب إلى أن تصوير الإسلام المتسامح الذي يدعو إلى السلام هو مجرد قشرة خارجية تخفي الطبيعة الحقة للدين ولعنتقيه وأهدافهم ومكائدهم.

وبالطبع، يذهب باييس في مقاله بعنوان «الخطر بالداخل» إلى أن الأهداف الحقيقية ليست أقل من «الغزو»، وتحويل الشعب الأمريكي إلى الإسلام والهيمنة على البلد. يذكر باييس أن تكتيك الإسلام القتالي في الداخل الأمريكي هو استخدام استراتيجية «قانونية» بعيدة عن العنف. وواقعياً، هكذا يقول، فإن هذه الاستراتيجية تقوم على الدعوة والوعظ ثم تحويل الناس إلى الإسلام. ومن المفارقات أن المخطط الذي يصيغه باييس يتطابق تماماً مع أساليب المسيحية الإنجيلية التبشيرية لتحويل الأمريكيين في الداخل والمسلمين وغيرهم في الخارج، بل في الواقع هو مأخوذ عنهما مباشرة. لا يقتصر الأمر على تماثل الاستراتيجية التي يستخدمها الدعاة المسلمون والمبشرون المسيحيون، بل إنهم يستخدمون نفس المصطلحات اللغوية مثل «إنقاذ أمريكا» من الخطيئة و«الانحطاط» الثقافي. ما لا يذكره باييس من منطلق نيته السيئة المعتادة هو أن اللغة التي يستخدمها هؤلاء الدعاة المسلمون تأتي في سياق التعاطي مع قضايا العلل التي يعاني منها المجتمع والتي ترافق بؤس التنمية الاقتصادية المتخلفة التي ظلت أمريكا السوداء الحضرية تعاني منها بصفة دائمة على مر التاريخ.

إن تمثيلات باييس المزيفة محسوبة ومتعمدة كما أنه يجتزئ الأمثلة خارج سياقها. فعلى خلاف ما يقوله، فإن رجال الدين والنشطاء المسلمين من أمثال سراج وهاج لا يهاجمون «الحريات الأمريكية»، بل إن أساليبهم تنجم عن موروث إفريقي أمريكي يفهم الإسلام كوسيلة لمجابهة العلل الاجتماعية والثقافية (مثل إدمان الكحول والمخدرات، والبناء، والبطالة، والعنف الأسري) المتفشية بين المجموعات الحضرية السوداء المحرومة والمُعْدمة. سبب تفشي هذه الأحوال هو التخلف التنامي التاريخي

والعنصرية البنيوية للثقافة الأمريكية البيضاء المتعالية. علاوة على ذلك، يستشهد بايبس بإسماعيل الفاروقى كنموذج لتمرد المسلمين «السلمي»، متناسيا أن يذكر أن الفاروقى كان أكاديميا يحظى بالتقدير والاحترام وكان مسئولاً عن تشكيل مجموعات الحوار الإسلامي/ اليهودي/ المسيحي بفلادلفيا. أيضا، لا يذكر بايبس أن الفاروقى وزوجته ذهبا ضحية العنف المعادى للعرب والمسلمين عام ١٩٨٦، حيث قام قاتل محترف بطعنهما حتى الموت، ويطعن ابنتيهما التى نجت من الموت بأعجوبة. ليس من قبيل المصادفة أن يتجاهل بايبس اغتيال الفاروقى وزوجته الوحشى، ونجده فى المقابل يكتب تحذيرا لاذعا من خطر الإسلام المتطرف على الأمريكيين حينما أشاد البعض بطعن ثيوفان جوخ الهولندى داعية الكراهية والبغضاء وقتله.

لا تتسم كتابات بايبس بأية صيغة أكاديمية أو إبداعية، كما أنها ليست على قدر كبير من الأهمية. كتاباته الصحفية غير متقنة وتفتقد الأمانة والموضوعية. نجده يلجأ إلى تزيف تمثيل حياة البعض، ويجتزئ أحاديث الآخرين خارج سياقها، ويصور جميع المسلمين الأمريكيين بصفتهم تهديدا وذلك من خلال ربطهم بشخص هامشى أو شخصين ممن لا تواجد لهم فى أوساط الجاليات الأمريكية. تكمن أهمية مقاله المشار إليه سابقا فى أنه يوضح كيف أن أحداث ٩/١١ سمحت بالآراء التى كانت هامشية فى الثمانينيات، بل وحتى فى التسعينيات بالمرور بسلسلة لتصبح جزءا من التيار الأمريكى السائد، وكيف أن بالإمكان إعادة اختراع المقولات الاستشراقية العنصرية القديمة وإدخالها إلى المناخ السياسى الجديد وكأنها مستحدثة ومُلحّة. وفى واقع الأمر، فإن تبجحات اليمين تخلق الأوضاع التى من خلالها تصبح هذه الهجمات الفجة اللادعة ذات أهمية وعلاقة بما يحدث وتفقد مظهرها المتعصب، ناهيك عن جنونها.

وفى مجملها، فقد عملت تعليقات أعضاء الكونجرس والقضاة ومسئولى الحكومة من دعاة الإسلاموفوبيا والمعادين للعرب على تشويه سمعة الجاليات العربية والإسلامية الأمريكية وعزلتها. تردد الإهانات والانتهاكات التى تنهال من المسؤولين الحكوميين والمرتزة الأيديولوجيين أصداء الهجمات المتواصلة التى تصدر عن إعلام

التيار السائد ومجموعات مناصرة الصهاينة وبحسب ما يقوله الباحثون من أمثال نادين نابر، نجم عن تلك الحركة، ويعد أن تنامت لتصبح علنياً، حالة من «الاحتجاز النفسي» في أوساط الجالية العربية والإسلامية، وما بايس، ومولكين، وروبرت سبنسر، وبول سبري، وباملا جلا، ودبي شولسل إلا حفنة من الأسماء ضمن قائمة طويلة من الانتهازيين السياسيين الموهين الذين يقتاتون على خلق جو من البارانويا معاد للمسلمين ويُبْقون عليه. وعلى الرغم من أن هؤلاء يمثلون التطرف الأيديولوجي إلا أنهم يتحركون باتجاه الوسط والمركز. أنتج زكريا ولويس الروايات الرئيسية للإسلاموفوبيا التي انبثقت عن الأيديولوجيين الذين يحتلون المركز، فيما أنتجت شخصيات مثل هيرسي على ومنجى المنظور النسائي من الداخل. وفي تلك الأثناء، يخلق الأرزقية المؤدلجون الذين يتقيأون البذاءات والوطانات التي تحض على كراهية العرب والمسلمين على الفضائيات والمواقع الإلكترونية والإنترنت وفي الإصدارات المطبوعة كتلة ضخمة من الإسلاموفوبيا ويطلقون ضوضاء صاخبة تزود إعلام التيار السائد والسياسيين وصناع السياسة بمادة لتحليل المسلمين والإسلام تقوم على أساس تهديد مضمّر، تحليل يرى أن المسلمين والعرب هم «الآخر» ناهيك عن اعتبارهم طابوراً خامساً مثيراً للفتنة والبغضاء.

أساليب الدفع بالإسلاموفوبيا إلى التيار السائد:

كان هدف الفصول الأولى من هذا الكتاب تعريف تيارات فكر الإسلاموفوبيا المهيمنة كما تعبر عنها خطابات متماثلة ومتشعبة في أن يمثلها برنارد لويس وفريد زكريا. رأينا كيف يرتبط هؤلاء المعلقون بمستويات عديدة في أوساط السلطة والنخب الاقتصادية. وبصفتهم هذه، رأينا كيف أصبح هؤلاء شخصيات إعلامية عامة يعملون كمرجعيات عن الإسلام والثقافة العربية والسياسات العربية والعالم الإسلامي. تشكل خطاباتهم أساس برامج اليمين واليسار معا المتعلقة بسياسة أمريكا في الشرق الأوسط، نظرة الحزبين الديمقراطي والجمهوري المتماثلة جوهريا إلى المسلمين ثقافيا واجتماعيا وسياسيا.

تسرى خطابات الإسلاموفوبيا السائدة بجنون في أوساط اليمين الديني والمحافظين الجدد والصهاينة، بل إنه من السهولة بمكان إبراز مقالات مماثلة من مجلات مثل الويكي ستاندارد، وفرنت بيدج وكومنترى بل حتى الأمريكان سبيكتاتور والنيوريبليك والناشونال ريفيو أو التركيز على الهجمات اليومية المحمومة البذيئة التي يكتبها المدونون من أمثال پاملا جلنر ودبى شلوسل، وبالمثل، فإن بإمكاننا التركيز على أنشطة «المراصد Watches» الشوفينية مثل الجهاد ووتش لروبرت سبنسر (والمربط بفريدوم سنتر التابع لدايفيد هورويتز) أو مرصد أهل الذمة Dhimmi Watch، أو كامبوس ووتش ومرصد الجماعات الإسلامية لدانييل پاپيس، أو عرض هذان الإسلاموفوبيا الذي يبثه الإعلام لكتاب من أمثال جلين بيك، وبيل أورلى ومايكل سافيدج وأن كولتر وميتشل مولكين وراش ليمبو. لكن هذا سيكون بالغ البساطة حيث إنه يمكن تجاهل هؤلاء العناصر بصفتهم يمثلون أقلية متعصبة داخل شريحة محددة من الجمهور الأمريكي. وفي واقع الأمر فإن بعض المحافظين السياسيين والمدونين والمعلقين بمن فيهم جورج دبليو. بوش ديك تشيني وديينش دسوزا وتشارلس جونسون بل وبعض المدونين الموالين لإسرائيل قاموا بإقصاء أنفسهم علنا عن معسكرات الإسلاموفوبيا الأكثر تطرفاً.

تذهب أطروحة هذا الكتاب إلى أن إعلام التيار السائد عمل على تشبع المجال العام الأمريكي بتقارير وتحاليل كان لابد وأن ينظر إليها على أنها عنصرية فجّة ومُحَيِّزة وقحة لو أنها تتعلق بأي دين آخر، وإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجي يخترق الثقافة الأمريكية ويتغلغل فيها، ويصفته هذه فإن له تداعيات واقعية جداً وأثار استطرادية مادية وسياسية ونفسية على العرب والمسلمين الأمريكيين وعلى شعوب جنوب غرب آسيا. من ثم، يتخطى هذا الفصل محاولة فهم الهامش العنصري لليمين الأمريكي. ويتخطى تفحص القائمة اللامتناهية من المواقف المتعصبة، وتنمطيات العرب والمسلمين داخل المجتمع المدني الأمريكي وإعلام التيار السائد. يشير التزايد الحالي في الخطاب العنصري المعادي للمهاجرين وأيضاً تزايد التشريعات ضدهم

والعمل على الدفع بها وجعلها تيارا سائد إلى أن الهجمات على المهاجرين اللاتينيين قد تتجاوز سياسات وهذيانات الإسلاموفوبيا وتخلع عنهم لقب «الببيع» رقم واحد. يعكس تصاعد السياسات والخطابات المعادية للمهاجرين واللاتينيين نفس الأساليب التى من خلالها تمت شيطنة المسلمين والعرب طوال العقدين الأخيرين. ففى حالتى المسلمين واللاتينيين الأمريكين سرعان ما انتقل خطاب المحافظين الجدد حولهم إلى التيار السائد واكتسب شرعية بصفته حقائق يستند إليها فى النقاشات حول الهجرة والأمن الداخلى، لكن الفرق هو أن العناصر التقدمية فى الحزب الديموقراطي، وعلى النقيض من ردود أفعالهم تجاه انتهاك الحريات المدنية للمسلمين، عبروا عن غضبهم وواجهوا بصراحة ووضوح المحاولات لنقل الهجوم على المهاجرين إلى التيار السائد. من ثم، يسعى هذا الفصل لتوضيح كيفية انبثاق السياسات والتوجهات المعادية للمسلمين من جميع أنحاء التيار السائد دونما أية معارضة تذكر. للإسلاموفوبيا الثقافية فى الداخل الأمريكى دور مفصلى فى تصنيع الإذعان والموافقة الصامتة بل والصاخبة أحيانا على التشريعات المعادية للعرب والمسلمين فى الداخل، والسياسات التخيلية الإمبريالية فى جنوب غرب آسيا التى تهدف إلى التحكم فى الموارد النفطية، ورعاية الدول السلطوية العميلة والحفاظ على التواجد العسكرى بما فى هذا الاحتلال العسكرى والدعم المستمر لقمع الشعب الفلسطينى.

لا تقتصر الإسلاموفوبيا على جماعات يمينية هامشية، أو على الأحرام الجامعية الأمريكية، أو تنظيمات الفعل السياسى التى تحاول تشويه صورة الناقدين لسياسات إسرائيل تجاه الفلسطينيين أو لاحتلال الولايات المتحدة للعراق وأفغانستان. إن الإسلاموفوبيا الثقافية تشكيل أيديولوجى تناسج يأتقان فى الثقافة الأمريكية منذ صعود العولمة بدرجة أننا نجد أن الإسلاموفوبيا وكراهية العرب تتداخل فى الخطابات الليبرالية. بدءا من خطابات الأمن القومى وحتى الأطروحات المدافعة عن الاقتصاد غير الضار بالبيئة.

مما لا ريب فيه أن اليمين والمحافظين الجدد يلعبون دورا مركزيا فى الإبقاء

على معايير الإسلاموفوبيا ويزودون روايات الليبراليين المعادية للمسلمين بإطار استطرادي، غالباً ما يُضيقون حدود الجدل ويحصرونه في نطاق الإفراطات المتطرفة غير المتقبلة في المجالات الأخرى، والافتراءات، والانتحال، والفهم الخاطئ المتعمد. يستوعب التيار السائد تلك الرسائل القاسية التي لا تهدأ التي يبثها اليمين من مختلف الشبكات الإعلامية التي تتضمن الفضائيات الإخبارية والمنظرين والمدونين والمعلقين، والتي يتقبلها الكثيرون بمن فيهم الليبراليون، ومع أخذ هذا في الاعتبار، فلا يمكن النظر إلى المحافظين الجدد، والمسيحيين الإنجيليين، والمتطرفين اليمينيين الصهاينة على أنهم عناصر هامشية، بل هم في واقع الأمر لاعبون نشطاء داخل الهيئات السياسية الحاكمة بالولايات المتحدة، والذين يتسللون إلى أوساط الحزبين في محاولة منهم لاكتساب المصداقية وأيضاً لممارسة نفوذهم وتأثيرهم في صياغة السياسة الحكومية.

بسيطة هي العملية التي من خلالها يحول اليمين الديني والمحافظون الجدد والمنظمات والناشطون الصهاينة النقاط الجدلية الرئيسية إلى حقائق مزعومة. رأينا كيف أن إقامة «منتديات»، ومراكز بحثية، وتنظيمات ظل، و«مراكز» و«معاهد» أسلوب مفضل يضيف النشاط اليمينيون من خلاله المصداقية على أنفسهم. بعد إنشاء تلك الهياكل المؤسسية الواقية، نجد أن دعاة الإسلاموفوبيا يجدون متعة كبرى في تنظيم المؤتمرات وورش العمل وأسابيع المناسبات التي تدور حول تنويعات على تيمة الفاشية «الإسلامية» أو «الإرهاب الإسلامي»، أو الجهاد. جاء المؤتمر الذي نُظِمَ برعاية منتدى الشرق الأوسط الذي يديره بايبيس في عام ٢٠٠٩ نموذجاً في هذا السياق. كان عنوان المؤتمر «حروب قوانين التشهير: إخراس نقد الإسلام المتطرف Libel Lawfare: Silencing Criticism of Radical Islam»، وتحدث فيه عدد كبير من مختلف أطراف الجناح اليميني للمحافظين الجدد مثل فرانك جافني، وآلان درشووتيز، وأندرو مكارثي الزميل بمؤسسة الدفاع عن الديموقراطيات والمدعى العام السابق الذي أكسبته محاكمته لعمر عبدالرحمن منزلة رفيعة في دوائر المحافظين

الجدد. كان هدف المؤتمر مواجهة ما أُطلق عليه تكتيك «الإسلاميين» الجديد بالولايات المتحدة، حيث زُعم أن التنظيمات الإسلامية قد أطلقت حملة منسقة من أجل «كبح حرية الخطاب حول مواضيع مثل الإسلام، والإسلام المتطرف والإرهاب وتمويل الإرهاب وذلك من خلال رفع قضايا أمام المحاكم والعمل على إصدار قوانين ضد «أحاديث الكراهية» وتشويه السمعة».

تم الإعلان عن النائب الديموقراطى أرلن سبكتر متحدثا رئيسيا فى المؤتمر. كان سبكتر الذى كان جمهوريا وديموقراطيا أيضا، قد دعم سياسات الاشتباك مع بلدان مثل سوريا، وكان الإعلان عن اسمه كمتحدث بالمؤتمر مكسبا كبيرا لمنظميه. بيد أنه، ومن سوء حظهم، أن قدمت منظمة CAIR التماسا أقنع عضو الكونجرس هذا بالانسحاب. لكن فشل منتدى الشرق الأوسط فى اجتذاب شخصيات سياسية من التيار السائد، لا يقلل من أهمية استراتيجياتهم. وفى واقع الأمر، فإنه يبدو وأن جزءا من تكتيك تنظيم المؤتمرات وورش العمل هو التجريب المستمر على ما يمكن إنجازه من خلال استغلال أنشطة مجموعات المصالح اليمينية التى تتبنى معايير التيار السائد المهني، لكنها، وبخلاف ذلك، تظل هامشية، توظف تلك الدعوات لإثارة أرنيز يصل إلى أسمعاع الدوائر العليا من أجل معرفة ردود أفعالها وتقييمها، ناهيك عن اكتساب دعم منها للمشاريع المستقبلية.

وفى واقع الأمر، فسرعان ما حول منتدى الشرق الأوسط، مؤتمر Libel Lawfare الباهت - والذى لم يلقى اهتماما على المستوى القومى باستثناء الكتابة عنه فى المدونات اليمينية - إلى مشروع قائم تحت مسمى «Lawfare Project». ظاهريا، يلجأ المشروع إلى انتحال لغة تنظيمات العدالة الاجتماعية ومناصرة الحقوق المشروعة بأن ينص على أنه مشروع لحقوق الإنسان. تذكر مديرتة يرووك جولدستاين أنها «محامية حقوق إنسان» فيما لا يعرف عنها سوى أنها اشتركت فى إخراج فيلم وثائقي مبتذل «معادٍ للفلسطينيين» بعنوان «صناعة الشهيد». تكشف النظرة العابرة على Lawfare Project عن الرطانة المستخدمة فى صياغة هدف المشروع وطبيعته

السطحية: استهداف الذين يواجهون أجندة الجناح اليميني في الشرق الأوسط وأمريكا الشمالية وإخراستهم. لدى بدء نشاطه، رُغم موقعه الإلكتروني أن مهمته هي «العمل على حماية حق نقاش الإسلام، والإسلام المتطرف، والإرهاب، وتمويلات الإرهاب، بحرية في البلاد الغربية». وفيما بعد نص الموقع على أن منتدى الشرق الأوسط أقام المشروع لتكون مهمته «حماية الباحثين والمحليين الذين يعملون على مواضيع الإرهاب، وتمويل الإرهاب والإسلام المتطرف، حمايتهم من القضايا التي تهدف إخراج ممارستهم الحديث الحرة. وهكذا فإن المشروع هو في واقع الأمر واجهة لمنتدى الشرق الأوسط بهدف توفير الدعم القانوني واللوجستي والمالي من أجل قمع التنظيمات المناصرة للمسلمين وترويعهم وإفلاسهم إن هم أرادوا اتخاذ الإجراءات القانونية لرد الظلم عنهم حينما يُشهر بهم وتُطخ سمعتهم ويُفترى عليهم من خلال دعاة الإسلاموفوبيا من الصحفيين والمنظرين والتنظيمات ومراكز الأبحاث.

توليد الخوف من أجل هندسة الإذعان:

في واقع الأمر فإن مشروع الحروب القانونية Lawfare Projed هو محاولة هزيلة ودالة في أن يضطلع بها مقاتلو الإسلاموفوبيا من أمثال دانييل بايبس ودايفيد هورويتز لكسب الاهتمام واختراق التيار السائد، وأيضاً من أجل ترويع التنظيمات المناصرة للعرب والمسلمين الأمريكيين. بلا ريب فإن المشروع، ومثل «أسبوع الوعي بالفاشية الإسلامية» ويوم يرسم فيه الجميع محمداً» و«يوم إحراق المصحف»، هو مناسبة هامشية، حيث إن دعاة الإسلاموفوبيا الأكثر تفانيا وخطورة موجودون بالكونجرس ووزارة الخارجية، ووزارة العدل، والأمن الداخلي والبيت الأبيض حيث يعملون معاً على ترقية سياسات وتشريعات تستهدف المسلمين الأمريكيين ووسمهم وتمييطهم ونبذهم، ومعهم المسلمون في الشرق الأوسط. وكحال اليمين الإنجيلي، تسرى المواقف والتوجهات منتقلة من الهامش إلى الوسط. وإلى التيار السائد. وكما أوضح صعود «حزب الشاي Tea Party» فإن تلك الأصوات الهامشية هي التمثيلات الأكثر نقاءاً للتشكيلات الأيديولوجية، وتفتح حيورتها ووضوحها للعيان

المجال أمام الإسلاموفوبيا لتصبح تيارا طبيعيا، ويتيح للأصوات الليبرالية الفرصة لتجهر بالحديث ضد أعمال وإجراءات الكراهية الصريحة فيما تحافظ على نسجها المدججة من الإسلاموفوبيا وتبقى عليها.

ظلت الترميمات المعادية للعرب والتعصب ضدهم موجودة طوال عقود عديدة. عمل الإعلام، وأفلام هوليوود، ومجموعات الولاءات السياسية، والحكومة بل وحتى النظام التعليمي بتناغم واتساق للحفاظ على ترميمات العرب والمسلمين بصفتهم إرهابيين، غير عقلانيين، يضطهدون النساء، شهوانيين «يدمنون العنف، جهلة، ويتكسبون من النفط». بلا ريب، فإن هذه الصورة لم تخرج إلى حيز الوجود نتيجة مكائد المحافظين الجدد واليمين الصهيوني بعد ٩/١١، فقد ظلت تتداول منذ عقود مع إجراء التعديلات عليها على مر السنين. فى الأفلام الكلاسيكية المبكرة كانت هوليوود تصور العرب أحيانا على أنهم نبلاء ومشبهون فى آن، مفرطو الشهوانية، بدو ذكوريون، كما صورهم سيسل بي. دوميل فى فيلم العرب (١٩١٥) أو فيلم «الشيخ» الشهير (١٩٢١). وفى السبعينيات، ومع حظر النفط وظهور حركة التحرير الفلسطينية، سارعت هوليوود والإعلام المطبوع إلى تصوير العرب على أنهم أشرار، يتظاهرون بالقوامة الأخلاقية، وإرهابيون يساريون. كما جاء فى فيلم «الطبال الصغيرة» لديان كيتون. ومع ظهور الإسلام القتالي، ساعدت هوليوود مرتادى دور العرض فى أمريكا الشمالية على تخيل أنه بالإمكان مجابهة هذه النزعة القتالية من خلال شوارزنجير وتشاك نوريس. وفى واقع الأمر فإن النماذج الدالة على الترميط العنصرى للعرب والمسلمين على مدى الأعوام الأربعين الأخيرة على درجة من الضخامة يتعذر معها حتى البدء فى فتح ملفها. من ثم، يمكن القول إن تمثيلهم إعلاميا بعد ٩/١١، لم يمثل نقلة بقدر ما كان تنفيساً كاملاً عن اللاوعى الأمريكى المكبل بالإسلاموفوبيا. قامت دراسات عدة بمناقشة تقلبات المشاعر المعادية للعرب والمسلمين بعد ٩/١١ من منطلقات الإسلاموفوبيا فى أمريكا الشمالية وتدايها، مبينة أن الموضوع معقد ومتعدد الأوجه. تشمل تدفقات نتائج المخوف والكراهية جاليات ومجموعات عديدة

وتؤثر فيهم بأساليب عميقة ومهمة، حيث ترسخ الصور المعادية للإسلام والعرب مناخاً من الخوف والصمت والتهميش في أوساط العرب والمسلمين الأمريكيين. لا يعمل التمييز فقط على جرح المشاعر، والعزلة الاجتماعية، وتنامي ذهنية الاحتجاز بل إنه أيضاً يعمل على خلق جماعة مذعنة راغبة في إرضاء الغير، يمكن للسلطات الفدرالية ترويعها بحيث تتمكن من مراقبتها والتحكم فيها وتجبر أفرادها على التزام الصمت إزاء سياسات الحكومة الداخلية والخارجية.

الأهم مما يحدثه التمييز، واصطياد المسلمين وتوليد الخوف من آثار على الأقلية العربية والمسلمة، فإن لهذا تداعيات أكثر خطورة على السكان الأمريكيين بعامه، إذ إن الإسلاموفوبيا لا تؤدي فقط إلى هندسة التوافق في أوساط التيار السائد وأمريكا البيضاء على السياسات المعادية للعرب والمسلمين بالداخل والخارج، بل أيضاً على السياسات التي تعمل على تقليص الحريات المدنية للجميع، وتعتبر السرعة التي مرر بها قانون باتريوت شهادة على فعالية الخوف و البارانويا لانتزاع موافقة الجماهير على تقليص حرياتهم الدستورية عن طيب خاطر. وفي واقع الأمر، فقد أوضحت دراسة كوري روبين عن الخوف وسياسات الحكومة الأمريكية أنه، وقبل ٩/١١ بسنوات طويلة، ظل الخوف حافزاً جوهرياً يُستخدم في الثقافة السياسية والحكومية من أجل هندسة الموافقة على سوء توزيع السلطة، وعلى عدم المساواة بين الطبقات والأعراق، ومن المفارقات أن روبين يعتمد إلى تكرار فرضية زكريا بأن الإسلام المتطرف ينجم عن «القلق العصابي» من الحداثة، لا عن أوضاع سياسية وتاريخية حقيقية وملموسة، وأيضاً، فإن ما يسيء إلى كتابه القيم هذا، هو استشهاده بفؤاد عجمي الذي يجزم بأن المسلمين المتطرفين يشعرون بالاغتراب جراء التقدم الحداثي، والحقوق المدنية، والتوجهات الفردانية والاستهلاكية، متجاهلاً أن يعزو ذلك إلى المذابح التي تُرتكب في أوساط المدنيين العراقيين والأفغان، واليمنيين؛ وجرائم الحرب التي مارستها ضد الفلسطينيين؛ والحملة الغربية الحكومية وغير الحكومية النيوليبرالية المهيمنة العازمة على تقويض الاقتصادات المحلية والقومية. ويوضح هذا أيضاً أن الخطابات

التي تفحصناها فى الفصول السابقة قد اخترقت حتى الأبحاث والدراسات الناقدة رفيعة المستوى.

فى دراسة تبدو وكأنها مجاز تاريخى، يتفحص روبين أيضا فترات تتضمن الأيام المكارثية ليلقى الضوء على كيفية استخدام الحكومات بما فيها إدارة بوش للخوف، كوسيلة معقدة لتصنيع الموافقة الشعبية. الأطروحة واضحة، حيث إنها تذهب إلى أنه إذا كان الإسلام، أو معتنقوه المتطرفون، معادين لكل ما هو حديث، وإذا كانت الحداثة ومكتسباتها مسيرة حتمية من المستحيل «عكسها»، مسيرة ينبغي على الغرب والولايات المتحدة حمايتها مهما بلغت التكلفة، فإن «أفضل الوسائل لقمع عدم الرضا عن الحداثة والاستياء منها، وبخاصة إذا اتخذ هذا شكلا قاتلا مدمرا، هو قتل تلك الظاهرة». يوضح روبين أنه يتم استغلال الخوف حافزا رئيسياً لتطبيع «الحرب الدائمة على الإرهاب التى تعمل على تحويل القلق الداخلى إلى خوف يودى إلى تنشيط المجتمع المنهك ويسترد له حسه بالهدف الجماعى والفردى».

على مدى بضع السنوات الأخيرة، دعم كثير من الصحفيين والأكاديميين فرضية روبين، بل ورأوا، وكما كان الكثيرون يرتابون، أن الخوف يستخدم عاملا حافزا فى الانتخابات، لا يتردد الجمهوريون الذين يتحدثون بصراحة ودونما مواربة، ولا يخفون نوازع الإسلاموفوبيا الفجة لديهم، واستعدادهم التام للانقلاب على الحريات المدنية، لا يترددون فى الاستفادة من حالة الخوف لدى الجماهير، ومخاوفهم الأمنية، بل ويعملون على إثارتها. نجم عن تزايد التحذيرات من الهجمات الإرهابية، تزايد متسق فى الدعم الجماهيرى لبوش أثناء رئاسته. ليس ثمة شك فى أن الأمريكين يجدون أن ثمة علاقة تبادلية بين الخوف والإرهاب من ناحية وبين المسلمين والعرب من ناحية أخرى وأن الاعتقاد بوجود هذه العلاقة التبادلية يترجم إلى أعمال وإجراءات عنصرية وإلى تحيزات تسهل تمرير سياسات داخلية تستهدف المسلمين والعرب الأمريكين. أوضحت استطلاعات الرأى التى أجراها پيو فاؤندايشن، ومركز زغبى، وجالوب وكير CAIR وإيه بى سى، أن الأمريكين يرتابون فى العرب والمسلمين، بل ويعبرون

أحيانا عن آراء منحازة ضدهم، أوضحت إحدى الدراسات أن ستة من بين كل عشرة أمريكيين يعتقدون أن العرب والمسلمين ينزعون جوهريا إلى العنف فيما اعترف واحد من بين كل أربعة بالتحيز ضدهم، ويين مسح آخر أن خمسة وأربعين فى المائة من المشاركين يعتقدون أن الإسلام يشجع العنف فعليا كما أظهرت نفس الدراسة أن ٣٠٪ من الأمريكيين لديهم نظرة سلبية إزاء العرب والمسلمين الأمريكيين.

تحذير أمريكا البيضاء:

تعمل هيئة ثقافة الإسلاموفوبيا على تحرير الخطاب العام من مستوى الكياسة السياسية التى لابد وأن يراعيها المجتمع المدنى إزاء غالبية الأقليات الدينية والعرقية الأخرى. نجح كثير من المدونين والمخبرين/ المخبرات المحليين من الدرجة الثالثة فى اكتساب مكانة وظيفية مرموقة من خلال هذيانات الإسلاموفوبيا التى يروجونها، كما يستخدم الممثلون والمطربون الهزليون التلميحات المسلمة والعربية لاجتذاب جماهير جاهزة. عزز كارلوس منشيا استعراضه «عقل منشيا» الذى لم يستمر طويلا بعدد كبير من النماذج البلهاء العنصرية الفجة، وكذلك عمد الكوميديان جون دنهام، الذى أقام شهرته على الإسلاموفوبيا، إلى تقمص شخصية «أحمد، الإرهابى الميت» التى ابتدعها المتمثلة فى هيكل عظمى لمفجر انتحارى مُلتح معمم، شخص غبى غاصب جبان منذر، تعوزه الثقة بالنفس، وينزع إلى القتل. يمضى يردد بلكنة عربية «أخرس، سأقتلك Silence, I keel you». حققت أمزوجة دنهام الساخرة «Jingle Bombs»، والتى هى محاكاة داعرة لترنيمة أعياد الميلاد «Jingle Bells» نجاحا عارما بما تحتويه من مقاطع بذينة مهينة:

شققْتُ رمال الصحراء وقنبلتى إلى ظهري مشدودة
لأفجرها احتفالا بالكريسماس بعد دقائق معدودة
مررت من نقطة تفتيش A، وفى نقطة B أوقفوني
أطلق الجنود الأمريكان النار على مؤخرتى وقتلوني
انفجرتى يا قنابل، انفجرتى يا قنابل، واصدحى فى الأجواء
قلم يتبق منى سوى فوطة رأسى المبللة بالدماء

ذكرت التقارير فى عام ٢٠٠٩ أن استعراض «أحمد، الإرهابى الميت» احتل المركز الرابع فى الفيديوهاات الأكثر مشاهدة أون لاين.

يحقق مقدمو تلك الاستعراضات والمعلقون والمدونون نجاحهم المتمثل فى تخدير تيار أمريكا البيضاء السائد ضد آثار التعليقات البغيضة المؤلة، من ثم تتلاشى العوائق أمام المحظورات بحيث تصبح الأعمال والإجراءات العنصرية المتعصبة حتمية، بل ومتقبلة أيضا. ينجم عن ذلك إجراءات يومية من تجميع المعلومات عنهم وأخذ بصماتهم ولالتقاط صور لهم ووسمهم. أيضا، يطلب من المحجبات خلع الحجاب لدى دخولهن البنوك مثلا بذريعة التعليمات التى تمنع ارتداء القبعات هناك. يُستهدف تلاميذ المدارس المسلمون من قبل المدرسين بانتظام، حيث طلبت إحدى المدرسات، مثلا، من تلميذها الباكستانى الأمريكى تمثيل دور إرهابى حينما كانت تسعى إلى توضيح كيفية إمكانية صعود إرهابى إلى الطائرة وهو يحمل حقيبة ظهر مفخخة ليفجرها بالطائرة.

من جهة، يرسم المعلقون والصحفيون والإخصائيون النفسيون الانتهازيون للجمهور الأمريكى، صورة لأمريكا وقد تلقت صدمة مروعة يوم ١١ سبتمبر، صورة مفعمة بمشاعر الانتهاك والغضب العارم والعجز والاضطراب والخوف. والنتيجة هى أنه يحدث أحيانا «أن توجه مشاعر الغضب والخوف والحاجة الماسة إلى الفهم التى تنجم عن الأفكار التى تصور إمكانية الموت فى أية لحظة، توجه إلى أشخاص لا يماثلون عن قرب مرتكبى الهجمات»، قالى جانب توجيه التعصب الأعمى والتحيز والرغبة فى العنف إلى العرب والمسلمين، تنسحب تلك المشاعر أيضا وتوجه ضد من يماثلونهم فى الشكل مثل الهندوس، والسيخ، واللاتينيين والسود. لكن كتاب «فى أعقاب ٩/١١: سيكولوجية الإرهاب» الذى ألفه طوم بيسنجنسكى، وشلدون سولومون وچف جرينبرج (٢٠٠٢) والذى يعالج نظرية إدارة الإرهاب، يزعم أن ردود الأفعال هذه تقتصر على أقلية ضئيلة من الشعب الأمريكى الذى يجب تهنتته وذلك لأن «قيمهم الجوهريّة» حصنتهم من ارتكاب أعمال عنف جماعية أخرى ضد العرب والمسلمين

الأمريكيين، كما أنه من المحتمل للإجراءات والأعمال السلبية اللاإجتماعية الموجهة ضد الأقليات من ذوى البشرة السمراء، من المحتمل لها أن «تراجع وتقفر قيمنا الأكثر إيجابية لتحتل مقدمة وعينا».

قد يكون لهذا الإدراك الظرفى درجة من الصدقية، لولا حقيقة أن هؤلاء المعلقين والإخصائيين النفسيين يتجاهلون ذكر سياقات العنف التاريخى والصدمات المروعة والرضوض التى عاناها المسلمون على أيدي الغرب، إما مباشرة من خلال الاستعمار والنيوكلونيالية والتدخلات العسكرية الجارية حالياً، أو بأسلوب غير مباشر من خلال دعم الأنظمة السلطوية الوحشية مثل نظام الشاه ومشايخ الخليج وصادام حسين ومبارك، ناهيك عن الترويع القائم، والعنف والإذلال اليومى الذى يعانىه الفلسطينيون، وياتباع نهج برنارد لويس، نجد أن بعض تلك النظريات النفسية متواطئة مع أشد النظريات عنصرية والتى تصور الذات العربية والمسلمة على أنها تفتقد حس «تقدير الذات» الذى يتمتع به الغربيون. يتحاشى علماء النفس الذين يعتقدون هذه النظرية أن يتسقوا على طول الخط مع نظريتهم الخاصة بالصدمة والرضوض النفسية لأن تتبع عواملها السببية ستضفى درجة من المسؤولية على ضمير «نحن» الذى يستدعونه باستمرار وينزع المصادقية عن نظرة الأمريكيين إلى العالم وقيمهم الجوهرية، واحتقائهم بسماتها الأخلاقية البارزة، بدلا من ذلك، نجدهم يستندون إلى كتابات فريد زكريا وبرنارد لويس وصمويل هنتجتون الذين يذهبون إلى أن المسلمين يعانون القهر والمهانة من أنظمتهم (دونما ذكر لدعم الولايات المتحدة لتلك الأنظمة) وأن قادتهم الأشرار يتلاعبون بمقدرات جماهيرهم، وأن القادة الدينيين وعطاء دهماويون يجعلون من الولايات المتحدة كبش فداء ويحملونها مسؤولية جميع الإخفاقات المتأصلة فى المجتمعات العربية والإسلامية. وبذلك فهم يعملون على تخدير أمريكا البيضاء كي لا تشعر بتواطئها، ويمحون بصماتها من على مسرح جرائم الكراهية.

وفيما يظل الأمريكيون بالغى اليقظة فى التفتيش عن المسلمين تحت كل صخرة وخلف كل عامود، فإن الأمثلة لا تحصى على أفعال وإجراءات وأحاديث الإسلاموفوبيا،

وبعد مرور عقد على أحداث ٩/١١، تؤدى وظيفة أيديولوجية هدفها إضعاف حساسية التيار السائد فى أوساط أمريكا البيضاء المسيحية إلى درجة يصبح معها التمييز العنصرى ضد المسلمين والعرب متقبلا. ولا يجوز أن يثير هذا الدهشة حيث إن وأبل الهجمات والانتهاكات التى تنهال من اليمين الأمريكى على التيار السائد تعمل على توسيع مدى خطاب الإسلاموفوبيا وتعميق مستواه، تُمرر الكتب الدعائية التى تهاجم الإسلام والمسلمين وتحط من شأنهم على أنها تحليلات سياسية أو أبحاث تاريخية، ويصور الكتاب من أمثال روبرت سبنسر ويرووس باور وميلانى فيلس الإسلام والمسلمين على أنهم أنجاس منبوذون.

العمل على جعل أمريكا البيضاء مفرطة الحساسية:

على حين أنه تم تجريد الجمهور الأمريكى من الحساسية إزاء أحاديث وأعمال الإسلاموفوبيا التى يأتونها، فقد أصبح الأمريكيون مفرطى الحساسية إزاء أى فعل عنيف أو تافه يرتكبه المسلمون. يُنَبِّت توجه هذا المناخ مفرط الحساسية، الذى تقاقمه إطلاق الإنذارات من أعمال إرهابية، والتفجيرات الخرقاء التى يقوم بها أفراد إرهابيون معزولون تعوزهم الكفاءة، يُنَبِّت باتجاه التفتيش عن أية مقولة متطرفة ينطق بها أى شخص يدعى أنه مسلم واستخدامها مادة للإثارة التى تعمل على الارتقاء بمكانة المحلقين فى الفضائيات الإخبارية التى تبث يوميا طوال الساعات الأربع وعشرين، والمواقع الإلكترونية التى لا تحصى، بل إنها توظف أيضا لتسويق التمنطيات التى تمتلئ بها تلك الوسائط الإعلامية وإضفاء المصداقية عليها.

فى واقع الأمر، عندما يجهر المسلمون بالشكوى من الإهانات غير المسوغة التى تنهال عليهم، يتهمون بأن ردود أفعالهم مبالغ فيها وأنهم يحاولون قمع حرية الكلام من جانب من يهاجمونهم، ويوردون أمثلة من أوروبا معروفة للجميع، وبخاصة ردود أفعال المسلمين على الرسوم الدانماركية، واغتيال ثيوفان جوخ اليميني المحرض المستفز العنصرى الذى كرس حياته السياسية لتشويه سمعة الإسلام والمهاجرين المسلمين والتحريض عليهم. وبدلا من الاعتراف بأن هدف دعاة الإسلاموفوبيا وكارهى العرب

هو إثارة المسلمين تحت غطاء ممارسة حرية الحديث بحيث يلجأون إلى أعمال العنف، يعمل الكتاب والمعلقون على إقناع الجماهير بأن المسلمين مفرطو الحساسية وبأن العنف من سماتهم المتأصلة.

المسلمون والسفر بالطائرات؛

«تُجسّد» تنمطيات المسلمين والعرب، بالمعنى الحرفي للفظ الخطابات الأكاديمية المفترضة التي روجها لويس وذكريا، ثم رددتها أعمال المخابرات/ المخابراتيين، والمرتزة المؤلّجين، والنشطاء السياسيين، هذا على الرغم من أن تلك الأعمال تفتقد الخيال وتعتمد إلى التكرار. في عصر العولمة توظف صورة العرب والمسلمين كمتعصبين لا يتوافقون مع الحداثة والديموقراطية في خدمة أهداف واضحة تتصل بمنطقة الولايات المتحدة والغرب فيها مصالح استراتيجية وذلك بسبب إيمانهم للنقط والمنتجات النفطية. وكما رأينا، فقد عمل التتميط على زيادة حساسية الجمهور الأمريكي من أجل مفاخرة خوفهم من التهديدات الإرهابية غير المحددة وكلية الحضور في أن. يصادق نمط المسلم المتطرف الكاره للحرية، والعربي المعادي للسامية على مشروعية مشاعر الخوف، ويعمل على تخدير الجمهور الأمريكي بعامّة ضد المشاعر المضادة للانتهاكات المتزايدة من جانب الحكومة لشريحة مستهدفة من السكان المحليين ومراقبتها لهم، وتجميع المعلومات الشخصية عنهم، مع تصنيع موافقة عامة السكان على تلك الإجراءات، حينما يصرح جرالدو ريفيرا بأن عمل ملقات عرقية تحوى معلومات وصوراً شخصية للمسلمين الأمريكيين ووسمهم «تضحية» عليهم قبولها فإنه يتبع خطى مواقف عبر عنها أشخاص في إدارة بوش وأعضاء الكونجرس في أعقاب ٩/١١، أكد طوم ريدج للأمريكيين وهو يتحدث عن قانون باتريوت، أن انتهاك الحقوق المدنية هو أفضل وسيلة للإبقاء على «رؤية نحافظ بها على حرياتنا، ونحمي بها أمريكا، ونحفظ بها أمن وطننا».

في أعقاب تفجيرات الكريسماس الفاشلة التي قام بها عمر الفاروق عبدالمطلب الذي كان قد خبأ المتفجرات في ملابسه الداخلية، تعالت المطالبات بإجراء التفتيش

الذاتى وأخذ بصمات وصور المسلمين الذين يسافرون جوا، كان الأبرز ما صرح به الفريق طوم ماكإنرى- وهو جنرال سابق صدره البنتاجون لترويج مبررات لغزو العراق فى الإعلام حيث قال إنه ينبغي أن تحذو الولايات المتحدة حذو ما تفعله إسرائيل مع الفلسطينيين، ومضى يطوف على المؤسسات الإعلامية مطالباً بأن يجرى تفتيش إجبارى لجميع المسلمين الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والثامنة والعشرين وهم عراة قبل صعودهم إلى الطائرة. ظل دانييل باپس وميتشل مولكين منذ وقت طويل من أنصار اتخاذ هذه الإجراءات ضد العرب والمسلمين الأمريكيين. بلغت جريمة «سفر المسلمين بالطائرات» و«سفر العرب بالطائرات» مبلغاً يتم فيه بانتظام احتجازهم، هم ومن يشبهونهم، وإنزالهم بالقوة من على الطائرات، ومنع صعودهم إليها واستهدافهم لإجراء مزيد من إجراءات التفتيش الإضافية بحجة الأمن. تلقى هذه الإجراءات ذيوفا عندما تستهدف شخصيات بارزة، كما حدث فى حالة منع أحد الطيارين حارس جورج بوش الشخصى وكان عربياً أمريكياً من الشرطة السرية، منعه من دخول الطائرة، أو حينما احتُجز شاهروك خان سوهر ستار السينما الهندية لاستجوابه فى مطار نيويورك حينما كان فى طريقه إلى الولايات المتحدة للدعاية لفيلمه الذى يعالج قضية الاستهدافات العرقية. أيضاً هناك أمثلة أخرى كثيرة على الإجراءات التى تتخذ ضد الشخصيات العادية مثلما يحدث حينما تجبر السلطات عائلات بأكملها على مغادرة الطائرة، أو كما حدث فى حالة رائد جرار الناشط العربى الأمريكى المناهض للحرب والذى مُنع من الصعود إلى الطائرة لأنه كان يرتدى تى شيرت مكتوباً عليه بالعربية «لن نصمت بعد الآن».

إن الاستهداف العنصرى للعرب والمسلمين وتفتيشهم ذاتياً وتجميع معلومات شخصية عنهم وأخذ بصماتهم هو إحدى الممارسات التى تصل بين تحيزات الجماهير ضد العرب والإسلاموفوبيا وبين السياسات الإعلامية والحكومية. أطلق السياسيون من أمثال نووت جنجريتش دعوات لممارسة «التمييز» بفاعلية وذلك من أجل تطبيع الخطاب الذى يستهدف المسلمين من ذوى البشرة السمراء والسوداء وعزلهم عن

المواطنين البيض الأمريكيين. أثبتت استطلاعات الرأي أن الغالبية الساحقة من الأمريكيين تؤيد إجراءات التفتيش والاستعانة بالمعلومات الشخصية العنصرية عن العرب والمسلمين وبخاصة في المطارات، وبالمثل، بينت الاستطلاعات أن حوالي نصف الأمريكيين المستطلعين يدعمون تقييد حريات المسلمين المدنية بشكل أو آخر.

الإسلاموفوبيا بصفتها البعد الأيديولوجي لسياسة الولايات المتحدة الخارجية؛

قد لا يُدهش المرء من الهستريا العنصرية الجماعية، والعنف، الذي مورس ضد المسلمين والعرب، والتحرش بهم، والإيقاع بهم في أعقاب ٩/١١، لكن غالبية الأمثلة التي أوردتها حدثت مؤخرا. غالبا ما يُبرر مزاخ الترويع الذي يحيط بالعرب والمسلمين، المواطنين منهم أو المهاجرين القانونيين، على أنه ردود أفعال وضربات تأثرية مصدرها الإحباط وما لحق الأمريكيين من أذى. بيد أنني أجزم في هذا الفصل بأن الهيئة التنفيذية والكونجرس ووزارات الأمن الداخلي والخارجية والدفاع والعدل تعمل بتناغم لغرس ثقافة القمع ورعايتها وتنظيمها، على أساس شيطنة العرب والمسلمين. يساعد هذا التوجه الإسهام الجوهري لإعلام التيار السائد، والإعلام الهامشي، ومعه مجموعات الولاء الصهيونية، والمسيحية الإنجيلية، والمحافظين الجدد، وأيضا السياسيين الليبراليين ونشطانهم ومراكز أبحاثهم. لا أجزم هنا أن ثمة مؤامرة حكومية صريحة تهدف إلى قمع جميع المسلمين وحرمانهم من حقوقهم، الأخرى أن خطابات الإسلاموفوبيا تترعرع في ظل خطابات القوة الأحادية، إذ إن جميع جرائم الكراهية والتحرشات، والتعصب، والسخرية، والهجاء العنصرية وغيرها من الاستهدافات والمهانات بالقطاعين العام والخاص، ما هي إلا الآثار الاستطراذية للإسلاموفوبيا الثقافية بتداعياتها الواقعية الملموسة على أرض الواقع المصغر (الفردى والمحلي) والموسع (القومى والكوكبي). تعمل جميعها على تخدير الأحاسيس ضد القوانين العنصرية، وإضفاء المشروعية عليها ومأسستها، وعلى تآكل الحريات المدنية، وممارسة السياسة الخارجية الإمبريالية في الشرق الأوسط.

إن إجراءات الوسم العرقى والإسلاموفوبيا الثقافية تشكيلات أيديولوجية ضرورية

في عصر إمبراطورية الولايات المتحدة. حولت حرب عاصفة الصحراء واختفاء الاتحاد السوفييتي معاداة العرب من شكل بغيض من العنصرية كان يربط الفلسطينيين والعرب الآخرين بحركات التحرر ذات التوجهات الشيوعية إلى بند أيديولوجي مركزي في محاربة من يُزعم أنهم متطرفون معادون للحدث يُبرر وجود الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. كان «صدام الحضارات» لصامويل هنتنجتون، و«جنود غضب المسلمين» لبرنارد لويس صياغة كلامية لنقطة أيديولوجية مثلت جوهر سياسة بيل كلينتون وجورج بوش وباراك أوباما الخارجية. رأينا الروايات التي أكد لويس وزكريا وآخرون على صحتها للشعب الأمريكي والتي تذهب إلى أن الغزو والحروب هي الوسائل الوحيدة لتنفيذ الإصلاح في الشرق الأوسط وذلك لأن العرب لا يفهمون سوى لغة العنف. غُلف بوش تبريره لغزو العراق بلغة الحرية والتحرير والديموقراطية وذلك لأن إعلام التيار السائد كان قد مضى ينشر خطابه المعادية للعرب والمروجة للإسلاموفوبيا مما أضفى على «أجندة الحرية» التي تبناها إلحاحاً وأهمية بارزة. كانت تلك الخطابات قد طُرحت بقوة قبل ذلك بفترة، حيث يخبرنا بوب وودوارد أنه في ٥ فبراير ٢٠٠١، أي في اليوم السابع عشر من رئاسة بوش - ترأست كوندليزا رايس، مستشارة الأمن القومي اجتماعاً لاستعراض وضع الإجراءات الدبلوماسية والعسكرية والعمليات السرية بالعراق وإمكانيات تغيير النظام والخيارات المطروحة. أتاحت هجمات ٩/١١ أن يتقبل الجمهور الأمريكي المزاعم القائلة بوجود روابط بين صدام حسين والقاعدة دونما مساعلة أو ارتياب.

كان الجمهور الأمريكي آنذاك على استعداد للربط بين «أجندة الحرية» التي تبناها بوش (ضد ديكتاتور علماني) وبين التنميطات المُصنَّعة للمسلمين كإرهابيين ورواية الإسلاموفوبيا التي تصور الإسلام المتطرف (القاعدة) بصفته معادياً للديموقراطية والحرية. وبالمثل، وفرت الإسلاموفوبيا الثقافية رابطة مكنت بوش أن يجمع كوريا الشمالية الستالينية العلمانية، والعراق القومي العلماني، والجمهورية الإسلامية الإيرانية في سلة واحدة تحت مسمى «محور الشر» (الذي كان من إسهامات منتدى

دايڤيد للمحافظين الجدد)، والذي أطلقه في «خطاب حالة الاتحاد» لعام ٢٠٠٢، كما تمكن، بالتزامن مع ذلك من أن يشير إلى أن تلك البلدان التي تبغضها التنظيمات القتالية الإسلامية على أنها أنظمة مارقة تدعم الإرهاب الكوكبي (أي القاعدة). يكشف هذا الاستعداد للتغاضي عن الاختلافات الأيديولوجية التي تفصل بين الحركات العلمانية والقومية العربية وذات التوجهات الدينية الدرجة التي بها تتناسج روايات الإسلاموفوبيا للويس وزكريا وفريدمان وعجمي وغيرهم في نظرة أمريكا البيضاء إلى العالم وتوجهاتها الخارجية. يُعتبر إدماج العناصر المتفرقة المتضادة في عدو مشترك واحد مثالا على المدى الذي به عملت تجارة بث الخوف في آخر تجلياتها، أي الإسلاموفوبيا الثقافية، على تخدير قدرة التيار السائد على تحليل العالم المعقد الذي يواجه أمريكا. منع عمق الإسلاموفوبيا الثقافية في المجتمع الأمريكي واستعداده لتقبل منطق «الأنا» الذي يذهب إلى أننا وحدنا مصدر المعرفة، وأننا وجدنا الموجودون، كأساس للسياسة الخارجية والتدخل العسكري، منع حركة مناهضة الحروب من تجذير نفسها بعمق في أوساط الطبقة الوسطى الأمريكية.

في الستينيات، تماهت الحركات المناهضة للحرب، بمستوى ما، مع حق الفيتناميين في تقرير المصير كما تبنت الحركات التقدمية حقوق شعوب أمريكا اللاتينية في مقاومة الإمبريالية الأمريكية. لكن السبب الحقيقي في حيوية تلك الحرب المناهضة للحروب هو أنه كان يتم تجنيد أفراد الطبقة الوسطى الأمريكية البيضاء للقتال في حرب إمبريالية لا يمكن كسبها. بتعبير آخر، لم يكن الأمريكيون على استعداد لقتال الفيتناميين من خلال التضحية بأنفسهم وإخوانهم وأحبائهم. بيد أنه في حالة احتلال أفغانستان والعراق، فإن الطبقة الوسطى الأمريكية البيضاء، تملك رفاة المصادقة على تلك الحروب الأمريكية حيث إنهم يعتقدون أنها تهدف إلى حماية الأمن القومي، وأيضا، وكما يؤكد لهم أمثال لويس وهيرسي على ومنجي، فإن العسكرة الأمريكية تتدخل دوليا، وبدافع إثاري، لإنقاذ المسلمين من الطغاة، وإنقاذ نساء المسلمين وأطفالهم من الذكور المسلمين فيما يتحمل فقراء الأمريكيين البيض والسود والسمر الأعباء القذرة لهذه المهمة «النبيلة».

التوقيعات الجماعية، والترحيلات، والتسجيلات الخاصة، و«قوائم الرصد»؛ في الوقت الذي أثار فيه الإعلام الجماهيري حالة من الهستيريا الجماعية ومخارقه افتراضية، وشجع على التحرش بالعرب والمسلمين الأمريكيين ومضايقتهم والارتياب فيهم، مضت السلطات تلقى القبض على العرب والمسلمين بأسلوب جماعي بالولايات المتحدة تحت غطاء قانوني في غالبية الأحوال. تم احتجاز خمسة آلاف مسلم يحملون وثائق قانونية دونما توجيه تهم لغالبيتهم، وكان يتم سجن الرجال الذين يوصفون بأن «لهم أهمية» على أساس معلومات والمباحات سرية تقول مثلاً «إن ثمة أعداداً مفرطة من الرجال شرق الأوسطين يعملون بأحد محلات البضائع المخفضة والمعونات»، وعلى حين أنه قد تم «احتجاز هؤلاء سرا ومحاكمتهم سرا» فلم يُدّن أى منهم بأى نوايا إجرامية أو أفعال مخالفة. علاوة على ذلك، تم استدعاء ٨٠٠٠ أجنبي يحملون وثائق قانونية إلى مصلحة الهجرة ووزارة العدل، ونتج عن تلك «المقابلات» طرد آلاف المسلمين وترحيلهم وكان غالبيتهم من بلاد عربية. كانت أسوأ الحالات تخص هؤلاء الذين رُحّلوا إلى بلاد تتولى تعذيبهم نيابة عن الولايات المتحدة - بلاد ينتمى إليها «المتهمون» وتحكمها أنظمة سلطوية مثل مصر والسعودية والجزائر وسوريا والمغرب والأردن واليمن. أيضاً، نفذت إدارة بوش نظام «تسجيل خاص» لثمانين ألف عربى ومسلم يقيمون بأسلوب قانوني بالولايات المتحدة. وفي نفس الوقت، مازال مسئولو الحكومة، ونواب الولايات المتحدة والشخصيات الإعلامية يبررون اللجوء إلى إجراءات الرصد والوسم العرقى وتجميع الملفات والاحتجازات الجماعية كحلول لما يُسمى «الإرهاب الإسلامي».

اعترف الإف بى أى بأنه ضمّن ٢٤٠٠٠ شخص في قائمة رصد للإرهابيين، فيما أنه، في ذات الوقت، لم يُخف متهمين «إرهابيين» حقيقيين، ظهرت هذه المعلومات في جلسة استماع داخلية بوزارة العدل. واعتباراً من إبريل ٢٠٠٧، كانت «قائمة رصد الإرهابيين» تضم ٧٠٠٠٠ اسم على الأقل، وكانت تتنامى بإضافة ٢٠٠٠٠ اسم شهرياً. وعلاوة على ذلك، شملت القائمة أيضاً ما يربو على ١,١ مليون اسم بصفتهم

إرهابيين «محتملين» استخدمت هذه القائمة للتدقيق فى خلفيات المواطنين الأجانب الذين كانوا يسعون إلى دخول الولايات المتحدة بأسلوب قانوني، وللتدقيق أيضا فى خلفيات مواطنين أمريكيين. وفى جلسة استماع أخرى فى عام ٢٠٠٩، كشفت وزارة العدل عن أن ٣٥٪ من سجلات «الأشخاص المتضمنين فى قوائم الرصد كانوا مرتبطين بتصنيفات قضايا إرهاب قديمة أو تصنيفات قضايا غير متعلقة بالإرهاب وأن تلك القوائم كشفت عن أن كثيرا من السجلات كانت لأفراد كانوا قد شملتهم أصلا قوائم الرصد لكنهم حذفوا منها بعد أن تم إغلاق ملفات القضايا ضدهم».

يدلنا هذا على أن آثار الإسلاموفوبيا الثقافية لا يؤكدها فقط المناخ العام والمجتمع المدنى أو تقتصر عليهما. وفى واقع الأمر، فإن أعمال العنف ضد العرب والمسلمين الأمريكيين والبداءات اللفظية التى يتعرضون لها هى تداعيات مُلزمة لسياسات تفوق كثيرا حالات العدوان الفردية والتحيزات المؤسسية أو التعصب الإعلامى، حيث إن التعميمات هى تجيسد لظاهرة أيديولوجية متداخلة فى سياسات الولايات المتحدة وتستخدم لإضفاء المشروعية على إجراءاتها السياسية الداخلية والخارجية، ولتصنيع الموافقة على تلك السياسات والإجراءات.

فى ١٨ سبتمبر ٢٠٠١، مرر الكونجرس قرارا سهّل به ما أصبح حرب بوش الشرسة ضد الحريات المدنية، وضد أفغانستان والعراق. يعنى التفويض الذى منحه الكونجرس للرئيس باستخدام القوة العسكرية ضد جميع إرهابيين ١١ سبتمبر، منحه سلطة «استخدام جميع أشكال القوة الضرورية والمناسبة ضد جميع البلدان، والتنظيمات والأشخاص الذين يقرر هو أنهم خططوا لهجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، أو ساعدوا عليها أو تلك التى تقوم بإيواء المنظمات الإرهابية أو الأشخاص الإرهابيين وذلك من أجل منع أمثال هؤلاء من القيام بأعمال إرهابية ضد الولايات المتحدة فى المستقبل». منح هذا التشريع تفويضا مطلقا للرئيس بوش الذى سرعان ما أصدر أمرا تنفيذيا بوضع جميع من يُلقى جيش الولايات المتحدة وجهاز أمنها القبض عليهم على قائمة «المقاتلين الأعداء» وينكر عليهم الحقوق التى يكفلها لهم الدستور واتفاقيات

جنيف. أيضا، حاول هذا الأمر فتح ثغرات قانونية من أجل تسليم المشتبه فيهم إلى بلدان تقوم بتعذيبهم، وتعليق مجموعة قوانين أوامر الإحضار لأغراض التحقيق والمحاكمة *habeas corpus*، ومراقبة الهواتف والتعذيب. وبناء على ذلك شهدت جاليات العرب والمسلمين الأمريكيين نتاج الإسلاموفوبيا الثقافية تأخذ شكل أجندة سياسية وممارسات متناغمة أصبحت فيما بعد واقعا سياسيا.

قام العديد من الباحثين القانونيين وعلماء السياسة والأنثروبولوجي بدراسة الأساليب العديدة التي أُخضع بها المسلمون، الأمريكيون منهم والمهاجرون، للمحاكمة منذ ٩/١١، وكيفية استناد تدهور الحقوق المدنية بالولايات المتحدة إلى تلك المحاكمات. يكتب جيورجيو أجابن، المفكر السياسي المرموق قائلا إن إدارة جورج بوش تعتبر نموذجا للأساليب التي تعيد الحكومات بها تعريف حقوق الأفراد، بل وتعمل على تاكلها، حيث إن بوش من خلال إعلانه الحرب الدائمة على الإرهاب أنتج «وصفاً أصبحت فيه الحالة الطارئة قاعدة راسخة». أيضا، يبين لويس فيشر كيف أن الحقوق الدستورية تعرضت للانتهاكات المستمرة بعد ٩/١١، وكيف سمحت الحرب على الإرهاب لبوش بتجاهل الممارسات القانونية، وبإقامة محاكم سرية، ومواقع سوداء، وممارسة الرقابة والتعذيب بالداخل، وتسليم المشتبه بهم إلى حكومات أخرى لتقوم بتعذيبهم. يبين فيشر أنه بعد ٩/١١ تم منع الحقوق التقليدية والضمانات الإجرائية عن الأفراد الذين بدوا وأنهم يتوافقون مع بعض التصنيفات: المسلمين، العرب، العرب الأمريكيين، شرق الأوسطيين، وغيرهم وغيرهم». تقول إلين كاسل في دراسة لها بعنوان «الحرب على الحريات المدنية» إن «التاريخ سيذكر الأشهر التي أعقبت ٩/١١ مباشرة بصفتها أياما سوداء من حيث معاملة البلد للعرب الأمريكيين. والمواطنين المسلمين والأجانب. تم إصدار قوانين، ومهاجمة المسلمين والعرب واعتقالهم، وساد مناخ شبه هستيري». أيضا، توضح لويز كاينكر بأسلوب محدد كيف أن إدارة بوش بقيادة جون أشكروفت قامت خلال عام واحد بترحيل أكبر عدد من الأجانب في تاريخ الولايات المتحدة، بمن في هذا الذين رُحّلوا من خلال حملات بالمر في عامي

١٩١٩ و ١٩٢٠ إبان مناخ الذعر من الأناركيين الذى تم إبانته احتجاجاً بضعة آلاف من غير المواطنين وترحيل ٧٥٠ من بينهم إيمّا جولدمان دونما سند قانوني، فيما يبين لنا مايكل ولش كيف يمكن لهذه الانتهاكات أن تصبح جزءاً من الإجراءات القانونية المعمول بها حيث تغدو صناعة كباش الفداء، وجرائم الكرامية جرائم ترتكبها الدولة من خلال تأسيسها على شكل سلسلة من القوانين. يضيف ولش، وكما أوضحنا فى نقاشنا لثقافة التخدير، أن هذا يصبح ممكناً من خلال «ثقافة الإنكار» التى تسمح لقوانين التمييز، وإلجهاض الحريات المدنية أن تصبح ملامح ضرورية للحياة السياسية الأمريكية.

بزوغ دولة الأمن القومى:

يعتبر إنشاء وزارة الأمن الداخلى من أجل دمج المكاتب اللامركزية التابعة للدولة مثل مكتب الهجرة، والجمارك، وقرض القوانين الفدرالية، مع استحداث مناصب كثيرة مثل مدير الاستخبارات القومية، يعتبر شهادة على وجود دولة الأمن القومى فى الولايات المتحدة الآن. أثناء فترة رئاسة بوش، تم إصدار عدد من التشريعات تعيد تعريف الحريات المدنية وتعيد هندستها، ومعها الحقوق القانونية التى تكفلها الحكومة لغير المواطنين. تشمل تلك التشريعات قانون الأمن الداخلى لعام ٢٠٠٢، وقانون باتريوت «I» وقانون تعزيز الأمن الداخلى لعام ٢٠٠٣ (أو قانون باتريوت II) وقانون مراقبة الإرهابيين، وقانون المفوضية العسكرية لعام ٢٠٠٦، وقانون الإرهاب المستنبت داخليا لعام ٢٠٠٧، وقانون حماية أمريكا وقانون تفويض الاستخبارات لعام ٢٠٠٨، وإنشاء محكمة الاستخبارات والرقابة على الأجانب. يقول فليب جيرالدى وهو يناقش قانون الإرهاب المستنبت داخليا إن «من السهل جدا إساءة استخدامه بحيث يمكن تحديد أى جماعة تمارس ضغوطاً على النظام السياسى بأنها إرهابية، وتوجيهه بشكل رئيسى ضد المسلمين والتنظيمات الإسلامية؛ كما أنه من المحتم أن يكون بين المشتبه فيهم الأساتذة بمختلف الجامعات المتاهضين للسياسات الأمريكية والتنظيمات الفلسطينية المعادية للاحتلال الإسرائيلى».

وللأسف، فقد ثبتت صحة رؤية فليب جيرالدى، حيث رأينا كيف تعقبت التنظيمات

الموالية لليمين وللصهاينة والمحافظين الجدد الطلبة والنشطاء الذين يشاركون فى الحركات المؤيدة لحق الفلسطينيين فى تقرير المصير.

تحاول تلك التنظيمات إشراك السلطات الفدرالية والمحلية فى ترويع النشطاء الذين يجهرون بآرائهم، والتحكم فى المناظرات حول الصراع الفلسطينى/ الإسرائيلى. وفرت التشريعات التى مرّرت منذ ٢٠٠١ إطاراً قضائياً لهيئات فرض القوانين لتتعقب المسلمين الأمريكيين وتستهدفهم وتنصب الفخاخ لهم.

فى واقع الأمر، تُضفى الإسلاموفوبيا الثقافية سمة عقلانية على نزاع أهلية المسلمين للحقوق المدنية وحرمانهم منها، كما أن أثر وابل البروباغندا والتعليقات والصور المعادية للعرب والمسلمين شديد الوضوح: إن كان المسلمون عازمين على تدمير العالم الحر من خلال الإرهاب والغدر وتقويض الحريات المدنية إذن فهم غير مؤهلين، فى ظل الحرب على الإرهاب لاكتساب تلك الحقوق ناهيك عن استحقاقها. بدا أوباما وأنه يوافق جوهرياً على تلك الأطروحة إذ إنه قرر أن أنور العولقى، المواطن الأمريكى، يستحق الإعدام بدون مسوغات قانونية، أو الاغتيال المستهدف- تزعم الحكومة أن العولقى كان على صلة بنضال حسن المتخصص فى علم النفس بقاعدة قورت هوود الذى قام بإطلاق النار هناك، ويفصل شاهزاد صاحب تفجيرات تايمز سكوير الفاشلة، وفاروق عبدالمطلب الذى خبأ المتفجرات بملابسه الداخلية وفشلت محاولته. يرى الرئيس أن هذا الزعم كافٍ لتبرير إعدام مواطن أمريكى من مواليد نيومكسيكو دونما اتهام أو محاكمة. بعد شهر من هذا الإعلان، أعلن جوليبرمان، فى اتساق منه مع رأى أوباما، أنه يعد تشريعاً ينزع المواطنة الأمريكية بمقتضى القانون عن الأمريكيين الذين يحاربون فى جيوش أجنبية، لكنه أوضح دونما لبس أن هذا لن يطبق على الأمريكيين الذين يخدمون فى الجيش الإسرائيلى، بل فقط على الذين يخدمون فى جيوش معادية لأمريكا. وهذا يبدو منطقاً سليماً فقط إذا وافقنا على أن المسلمين الأمريكيين هم طابور خامس يعملون على إثارة الفتنة، أشخاص موالون للبلاد الإسلامية، ناهيك عن أنهم يكتنون رغبة لإقامة «الولايات المتحدة الأمريكية الإسلامية» بحسب تصوير فصيل من معتقى الإسلاموفوبيا الثقافية.

وفيما أن العرب المسلمين الأمريكيين كانوا قد خضعوا للتمييز العنصري قبل ٢٠٠١، وتضمن هذا الإعدام دونما محاكمة في الجنوب الأمريكي، والاحتجاز على أساس التزاوج من الأمريكيات/ الأمريكيين البيض، والتميط في أفلام هوليوود، فقد غطى ما حدث بعد ١١ سبتمبر على التعقيدات والصعوبات التي يواجهها السكان العرب والمسلمون في علاقتهم بمجتمع التيار السائد وثقافته. تبين سونيلا ميرا أن «إقصاء العرب والمسلمون الأمريكيين عن الانتماء الثقافي المعيارى هو أمر متعضون في سياسات الدولة وفي المصنفات الاجتماعية السابقة على ٩/١١، لكنه تفاقم في ظل قانون باتريوت». بين الباحثون والأكاديميون أن تشريعات ما بعد ٩/١١ عملت بترادف مع حملة الإسلاموفوبيا الثقافية على إشعار العرب والمسلمين الأمريكيين بالغتريب، وعلى تهميشهم، حتى أصبحوا مثل نظرائهم في العالمين العربى والإسلامى يشعرون أنهم يعيشون فى ظل حصار ورقابة مستدامة. أدى ذلك إلى عكس نزوع العرب والمسلمين الأمريكيين لاستيعاب الثقافة الأمريكية والاندماج السريع فيها، وتسبب فى شعورهم بالعزلة.

لكن الأهم من الخطابات الموجبة، والشوقيينية والترويع اللفظي، هو أن الحكومة الفدرالية، ناهيك عن هيئات فرض القانون فى جميع أنحاء البلاد، قد ظلت تقوم بمراقبة الجاليات المسلمة ورصدهم والتجسس عليهم منذ إدارة كلينتون، وهى ممارسات تفاقمت فى عهد بوش واستمرت فى عهد إدارة أوباما. ولقد رأينا كيف يتعقب الإف بى آى والأمن الداخلى مئات الآلاف من المسلمين وغير المسلمين وبخاصة هؤلاء الذين ينتمون إلى بعض البلاد العربية، وإلى إيران وباكستان، والأكثر بشاعة هو أن للإف بى آى برنامجا مستداما للرقابة على المساجد بالولايات المتحدة واختراقها، كما يحاول أحيانا نصب الفخاخ لشباب المسلمين الأمريكيين وإشراكهم فى مخططات علوة على تعقب عامة السكان المسلمين.

ظلت الرقابة والاختراق من الممارسات الشائعة لسلطات فرض القانون على مر العقود. فى مارس عام ٢٠١٠ تم توقيف ثمانية من الذين يدعون إلى تسيد المسيحيين البيض بمشيجان واتهموا بالتخطيط للإطاحة بحكومة الولايات المتحدة،

كانت التوقيفات قد تمت والاتهامات قد وجّهت لأن الإف بي أى اخترق صفوف تلك المليشيا. لكن المثير للاهتمام هو عدم ذكر عضوية هؤلاء في تنظيم مسيحي متطرف في مذكرة التوقيف، كما لم يُبرز الإعلام تلك الحقيقة ويعتبر هذا نقیضا فاضحا لما يحدث حينما يتم توقيف المسلمين حيث يتم إبراز انتماءاتهم الدينية وتضخيم أثرها، وليس هذا بالأمر المستغرب حينما نعلم أن السلطات الفدرالية والمحلية تتلاعب بحساسية الجمهور المفرطة كوسيلة لإدانة المقبوض عليهم.

الحرب على أعمال البر:

منذ ٩/١١ والإف بي أى يحاول تجنيد المسلمين والعرب الأمريكيين للمساعدة في «الحرب على الإرهاب» بالداخل الأمريكي، وبالفعل، فقد كان من الملاحظ تعاون العرب والمسلمين الأمريكيين، عن طيب خاطر، مع الحكومة للقيام بمهام أمنية في أوساط جالياتهم. وبدلا من أن يؤدي ذلك إلى إثبات ولاء مسلمي أمريكا، فقد تعرض الإف بي أى للهجوم لإشراكه بعض الجماعات الإسلامية مثل CAIR في بعض المهام. وفي الوقت ذاته، ظلت السلطات الفدرالية تقوم بالتجسس على المساجد، والمنظمات الخيرية والجماعات المناصرة لمختلف القضايا والمراكز التعليمية من خلال المراقبة والتقنصت والاختراق المباشر بواسطة مخبرين مأجورين.

كانت إحدى أكثر حملات الإف بي أى شهرة ونجاحا هي تلك التي شنتها ضد مؤسسة الأرض المقدسة، حيث تم اعتقال خمسة من أعضاء هذه المؤسسة التي تتخذ من دالاس مقرا لها، وإدانتهم والحكم عليهم بالسجن سنوات طويلة، بما في هذا الحكم على اثنين منهم بالسجن مدى الحياة. شملت المحاكمة الأولى في عام ٢٠٠٧ توجيه الاتهامات لعشرات من «المتأمرين المشاركين»، أى إلى عدد كبير من المنظمات الخيرية والتعليمية ومنظمات خدمة المجتمع الإسلامية والمساجد، وكانت CAIR أبرز تلك التنظيمات المتهمه رغم تعاونها مع الإف بي أى في مناسبات عدة. انتهت المحاكمة بالفشل وذلك بسبب ما زعمته هيئة المحلفين من أن أحد أعضائها من دعاة الإسلاموفوبيا كان يضغط على بقية الأعضاء ويهددهم لاعتقادهم أن القضية

تقوم على أسس واهية. فى ٢٠٠٨، قضت الحكومة بإعادة النظر فى القضية بعد أن أسقطت اتهامات كثيرة فى حق تنظيمات أخرى وعلى الرغم من أن الادعاء نفسه اعترف بأن أموال مؤسسة الأرض المقدسة كانت تستخدم فى برامج إنسانية مثل تمويل المدارس والمستشفيات بالضفة الغربية وغزة فقد نجحت الحكومة فى استصدار أحكام بالإدانة على أساس أنها كانت تمد حماس «بدعم مالى وموارد» وتقوم بعمليات غسيل أموال.

علاوة على ذلك، فى عام ٢٠٠٤، سمحت محكمة أمريكية لأسرة المواطن الأمريكى دايفيد بويم الذى كان قد قتل بإطلاق النار عليه فى الضفة الغربية، بمقاضاة مؤسسة الأرض المقدسة وحماس لطلب التعويض، هذا على الرغم من ثبوت أنه لا علاقة لأعضاء المؤسسة بالأنشطة الإرهابية، وحُكم للأسرة بتعويض قدره ١٥٦ مليون دولار. جاء هذا من نظام العدالة ذاته الذى أصدر أحكاما يرد الطلب فى نظر عدة قضايا ضد المسؤولين والشركات والجيش الأمريكى لدورهم فى الاعتقالات غير القانونية، وأعمال التعذيب، والاختطاف وتسليم أعداد كبيرة من المواطنين الأبرياء لحكومات عميلة كى تقوم بتعذيبهم أثناء حرب الحكومة على «الإرهاب».

وفى واقع الأمر، فقد حكم قضاة عدة من مستويات مختلفة، بما فى هذا قضاة المحكمة العليا، برد طلبات نظر دعاوى جنائية ومدنية كان قد رفعها المحتجزون بجوانتنامو وأسرههم، وأسرى ضحايا المذابح التى ارتكبها الجيش الأمريكى بالعراق وتنظيمات المرتزقة من أمثال شركة بلاكووتر، والأبرياء الذين سلمتهم السلطات الأمريكية لحكومات عميلة لتعذيبهم، وضحايا الاحتجاز والتعذيب فى المواقع السوداء الأمريكية. يشمل هذا القضايا التى رفعتها أسرى ١٧ مدنيا بريئا قتلهم عملاء بلاكووتر فى ميدان النسر ببغداد، و٢٤ رجلاً وامرأة وطفلاً قتلهم المارينز بالحديثة فى العراق، والقضايا التى تم رفعها ضد مقاولين بسبب أعمال التعذيب فى سجن أبوغريب، وضحايا الاختطاف والتعذيب من أمثال ماهر عرار وخالد المصري، وغيرها. وفى واقع الأمر، فقد حكمت إحدى محاكم الاستئناف الفدرالية بأسلوب فورى

بحرمان جميع المحتجزين في «الثقب الأسود» بقاعدة باجرام الجوية بأفغانستان من حقوقهم القانونية الدولية لاتخاذ إجراءات قانونية ضد الجيش الأمريكي والمسؤولين والمقاولين الأمريكيين.

المثير للاهتمام إزاء قضية مؤسسة الأرض المقدسة هو أن الحكومة لم تقتصر على تجريم التبرعات الخيرية للمؤسسات والمنظمات الفلسطينية غير الحكومية، بل جرّمت أيضاً مؤسسات التبرعات الذي زعم أن حماس تديرها بدعوى أنها مؤسسات إجرامية، حيث قالت وزارة الخزانة إن «حماس تستخدم أموال مؤسسة الأرض المقدسة لدعم مدارس تخدم أهداف حماس من خلال تشجيع الأطفال على أن يصبحوا مفجرين انتحاريين، وتجنيد المفجرين الانتحاريين بتقديم المساعدات لأسرهم»، غمر الادعاء المحلفين بوابل من صور «الإرهاب» في إسرائيل في محاولة منه لإيجاد صلة بين التبرعات الخيرية للمدارس والمستشفيات وبين المفجرين الانتحاريين. وبعد إدانتهم، تم نقل المتهمين إلى سجن جديد تراعى فيه أقصى درجات الإجراءات الأمنية يُسمى وحدة إدارة الاتصالات «UMC»، وكان الهدف من إقامة مثل تلك السجون عزل المعتقلين ومنعهم من الاتصال بأصدقائهم وأسرهم والعالم الخارجى بعامّة، وهى إحدى إبداعات الحرب على الإرهاب أقامها بوش واستخدمها أوباما لإيواء المسلمين والسجناء السياسيين فيها بشكل رئيسي.

رسخت قضية مؤسسة الأرض المقدسة سابقة لوزارة العدل ومثلت أكثر من مجرد انتصار لاستغلال وقت الحكومة ومواردها ودعايتها حيث إنها اعتُبرت إشعاراً قانونياً للتنظيمات الخيرية الإسلامية والمناصرة للفلسطينيين بأنها طرائد سهلة لسلطات الولايات المتحدة. نشر اتحاد الحريات المدنية الأمريكي ACLU تقريراً يوثق فيه محاولات المكاتب الأمريكية إغلاق المنظمات الخيرية الإسلامية ومحاكمة القائمين عليها، حيث إن الحكومة الفدرالية قد أغلقت ستة تنظيمات على الأقل، وأغارَت على نصف ستة أخرى، مشيراً إلى أن وزارة الخزانة تستهدف المسلمين لأنهم «أهداف سهلة رخوة» بحسب قول بول كريج روبرتس مساعد وزير الخزانة السابق. علاوة

على ذلك، يعترف مسئولو الخزانة بوضوح بجمع معلومات عن المسلمين ووسمهم واستهدافهم حيث صرح أحدهم، وفقا لما جاء بالتقرير سالف الذكر، بالقول «لا نذهب الآن إلى البارات الأيرلندية للبحث عما يدعمون جيش التحرير الأيرلندي حيث إنه ثمة أسباب وجيهة للتركيز على الجاليات المسلمة لأن نسبة المسلمين الذين يقومون بأعمال إرهابية أكبر من نسبتهم في الجاليات الأخرى. يعلم الجميع أن استهداف المسلمين ليس بدون أساس». وفي واقع الأمر فإن تعقب أموال المنظمات الإسلامية ظل وسيلة قوية الفاعلية شبه سرية لاستهداف المسلمين والمنظمات الإسلامية، وبخاصة من خلال «عملية جريت كوست» التي تنفذها مصلحة الجمارك الأمريكية والتي تتقصى مصادر أموال المنظمات «الإرهابية» التي تدخل الولايات المتحدة، والتي غالبا ما يكون مصدرها البلاد العربية وباكستان.

تم إغلاق مؤسسة الحرمين الخيرية السعودية ووجهت إليها تهمة «التآمر للاحتيال على حكومة الولايات المتحدة» من خلال غسيل الأموال وإرسالها إلى الشيشان، وقام الاتهام على أساس التنصت على الهواتف دونما سند قانوني والذي أقره بوش. وفي النهاية قضى أحد القضاة الفدرالين برد دعوى الاتهام، وأصدر ثون ووكر، أحد القضاة الفدراليين الآخرين حكما بأن الرقابة بالتنصت على الأحاديث الهاتفية أمر مخالف للقانون.

وعلى الرغم من ذلك، حُظرت المؤسسة في الولايات المتحدة، ووفقا لما جاء بتقارير اتحاد الحريات المدنية الأمريكية، فقد نجم عن إغلاق مكاتب الحرمين في أنحاء العالم، إغلاق دور الأيتام بالصومال التي كانت ترعى ٣٠٠٠ طفل وفقدان ٧٠٠ وظيفة هناك. هنا، ينبغي أن نذكر أن إدارة أوباما تدافع عن استخدام «المميزات السرية للدولة» ضد «تمويل الإرهاب» والمشتبه بأنهم إرهابيون تماما مثل إدارة بوش.

أدى نجاح القضية ضد مؤسسة الأرض المقدسة إلى تعرض جميع الجمعيات الخيرية الإسلامية للارتياح وحملات التشهير. تتعرض منظمة CAIR، التي ظلت الأكثر نشاطا وشهرة في تبنى حقوق المسلمين المدنية والدفاع عنها بأكثر من غيرها،

لحملات الهجوم المنظمة فى الإعلام من خلال مجموعات العمل السياسى، وهدفا للتشهير والقذف من قبل قناة فوكس الإخبارية ودانيل بايس والمواقع الإلكترونية العدائية مثل جهاد ووتش، وقد أدى هذا الاهتمام السلبى المستدام إلى تشويه سمعة CAIR. مثلا، قامت باربرا بوكسر بسحب «شهادة إنجاز» شرفية كانت قد منحتها لمنظمة CAIR لمناصرتها الجالية المسلمة الأمريكية وتبنى قضاياها، حينما نهىها تشارلس شومر وريتشارد دربين، زميلاها بالحزب الديموقراطى لبعض تصريحات المجموعة وأفعالها فى الماضى، والتى أثارت قلقها، وكذلك تأكيدات مسئولى فرض القانون بأنها «تمنح معونات لتنظيمات إرهابية دولية». علاوة على ذلك، طالب عدد من النواب الحكومة بالقيام بالتحريات والتحقيقات فى أنشطة CAIR فى استجابة منهم لكتاب «المافيا الإسلامية: داخل العالم السرى الذى يتأمر لأسلمة أمريكا» من تأليف دايفيد جاويايتز وبول سبرى والذى يتضمن تشهيرا بالمنظمة حيث يقول المؤلفان إنها مجموعة متطرفة تأمرية تعمل واجهة لحماس وحزب الله والإخوان المسلمين والقاعدة وإنها قد اخترقت المراكز العليا فى السلطة، والإعلام، والكونجرس، بل والبيت الأبيض، وأنها تتألف من «إرهابيين يرتدون البذلات الأنيقة، ماهرين فى التلاعب بالسياسيين والإعلام من خلال الدعاية ذات الصياغة الماهرة» وخلاصة الأمر أنهم «كذابين متمكنون». يزعم الكاتبان أنهما حصلا على تلك المعلومات بتجنيد ابن أحدهما للعمل كمتررب بالمنظمة حيث قام بسرقة بعض وثائق CAIR ثم قام المؤلفان بنشر مجموعة من الافتراءات والاتهامات التى لا أساس لها وأمثلة على الاقتتال الداخلى، والتنافسات والجدالات والخلافات فى الرأى والصراعات الداخلية.

نصب الغلاخ:

ظلت الرقابة واستخدام المخبرين أسلحة رئيسية فى ترسانة الإف بى آى للاستعمال ضد الجريمة المنظمة، كما تم استخدام الجواسيس على مدار التاريخ لإثارة الانشقاكات السياسية، وفى أوساط تنظيمات الحفاظ على البيئة والحقوق المدنية، والمجموعات المناهضة للحروب. اكتسب استخدام المخبرين والجواسيس

والعملاء المزدوجين في برنامج COINTELPRO الذي وضعه هيربرت هووثر وكان يعمل منهجياً على تحييد حركة السود وحركات التحرير الأخرى، اكتسب شهرة خاصة كأداة فاعلة لتحقيق هذا الهدف. كان الاختراق وسيلة رئيسية في حملة الاستخبارات المضادة لقلقلة الحركات التقدمية الراديكالية وتشويه سمعتها، سواء كان ذلك يبيث الارتياح والخلافات بين أعضائها، أو بالمساعدة في تنفيذ سلسلة من الاغتيالات، أو تلفيق التهم، أو الاحتجاز والضرب والترويع. قد لا يصل برنامج الاستخبارات المضادة الحكومي إلى مستوى الأبعاد المنذرة القائمة لبرنامج COINTELPRO. لكن، وبأساليب عدة يجعل المدى الواسع الذي ينصوي تحت التشريعات التي صدرت بعد ٩/١١ مثل قانون باتريوت، وقانون الإرهاب المستنبت داخليا، وأيضا دمج هيئات الأمن الداخلي في وزارة الأمن الداخلي، وبرنامج الرقابة واسع المدى الذي أنيطت مسؤوليته بالرئيس ومجلس الأمن القومي NSA دونما تفويض أو سند قانوني، يجعل كل هذا برنامجا وحيدا مثل COINTELPRO غير ضروري.

أعلن الإف بي أي أنه قد أحبط عدة مخططات مزعومة لإرهابيين مستنبتين داخليا، والتي تم «اكتشافها» من خلال استخدام المخبرين والجواسيس وأعمال الرقابة والتنصت. بعد ٩/١١، قامت حملة مكافحة الإرهاب الداخلي، والإف بي أي، و NSA (مجلس الأمن القومي) وسلطات الولايات والسلطات المحلية بنصب الفخاخ للمسلمين الشباب في الولايات المتحدة على أمل تحريضهم واستفزازهم. تهدف استراتيجية نصب الفخاخ إلى إجراء محاكمات يروج لها إعلاميا تشهد على نجاح نظام التشريعات الجديدة التي صدرت منذ ٢٠٠١ وأهميتها وضرورتها. نتيجة لذلك، تشعر الجاليات العربية والإسلامية بإجراءات وسمهم وجمع المعلومات عنهم والتجسس عليهم وعزلهم، وقاموا بالاحتجاج على استخدام «العملاء الحرضين» في حملة الحكومة لمكافحة الإرهاب.

وعلى حين أن المخبرين السريين (CI) «قد أصبحوا ضرورة لنجاح كثير من تحريات الإف بي أي في مجال الجريمة المنظمة، والفساد الحكومي، وتجارة المخدرات

ومكافحة الإرهاب، والمبادرات الأخرى» إلا أن جلسات الاستماع الداخلية للإف بى أى فى عام ٢٠٠٥ تذكر أن ٨٧٪ من حالات استخدام المخبير تعتبر انتهاكا لبروتوكولات الجهاز وإجراءاته بأسلوب أو آخر. وعلى الرغم من أن الخطوط الإرشادية التى يتبعها المخبرون السريون غير محددة بدقة إلا أنها تحظر تحديدًا دفع أموال لهم «مشروطة بإدانة أى شخص أو إنزال عقوبة به»، لكنها لا تحظر أن تكون الأموال التى تُدفع مشروطة بالاستخبارات التى يجمعها المخبرون بحيث تسرّع اتخاذ الإجراءات القضائية ضد المتهمين. علاوة على ذلك يجتهد الإف بى أى «فى تقصى إنتاجية مخبريه السريين بواسطة تجميع إنجازاتهم الإحصائية، أى عدد الاتهامات والتوقيفات ومذكرات التفتيش، وتطبيقات قانون Title III والإسهامات الأخرى فى أهداف التحريات التى ينجزها المخبرون». وعلاوة على المكافآت المالية التى يتلقونها، يشهد تقرير صادر عن الكونجرس على أن المخبيرين السريين فى قضايا الإرهاب مؤهلين أيضا للحصول على تسهيلات هجرة خاصة بحيث يحصلون هم وعائلاتهم على أوضاع هجرة قانونية.

أشهر نماذج المخبيرين السريين شهرة وسوء سمعة والذى يبدو وأنه ينتهك الكثير من بنود العمل بالإف بى أى، حدث بكاليفورنيا حينما استخدم الإف بى أى عميلاً/ محرّضاً ليقوم بدور أمريكى اعتنق الإسلام، بالمركز الإسلامى بارقين، تشير هذه المحاولة الفاشلة التساؤلات حول نزاهة استراتيجية اختراق المخبيرين للتجمعات بأن كشفت عن الوسائل الصيانية الخرقاء التى تحدث بها هذه العمليات. علاوة على ذلك، فهى تنزع الصدقية والشرعية عن تصريحات الإف بى أى عن كيفية عمله عن كُتب مع الجاليات العربية والمسلمة الأمريكية. أيضا، فقد أُلقت التحريات فى تلك القضية الأضواء بقوة على عدم صدقية المخبيرين ناهيك عن كفايتهم. وتوضح القضية أيضا انتهاكات متعددة لسياسات الإف بى أى ذاتها.

فى عام ٢٠٠٦ اخترق كريج مونتيل، وهو محتال محترف ومخبر مشبوه كان قد سبقّت إدانته فى عدة جنح وجرائم، اخترق مسجد إرفين، وصادق مرتاديه، وقام

بدراسة اللغة العربية وعرض عليهم أن يقوم بتدريبهم. فى عام ٢٠٠٧. انزعج عدد من الأعضاء بالمسجد، من بينهم شخص يدعى أحمد نيازى من خطابات مونتيل الجهادية التى تعمل على تأجيج المشاعر. أبلغ المسجد فرع CAIR بجنوب كاليفورنيا مخاوفه، وقام الفرع بالاتصال بالإف بى آى وبشرطة إرفين. يبدو أن قسم شرطة إرفين قام بعمل تحريات أكثر من الإف بى آى وحصل المركز الإسلامى على أمر زجرى يُحظر بمقتضاه على مونتيل دخول المسجد. وحينما كُشف أمر مونتيل كمحتال ومجرم، قام بنفسه باقتحام الوسائط الإعلامية ليروى قصته كمخبر لكن الإف بى آى رفض الاعتراف بأنه قد تم زرعه مخبرا إلى أن قام قاضى الدائرة الفدرالية برفض مخطوف الاتهامات الموجهة إليه. وفى تلك الأثناء قام الإف بى آى بالاتصال بنيازى لإقناعه بأن يعمل مخبرا، وحينما رفض، تم اتهامه بسلسلة من انتهاكات قوانين الهجرة التى مازالت قيد النظر، لكن «تهمة الإرهاب» الوحيدة التى يمكن أن توجه إلى نيازى هى أنه لم يذكر فى طلب الهجرة أن شقيقته متزوجة بمواطن باكستانى صنفته الولايات المتحدة على أنه إرهابي. اتهم نيازى، بسبب ما يبدو من أنه ثار لعدم تغاضيه عن تحريض مونتيل ورفضه العمل كمخبر، بواقعتى حنث واحتيال وإساءة استخدام جواز سفر حصل عليه من خلال الاحتيال والإدلاء ببيانات كاذبة لهيئة فدرالية. وقد تؤدى تلك الاتهامات لدى ثبوتها إلى الحكم عليه بالسجن ٣٥ عاما. غدا هذا الاستخدام للقوانين التى صدرت بعد ٩/١١ أسلوبا شائعا تلجأ إليه الحكومة الفدرالية لاستدعاء غير المواطنين ممن لديهم وثائق قانونية، واستجوابهم، وترحيلهم بل وتحظر عليهم دخول البلد. تذكر ديبا فرناندز فى كتابها «المستهدفون: الأمن الداخلى وبيزنس الهجرة» أن الشرطة والإف بى آى استغلوا عدم معرفة الناس بحقوقهم «فى السنوات التالية لأحداث ٩/١١. كان خوف المهاجرين والمواطنين الأجانب وهشاشة أوضاعهم مبررة وذلك لأن التفويض الذى منحه جون آشكروفت لسلطات الهجرة كان على درجة من عدم التحديد بحيث إنه لم يكن على تلك السلطات أن تثبت أية روابط بالإرهاب أو الجريمة، من أجل وقف العمل بقرار قاضى الهجرة».

تدهورت علاقات الإف بى آى بالجالية المسلمة الأمريكية على مر السنين ولم

يكن هذا بسبب عدم تعاون تنظيمات الحقوق المدنية المسلمة أو المنظمات التعليمية مثل CAIR وغيرها لأن تلك التنظيمات قد سعت بإيجابية ونشاط إلى مساعدة الإف بى أى ليس فقط فى ورش عمل «الحساسية الثقافية» التدريبية، بل أيضا فى مجال الاستخبارات والرقابة على المسلمين والعرب الأمريكين داخل نطاق تنظيقاتهم ومساجدهم ومجموعاتهم. لكن الإف بى أى، وقبل الكشف عن ورطة مونتيل، قام بقطع علاقته بتنظيم CAIR، ثم حددها واحدة من ثلاثمائة من المتآمرين فى قضية مؤسسة الأرض المقدسة.

تبين قضية المركز الإسلامى بوضوح كيفية اختراق الإف بى أى للتنظيمات الدينية والمناصرة السياسية والتعليمية الإسلامية من أجل استهداف المشتبه فيهم ويحدث هذا الاختراق على أساس افتراض وجود ممارسات غير قانونية بل وإجرامية ومحاولة تجميع الشواهد لإقامة «دعاوى استباقية». بيد أن الخط القانونى الذى يفصل بين تجميع الشواهد لإقامة «دعاوى استباقية» وبين نصب الفخاخ رفيع جدا. وعلى حين أن مونتيل فى قضية مسجد إرثين فشل فى تحريض أى عضو على ارتكاب أعمال إرهابية، إلا أن ثمة ثلاث قضايا شهيرة، على الأقل، نجح فيها المخبرون المأجورون على التحريض على أعمال إرهابية أو شجعوها أو وعدوا بتسهيلها.

تعتبر قضية إقليم أورانج مثالا على محاولات العملاء المحرضين المأجورين الإيقاع بأفراد من المسلمين الأمريكين المحيطين الغاضبين المنعزلين من أجل التخطيط لارتكاب أعمال عنف، وهذه القضية واحدة من أمثلة عديدة نجحت فيها مخططات الحكومة. تظل مدينة نيويورك، المركز الرئيسى لهجمات ٩/١١، مفرطة اليقظة والنشاط فى «الحرب على الإرهاب» لكن سلطات شرطة نيويورك، والإف بى أى، وبدلا من أن تحقق نجاحات فى الكشف عن المهاجمين المحتملين، مثل شاهزاد مفجر تايمز سكوير، والذى كان على قائمة المنوعين من السفر، فضلت إنفاق مواردها على إغواء المسلمين الساخطين المحرومين والإيقاع بهم.

لعبت قضية شاهوار ماتين سراج، ومحاكمته وإدانته اهتماما كبيرا من الإعلام

فيما بين عامي ٢٠٠٤ و ٢٠٠٦، وتعتبر إحدى الأمثلة «الناجحة» لاستخدام سلطات شرطة نيويورك والإف بي آى للمخبرين السريين. تم اتهام سراج وإدانتته بالتخطيط لتفجير محطة المترو فى شارع ٣٤ بمانتهاتن. أقيمت دعوى الولاية بأسلوب شبه حصري على أساس الاستخبارات والأحاديث المسجلة والتي جمعها المخبر أسامة الداوودي، وهو رجل فى العقد الخامس من العمر ومن مواليد مصر وكان الإف بي آى قد جنّده ليصادق سراج الذى كان فى الحادية والعشرين من العمر آنذاك. قام الداوودي باختراق مسجد باى ريدج الذى يقع فى أحد أحياء العرب الأمريكيين القديمة ببروكلين. تظاهر الداوودي، بصفته ممن يؤمنون المسجد، بأنه متعصب متشدد، بُعث به، بحسب ما قال مدربه بشرطة نيويورك، لاستهداف الشاب سراج الذى يسهل التأثير عليه، كان سراج يشعر بالغضب من احتلال الولايات المتحدة للعراق وأفغانستان، واستغل الداوودي هذا الغضب ومضى يضرب على هذا الوتر و عرض عليه فكرة تفجير إحدى محطات المترو التى حدد موقعها، وموعد التفجير ووعده بإحضار المتفجرات، وفى واقع الأمر، فقد رفض سراج زرع القنبلة قائلاً إنه لا يستطيع المضى فى العملية حتى يستشير والدته. كسب الداوودي من عملية التحريض هذه أكثر من ١٠٠٠٠٠ دولار التى تدفع، وكما فى حالات معظم المخبرين، على أساس «قيمة» النشاط الاستخباري القابل للتنفيذ. اتخذت العملية على أرض الواقع، مسار الإيقاع بشاب يسهل التأثير عليه وإغوائه واصطياده وتشجيعه، شاب ليس لديه شبكة دعم أخرى، وعلى الرغم من إدانة سراج والحكم عليه بالسجن ثلاثين عاما بتهمة التآمر على التفجير، إلا أنها لم تُرس سابقة حقيقية، لكنها تعتبر مثالا على طمس الخط الفاصل بين التحريض والقصد المتعمد.

وبالمثل، «كشَف» الإف بي آى فى نيويورك، من خلال استخدام أحد المخبرين، عن مخططات للهجوم على المعابد اليهودية، شارك فيها (علاوة على العميل المحرّض) أربعة أفارقة أمريكيون - محتالون سابقون، بائسون، يعانون أحدهم من الشيزوفرانيا وفقا للتشخيص الإكلينيكي ويعانى آخر من إدمان المخدرات. كان أربعتهم قد اعتنقوا

الإسلام مؤخرا، ويكتون غضبا عارما ضد مجتمع التيار السائد، وليس لديهم أى توجه محدد، أو معرفة تُذكر بالإسلام. وكما كان الحال فى قضية سراج، جمع كل القرائن تقريبا مُخبر لم يذكر اسمه، قام بتحريضهم، وتوجيه سخط المتهمين ومشاعرهم المعادية للسامية، وغضبهم من تدخل الولايات المتحدة العسكرى بالشرق الأوسط، توجيهها إلى جيش الولايات المتحدة والمعابد اليهودية بنيويورك. كان المخبر هو من اختار المستهدفين، ووعدهم بإمدادهم بالمتفجرات والذخائر وأعطاهم السلاح الوحيد الذى ضُبط لديهم وكان مسدسا صغيرا. سمحت قدرة المخبر على التردد بسهولة على أعضاء «الخلية» للحكومة بوضع أجهزة تجسس وكاميرات فيديو فى منزل المتهم الأول والتقتصت على هاتفه، ومن ثم، فقد تم العثور على جميع أدلة الإدانة فى منزل المتهم.

من الواضح أن المتهم كان مفرط الحماس بدرجة أثارت ريبة الجالية الإسلامية المحلية، وبخاصة إمام المسجد الذى كان يؤمه المتهمون حيث لفت انتباهه حديث المخبر المتواتر عن الجهاد باستخدام العنف.

يكرر هذا النموذج نفسه دائما، لكن من المفارقات أن أكثر الأفراد عرضة للإيقاع بهم ليسوا هم العرب والمسلمين الأمريكين الذين تربوا على الحيطة واليقظة إزاء رقابة الإف بى أى، بل من اعتنقوا الإسلام مؤخرا، والمهاجرين الذين يشعرون بالعزلة، والمسلمين من غير العرب والآسيويين (من إفريقيا والبلقان بخاصة) والذين يعانون من العزلة بأكثر من غيرهم. فى نيوجيرسي، تم توقيف ستة متهمين ووجهت إليهم تهمة التخطيط للهجوم على قاعدة فورت ديكس وصدرت الأحكام بإدانتهم. كان المتهمون شبابا مهاجرين من الأردن والبلقان. بدأ المتهمون مجموعة من الشباب العاديين، يمارسون الرياضة ويتحدثون فى السياسة ويتدربون على الرماية ويمارسون ألعاب الفيديو العسكرية معا. وبخلاف ذلك، فقد كانوا من الأغلبان المتعصبين. وعلى الرغم من ذلك، فقد نسجت السلطات أنشطتهم البريئة فى رواية عن «التدريب على الإرهاب» حيث نجحت وزارة العدل والإف بى أى فى طمس الخطوط الفاصلة بين

ألعاب المحاكاة والمحاولات الشبابية لاستعراض الفحولة، وبين التدريب على عملية مليشياوية من منطلق أيديولوجي. يعمل هذا الأسلوب على طمس الخطوط الفاصلة تدريجياً وتحويل الأنشطة والأفعال البريئة، وإعادة توجيهها بحيث تصبح تهديدات فعلية للأمن. ومرة أخرى، قامت قضية وزارة العدل على أساس شهادات مخبرين سريين والاستخبارات التي قاما بجمعها (بما في هذا أحاديث مسجلة على شريط). كان المخبران مجرمين مدانين، وكانا يواجهان تهماً بانتهاك قوانين الهجرة، ويتوقعان ترحيلهما الوشيك. أدين أحدهما، أي محمود عمر بثلاث تهمة احتيال على البنوك، وعلى الرغم من أنه تلقى ربع مليون دولار عن خدماته كمخبر إلا أنه اعترف بالتلاعب بأجهزة الاستماع كي يحمي أحد أصدقائه من بين المدعى عليهم. وهكذا، ومن خلال الاعتماد على التسجيلات السمعية كأدلة اتهام، نجح عمر والمخبر الآخر في خلق قضية كسبوا من ورائها مبالغ مالية كبيرة وضمننا الحصول على إقامة بالولايات المتحدة.

كانت قضية نيويورك ونيوجيرسي تتعلقان برجال مسلمين يشعرون بالاغتراب والغضب من سياسة الولايات المتحدة الخارجية الاعتباطية وتدخلها العسكري في الشرق الأوسط. لكن الأكثر دلالة هو أن المخبرين في القضايا سالفة الذكر لم يكتفوا فقط بتحريض المتهمين وتشجيعهم وتوجيههم، بل إنهم في غالبية الحالات، كانوا الوسيلة الوحيدة التي من خلالها استطاع المتهمون الحصول على المواد القابلة لتنفيذ العمليات الإرهابية. في حالتى نيويورك وفورت ديكس، لم يكتف المخبرون بالتظاهر بالتصامى مع نوايا من يشتبه فيهم وأهدافهم كي يكتشفوا مزيداً من القرائن وفقاً للإجراءات الرسمية التي يتبعها المخبرون السريون، بل الأخرى أنهم حددوا الأهداف وأثاروا دواقع المجموعة، ووعدهم بالدعم اللوجستى، وبخاصة الأموال والأسلحة والمتفجرات، وتلك كلها كان لابد وأن تكون من شبه المستحيل على المتهمين الساخطين منخفضى الدخل الحصول عليها.

واضح هو الترابط بين التحريض ونصب الفخاخ والمخبرين. عادة ما يكون

المخبرون مجرمين يقومون بالتجسس من أجل تخفيف المدد المحكوم عليهم بها، وغالبا ما يكون هؤلاء، فى الحالات المتعلقة بالجاليات المسلمة، من غير المواطنين الذين يواجهون خطر الترحيل بسبب أنشطتهم الإجرامية. يتلقى المخبرون أجورا باهظة وتعتمد مصداقيتهم واستمرارهم فى العمل على النتائج التى يحققونها. وفى الحالات سالفة الذكر، وفرت النتائج تعزيزا كبيرا لفكرة أن الأمريكين يتعرضون لأخطار داهمة، وتلطيف وقع السياسات والاستراتيجيات الداخلية غير المجدية المعادية للإرهاب والتى أنت بنتائج عكسية، وأدت إلى منع مشاهير المفكرين والأكاديميين من دخول الولايات المتحدة مثل المفكر طارق رمضان، والصحفى الفلسطينى محمد عمرو والحائز علي عدة جوائز ومقاواة المؤسسات الخيرية، وإنزال النساء والأطفال من على متن الطائرات، وإدراج أسماء أطفال فى الثامنة على قائمة الممنوعين من السفر بالطائرات، وإدراج أسماء عشرات الآلاف من المدنيين الأبرياء، على قوائم الإف بى أى لمراقبة الإرهابيين.

الاحتجاز فى الثقب السوداء ظاهرة طبيعية جديدة:

يعمل نظام التشريعات والإسلاموفوبيا الثقافية بنجاح على ترسيخ مناخ من الخوف والتحكم، مناخ أضحت آثاره السياسية مستساغة، وفيما أن هذه القوانين تستخدم من أجل التحكم فى المعارضة السياسية وتوجيه الاتهامات إلى النشاط من دعاة الحفاظ على البيئة ومناهضة الحروب، فإنها تبدو أنها تهيمن على مجالات المسلمين السياسية وحياتهم الاجتماعية اليومية، بما فى هذا الرىط بين المساجد وأئمتها ومشاهدة بعض الفضائيات، وبين الأنشطة الإجرامية.

لم تُسمع احتجاجات تذكر حينما تم إطلاق النار على لقمان أمين عبدالله إمام مسجد محلى بدترويت وقتله أثناء إحدى غارات الشرطة. تقبلت الوسائط الإعلامية قصة شرطة دترويت والإف بى أى والتى مفادها أن الرصاص أطلق عليه لأنه أشهر سلاحا وقتل أحد كلاب الشرطة. بيد أنه، وبناء على مطالبات الفرع المحلى لمنظمة CAIR تم الكشف عن معلومات بعد عدة أشهر تقول إن أحد مخبرى الإف بى أى

كان قد أتى بعبد الله إلى أحد المستودعات بذريعة استعارة شاحنة الإمام الصغيرة، كما كشفت الصور وتشريح الجثة عن أن عبد الله تلقى ٢١ طلقة، اخترقت إحداها ظهره، فيما كان مُصفد اليدين.

تؤكد أعمال قتل المشتبه فيهم من أمثال عبد الله والتي تتم دونما إجراء تحريات أو محاكمات الرأي القائل بأن إجراءات الشرطة هذه، واستهداف الإف بي آى للمسلمين أضحت ممارسات مُتقبلة. توفر ثقافة الإسلاموفوبيا مجالا متسعا للسلطات لإطلاق الاتهامات العشوائية بالإرهاب، ومن ثم، استدعاء استخدام القوانين، واللجوء إلى اليقظة وغيرها من المستلزمات التي أتت بها الحرب على الإرهاب. مثلاً، ففيما أنه قد تم توجيه كثير من النقد إلى معتقل جوانتنامو، فقد أدى استدعاء وضع «المقاتلين الأعداء» وما تلاه من رفض تنفيذ الإجراءات القانونية المعتادة مثل مذكرات الاستدعاء، مع الاعتقالات لمدد مفتوحة، واستخدام المحاكم العسكرية، والاحتجاز بالثقوب السوداء [مثل ذلك الموجود في قاعدة باجرام، أفغانستان] والتعذيب، وتسليم الأسرى المشتبه فيهم إلى حكومات تابعة لتعذيبهم، والمواقع السوداء التابعة للسى آى إليه وعدم تخلى الحكومة إلى الآن عن تلك الممارسات المروعة، أدى كل هذا إلى وجود «معيار» جديد مُتقبل للممارسات الحكومية.

وعلى حين أن الكونجرس كان قد أصدر تشريعات تجيز تلك الممارسات بناء على طلب بيت بوش الأبيض، فقد كان للإدارة الريادة في ابتكار طرق جديدة لانتهاكات موثيق حقوق الإنسان التي تتعلق بالأسرى والمعتقلين، علناً وأيضاً من خلال برامجها السرية للاغتيالات والخطف والتعذيب والاعتقالات. بدأ ذبوع بعض الحالات يعمل ببطء على كبح جماح استخدام بوش غير المقيد لسلطاته الرئاسية، وقد تفحصت عدد من الدراسات الممتازة بأسلوب نقدي محاولات إدارة بوش المنهجية لإعادة تشكيل السلطات الرئاسية وتكبير الحريات المدنية بالولايات المتحدة، ومن خلال الجيش والأجهزة الاستخباراتية. وعلى حين أن أكثر قضايا «المقاتلين الأعداء» ذبوعاً تبدو وأنها تطمئن الأمريكيين المسلمين وغير المسلمين إلى أن حرياتهم المدنية مازالت

سليمة، لكن علينا أن نلتزم الحذر في الاحتفاء بنجاح النظام القانوني بالولايات المتحدة في حماية حقوق المتهمين الأجانب، ناهيك عن حقوق المسلمين المتهمين في الحرب على الإرهاب، إذ إنه، مثلا، مازالت هناك معركة قانونية طويلة يجب خوضها، فقط من أجل التأكد من تطبيق قوانين الولايات المتحدة على المعتقلين في جوانتانامو. وعلى حين أن المحكمة العليا قامت بإبطال بعض قرارات محاكم أدنى قضت بإنكار حقوق المدعين التي تقضى بتطبيق قوانين الولايات المتحدة على معتقلي جوانتانامو البريطانيين والأستراليين، والذين كان لابد وأن يتم اعتقالهم في بلادهم وتعذيبهم لولا هذا القرار، ثمة قرار آخر أصدرته المحكمة العليا في قضية «حمدان ضد رمسفلد» والذي بمقتضاه يمكن اعتبار محاكم بوش العسكرية غير قانونية، لكن سرعان، وقبل أن يتمكن نشطاء الحقوق المدنية من الاحتفاء بالحكم، ما أصدر الكونجرس وإدارة بوش «قانون التفويض العسكري» لعام ٢٠٠٦، الذي بمقتضاه أقيمت محاكم عسكرية خاصة غير خاضعة للقوانين العادية، لمحاكمة «المقاتلين الأعداء» تحديدا.

وبالمثل، وجهت المحكمة العليا ضربة أخرى لاستخدام بوش الاحتجاز الوقائي الاحتياطي آلة للحرب على الإرهاب حينما حكمت في قضيتين لصالح إعادة تفعيل حقوق إصدار مذكرات استدعاء قانونية في حالة «المقاتلين الأعداء» المحتجزين بجوانتانامو». أيضا، قضت المحكمة في قضيتي «بومدين ضد بوش» و«العودة ضد الولايات المتحدة» بحق المعتقلين من غير الأمريكيين إلى البحث عن العدالة برفع قضايا أمام محاكم الولايات المتحدة العادية وليس أمام المحاكم العسكرية الخاصة التي أقامها بوش بعد قضية «حمدان ضد رمسفلد». وعلى الرغم من ذلك، فقد تبع هذا الانتصار في المعركة للحفاظ على حقوق المعتقلين القانونيين وغير القانونيين بجهود من قبل الحكومة الفدرالية، والسلطة التنفيذية والعسكرية والاستخبارات لإلغائها مرة أخرى، بعد عامين من آنذاك، لم تعد المحكمة العليا نطاق الحق في إصدار مذكرة استدعاء والإجراءات الأخرى الملازمة لتشمل المعتقلين في المواقع السوداء بقاعدة باجرام الجوية التي تستخدم أماكن ذات تحصينات أمنية مشددة لاحتجاز من يتم إلقاء القبض عليهم في أي مكان بالعالم.

وعلى الرغم من أن إصفاء الكونجرس الصبغة القانونية على المحاكم العسكرية يعتبر إهانة لأية دولة ديمقراطية، إلا أن الأسوأ من هذا هو أن أول مدعى عليه يمثل أمام محكمة كهذه كان عمر خضر الذى كان فى الخامسة عشرة من العمر لدى إلقاء القبض عليه فى أفغانستان واحتجازه بجوانتنامو. قامت الحكومة بإخفاء هذه الحقيقة وأيضا حقيقة أنه كان مواطنا كنديا عن أعين الجمهور. كشفت شهادات قبل المحاكمة فى عصر أوباما أن خضر تعرض للتهديد بالاعتصاب وخضع لأساليب إثارة الخوف وكان من بينها وضع رأسه فى غمامة سوداء وربطها حول رقبتة مما سبب صعوبة فى التنفس، وكانت تلك أساليب تتبع منهجيا مع الموقوفين، ونتيجة لفضح تلك المعلومات، تم طرد أربعة صحفيين من جوانتنامو ومنعهم من تغطية المحاكمة.

وعلى حين أن الصحافة قامت بتغطية عمليات التعذيب، وتمت مناقشتها بالكونجرس إلا أنه لم توجه أية اتهامات ضد من أصدروا الأوامر بممارستها أو من نفذوها. وفى واقع الأمر، فإننا نجد أنه فيما يمضى اليمين الأمريكى بقيادة ديك تشينى وآلان درشوويتز أستاذ القانون بهارقارد، فى الدفاع عن التعذيب كوسيلة مشروعة لانتزاع المعلومات، تستمر هوليوود فى إنتاج الأفلام التى تبرره بوصفه ضرورة مؤسفة لا بد منها، بل وتمجده، كما نشهد جدلا مستداما حول استخدامه فى إعلام التيار السائد وكأنما التعذيب قضية ذات جوانب متعددة وليس انتهاكا لا ريب فيه لحق إنسان غير قابل للتفاوض أو الجدل، ويعترف به عالميا بصفته جريمة وفقا للقانون الدولى. وفيما كانت قضية التعذيب تثار علنا، كان ثمة من يخضعون له بالولايات المتحدة، ومن أبرزهم على صالح خلال المرعى، وهو طالب قطرى كان يعيش مع عائلته بالينوى حينما ألقى القبض عليه بعد ٩/١١، وأتهم بأنه عميل لخلية هاجعة وصلت إلى الولايات المتحدة قبيل ٩/١١ بانتظار الموجة الثانية من الهجمات على الولايات المتحدة، احتجز المرعى فى «الحبس الاحتياطي» فى سجن بسفينة فى قاعدة بحرية بتشارلستون، حيث تعرض للعزل، وتشويش حواسه وتعطيلها وأنواع التعذيب المختلفة دونما توجيه اتهام إليه، أصر المرعى على براءته وطالب بمحاكمة

جزائية وفقاً لدستور الولايات المتحدة. وفي النهاية، و بعد ثماني سنوات من الحجز الاحتياطي بجنوب كارولينا، وجهت إليه إدارة أوباما تهماً جنائية، وبعد توجيه الاتهام إليه ونقله خارج القاعدة البحرية اعترف المرعى بأحد الدفوع ضده من أجل تقليل سنوات الحكم عليه.

استُخدم ذلك السجن البحري بشارلستون لإيواء ثلاثة مشاهير من «المقاتلين الأعداء»: المرعى، ياسر عصام حمدي وجوزيه باديللا مقجر «القنابل القذرة» الشهير وفقاً لرمسفيد، باديللا وحمدي مواطنان أمريكيان حرمتهما إدارة بوش من حقوقهما الدستورية، وأُخضع باديللا للتعذيب في السجن إضافة إلى حقنه بعقاقير ملوثة، مما أدى إلى آثار حادة على صحته الذهنية. وبعد ثلاث سنوات من الاحتجاز دونما توجيه تهم إليه، قدمته إدارة بوش إلى المحاكمة وأدانته بتهم تأمر لم تشمل «القنابل القذرة». بيد أن باديللا رفع قضية على جون يوو المدعى الأمريكي سيئ السمعة بسبب احتجازه بأسلوب مضاف للدستور وإخضاعه لانتهاكات جسدية ونفسية جسيمة.

أيضاً، أنكر على ياسر حمدي، المواطن الأمريكي، حقه في استصدار مذكرة لاستدعائه حيث تم أسره في أفغانستان، ثم نُقل إلى جوانتنامو وانتهى به المطاف في تشارلستون، حيث صُنّف على أنه من الأعداء المقاتلين على الرغم من أنه مواطن أمريكي وحكم عليه بالسجن لأجل غير مسمى. كان «التحالف الشمالي» قد أسر حمدي بقندوز، أفغانستان، وسرعان ما وجد نفسه وسط تمرد المساجين العرب الأفغان الشهير بمزار الشريف الذي نجم عنه موت عميل للسى آي إيه واكتشاف جون ووكر ليند عضو طالبان الأمريكي. كان القرار الذي اتخذته المحكمة العليا في قضية «حمدي ضد رمسفيد» معلماً حيث قضت بأن حكومة الولايات المتحدة لا تملك سلطة احتجاز المواطنين الأمريكيين لأجل غير مسمى دونما اتخاذ الإجراءات المرعية محددة المدة.

ومثلما تعمل الميكانيزمات والإجراءات التي تطبقها الولايات المتحدة في سياستها الخارجية بالشرق الأوسط على تسهيل تفعيل السياسات النيوليبرالية بالخارج، فإن

الميكانيزمات التي تفعلها على الأرض بالداخل الأمريكي تسهل تحكم الدولة والإدارة السياسية على الأوضاع بالداخل، وتعتبر الإسلاموفوبيا الثقافية والتشريعات اثنتين من تلك الميكانيزمات، والمحنة التي يواجهها المدعى عليهم من المسلمين والعرب غير الأمريكيين ما هي إلا نسخة أكثر قسوة من محنة العرب والمسلمين بأمريكا، الذين يواجهون انتهاكا لحقوقهم المدنية، بل ولحقوقهم الإنسانية في بعض الحالات. وعلى حين يهدف المناخ السائد الآن والتشريعات التي تصدر إلى التحكم في العرب والمسلمين بأمريكا ورصد حركاتهم وأنشطتهم، فإن النظام القانوني والمنطق القائل بحرمان الآخرين (الأقليات بخاصة) من حقوقهم كي يتمتع غيرهم بالحرية يشكل أساسا لموجة جديدة من التشريعات والمشاعر المعادية للهجرة بالولايات المتحدة.

وعلى الرغم من أن جميع المعلومات عن الأمريكيين اللاتينيين ووسمهم ومضايقتهم وحرمانهم من حقوقهم المدنية واكبتة جدالات واحتجاجات فلا يبدو وأن ثمة الكثير من المعارضة أو الحديث المضاد في أوساط الجمهور الأمريكي، بما في هذا الديموقراطيون والليبراليون حول حرمان المسلمين والعرب من حرياتهم المدنية. وعلى الرغم من ذلك فإن التشريعات العنصرية ضد اللاتينيين الأمريكيين، والذين يعيشون أوضاعا اقتصادية واجتماعية أكثر هشاشة بأمريكا الشمالية هي نتاج سياق تاريخي عنصري بالولايات المتحدة استمر منذ «مبدأ مونرو» الذي أدى إلى الحرب المكسيكية الأمريكية والحرب الأمريكية الإسبانية، وانطلاق الولايات المتحدة قوة استعمارية. وبالتقابل، فإن الشكل الخبيث من الإسلاموفوبيا هو نتاج عصر العولة، حيث إنه لا يتم فقط عن رغبة الولايات المتحدة في التحكم بموارد النفط في أنحاء العالم، بل أيضا عن الإسلاموفوبيا الثقافية واستعداد الجمهور الأمريكي لتميط المسلمين والعرب واستهدافهم وانتهاك حقوقهم وأدميتهم. انبثقت الثقافة الأمريكية من ثقافة المستوطنين وتطورت لتصبح ثقافة إمبريالية حيث يشعر الأمريكيون البيض أن العرب والمسلمين يمثلون آخر المعازل الثقافية المقاومة لهيمنة الولايات المتحدة الكوكبية والتي تُسوّق على أنها تأتي بالحدثة والديموقراطية والازدهار الرأسمالي.

إن الادعاءات التي وجّهت ضد «الإرهابيين» المشتبه فيهم من المواطنين وغير

المواطنين ومحاكماتهم هى المثال الأكثر وضوحاً على تآكل حريات المسلمين المدنية. فإلى جانب الأمثلة التى سبق ذكرها عن نصب الفخاخ والرقابة والمحاكمات، فقد عملت وزارة العدل، ووزارة الأمن الداخلى معاً وبكفاءة عالية على هندسة سحب الحقوق الدستورية والمدنية من المسلمين المدعى عليهم وذلك بالدفع بعدم جواز تطبيق الحقوق الدستورية على كبار المتهمين بالإرهاب، وتستند مثل تلك الأطروحات على المنطق الذى يذهب إلى أن «الإرهابيين»، أى المسلمين، يرفضون قيم الأمم المتحضرة وبالتالي يفقدون أهلية التمتع بالحقوق التى تمنحها تلك الأمم. وما علينا إلا النظر إلى كتابات مستشارى بوش ودائرة مثقفيه المقربين لنرى كيف يروجون للنظرية القائلة بأن المسلمين والبلاد الإسلامية ليسوا فقط معادين جوهرياً للقيم الغربية بل إن عداهم هذا كلى ولا أمل فى التخلص منه أو تعديله.

مؤخراً، تم التأكيد على عدم جدارة المسلمين والعرب الأمريكيين باستحقاق امتيازات الحقوق المدنية أثناء نظر بعض القضايا الشهيرة. فى عام ٢٠٠٥، أدين العربى الأمريكى أحمد عمر أبوعلى بارتكاب أعمال إرهابية كان من بينها التآمر لاغتيال الرئيس بوش، وكان قد ألقى القبض عليه أثناء دراسته بالمدينة المنورة واحتجزته سلطات الأمن الداخلى السعودية لمدة عشرين شهراً بدون الادعاء عليه بأى تهمة. كان الإف بى أى على علم باعتقال أبوعلى بالسعودية وتعذيبه، وقام ممثلون عنه باستجوابه أثناء اعتقاله فى عدد من السجون السعودية. وبعد عدة أشهر من إخضاعه للتعذيب، اعترف أبوعلى بارتباطه بالقاعدة، وفى النهاية، تم تسليمه إلى الولايات المتحدة، وفى فيرجينيا تم توجيه تهمة التآمر إليه، وأيضاً تهمة إمداد القاعدة بالمساعدات المالية، ومرافقة عملاء للقاعدة وتلقى أسلحة وتدريبات لوجستية من القاعدة. استندت أدلة الدولة إلى اعترافات أبوعلى التى انتزعت أثناء إخضاعه للتعذيب على أيدى رجال المباحث العامة السعودية سيئى السمعة فيما كان معتقلاً بالرياض. وإلى جانب هذا الاعتراف، قدّم المدعى بعض القرائن الظرفية الواهية، مثل وثيقة من ست صفحات عن كيفية تحاشى الرقابة الحكومية، وأخرى من صفحتين

تمتدح الملا عمر قائد طالبان، وكتاب لايمن الظواهري، وتسجيلات صوتية معادية للسامية والأمريكا، واشترك في مجلة «البنادق Handguns».

أكد أبوعلی أن اعترافاته انتزعت تحت التعذيب أثناء اعتقاله قائلاً إنه قد تعرض للضرب والحرمان من النوم والتموضع في أوضاع جسدية مرهقة. أيضاً، جاء بشهادته أن الإف بي آي قاموا بزيارته عدة مرات بالمعتقل وأن لديهم علماً تاماً بالتعذيب الذي تعرض له وصادقوا عليه. رفض القاضي جerald برووس لى السماح لمحامي الدفاع بأي نقاش للتعذيب الذي يمارسه السعوديون بمعتقلاتهم أو تقديم أدلة عليه، وفي نفس الوقت سمح بالاستماع لشهادة حارس عسكري بأحد السجون التي اعتقل فيها أبوعلی أقسم على أن التعذيب محظور في السجون السعودية. علاوة على ذلك، فقد رفض القاضي الشهادة التي أدلى بها أحد الأطباء والإخصائيين النفسيين والتي مفادها أن أبعاد الندبات الموجودة على ظهر المدعى عليه وانتظام شكلها تؤكد أنها نتيجة للجلد بالكرابيج، وعلى النقيض من هذا، تقبل القاضي تقرير ممرضتين بمركز للاحتجاز وطبيب أمراض جلدية، والذين لم يقوموا بإجراء أي فحص جسدي لأبى علي، بل فحصوا صوراً لظهره وقرروا أن الندبات هي مجرد تغيير طبيعي في لون خضاب خلايا جسده. أدين أبوعلی من خلال عدد من انتهاكات حقوقه المدنية، الأمر الذي يناقشه الباحث القانوني وديع سعيد بالتفصيل في مقال له بدورية إنديانا للقانون.

تم طمس حقيقة ما إن كان أبوعلی مذنباً بالتآمر على اغتيال بوش أم لا من خلال الانتهاكات الجلية لحرياته المدنية، وبخاصة حقوقه التي تكفلها له التعديلات الدستورية الرابعة والخامسة والسادسة، مثل عدم تحديد الادعاءات الموجهة إليه، وإجراءات التفتيش والضبط غير القانونية من قبل السعوديين الذين كانوا يعملون لحساب الإف بي آي، والآنكى من هذا كله، انتزاع اعترافات تجرمه تحت وطأة القمع والتعذيب. وكما صرّح الجوهري عبدالمالك، إمام مسجد دار الهجرة وأحد القيادات المحلية والناشط السابق في حركة حقوق السود، فإن قضية أبوعلی هي «قضية حقوق

مدنية» باكثر مما هى قضية جنائية، كما أصدرت منظمة العفو الدولية بياناً تعبر فيه عن قلقها إزاء الإجراءات التى اتُخذت.

وليست هذه بالوقائع النادرة حيث تجرى الآن، وعلى سبيل المثال لا الحصر، محاكمة سيد فهد هاشمى بتهمة «التآمر لتزويد تنظيم إرهابى أجنبى بالدعم المادى أو الموارد». لم يدعى على هاشمى، وهو مواطن أمريكى، بالاشتراك بآية جريمة أو فعل «إرهابى» على وجه التحديد، كما لم يتهم بأنه عضو بالقاعدة. الأخرى أن الادعاءات هى نتيجة تهم وجهها إليه جنيد بابار، أحد أصدقائه السابقين، والذى كان قد أُدين بارتكاب جرائم إرهابية ثم تعاون مع المسؤولين من أجل تخفيف الحكم الذى صدر ضده بالسجن سبعين عاماً. كان بابار، فى عام ٢٠٠٤، قد أقام أسبوعين بلندن مع هاشمى الذى كان يدرس للحصول على درجة الماجستير وأودع عنده معاطف للمطر وجوارب ووتربروف واستخدم موبايل هاشمى لمهاينة شركائه فى المؤامرة، وبعد عامين من تلك الزيارة، ألقى القبض على هاشمى بمطار هيثرو بناء على طلب الإف بى آي، وهو فى طريقه إلى باكستان بلد مولده، وتم تسليمه بعد ١١ شهراً إلى سلطات نيويورك حيث استدعى إلى المحكمة للإجابة عن الاتهامات الموجهة إليه. ومنذ عودته إلى الولايات المتحدة ظل محتجزاً فى سجن انفرادى تحت إجراءات مشددة وخضع لـ «الإجراءات الإدارية الخاصة SAMS» التى تفرض القيود على الحقوق المدنية الأساسية للمشتبه فيهم والتى كان چون أشكروفت قد طبقها وجعلها ألبرتو جونزاليس إجراءات دائمة. والجدير بالذكر أن جانيت رينو كانت لها الريادة فى استخدام SAMS وتطبيقها على الشيخ عمر عبدالرحمن أثناء احتجازه، تقيد بنود هذه الإجراءات حصول المدعى عليه على الاستشارات القانونية والعائلية، وتبقيه فى حبس انفرادى، وتحظر عليه الاشتراك فى صلاة الجماعة أو الحديث إلى غيره من النزلاء أو الحراس، تم تعيين محاميه بموجب موافقة أمنية مقبولة من الولاية، ولا تتاح المعلومات سوى للمحامى وفقاً لقوانين السرية.

تلقى قضية هاشمى الضوء على الأسلوب الذى به تتواطأ عدد من الجهات

الحكومية، ناهيك عن تأمرها، لحرمان المسلمين الأمريكيين من حقوقهم وتشويه صورتهم بصفقتهم طابورا خامسا. مثلا، استجاب القاضى لطلب المدعى بمنع الجمهور من حضور المحاكمة بذريعة أنه «من المحتمل للمحلفين أن يروا أعدادا كبيرة من مؤيدى المدعى عليه فى مقاعد الجمهور مما يؤدي بطبيعة الحال إلى أن يفترض المحلفون أن بعض الحضور على الأقل يشاركون المدعى عليه فى توجهاته الإسلامية الراديكالية العنيفة». وبقولهما هذا، فإن الادعاء والقاضى قد عملا تحديدا على زيادة حساسية المحلفين ومشاعرهم من الإرهاب الإسلامى، مما يعمل على تحيز المحلفين من خلال التلاعب بالخاوف المتقبلة غير المحددة الناجمة عن الإسلاموفوبيا الثقافية ويعثا إليهم برسالة مغزاها افتراض الجرم إلى أن يتم إثبات البراءة.

الخلاصة:

فى أغسطس ٢٠٠٧، كان يوسف مجاهد وأحمد عبد الشريف محمد الطالبان بجامعة جنوب كاليفورنيا فى طريقهما لقضاء إجازة بكارولينا الشمالية، أمر محمد بالوقوف على الطريق السريع ١٧٦ بسبب تجاوزه السرعة على بعد أميال من السجن البحرى المدمج بجنوب كارولينا، وهو ذات السجن الحربى المحتجز به پادبلا والمرعى وحمدى، تم تسجيل صوتى للضابط الذى أوقف الطالبين به تعليقات عنصرية حيث قال إن محمد ومجاهد يشبهان رجال طالبان ويحتمل لهما أن يكونا مفجرين انتحاريين وأنهما «بيدوان إسلاميين». أمر الضابط المدعى عليهما بالخروج من السيارة ولدى تفتيشهما تم العثور على «متفجرات» و«قنابل أنبوبية». تم إغلاق الطريق السريع، ووضعت السلطات المحلية والفدرالية فى حالة تأهب عالية.

وعلى الرغم من توجيه الاتهام لحمد ومجاهد بأنهما كان ينقلان موادا متفجرة، وموادا لصنع المتفجرات وبيث معلومات عن استخدامهما، إلا أن الطالبين فى حقيقة الأمر، كانا يحملان ألعابا نارية، وهذا أمر مشروع فى كارولينا الجنوبية، كان محمد، وهو طالب دراسات عليا بالهندسة، اعترف على نفسه بأنه صنع فيديو يوضح كيفية تحويل ريموت كمنترول لعبة إلى آلية تفجير عن بُعد، وتلقى حكما مخففا بالسجن ١٥

عاما. وكما فى حالتى سامى العريان والمرعي، يلجأ كثير من المدعى عليهم الأبرياء فى الغالب إلى الاعتراف بأنهم مذنبون بارتكاب جرائم أقل خطورة من المدعى عليهم بها كوسيلة لتجنب مشاق المعارك القضائية الطويلة ونفقاتها، والتي قد لا تُراعى فيها حقوقهم. دفع مجاهد بأنه غير مذنب فى الدعاوى الفدرالية التى وجهت إليه كما برأه المحلفون من دعاوى الإرهاب، لكن بعد ثلاثة أيام من تبرئته أُلقت سلطات المهاجرين وفرض الجمارك (ICE) القبض عليه وادعت عليه بنفس التهم التى بُرئ منها، الأمر الذى كان من شأنه أن يؤدى إلى ترحيله، وكان لدى مجاهد إقامة قانونية منذ قدومه إلى الولايات المتحدة من مصر وهو فى الحادية عشرة من العمر، لولا أن الحكم صدر ببرأته من دعاوى ICEs أيضا.

لا يستطيع هذا الفصل أن يتضمن سوى نماذج قليلة من الإجراءات والأفعال العنصرية الشهيرة منها والعادية المعادية للعرب والمسلمين وأحداث الكراهية الناجمة عن الإسلاموفوبيا الثقافية والتي تقع يوميا. وللأسف، فإن لدى الكثيرين الكثيرين، بل لدى غالبية العرب والمسلمين الأمريكيين قصصا يروونها عن التحيز والتعصب الأعمى والجهل، قصص مشاق ومحن ونقد ذاتى لا تخلو أحيانا من الفكاهة، تلازم مسيرة حياة المسلمين والعرب فى الولايات المتحدة، وتلك أمور يومية معتادة، بخلاف حالات مثل حالة مجاهد التى توضح مدى انتشار الإسلاموفوبيا فى الولايات المتحدة. فقد خضع مجاهد ومحمد للوسم العنصرى كما أثبت التسجيل الصوتى للتعليقات العنصرية من قبل الضابط الذى ألقى القبض عليهما. أدى هذا الوسم إلى تفتيشهما بأسلوب كان لابد وأن يُعتبر غير قانونى لو أنهما غير مسلمين أو عرب، تفتيش نجم عنه دعاوى ظرفية ظالمة ضد محمد، علاوة على ذلك، فقد سهلت الإسلاموفوبيا الثقافية إجراءات الوسم والتصنيف العنصرى والإيقاع بهما كمسلمين من جانب شرطة ولاية كارولينا الجنوبية والإف بى آى، ثم أدت القوانين التمييزية إلى حرمان مجاهد من حقوقه الدستورية. ويبدو أن ICE شعرت أن مجاهداً، بوصفه مهاجراً مسلماً، لا يتمتع بالحقوق التى كفلها التعديل الخامس والتى تحظر عدم محاكمة الشخص على ذات الجرم مرتين.

ليست الإسلاموفوبيا ظاهرة شاذة أو عرضية، كما أنها ليست رد فعل على رضوض الولايات المتحدة بعد ٩/١١ أو تعبيراً عن بارانوايا مبررة أو غير مبررة في عصر «الحرب على الإرهاب». لقد حرصت على عدم جعل نظامي بوش وأوباما كباش فداء والمصاق ظاهرة الإسلاموفوبيا بهما حصرياً وذلك لأن هذا سيحرف النظر عن عمق هذه الظاهرة الحقيقي في ثقافة الولايات المتحدة السياسية، الأخرى أن مصدر الظاهرة ليس حزبا بعينه، أو رئاسة بعينها، أو إحدى مجموعات الضغط أو أحد اللوبيات، لأن الإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجي في الثقافة الأمريكية ناجم عن وضع الولايات المتحدة كقوة هيمنة كوكبية. بتعبير الآخر، إن الإسلاموفوبيا مكون مستدام ومنهجي في الثقافة الأمريكية تحول إلى تشكيل أيديولوجي في عصر العولمة. تذهب أطروحة هذا الفصل إلى توسيع مدى النقاش والتفسيرات التي قدمناها في الفصول السابقة لتشمل المستويات القاعدية للمسلمين والعرب في أمريكا الشمالية وحياتهم اليومية.

ظل النشطاء، ورجال الدين والطلبة والمواطنون المسلمون يتعرضون للمضايقات والتحرشات وأحاديث الكراهية وأعمال العنف والتحقيقات وحملات تشويه السمعة والمحاكمات. كما ظلت المنظمات الخيرية والمؤسسات التعليمية والمجموعات الطلابية الإسلامية مستهدفة ومراقبة ومختربة هذا إلى جانب شيطنتها ومحاولات الإيقاع بها وغوايتها. ليس من المهم إن كانت نسبة ضئيلة لا تذكر من السكان ترتكب أعمالاً إرهابية، أو إن كانت نسبة كبيرة من المشتبه فيهم المدعى عليهم بارتكاب أعمال إرهابية مذنبين، حيث قد يقول الناقدون إن هذا الكتاب ما هو إلا محاولة لتبرئة من يشاركون في أعمال إرهابية حققة ضد المدنيين الأبرياء سواء كانوا يعيشون في أمريكا الشمالية أو أوروبا أو الشرق الأوسط. وفي هذا، فإنهم يفضلون توجيه الاتهامات والقذف بدلا من محاولة فهم الدوافع السياسية والتاريخية خلف أعمال العنف الياثسة مثل تفجيرات ٩/١١، وتفجيرات المواصلات العامة بلندن ومدريد، أو تفجيرات المجمع السكني بالرياض عام ٢٠٠٣ والتي أدت إلى وقوع عدد كبير من

القتلى غالبيتهم من العمال والعائلات العربية والأسىوية المغتربة وليس من الجنود الأمريكين الذين كانوا مستهدفين، وأدت أيضا إلى اعتقالات جماعية بالسعودية وكان أحمد عمر أبوعلى أحد هؤلاء المعتقلين.

ليس بالإمكان مناقشة عوامل «الإرهاب» التاريخية أو دوافعه السياسية المحددة بالإعلام الأمريكى أو المؤسسات والمنتديات العامة بالولايات المتحدة بأسلوب ذى معنى، حيث إن كلها عوامل يفضل الأمريكيون من مختلف الأطياف عدم تفحصها. تشمل تلك العوامل اقتلاع الشعب الفلسطينى الذين يخضعون لنظام مؤسس مستدام، ومصادقة من الولايات المتحدة، من سوء المعاملة والظلم والإذلال والحرمان والتمييز العنصرى. تشمل أيضا دعم الولايات المتحدة الاقتصادى والاستخباراتى والعسكرى والسياسى للأنظمة المستبدة والملكية فى البلدان العربية والإسلامية والقائمة على تحكم الأثرياء ونهب أموال البلاد من خلال فرض القوانين العسكرية والقوانين الجائرة، وحيث تتفشى المحسوية والشللية والأوليغاركية وتسود النظم النيوليبرالية. أيضا، من بين هذه العوامل تدمير العراق من خلال فرض العقوبات أولا الذى أدى إلى وفن اقتصاده ومجتمعه المدنى ثم اجتياحه فى عملية «تحرير» العراق من خلال «الصدمة والترويع» مما قضى على اقتصاده ومؤسساته العلمانية وتقاليده ليحل محلها السلطوية والشللية والطائفية والنيوليبرالية.

هدف هذا الفصل هو طرح أمثلة متنوعة حديثة توضح الإسلاموفوبيا الثقافية والمؤسسة فى الولايات المتحدة. لم تنجح الحكومة وهيئات فرض القوانين سوى فى اكتشاف حالات جد قليلة من المحاولات أو المخططات الإرهابية (والتي حظيت بتغطيات إعلامية واسعة) هذا على الرغم من ضخامة ميزانيتها الأمنية وادعائها الشائع بوجود تهديدات إرهابية كبيرة وخطيرة. وعلى حين أن تلك الجهات نجحت فى استصدار بعض الإدانات، إلا أن كثيراً من تلك الإدانات ضد «الإرهابيين المشتبه فيهم» تمت من خلال حرمان المدعى عليهم من حقوقهم المدنية قبل الادعاء عليهم ومحاكمتهم وأثناءها وبعدها. غدا هذا ممكناً لأنه تم تخدير مشاعر الجماهير ضد

حقيقة الانتهاك المنظم لحقوق المسلمين والعرب، أو حتى حرمانهم منها، لأن أصلهم كمسلمين يجعلهم غير مؤهلين للحقوق الأصلية لكل إنسان «متحضر». وفي نفس الوقت، تحدث الانتهاكات لأن الجمهور الأمريكى غدا مفرط الحساسية لتهديدات متوهمة وشيكة من «الإرهابيين» الذين يتخللونهم وهم يختبئون خلف كل شاحنة مؤجرة، أو محطة بنزين، أو محل تجاري، أو مبنى جامعى أو مكتب سياسي!!

الإسلاموفوبيا في عصر أوباما

تضمنت الفصول السابقة كتابات روايات الإسلاموفوبيا وأوضحت كيف توظف في الولايات المتحدة لخدمة أهداف سياسية وأيديولوجية محددة، هذا مع حرصنا على التمييز النقدي بين روايات «التيار السائد»، ونظيراتها اليمينية والصهيونية. يذهب هذا الكتاب إلى أن تحيزات التيار السائد المعادية للمسلمين وكراهية العرب المتأصلة والكامنة أتاح لأشكال الإسلاموفوبيا المتطرفة أن تتجذر بسرعة وثبات في نظرة الأمريكيين إلى العالم بعد ٩/١١. تمكن النشاط الموالون لإسرائيل ومعهم المتطرفون اليمينيون والإنجيليون من مفاخرة الخطاب السلبي عن الإسلام والمسلمين باستنادهم إلى كتابات برنارد لويس وأمثاله من أجل إضفاء المصداقية الأكاديمية من آرائهم العنصرية.

أعيد بث تلك الروايات التي تداخلت في نسيج التيار السائد على جماهير الفضائيات من خلال مواضيع للجدل تُطرح على أنها حقائق زوّد الإعلام بها أتباع «فلاكنة» بوش. وكما رأينا، ظل المنظرون والسياسيون يكررون أن الحرب على الإرهاب، وعلى الإسلام القتالي، وعلى «الأسلمة» هي إلزام أخلاقي يناظر إلزام الحرب العالمية الثانية. استخدم البيت الأبيض، والصحفيون، والمتطرفون وأفاقو الوسائط الإعلامية قضايا النساء والمثليين وحرية العقيدة والكلام والتعبير السياسى ذرائع لتدخل الولايات المتحدة في العالم العربى والإسلامى بزعم مناصرة شعوبه المقموعة.

تُبث آراء الإنجيليين ومرتزة المحافظين الجدد بالمدونات والإذاعة وتشكل جوهر خطابات التيار السائد المهيمنة عن الإسلام والعالم العربى، ثم توظف تلك الهذيانات والمناسبات التى يقيمها دعاة الإسلاموفوبيا آليات أيديولوجية فاعلة، حيث تعمل فى البداية على إقناعاً أكبر عدد من الأمريكيين بأن الإسلام دين عنف لا عقلانى وأن المسلمين يعادون كل ما هو خير وعادل فى العصر الحديث، وكما رأينا فى حالة



جرائم الكراهية. يشارك هؤلاء المنظرون والصحفيون والنشطاء والانتهازيون في ترويج أشكال من أحاديث الكراهية يبنونها وتعمل على إضعاف حساسية الجمهور الأمريكي ضد اللغة والمفاهيم والصور التي لا بد وأن تُدان بصفقتها عنصرية فجّة لو أنها استُخدمت في سياقات أخرى. بيد أن الروايات المتطرفة تعمل أيضا على فتح مساحة لـ «التنازلات» في استخدام اللغة العنصرية، وكما يبين محمود ممداني، فقد اعترف شخص مثل برنارد لويس بأن «الأصولية ليست تقليدا إسلامياً بشكل حصري». يمكن للجماعير «المعتدلة» التفاضي عن أكثر تمثيلات الإسلاموفوبيا بشاعة وفجاجة إذا تم تقديمها في سياق التمييز بين «المسلمين الأخيار» و«المسلمين الأشرار». وفي هذا الصدد، أمدت التعليقات المستفزة من قبل المخابرات/ المخابراتيين، والإنجيليين والصهاينة واليمينيين، بوش وتشيني ورايس بمساحة لاتخاذ موقف معتدل وأكثر «عقلانية» إزاء «أصدقائنا المسلمين» بحسب قولهم.

تمثلت عبقرية الاستراتيجية الخطابية لبنت بوش الأبيض فى أن مجمل «الخبراء» والاكاديميين المرتزقة والصحفيين والمخبرات/ المخبزين المحليين عملوا على استقطاب الجدل مما أتاح للرئيس بوش أن يتدخل بوصفه صوتاً معتدلاً يعمل على توحيد أصوات الشعب فى بيئة تتكون من المتطرفين والأكثر تطرفاً، وكان ما زعم عن الدوافع الأخلاقية للحرب على الإرهاب وتدخل الولايات المتحدة العسكرية يهدف إلى إزاحة النظر عن مقاصدها الحقيقية. اعترف آلان جرينسبان بأن حاجة الولايات المتحدة إلى النفط وعزمها على التحكم فى إنتاجه الكوكبي مرتبط بأسلوب لا فكاك منه بأوضاع الشرق الأوسط عالية المخاطر، وأن مجرد احتمال حدوث أية أزمة نفطية بإمكانه أن يلحق دماراً بالغاً بالاقتصاد العالمي. من ثم، عبر جرينسبان عن أسفه من أن عليه أن يعترف بما يعرفه الجميع: أن سبب الحرب على العراق هو النفط إلى حد كبير.

لكن لا يُعزى نشاط الإسلاموفوبيا الثقافية الأمريكية فى الوقت الراهن إلى إدمان الولايات المتحدة للنفط واعتمادها عليه فقط، هذا على الرغم من أنه فى أعقاب الحظر الذى فرضته أوبك عام ١٩٧٣ هيمنت تلميحات العرب على شاشات التلفزة وانتشرت فى أفلام هوليوود، الأخرى أن الإسلاموفوبيا الثقافية تجسدت بالتزامن مع الظهور التدريجى للعالم أحادى القطب كى تحل محل الشيوعية ليس فقط كمصدر لإثارة مشاعر الخوف والكراهية لدى الأمريكين، بل أيضاً كتبرير لنشر سطوة الولايات المتحدة وقوتها. والآن، غدا بإمكان القوة العظمى الوحيدة تخطى الحدود والحواجز التى لم يكن من الممكن اختراقها من قبل فى وجود القوة السوفييتية الوازنة. لكن اختراق تلك المناطق والبلدان الجديدة ذات الغالبية المسلمة، كان يستوجب إعادة هيكلة اقتصاداتها القومية والمحلية واستمالة نخبتها واستيعابها وإلا لكان على الولايات المتحدة مواجهة معاقل المقاومة تلك. يسرت الإسلاموفوبيا تبرير تلك المواجهة.

ليست العولة مشروعاً أمريكياً بشكل حصري، أو مشروعاً مركزه الدولة/ الدول. بيد أنه فقط كان لواشنطنون الريادة فى تكريس إمكانيات الولايات المتحدة كاملة كى تدفع باتفاقيات تجارية ثنائية ومتعددة الأطراف عملت على تفعيل إعادة هيكلة بنيوية

كاملة. كان لجورج بوش الأب، ومع زواء الاتحاد السوفييتي الريادة في توريث الأمم المتحدة واستخدام القانون الدولي ذريعة لاجتياح بنما والعراق، وبهذا أرسى سابقة حماية القانون الدولي للولايات المتحدة كقوة عسكرية غازية استباقية، ثم تبعه كلينتون كرائد للمشروع النيوليبرالي العالمي. تم استخدام الإسلاموفوبيا وتحويلها إلى ظاهرة أيديولوجية جماهيرية. من ثم، مكّن الارتياح في كل مسلم وعربي بصفته «إرهابياً محتملاً» الولايات المتحدة من الدفع قدماً بروايتها التي سوغت هيمنتها على منطقة رأها الجميع تهديداً محتملاً للنظام العالمي الجديد.

«سعجم الحرب» لجورج بوش، و«قاصوس مفردات» المتفقهين:

في خطابه الأول بعد ٩/١١ أكد جورج بوش على أن السمة الأخلاقية للإمبريالية توحد بين الولايات المتحدة وبين «المتحضرين» من أصدقائها المسلمين. بدا آنذاك غير مدرك بإطلاقه لما قد يفهم من مفرداته على أنه دليل على الإسلاموفوبيا المتأصلة، أو لرد الفعل المحتمل للمستمعين المسلمين». أسمى حرب أمريكا حرباً صليبية في تجاهل واضح منه لبغض المسلمين لتلك الأحداث التاريخية، وهدد، ولكنه الكابوي المميز، بتدميرهم والقضاء عليهم. بيد أن «الرئيس الإمبريالي» طور تدريجياً رواية بسيطة ومستدامة لـ «أجندة الحرية» التي تبناها، ولـ «الحرب على الإرهاب» التي رافقتها. بدت هذه الرواية وأنها محاولة للتسامي على إدانة الجمهوريين والديموقراطيين معاً للإسلام والمسلمين في مجملهم.

من اللافت أن ذلك «التسامي» تعرض للنقد، من الليبراليين غالباً، الذين ذهبوا إلى أن بوش كان مفرط التسامح والحميمية مع العرب. استهدف بوش بخاصة لعلاقته بالأسرة المالكة السعودية، مثلاً، مضي مايكل موور، وكان أحد أكثر الناقدين المفهومين لبوش، باتساق يهاجم بوش لعلاقته بالعرب، حيث وجّه إليه النقد، وهو يردد أصداء عقيدة اليمين بأن المسلمين ليسوا جديرين بالحقوق الدستورية الأساسية، لأن بوش «يحمي الحقوق المدنية للإرهابيين المحتملين» من خلال رفضه إجراء التحريات حول ما إن كان العرب والعرب الأمريكيون الذين احتجزوا في أعقاب ٩/١١ قد قاموا

باقتناء أسلحة نارية. قد تبدو خطابات بوش وحتى موقفه من القيام بتلك التحريات (وبالتقابل مع موقف مايكل مور)، بأساليب عديدة، وأنها تموضع ضد التحريات والوسم الذي ينادى به دعاة الإسلاموفوبيا، بل إن بوش قد قام بتوجيه اللوم إلى «عربوفوبيا» وإسلاموفوبيا الحزبين حينما منع السياسيون في عام ٢٠٠٦ شركة مقرها دبي من الحصول على عقود إيجارية لإدارة ٢٢ ميناء بالولايات المتحدة. ومن المقارقات أن محابة بوش لأصدقائه قد جعلت منه، بدون قصد، مدافعا عن النخب العربية الحليفة، تلك النخب التي، وفيما عدا تلك المواقف، كان هو قد قام وسياساته بتخطيها أو تجاهلها.

يمثل «دفاع» بوش هذا عن بعض العرب «تعاطف» برنارد لويس مع الشعوب العربية وقلق زكريا على الإصلاحيين العرب إذ إن علينا أن نفهم هذا الموقف بصفته رُمحا خطابياً وأخلاقياً وسياسياً.. فعلى حين إن بوش ربما يكون قد قصد حماية نفسه من أن يبدو في حديثه كارهاً للعرب أمام الأمريكيين الذين يقلقهم اتهامهم بالتمييز العنصري، فقد استخلص مجلس وزراء الحرب الذي شكله بوش ومرترقة الصف الثاني من السياسيين من أعمال لويس وزكريا وغيرهما رواية تبرر العسكرة الأمريكية وتعقلن دعم واشنطنون للأنظمة السلطوية بالشرق الأوسط. هدفت تلك الرواية إلى حماية البيت الأبيض وأيضاً المستبدين والطغاة الذين يحكمون البلاد العربية والإسلامية من المعارضة الداخلية ومن جماهير شعوبهم البالغ عددهم أكثر من مليار شخص. أيضاً، فقد ساعدت الولايات المتحدة على تنمية الصداقات وتوليدها مع مجموعات المعارضة في بلدان إسلامية مثل لبنان وسوريا، مجموعات لم تكن من قبل «صديقة» للولايات المتحدة.

وكما يبين محمود ممداني استمد خطاب بوش الخبرة والمهارات من فترة ريجان بتصنيفه المسلمين نوعين: «أخياراً» يدعمون الولايات المتحدة و«أشراراً» يعادونها. وحد الرئيس، في وجود مجلس وزرائه المؤلف من قدامى المقاتلين الريحانيين، ومن المقاتلين الريحانيين الجدد، الجمهور الأمريكي واسترضى ضمائرهم بتحميله المسؤولية

للمتطرفين المسلمين وإعفائه المسلمين «الأخيار» من المسؤولية. سعى بوش من خلال دفاعه عن العرب «الأخيار» إلى الربط بين سياسة الولايات المتحدة الأمريكية وبين مصالح النخب الحاكمة في المنطقة، وبين «الشارع العربي» من خلال تركيز الانتباه على المعركة المشتركة لإنقاذ الإسلام كدين سلام. منذ أول خطاب له بعد ٩/١١، امتزج دفاع بوش عن «المسلمين الأخيار» بلغة معادية للعرب بوضوح نحتها له كُتَّاب خطابه من أعمال زكريا. وفي نفس الوقت، وجد الرئيس في رواية لويس التاريخية والثقافية نريعة للالتزام «أخلاقي» إمبريالي يحتم هزيمة الأشرار («من هم ضدنا») في جميع أنحاء العالم، التزام ينبثق عن جوهر «القيم الأمريكية».

واكب «الحرب على الإرهاب» التي أطلقها بوش، والتي كان الالتزام الأخلاقي الذي قال به لويس وبرجماتية زكريا السياسية دعامين لها، عقيدة حرية الولايات وديموقراطيتها التي هدفت إلى إظهار التناقض بين نسخة مثالية منقاة من المعتقدات الأمريكية وبين نسخة مُشَيِّطَة من مقصد الإسلاميين بحيث عمل تواتر تكرارهما على إضفاء ما يشبه الصبغة اللاهوتية عليهما. مضى بوش يكرر القول بأن «الحرب على الإرهاب» هي حرب ضد الأشرار. حرب «ضد الشر» تكمن ضرورتها في أن ثمة «عدوا جديدا يسعى إلى تدمير حرياتنا والقضاء عليها». قال بوش إن «أمريكا الآن في حرب مع «أشخاص يكرهون ما تمثله أمريكا كراهية مطلقة» وإن «المتطرفين» لا يستطيعون فهم «الحرية» الأمريكية لأنها تناقض نظرهم إلى العالم. وبأسلوب يقيني يجزم بوش قائلاً: «إن هذه القيم هي التي تعرضت للهجوم في ٩/١١/٢٠٠١ بواسطة عدو متوحش يزدري الحرية».

وفي نفس الخطاب، يعيد بوش تكرار هاجس لويس إزاء حقد المسلمين على قوة الغرب العسكرية فيقول «نحن نساند هؤلاء الذين يتوقون للتحرر في الشرق الأوسط لأننا نعرف أن الإرهابيين يخشون الحرية بأكثر مما يخشون قوة سلاحنا وسطوتنا العسكرية، وإننا، من خلال إتياننا بالحرية إلى تلك المجتمعات فإننا نزرع الأمل محل الكراهية».

وعلى الرغم من أن بوش يذكر باستمرار الحرية بصفتها «مبدأ أمريكا» إلا أنه يقول إنها قيمة يشترك في اعتناقها العالم المتحضر بما في ذلك العالم الإسلامي. كان هذا الخطاب هو رأس الحربة في خطابه لقوات الولايات المتحدة وقوات الحلفاء أثناء أولى جولاته في الشرق الأوسط في يناير ٢٠٠٨، والتي لقيت قدرا كبيرا من الإشادة حيث مضى «يُتهته» قائلا:

«سيوضح التاريخ أن هؤلاء الذين ارتدوا الهزات العسكرية في مطلع القرن الحادي والعشرين فهموا حقيقة أبدية أن الأيديولوجيا القائمة على أساس الحرية ضرورية للسلام، إننا سنجد، في هذه المعركة الأيديولوجية، وعلى المدى القصير، العدالة ونأتى بالأعداء أمام العدالة، لكن على المدى الطويل، فإن أفضل وسيلة لهزيمة أيديولوجيا الكراهية هي من خلال أيديولوجيا الأمل، التي لا تنفصل عن أيديولوجيا الحرية في جوهرها الأساسي».

كان بالإمكان، وعلى الرغم من «ثأثة» الرئيس وجمله غير المفهومة، توصيل خطاب «أجندة الحرية» إلى السامعين، وذلك لأن الأكاديميين المأجورين، والمتفكرين واليمينيين والصحفيين المناصرين لإسرائيل كانوا بالفعل قد رسخوا في الأذهان فكرة أن المسلمين لا يفهمون سوى لغة القوة، وطبعوا الأفكار التي تذهب إلى أن «الحرب على الإرهاب ستكون مُحفَزا حقا لوجود شرق أوسط جديد» و«شرق أوسط ديموقراطي»، وأن ما يفعله الأمريكيون هناك سيفيد العالم أجمع، على الرغم من كل المظاهر التي تشير إلى عكس ذلك.

يستند خطاب «أجندة الحرية» إلى رسالتها «النبيلة» لإنقاذ العالم الإسلامي من المسلمين؛ وهي رسالة كان لويس وزكريا وأمثالهما قد حذّوها. لا تعمل «أجندة الحرية» على التقسيم بنفس القدر الذي يعمل به المعلقون من الإنجيليين والمحافظين الجدد الذين يكسبون الدعم المحلي لسياسات الولايات المتحدة من خلال أساليب مثل الإيقاع بالمسلمين، وتنميط العرب والشوقيين. باتباعه السيناريو الذي وضعه لويس وزكريا، مضى الرئيس يستميل الحلفاء المحتملين في العالم الإسلامي وقام

بصياغة عقيدة الولايات المتحدة التى تدافع عن المسلمين ناهيك عن الإسلام ذاته. قال «إن القتل الإرهابيين يتخبرون ضحاياهم عشوائيا وبدونما تمييز، وتخدم هجماتهم أيدولوجيا واضحة مُركزة. يُسمى البعض هذا توجهات إسلامية شريرة، ويسمونها آخرون الجهاد القتالي، والبعض الآخر الفاشية الإسلامية».

يهدف ترويج النموذج المعيارى للولايات المتحدة بصفتها منقذة بلدان الشرق الأوسط «المعتدلة»، إلى تسويغ تدخلها فى المنطقة، ويضعها فى موضع حامى حمى المسلمين والحريات والعقلانية والنساء والأطفال والمثليين. مصدر هذه التصريحات هى الكتابات التى حذر فيها لويس من «حق المسلمين وغضبهم». فالمسلمون الأصوليون الكارهون للحرية هم من حفزوا «الحرب على الإرهاب»، حيث يهدف «القتاليون» الإسلاميون إلى «إخضاع النساء وتلقين الأطفال مبادئهم وإقامة إمبراطورية إسلامية شمولية». ليس هؤلاء القتاليون مجموعة حرب عصابات منعزلة فى طور بورا، وهذا ما يؤكد إيان هيرسى على وإرشاد منجى، حيث إن التهديد الإسلامى منتشر على نطاق واسع، والأفكار الإسلامية الخبيثة متوطنة فى التيار السائد فى أوساط المجتمعات والإعلام والحكومات العربية. ذكر الرئيس لنا، وهو يكرر ما أكده لويس، أن المتطرفين المسلمين «تساعدهم عناصر من وسائط الإعلام العربى تحت على الكراهية ومعاداة السامية، وتقذى نظريات المؤامرة، وتحدث عما تُسميه «الحرب الأمريكية على الإسلام».

منذ الأيام الأولى بعد ٩/١١، أكد بوش على وجود «شبكة إرهاب»، حيث أعلن أن «عدونا هو شبكة الإرهابيين الراديكالية وكل حكومة تدعمهم»، وأنه على الرغم من أن شبكة الكراهية العنكبوتية متناسجة فى ثقافة حتى أكثر حلفائنا المسلمين موثوقة وسياساتهم، لكنها أكثر رسوخا فى سياسات «الأنظمة المارقة حيث يعمل المعاونون على توسيع نطاق تأثير الراديكالية الإسلامية وتضخيمه». فى أحد أحاديثه المعلبة أمام «الوقف القومى للديموقراطية» قال إن «الأنظمة السلطوية، وحلفاء المصلحة مثل سوريا وإيران تقوم بإيواء الإسلاميين القتاليين وتتشارك فى هدف إلحاق الأضرار

بأمريكا وبالحكومات المسلمة المعتدلة، وتستخدم الدعاية الإرهابية لإلقاء مسؤولية فشلها على العرب وأمريكا واليهود، وإن تلك الأنظمة المارقة تناظر «الأهداف الشمولية» لتنظيمات مثل القاعدة، وإن «شبكة الإرهاب» هذه هي «المحصلة النهائية لمجموعات ميلشياوية، ومنافذ إعلامية، ورجال الدين، والحكومات التي «تمكنهم». وبما أن العراق لم تكن تجسيدا لتلك العناصر، كان البيت الأبيض على أتم استعداد لفبركة ما يثبت تورطها بما في هذا خطاب زائف يربط بين التهديد الإسلامي كما جسده محمد عطا، وبين التهديد العربي الذي جسده صدام حسين.

إن الحزم بأن أجندة الحرية كما تبناها بوش قد فشلت يعنى أن الأهداف الظاهرة التي طرحتها خطابات بوش كانت هي مقصدها الحقيقي. لم يُقصد بالحرب على العراق أبدا الإتيان بالديموقراطية، أو تحرير نساءه أو تحقيق أى اهتمام آخر للعراقيين أنفسهم، الأحرى، فإن هذا الكتاب يذهب إلى أن «حرب» بوش أطلقت مرحلة جديدة من حملة أيديولوجية كانت قد بدأت في التسعينيات، حيث نجحت تلك الحرب، ومعها خطاب لويس الذي استندت إليه، في حشد تشكيل أيديولوجى محدد - الإسلاموفوبيا - لتبرير دور استباقى جديد للولايات المتحدة بالشرق الأوسط، قضت أحادية بوش، وديبلوماسية الكاوبوى التي اتبعتها، على تعددية الأطراف التي استخدمها بوش الأب لتصنيع دعم دولى لسياسات الولايات المتحدة التدخلية، وأضفى عليها كلينتون الصبغة المؤسسية لترسيخ هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية على العالم. لكن الأهم من ذلك هو أن بوش أضفى الصبغة المؤسسية على نماذج الإسلاموفوبيا التي أشاعها لويس وزكريا في كتاباتهما الأكاديمية الزائفة الداعرة. حققت رئاسة جورج بوش نجاحا بالقدر الذي وفرت به «سقالات» عملت فيما بعد على تسهيل دخول الولايات المتحدة الاستباقى ونفوذها إلى البلدان الإسلامية وتوسيع مدى هيمنتها على العالم. وفرت لخليفته لغة أتاحت للتيار الرئيسى الأمريكى أن يرى احتلال الولايات المتحدة للشرق الأوسط، ودعمها لإسرائيل، واستمرار تحالفها مع الأنظمة العربية الفاسدة «المناصرة للغرب» رؤية كل هذا على أنه يقوم على أساس من القيم والضرورة بغض النظر عن الكيفية التي تمكنا بها من الوصول هناك.

الأصل والتغيير وأوباما

احتفى الكثيرون في الغرب والعالم العربي بترشح باراك حسين أوباما كفرصة لحدوث «تغيير» ورأوا فيه «أملاً» في انتهاء العنف والقوة الباغية والعنصرية العارية. سرعان ما تبين الكثيرون، بعيد انتخاب أوباما وأدائه القسم، ما بدا وأنه سجل متنامياً من الحنث بالوعود. كشف التباين بين أقواله الحريية وأفعاله المشبوهة عن جوهر الرئيس الجديد. علّق البعض على المدى الذي به تمثل تنازلات أوباما وصفة للكوارث، وعلى أن رغبته في التوصل إلى إجماع تأتي على حساب المبادئ والتغيير الحقيقي على المستويين القومي والدولي. ألقى آخرون الضوء على كيفية تأرجح أوباما بخصوص توفير محاكمات مدنية للمعتقلين بجوانتنامو وعلى عدم وفائه بأحد وعوده الأولى الخاصة بإغلاق المعتقل. لكن القلة القليلة هم من نقدوا مصادقته على تسليم المشتبه فيهم للحكومات السلطوية لتعذيبهم، وعلى شرعته إعدام المسلمين المشتبه بأنهم إرهابيون واغتياهم دونما إجراءات قانونية حتى لو كانوا مواطنين أمريكيين. لم يعترض أحد تقريباً على أن إدارته قد جعلت معتقل «الثقب الأسود» بقاعدة باجرام الجوية مركز احتجاز بديلاً يماثل جوانتنامو.

لم يجد النافذون اليمينيون أي سحر في لغة أوباما الأسيرة أو في وجهه التليفزيوني. عبر فؤاد عجمي عن أساه حيث رأى أن انتخاب أوباما كان دلالة على التخلي عن «ديبلوماسية الحرية» التي اتسمت بها إدارة بوش، وتنبأ بأن دعوة أوباما للحوار ستُفصح في نهاية المطاف بصفتها «احتياطاً مثيراً للشفقة» يسعى من خلالها فقط إلى إعادة ترسيخ مسار السياسة الواقعية وتقبل الحكومات الدينية والسلطويين المارقين، تقبلها على مضض. عمل انتماء عجمي للمحافظين الجدد واستثماره في نظرتهم إلى العالم على منعه من الاعتراف بالأساليب القاطعة التي أشار بها أوباما، حتى أثناء حملته الانتخابية، إلى رغبته في الاستمرار في سياسات جورج دبليو بوش. تغاضى هذا المحلل الشهير للشئون العربية عن ولاء أوباما الصريح للإبقاء على هيمنة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط من خلال العمل على عزلة إيران والاستمرار في

احتلال العراق، ومساعدة الحرب الجوية الخفية في باكستان وزيادة أعداد القوات في أفغانستان وكذلك العمليات القتالية هناك.

وفيما ألبس اليمين أوباما زى الحاج المسلم، تزايدت أحاديث الليبراليين والمؤيدين المسلمين في الداخل والخارج عن أن انتخاب أوباما، يمثل فرصة للخروج من الطريق المسدود الذى وصلت إليه العلاقات بين المسلمين والغرب، كما أثار الخطاب الاستهلالى الذى ألقاه أوباما لدى توليه مقاليد الرئاسة الأمل فى قلوب الكثيرين إذ أعلن قائلاً: «إلى العالم الإسلامى، نحن نبحث عن طريق جديد يقودنا قدما على أساس المصالح المشتركة والاحترام المتبادل»، وبدلاً من التهديد الصريح مضى يقول «إلى هؤلاء المتمسكين بالسلطة من خلال الفساد والخداع وإخراص المعارضة، عليكم أن تعرفوا أنكم على الجانب الخطأ من التاريخ، لكننا سنمد إليكم يداً إن كنتم على استعداد لإرخاء قبضتكم».

وجد المسلمون الليبراليون الذين تربطهم صداقات بالإعلام، مثل رضا أصلان، أملاً فى هذا الخطاب بعد السنوات العجاف للنظام السابق. قال أصلان «لقد مرت حوالى سبعة أعوام حتى تاريخه منذ أن حذر جورج دبليو. بوش العالم قائلاً من أنه لم تعد ثمة أرض محايدة بيننا وبينهم».

إن مجرد وجود أوباما على ذلك المسرح يعد إعلاناً بأنه لم يعد بالإمكان استدامة عقلية صدام الحضارات التى قسّمت العالم إلى مصنّفات مُتخيلة مثبتة فى حرب كونية. قدم أصلان رؤية متفائلة لأمريكا «بدأ فيها أوباما وقد وضع نفسه بين العالمين مثل جسر يصل الإسلام بالغرب معاً كحضارة واحدة متحدة». زعم أصلان أن الوجود الرمزي لأوباما على درجة من القوة انزعج لها بن لادن والظواهري.

أعد هذا التفاؤل المؤيدين لسقطة قاسية وإن كانت مُستحقة. بلا ريب أن أيام جورج دبليو. بوش المتهورة العنيفة تمدنا بأمثلة لا حصر لها عن كيفية انتشار الإسلاموفوبيا وتعزيزها ناهيك عن الاحتفاء بها فى السنوات التى أعقبت ٩/١١، وغزو أفغانستان واحتلال العراق. أورد الفصل السابق سجلاً لأحدث تجسيدات

الإسلاموفوبيا وأحاديث الكراهية وأعمال العنف ضد المسلمين وتحليلها. وعلى الرغم من عدم شموله إلا أن الفصل يؤكد على أعمال الإسلاموفوبيا وسياساتها، وعلى المحاكمات والاضطهادات التي حدثت في عصر أوباما. فعلى الرغم من خطاب الرئيس عن «الأمل» و«التغيير»، فإنه وكما يبين فواز جرجس في مقال له بدورية فورين بوليسى في ٤ يونيو ٢٠١٠، بعنوان «السم بالعسل: كيف فقد أوباما عقول المسلمين وقلوبهم»، يبين أن العرب والمسلمين الأمريكيين قد علموا الآن أن أوباما سيواصل الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين وأنه «يدلى بالأحاديث» لكنه «لا يخطو على الطريق» ومن ثم فهم محبطون من الفجوة بين «الخطاب والفعل».

يوضح خطاب أوباما الاستهلاكي الشهير وخطابه بعنوان «بدايات جديدة» بالقاهرة، وخطابه تسلمه جائزة نوبل للسلام أنه قد أصبح لرواية القوة الأمريكية وجهها جديدا ممؤها يواكبه استعراض فج للقوة الأمريكية دونما تقديم أية مبررات. بيد أنه، وبدلاً من ثنائية سلفه برواية «معنا أو ضدنا»، يقدم أوباما رواية مطمئنة تتحدث عن تراخي القبضات ومد الأيدي المفتوحة. وبالتقابل مع بوش، يوجه أوباما حديثه لتلك النخب المتأوتة لكن توجهاته إليهم حملة بالتهديدات بقدر ما هي إيماءات تصالح. توجه في خطابه الاستهلاكي إلى هؤلاء «المتمسكين بالسلطة من خلال الفساد والخداع وإخراص المعارضة» لكنه عرض عليهم اليد الممدودة إن كانوا على استعداد لإرخاء قبضتهم. وفيما تحدث بوش عن «القيم الأمريكية» بصفقتها ضرورة للديموقراطية، يتحدث أوباما عن «القيم الأمريكية» بصفقتها «قيماً مشتركة» بحيث يبدو وأنه يعرض دعوة للمشاركة في عالمية القيم الأمريكية وشموليتها. ليست هذه رواية أكاذيب أو خطاباً مزدوجاً يهدف إلى الاحتفال على شعوب الشرق الأوسط وقاداتهم أو خطب ودهم، كما لا تتضمن لغة أوباما الخطاب المبهم المرقع الذي أقره نظام بوش وطبّعه. وفي واقع الأمر، فلا يجوز للمرء أن يرتاب في صدق ما يقوله أوباما، مثلما لا يجوز الارتياب في الصدق الوقح لخطاب بوش ورمسفلد وتشيني الإرهابي «الشعائري» الإمبريالي. كانت ثنائية بوش وكلامه غير المفهوم انعكاساً

لاستخدامه الفج لل قوة وعدوان نظامه المفرط على الشرق الأوسط كى يجعل منه انعكاساً متعثراً للإمبراطورية الأمريكية يفتقد الحياة والإرادة والحرية ومسحاً رهيباً يخدم رأس المال المعولم. وبالمثل، يجب تصديق المعنى الظاهرى لكلمات أوباما. وفى واقع الأمر، فإن كلمات الرئيس الرابع والأربعين تصوغ نفسها فى مسميات جديدة لل قوة القديمة، وعلى حين أن تلك المسميات تشكل طبقة من البريق اللامع، إلا أنها مجرد إعادة صياغة فى عالم أحادية القطب لتعبيرات القوة الكوكبية الأمريكية، ولهذا السبب فإنه يجب فهم رواية أوباما الفصيحة كثيرة التفاصيل والخالية من المضمون غالباً حول سياسة أمريكا الخارجية، يجب فهمها حرفياً كما هي. حينذاك سنجد أن خطابه تتبلور بأسلوب منهجي، بل وهجومى أحياناً فى أشكال أيديولوجية تلقى الضوء على القوة الأمريكية الحقيقية لكنها تُطلقها كشعاع النور الذى يمثل أفضل وسيلة للتعقيم والتطهير.

ظاهرة لويس / زكريا وتأثيرها:

يمدنا خطاب أوباما الشهير بالقاهرة ذو النبرة الإمبريالية والذى وجهه إلى العالم الإسلامى بتخطيط بيانى أيديولوجى لآرائه عن المسلمين ومكانهم فى النظام الكوكبى للإمبراطورية. يوضح أوباما دونما موارد أنه ينبغى فهم كلماته حرفياً كما هي وأنها ستفعل من خلال الإرادة والقدرة على «الفعل الجسور». وإلى جانب هذا، يوضح خطاب القاهرة ملامح كثيرة مثيرة للاهتمام حيث إنه بدا وأنه شخصية رئاسية يتحدث إلى رعايا كوكبيين لحكمه الإمبريالي، ومن ثم كان ثمة تماثل لافت بين صفاقة بوش وأوباما المشتركة. وفيما أن صفاقة بوش كانت تتخذ هيئة اعتداد الصبى الأبيض الأحمق عضو الأخويات الجامعية بنفسه، كانت صلافة أوباما تمثل استكبار أستاذ القانون بهارفارد ممزوجاً بحس بالقوامة الأخلاقية الذى يستشعره الوعاظ الدينيون.

بيد أن الملمح الأهم لوعظة القاهرة هو أنها تبدى تأثير ظاهرة لويس، أى أنها توضح الدرجة التى بها أصبحت روايات لويس والآخرين تشكل التيار التحتى الدائم للسياسة الخارجية الأمريكية ولأيديولوجيا القوة. مما لا ريب فيه أن تبريرات أوباما

للقوة والسطوة الأمريكية قد تخلت عن كثير من التعميمات الفجة العنصرية التي كان المحافظون الجدد يبدونها دونما مواربة، لكن بنية تخطيط أوباما البياني الأيديولوجي الدقيق يبدو وأنه قد انتحل مباشرة من صفحات لويس وزكريا وغيرهما من عصابة المنظرين الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب. يبدد أوباما أية شكوك تتعلق بأن الحروب الأمريكية هي حروب ضرورة بحسب ما كان يزعمه بوش، ويؤكد أنها حروب أخلاقية دفاعية من أجل أمن أمريكا الكوكبي. وبالمثل، أوضح أوباما في خطاب منحه جائزة نوبل أن أمريكا مشتبكة في حروب لم تسع هي إليها.

مهارات أوباما الخطابية أكثر رقيا وجاذبية بكثير من مهارات بوش، وتخدم أهدافا تكتيكية. تتصل «صراحة» أوباما من سياسات الإدارة السابقة ومن الإسلاموفوبيا الفجة المنتشرة بالولايات المتحدة. يعترف أوباما بأن «مشاعر الخوف والغضب التي حفرتها أحداث ٩/١١ يمكن فهمها» لكن حتى إن كانت الإجراءات التالية التي اتخذتها الحكومة منطقية، فقد «أدت بنا في بعض الحالات إلى التصرف بما يتناقض مع تقاليدنا ومثلنا»، وتمثل تلك الصراحة الظاهرية نقيضا لإنكار بوش وشلته الدائم لارتكاب أية أخطاء أثناء إدارته. بيد أن الأسف الذي يبديه أوباما يصبح أساسا للتبريرات، حيث إن كل اعتراف بارتكاب أخطاء يخفف من وقعه الأعذار والتفسيرات والتبريرات، حيث توضع خطب أوباما تمكنه التام الصريح والمضمر من استخدامات «لكن» و«بيد أنه»، فقد ورد هذان اللفظان ٢٩ مرة في خطابه بالقاهرة و٣٠ مرة في خطابه لدى منحه جائزة نوبل.

يعترف الرئيس، وهو يخاطب جمهورا مسلما، بتسامح الإسلام ويستدعي أمجاده الماضية وإسهاماته على مستوى العالم. لكنه يتبع هذا الإطار الإلزامي بـ «بيد أنه» المميزة، حيث يقول، وكائنا ليعيد الربط بين الإسلام والإرهاب «بيد أننا سنواجه عنف المتطرفين الذين يمثلون تهديدا خطيرا على أمتنا، سنواجههم بلا هوادة». ثم يمضى قائلا: «ليست الولايات المتحدة، و لن تكون أبدا، في حرب مع الإسلام، لكن واجبي الأول كرئيس هو حماية الشعب الأمريكي». والإسلام دين سلام، لكن «المتطرفين

الذين يرتكبون أعمال العنف استغلوا هذه التوترات في أوساط أقلية صغيرة لكنها فاعلة من المسلمين». ما زال للمسلمين إسهاماتهم في أنحاء العالم لكن عنفهم منذ ٩/١١ «أدى إلى أن ينظر البعض في بلادى إلى الإسلام على أنه معادٍ ليس فقط لأمريكا وبلاد الغرب، لكن لحقوق الإنسان أيضاً». في الواقع بإمكان الولايات المتحدة أن تجابه تنميطات المسلمين لكن ينبغي على المسلمين التوقف عن شيطنة أمريكا. على الرغم من رغبة أمريكا إعادة جميع قواتها إلى الوطن، لكن توجهات المسلمين القتالية تمنعها من ذلك. للفلسطينيين، مثل الأمريكيين السود، معركة يخوضونها من أجل الحقوق المدنية، لكن لابد لهذه المعركة أن تكون سلمية؛ إن بعض السياسات الإسرائيلية غير الحكيمة تعمل على إذلالهم، لكن ينبغي عليهم التخلي عن العنف؛ لديهم «جانب واحد» من القصة، لكن عليهم الاعتراف بالجانب الآخر وبإسرائيل. تم انتخاب حماس كما يجب لكن لديهم مسئوليات عليهم الاضطلاع بها. لقد قدمت الدول العربية مبادرات سلام، لكن عليها الاعتراف بشرعية وجود إسرائيل؛ الولايات المتحدة مستعدة للدخول في حوار مع إيران، لكنها قد وصلت بالفعل إلى وضع اللاتفاوض، لا يدعى أوباما أنه يعرف ما الأصلح للجميع لكنه سيتحدث باسم جميع من يتوقون إلى الحرية والديموقراطية. للنساء المسلمات الحق في تغطية شعورهن وللمجتمعات التقليدية الحق في ممارسة ثقافتها لكن للولايات المتحدة الحق في التحدث باسم تحريرهن وتبنى المناداة بمساواتهن بالرجال.

احتفى الأمريكيون بخطاب أوباما في القاهرة بصفته إيماءة مصالحة مهمة، حيث إنه، وبعد كل شيء فقد رأوا سفر رئيس الولايات المتحدة إلى رعاياه المسلمين فعل تواضع. لكن الخاضعين لسطوة الولايات المتحدة وسياساتها رأوا فحوى الخطاب الفعلية لا تخرج عن كونها وعظة أبوية متعالية متسامية تناست واقع مظالم المسلمين. نقل أوباما إلى جمهوره الرسائل ذاتها التي سبق لسلفه أن نقلها إليهم: أن الإسلاموفوبيا الأمريكية، والأساليب العسكرية والتدخلية للولايات المتحدة، وسياسات الاحتجاز، وتسليم المشتبهين لتعذيبهم، وانتهاك حقوقهم الدستورية والدولية، كلها

نتيجة عنف المتطرفين ضد الولايات المتحدة، أى أن تدخلات أمريكا العسكرية وما ترتبها في حق البلدان والشعوب ليس نتيجة رغبتها في فرض سطوتها وتحكمها، بل هي نتاج فرعى لعبتها الثقيل وكرمها وفضائلها.

لا يقتصر تعضون ظاهرة لويس في خطاب أوباما على خطه بين أمن الولايات المتحدة وتدخلاتها العسكرية بل يبدو أثرها واضحاً حينما تُحوّل لغة الأمريكيين من مبشرين يأتون بالحضارة إلى شعوب المنطقة كما كان يزعم بوش إلى مدافعين إيثاريين راغبين على مضض. ومنئذ يلقي لويس وعظاته عن الإلزام الأخلاقي بالتدخل في العالم الإسلامي، يذهب أوباما بوضوح إلى أن الأمريكيين يقبلون العبء على مضض ومن منطلق الضرورة الأخلاقية ويمضى يكرر أنهم يفضلون لو لم يكونوا قوة احتلال لكن عليهم مواجهة عنف المتطرفين في أفغانستان وباكستان الذين يريدون قتل أكبر عدد ممكن من الأمريكيين.

وكما رأينا، كان ما يصرح به بوش عن «إصلاح» الشرق الأوسط يقوم على أساس أجندة تدخل استباقي، أما أوباما، فقد قام منذ الأيام المبكرة لرئاسته بوضع الخطوط العريضة لأجندته الخاصة بالشرق الأوسط. وإذا كان لويس وزكريا قد اعتاد إلقاء المحاضرات بالبيت الأبيض على مسامع رمسفلد وولفويتز وإبرامز وتشيني حول وجوب إصلاح العالم العربي ووسائل عمل ذلك، فقد قام أوباما بصفاقة بإلقاء محاضراته على المسلمين في المقر الذي تُقرر فيه تشريعاتهم. في ذلك اليوم كان أعضاء المجلس التشريعي المصري الذين حضروا اللقاء في وضع نواب عن العالم الإسلامي بأكمله، يستمعون إلى التعليمات الرئاسية حول أولويات الإصلاح. وفي هذا الصدد، ذكر أوباما الخطوط الرئيسية لمشروع «إصلاح» و«تقدم» بالإمكان القول إنه قد انتحل حرفياً من أعمال لويس وزكريا. ألقى عليهم درساً في الديمقراطية وحقوق النساء والتنمية والعولمة، وفي تاريخ الولايات المتحدة والعالم الإسلامي. ثم مضى من هذا المنطلق ليقول «ظلت الولايات المتحدة أحد أعظم مصادر التقدم الذي عرفه العالم على مدى التاريخ. إن هذا التغيير الشامل الذي أتت به الحداثة هو نتيجة

لتقدم الغرب. ويجب أن يكون لبقية العالم نصيب في هذا التقدم لأن التقدم البشري لا يمكن إنكاره على الآخرين».

بقليل من التبصر، نجد أن كلمات أوباما محملة بخطاب الحداثة الذي ناقشناه في أعمال زكريا، هذا علاوة على أن هذا الخطاب يلعب دورا أيديولوجيا وبلاغيا حاسما في إرساء النظرة الكوكبية المعيارية لسياسة الولايات المتحدة. يفهم من خطاب أوباما الاستهلاكي، وخطابه بالقاهرة أنه ينبغي على العالم الإسلامي أن يكون له نصيب من ثراء الحداثة والتقدم وميزاتها، الأمر الذي لا يمكن إنجازه إلا بإقامة شراكة بين النخب الإسلامية القومية وبين النخب الشركاتية والسياسية الأمريكية. يتحدث في القاهرة عن إقامة علاقة جديدة بين الولايات المتحدة والنخب الإسلامية تقوم على أساس «المصالح المشتركة» و«الاحترام المتبادل». ثم يمضى قائلا «لكي نُشرك الآخرين في تقدمنا سنقوم بتشكيل فيالق جديدة من المتطوعين ليقوموا شراكة في نظرائهم في البلدان ذات الغالبية الإسلامية: سيكون بإمكان نسخة البيزنس هذه في فيالق السلام تعميق الروابط بين قيادات البيزنس، ومؤسساته وأصحاب المشاريع بالولايات المتحدة وبين المجتمعات الإسلامية في أنحاء العالم». يتعهد الرئيس مستخدما «نحن» الملكية بأن يقوم «بتعيين مبعوثين من مجالات العلوم الجديدة للمشاركة في برامج لتطوير مصادر جديدة للطاقة، وخلق وظائف صديقة للبيئة، ورقمنة السجلات، وتنقية المياه وزراعة محاصيل جديدة»، ويتعهد أيضا بتدريب جيل جديد من العاملين والمسؤولين في العالم الإسلامي، وتقديم منح دراسية للطلبة المسلمين للدراسة بالولايات المتحدة، وإقامة نظام تبادل بين الطلبة المسلمين والأمريكيين. وعلى أرض الواقع، فإن التعهدات هي وعود باستيعاب المجتمعات الإسلامية في نظام العولة الذي تقوده الولايات المتحدة وتهتمين عليه، وتحويل مسار وسائل كسب العيش فيها، واقتصاداتها وثقافتها بحيث تتوافق مع مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية الكوكبية.

من ثم، فإن سياسات أوباما وخطابه حول المصالح المتبادلة، والأيدى المفتوحة، والشركات والحوار والتعاون لا تتعلق باحتياجات الشعوب في البلدان النامية

والمختلفة بقدر ما هي وسائل لمزيد من ضم نُخبها إلى حظيرة مجموعة الثمانية G8 والغرب والولايات المتحدة. يعنى بتعبير «المصالح المتبادلة» إيجاد شريحة شركاء من المتأمرين في البلدان الحليفة بالفعل وفي تلك الجارى العمل على استيعابها. ولهذا السبب، تم دعوة المملكة العربية السعودية لتكون عضوا في مجموعة العشرين G20 الجديدة على حين لم تتم دعوة إيران ذات الاقتصاد الأكثر تنوعا، و الأقوى سياسيا، والأكثر سكانا. لكن أيضا، تعمل الوعود بالإتيان بالعالم الإسلامى إلى مجال الهيمنة الأمريكية الكوكبية، تعمل على إضفاء الشرعية على متطلبات واشنطن السياسية والاقتصادية، وتلك متطلبات تم إدخالها إلى التيار السائد من خلال متطرفين وتشناء وسياسيين يجدون في لويس وزكريا وفريدمان ناطقين مؤثرين بآرائهم. لكن أوباما نفسه تحدث بتلك المطالب تكرارا في القاهرة وأنقرة وأوسلو وأماكن أخرى. يتطلب منح «الاحترام المتبادل» للعالم الإسلامى الطاعة التى تتخفى في خطابه في هيئة تعبيرات مثل «المسؤوليات» و«التوقعات» و«حكم القانون» و«المؤسسات الدولية»، وتقاس وفقا لمعايير معينة والجوائز التى تمنح.

تتضمن «المسؤوليات» التى على البلدان العربية الصديقة الاضطلاع بها التحكم فى المعارضة الداخلية التى تتحدى هيمنة أمريكا الكوكبية، والعولة الاقتصادية والسياسات الإقليمية التى تسترضى إسرائيل، كان لويس وزكريا من أوائل من عملوا على شيوع لغة «المسؤولية» التى تستخدمها إسرائيل كثيرا لممارسة الضغوط على السلطة الفلسطينية والحكومة اللبنانية من أجل إنزال الضربات بالمقاومة المسلحة ضد إسرائيل وقمعها. ومنذ فترة رئاسة بوش، استخدم جوزيف بايدن وهيلارى كلينتون وجو ليبرمان وجون كيرى، وجون ماكين، بين آخرين، «المسؤوليات»، كلفظ كودى لإجبار العراقيين والأفغان على معالجة الأزمات الأمنية والسياسية التى أوجدها اجتياح الولايات المتحدة البلدين واحتلالهما والمكائد السياسية التى تمارسها، معالجتها ووضع حد لها. وبالإمكان وضع خطاب أوباما بسهولة فى هذا السياق. وفى اتباع منه لبرنارد لويس، نجد الرئيس يوبخ القيادات العربية بقوله إنه «لم

يعد مقبولا أن تُستخدم الحكومات العربية لإلهاء الأمم العربية عن المشاكل الأخرى»، ثم نجده، وبأسلوب لويس النمطي، يتجاهل آثار السياسات الأمريكية والإسرائيلية على الفلسطينيين ويتخطاها ويحمل الضحايا المسؤولية ويقول إن عليهم «الاعتراف بشرعية وجود إسرائيل وأن يختاروا التقدم بدلا من التركيز على الماضي الذي يؤدي إلى الهزيمة الذاتية».

اتسمت سياسة أوباما في الشرق الأوسط بخطاب «المسؤوليات» و«الاحترام المتبادل»، وهو خطاب يُقصد به في واقع الأمر نزع الشرعية عن مظالم الشعب الفلسطيني وتقويض دعم الحكومات العربية الفاتر للقضية الفلسطينية، على الرغم من دعم الشارع العربي الكلي والمتفاني لها.

ما «الاحترام المتبادل» و«المسؤوليات» إلا دعوة للطاعة الصامتة. وفي أكثر أجزاء الخطاب تعالياً، وإهانة لشاعر جمهور المستمعين، يلقي أوباما في وجه البرلمانين المصريين بتأكيد على الرباط الذي «لا تنفصم عراه» بين الولايات المتحدة وإسرائيل، ويحاضر الجمهور عما لاقاه اليهود من بشاعات، ويدلّ من تحميل الغرب مسؤولية تاريخه الضاري العنيف المعادي للسامية، يقوم أوباما، بأسلوب غير مباشر، بتوبيخ العرب على موقفهم «الفظ» المعادي للصهيونية وإسرائيل. وعلى الرغم من كل حديثه عن «التطلعات المشروعة للفلسطينيين»، يظل أوباما راعيا وقياً للدولة الصهيونية، والأهم من هذا أنه يظل مخلصا لأيديولوجيا هيمنة الولايات المتحدة على الشرق الأوسط، وهي أيديولوجيا يجد معها أنه لابد من إسقاط موروث الغرب الدموي الشائن من معاداة السامية على الفلسطينيين لحرف الأنظار عما ارتكبه الغرب من جرائم في حق الفلسطينيين بفلسطين، وفي حق اليهود بأوروبا. يقوم أوباما بتقليل أي اعترفات بالحرمان الذي يعاني منه الفلسطينيون والبشاعات التي ارتكبت ومازالت ترتكب ضدهم وتذويبها لتصبح «تاريخاً أليماً للشعبين»، وينتزع بذلك آلام أحد هذين الشعبين خارج سياقات السياسات المحسوبة المستدامة للشعب الآخر [صهاينة إسرائيل] وإجرائاتهم وأفعالهم. يساعد أوباما نغمة محاضرتة بالقاهرة

لتصبح توبيخاً يلقيه «الواعظ» على أسماع الجمهور، مفاده أن الفلسطينيين هم من «ينبغى عليهم نبذ العنف» وليس الإسرائيليين الذين يمارسونه يوميا ضد الفلسطينيين من خلال آليات الحصار والتحكم والحرمان والقهر.

محاضرة الحرب لدى استلام جائزة نوبل والواقع الصلب للقوة الناعمة:

يمدنا معمار «البداية الجديدة» التى بشر بها أوباما فى القاهرة برسم بيانى نفهم من خلاله الرواية الرئيسية لسياسته الخارجية بالشرق الأوسط. وبالمثل، تمثل المحاضرة التى ألقاها لدى تسلمه جائزة نوبل مانيفستو جديدا للسطوة الأمريكية فى عصر ما بعد بوش، إذ إن ما علينا إلا النظر إلى ردود الأفعال الإيجابية للصحافة الأمريكية كى نفهم كيف بدا هذا الخطاب وأنه محاضرة إمبراطورية إمبريالية. ومن المؤكد أنه بالإمكان إعادة تسمية هذا الخطاب ليصبح محاضرة تسلم أوباما جائزة نوبل للحرب، إذ إنه، وبدلاً من أن يتعاطى بجدية مع قضايا السلام وسياساته، فقد ألقى أوباما ما يمكن اعتباره رأياً حاسماً واضحاً عن البرنامج الأيديولوجى الذى يحكم استخدام أمريكا للقوة ويبرر احتلال العراق وأفغانستان، والعنف الذى تمارسه الدولة الأمريكية فى عشرات أخرى من البلدان الإسلامية بإفريقيا وآسيا. يُعرّف أوباما السلام، وهو يتعاطى بوضوح مع ما يشير إليه على أنه «المعمار القديم لحفظ السلام»، يعرّفه كوظيفة للحفاظ على الأمن من خلال استخدام السلاح فيقول «لقد ظلت الولايات المتحدة تساعد على ضمان الأمن الكوكبى لما يربو على ستة عقود بدماء مواطنينا وبقوة أسلحتنا».

بالإمكان تقسيم محاضرة نوبل للحرب إلى جزئين يعبران عن صياغة أوباما الجديدة للدوغما القديمة الخاصة بسلطة الولايات المتحدة فى العالم أحادى القطب، وآرائه إزائها، هذا على الرغم من أن خطاب أوباما يبدو منعشاً بعد خطابات الحرب الإمبريالية للإدارة السابقة وإدعائها للقوامة الأخلاقية. أدار أوباما حملته الانتخابية على أساس أفكار جوزيف ناى عن استخدام «القوة الناعمة» التى ستتحول فى النهاية، وكما سنرى إلى «القوة الذكية». كان ناى قد ظل لعقود بين القيادات الثقافية

بالحزب الديموقراطى وكان عظيم الأثر فى تشكيل الأفكار النيولبيرالية التى تبنتها إدارة كلينتون. ويصفته أكبر المفكرين «الليبراليين» الأعضاء فى مجلس إدارة مجلس العلاقات الخارجية، ومركز العلاقات الدولية، فهو عملياً المهندس الأيديولوجى لرؤية الهيمنة الاقتصادية والسياسة التى تبناها الحزب الديموقراطي. يؤكد ناي، فى الكثير من أعماله، على استراتيجيات التعاون والحفز من خلال تنويعه من الإجراءات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية، وأحياناً العسكرية. وفى عهد رئاسة كلينتون قام ناي بتغيير لغة القوة اللامتناسقة الصريحة التى تستخدم لاستيعاب الآخرين وإخضاعهم قائلاً إن أسلوب العصا والجزرة للقوة الصلبة أقل فعالية على المستوى الكوكبى من القوة «الناعمة» أو «الذكية». والقوة الناعمة، حسب قوله، هى «القدرة على تشكيل أفضليات الآخرين بحيث يريدون ما تريده أنت». والفكرة هنا هى أن الاستيعاب لا يحدث فقط على المستوى المادى وعلى مستوى إقناع النخب السياسية فى بلد ما، بل الأحرى أنه استيعاب بلد ما واستمالاته بحيث «يريد» شعبه ما تريده الولايات المتحدة. أعلى خطاب أوباما فى أواسط من شأن هذا الاستيعاب وهذه الاستمالة.

أوجدت حركة أوباما بالولايات المتحدة رواية مضادة لرواية القوة الصلبة التى استخدمتها إدارة بوش، وتبدو هذه الرواية المضادة وأنها قد انتحلت من أعمال جوزيف ناي، ومن أعمال روبرت كوهانا، المنظر السياسى المؤثر، والذى كان قد شارك ناي فى تأليف عدة أعمال. انتقى أوباما مفردات «الأمل» و«التغيير» وانتحلها من الجماهير المنهكة والقرفانة بالولايات المتحدة، والشرق الأوسط أيضاً، ومزجها بقضايا «الاحترام المتبادل» وتعدد الأطراف، والمؤسسات الدولية، وتشبيد المؤسسات، والحوار. استثمرت لجنة نوبل الجائزة فى رواية أوباما عن «التغيير» و«الأمل» مراهنة بأن هذا الاستثمار سيشجع أوباما على الوفاء بمزاعم سحب القوات من الشرق الأوسط أو تخفيضها. إننى أرى أن أعضاء لجنة نوبل لم ينصتوا إلى كلمات أوباما ووعوده من خلال السياق الذى تقترحه أعمال ناي، هذا إلى جانب عظيم اهتمامهم

أنفسهم بقوة الغرب المهيمنة ورهانهم عليها. الأخرى أنهم سمحوا لأنفسهم بأن يقعوا أسرى روايته النبوية المندرة وذلك لأنها أمدت كل من ستم استراتيجية بوش الوقحة للقوة الصلبة، أمدتهم بشيء بديل.

يسعى أوباما بوضوح لتمييز «الاختلافات العملية» بين نهج القوى الناعمة المزعوم الذي يتبناه وبين نهج القوة الصلبة لإدارة بوش. في خطابه الاستهلالي، مدّ يداً مفتوحة لأنظمة العالم المارقة ذات القبضات المحكمة. أما في خطاب أوصلو، فقد تعهد بإيجاد بدائل لأساليب «القوة الصلبة» التي يحتفظ بها لمن «يخرقون القواعد». وكما جاء بخطابه في القاهرة وأنقرة، وخطاب انتصاره الرئاسي، وخطاب الاستهلالي، فهو يعد بإقامة إجماع، وتحالفات، وشراكات. يزعم تمسكه بـ«قانون الحب» جوهر الإنسانية وإعجابه به. بيد أنه، وحتى فيما يعظ بقيمة الحب وقيمة اللاعنق، فإن النصف الثاني من محاضراته بعيد ترسيخ حرب بوش على الإرهاب ويدعمها بصفته حاكماً إمبريالياً كضرورة أخلاقية وسياسية حيث يقول إن الولايات المتحدة تخوض «حرباً عادلة» وهي الآن تشن «حرباً على الشر». الأهم من كل هذا هو تأكيد أوباما على أن «استخدام القوة ليس ضرورياً فقط، بل إنه أيضاً مبرراً أخلاقياً».

تتجسد «الاختلافات العملية» بينه وبين الإدارة السابقة في مجاز اليد المفتوحة/القبضة المحكمة. تقدم يده المفتوحة فرصة لغواية النخب واستيعابهم، سواء كانوا أصدقاء أم معادين، ومعهم أيضاً مجموعات المعارضة، لكن فاعلية القوة الناعمة تصل أقصى درجات الفاعلية حينما تدعم أساليب الغواية بالتهديدات وبإمكان استخدام الأساليب العقابية بما في هذا التدخل العسكري والمقاطعة الاقتصادية والعزل السياسي من خلال استخدام الحلفاء في البلدان النامية، والأمم المتحدة، وثقل الولايات المتحدة الهائل في مجال الاقتصاد الكوكبي. ولا ينبغي لأحد أن يرتاب في أن اليد المفتوحة ستتحول إلى قبضة محكمة توجه إلى من يجروا على رفضها. وفي هذا الصدد، نجد أن خطابي أوصلو والقاهرة يرددان أصدقاء اللهجة الحضارية

والأخلاقية التي اتسم بها خطاب أوباما الاستهلاكي حينما أقسم موجها حديثه «إلى هؤلاء الذين يحاولون الدفع قدما بأهدافهم من خلال إثارة الرعب وممارسة الإرهاب وقتل الأبرياء، أقول إن إرادتنا أقوى مما يعتقدون ولا يمكن قتلها.. لا تستطيعون التغلب علينا أو مضاهاتنا، وسنهنزكم». من ثم، يمكن القول إن الاختلافات العملية في رواية أوباما، وكما يبين بصراحة، لا تعنى أنه سيكون هناك أى تغيير فى عهده فى السياسات الاقتصادية أو المواقف والإجراءات السياسية إزاء العالم الإسلامى، أو حتى على المستوى الكوكبي. وبعد كل شئ، فقد استند خطاب أوباما فى أوصلو إلى التزامه بإعلان أن الولايات المتحدة ستقاتل المتطرفين «الذين يشوهون الدين الإسلامى العظيم ويدنسونه، والذين هاجموا بلادى من أفغانستان»، وإذا كان بوش قد أبلغ العالم أن الولايات المتحدة تشن حرباً ضد الشر، فإن أوباما يؤكد لمستمعيه أن سلفه كان على صواب وأن «الشر موجود بالفعل فى العالم». وبناءً على ذلك فإن «الحرب ضرورية أحياناً». ولهذا السبب، لا تستطيع الولايات المتحدة، تحت رعايته أن «تقف مكتوفة الأيدي فى مواجهة التهديدات ضد الشعب الأمريكى. ولا يجوز أن يرتاب أحد، فإن الشر موجود فى العالم ولم يكن بوسع حركة اللاعنف أن تصد جيوش هتلر». وفى خطاب يستعيد المبدأ الرومانى الإمبراطورى، يعيد أوباما تكرار ما نص عليه بالقاهرة، ويجعل من الأمن الأمريكى أمناً كوكبياً حيث لا يمكن فصل «دفاع» الولايات المتحدة عن نفسها عن دفاعها عن العالم المتحضر.

هذه الرواية هى انتقال مباشر من خطابات لويس وزكريا التى طُبعتها مقالة هنتنجتون الشهيرة. يكشف خطاب جائزة نوبل للحرب عن الدرجة التى بها تتناسج التشكيلات الأيديولوجية التى يمثلها لويس وزكريا، بإحكام، فى الروح السياسية الأمريكية وفى النموذج المعيارى العالمى للقيادات، ففيعا يعد أوباما بـ «التغيير» ويتموضع كبشير بـ «الأمل»، لا تعدو تلك أن تكون مجازات يأمل من خلالها أن يستقطب الحلفاء والأعداء للانضمام إلى برنامج للسلام العالمى من خلال «الاحترام المتبادل» و«المصالح المتبادلة». وهذا هو جوهر القوة الناعمة.

وفى هذا الصدد، فإن أوباما لا يكذب، فلم يحدث أبداً أن وعد فى القاهرة أو أوصلو أو أنقرة بالانسحاب أو تقليل عدد القوات أو تلطيف التوترات العالمية أو الدخول فى حوار حقيقى غير مشروط مع الآخرين كإنداد. فى أوصلو، يؤكد للمسلمين والعالم النامى أن الولايات المتحدة تُشهر قوتها من أجل «مصالحها الذاتية المستنيرة». يعبر تبريره «اللااعتذاري» عن «الحرب العادلة» التى تشنها أمريكا، عن مبدأ القوة اللامكبوحة، والامتيازات التى تمنحها الولايات المتحدة لنفسها خارج حدودها والتى تقوم على أساس قوامه القوة. يقول أوباما «القوة تنمو من خلال الاستخدام الحكيم، ولن نعتذر عن ذلك»، وفيما أننا لا نسعى إلى أن «تفرض الولايات المتحدة إرادتها»، فإنها تستخدم قوتها من أجل «الحرية والازدهار»، ليس فقط لأنفسنا، بل لأطفالنا وأحفادنا نحن والآخرين. يؤكد بلهجة يقينية أن لشعوب العالم الحق فى حريتهم وأحلامهم لكن «الولايات المتحدة هى التى ستظل دائماً صوت تلك التطلعات العالمية الشمولية»، للمرء أن يتساءل عما إن كان الفلسطينيون، والأفغان، والعراقيون، ناهيك عن الشعوب التى تخضع لديكتاتوريات حلفاء الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط وأنحاء أخرى، يوافقون على ما يُصرح به أوباما.

لا تعدو محاضرة أوباما لدى تسلمه جائزة نوبل أن تكون تناسجاً مُحكماً لخطاب لويس الحضاراتى الأخلاقي، وتثبيتاً لقوة الولايات المتحدة يبرر الدفاع عن الحداثة بصفته مسئولية أخلاقية، وبرجماتية زكريا وأسلوبه التدرجي. خلال حملته الانتخابية كان أوباما قد عبّر عن التزامه بالبرجماتية عدة مرات، ثم دعم هذا الالتزام باختياره فى ١ ديسمبر ٢٠٠٨ لفريق جديد للأمن القومى كان له أن يتبع أجندة تقوم على أساس خطاب القوة الناعمة يواكبه استعراض للاستعداد لإكراه من يرفضون أن يكونوا متواطئين مع إمكانيات القوة الصلبة. يقول أوباما وفى إشادة منه بخدمات أعضاء الفريق فى الماضى إن «هؤلاء النساء والرجال يمثلون جميع عناصر القوة الأمريكية» وعلاوة على ذلك فهم «يشاركوننى برجمائيتى فى استخدام القوة، وحسى بالهدف بشأن دور أمريكا كقائدة للعالم». تردد ترنيمة الحرب التى تغنى بها أوباما

فى أوصلو أصداء «البرجماتية» التى كان قد أعلنها، إذ إنه يذكر الجمهور بأن على جميع الأمم «التمسك بالمعايير التى تحكم استخدام القوة» فى رده على الاعتراف بطموحات البلدان النامية ومصادر استيائها واختلافاتها، أى أنه ينبغى أن يكون صوت الولايات المتحدة الشمولى هو الوسيط للتعبير عن مظالم تلك الأمم. بيد أنه من الشائق أن أوياما أبدى استعدادة للإشادة بالمعايير الدولية التى تحكم سلوك جميع الأمم المتحدة بما فيها الولايات المتحدة إذ قال إن على الجميع «اتباع أحكام الطريق» لكنه أضاف يقول «إن المعمار القديم لحفظ السلام ينهار تحت وطأة التهديدات الجديدة».

وهكذا، يحاول أوياما استقطاب العالم لمشاركة من شيّدوا المعمار السابق للسلام العالمى «رؤيتهم ذاتها»، وفى إطار تلك الرؤية، يذكرنا الفائز بجائزة السلام أن «لآليات الحرب دورا تلعبه فى حفظ السلام» لا يقل عن دور المؤسسات والمعاهدات والمواثيق والإعلانات الدولية. وهذه هى الخلاصة التى تبرز بها أطروحة أوياما للأمن حقوق البلدان الأصغر واستيائها وتسقطها حيث إن جوهر أطروحته هو أنه من المسوغ لمن لديهم مصالح ذاتية مستنيرة التحدث باسم «مستقبل» أطفال الآخرين وأحفادهم. ليس تفحصنا لخطابى أوياما بالقاهرة وأوصلو مجرد لعبة بلاغية أو تدريب أدبي، حيث إن الخطابين أرسيا أجندة للوسائل القانونية والسياسية التى تنوى الولايات المتحدة اتباعها فى رسم سياستها الخارجية فى فترة ما بعد بوش. من ثم، فإنه وفقا لتلك الأحكام والأطروحات، فإن برنامج إسرائيل النووى غير القانوني، وانتهاكاتها المنهجية والمؤسسية، وحرمان الفلسطينيين من حقوقهم وإنزالهم، وخرقها لجميع قرارات مجلس الأمن، وانتهاكاتها للمواثيق الدولية، من خلال حربها على لبنان وغزة، كل هذا جميعه غير مهم ولا علاقة له بالأحكام والأطروحات. أما برنامج إيران النووى المحتمل، وما أسمى «الإبادة العرقية» بدارفور، وبعض أعمال التمرد فى العراق وأفغانستان، فكلها تهديدات مستساغة للعالم ولـ «رؤيته المشتركة»، على الأقل وفقا لما عبر عنه رئيس الولايات المتحدة.

النقلات المعيارية في إطار إدارة الإمبراطوية:

كان ثمة كثير من الأحاديث عن إعادة تجديد مهام أعضاء الوزراء والوزارات المختلفة، والتي أسس استخدامها أثناء سنوات بوش. وسع أوباما حجم مجلس الأمن القومي برئاسة الجنرال جيمس جونز، بحيث يضطلع بأدوار ومسؤوليات جديدة في السياسات الخارجية والداخلية. كان هدف هيلاري كلينتون استعادة مصداقية وزارة الخارجية بعد أن كان رمسفلد قد همشها بحيث أصبحت مجرد واجهة للسياسات المنبثقة من العقول المظلمة المريبة لسلته المدنية من المحافظين الجدد الذين عاثوا في وزارة الدفاع فسادا دونما كوابح. أرادت الوزيرة الجديدة تضخيم دور وزارة الخارجية وميزانيتها ليس فقط بحيث تكتسب ثقلا أكبر في الشئون المتعلقة بالأمن القومي، بل أيضا لتتأكد من أن نفوذ وزارة الخارجية يترك أثره على الاقتصادات الدولية. أما جون بايدن فقد تحمل مهام إصلاح «إيعادية» منصب نائب الرئيس التي شهدت جموحا في عهد تشيني، مع إضفاء الصبغة المؤسسية على دور مؤثر وراسخ لمنصبه في مجال صناعة السياسة الاقتصادية والمحلية والخارجية. إن العامل المشترك في إعادة تحديد المهام تلك، وإلى جانب التسابق على المناصب والسلطة، هو إشراك المستشارين والمسؤولين الذين تولوا مناصب «مفتاح» في مجلس الأمن القومي والعاملين في مكاتب كلينتون وبايدن الشخصية، إشراكهم في تصنيع فاعلية المسار الأيديولوجي لقوة الولايات المتحدة في عصر ما بعد بوش. أي أن الكثيرين من مستشاري أوباما للأمن القومي كانوا في طور الحضانة والإعداد والتطوير أثناء الانهيار التدريجي لفترة رئاسة بوش الثانية. ومثلما فرّخ «مشروع القرن الأمريكي» الجديد برنامج المحافظين الجدد للقوة الصلبة و«أجندة الحرية»، أمد برووكينجر إنسنييتيوت ومركز التقدم الأمريكي منظري «القوة الذكية» بمنتدى يصيغون من خلاله ورقة عملهم والمانيفستو الخاص بهم. من ثم فإن النقلة في النماذج المعيارية التي بدا أوباما وأن يكسبها لم تنجم عن عبقريته الخاصة بقدر ما كانت نتاج مجموعة مركزية من شباب الأكاديميين، والمسؤولين السابقين عن السياسة الخارجية في إدارة

كلينتون والذين قاموا بإعادة تأطير أفكار ناي عن القوة الناعمة «والذكية» ليجعلوا منها وسائل برجماتية لإصلاح وزارة الخارجية وإعادة هيكلتها من أجل الإدارة الفطنة لقيادة الولايات المتحدة التي لا نظير لها للكوكب.

مبادرة فينكس:

فى عام ٢٠٠٨، أصدرت «مبادرة فينكس Phoenix Initiative» تقريراً بعنوان «القيادة الاستراتيجية: إطار لاستراتيجية الأمن القومى فى القرن الحادى والعشرين». هذه المبادرة هى تجمع لُمتهنى الأمن القومى الذين اجتمعوا معا للمرة الأولى فى عام ٢٠٠٥، وتقريرهم مثير للاهتمام لأسباب عديدة، كما أنه يستبق جوهر «النقلة»- التى حدثت فى فترة ما بعد بوش. يشمل كُتَاب التقرير المجموعة سابقة الذكر من مستشارى أوباما وبايدن وكلينتون، وبخاصة أنطونى بليكن مستشار بايدن للأمن القومى، وچيمس ستاينبرج، نائب وزير الخارجية، وأن - مارى سلوتر التى يبدو تأثيرها لافتاً فى التقرير ولأسباب وجيهة: كانت سلوتر عميدة كلية وودرو ويلسون بجامعة برينستون، وتعمل حالياً مديرة تخطيط السياسة لكلينتون، وهى منظرة وأكاديمية فى مجال السياسة الخارجية والقوة الأمريكية. وعلى الرغم من مباحكاتها «الليبرالية» فقد دعمت سلوتر غزو العراق واستخدام المحاكم العسكرية فى جوانتانامو. وفى التمهيد للتقرير الذى كتبه سوزان رايس، العضوة السابقة بالمبادرة، تعترف دونما قصد بإسهام سلوتر فى التقرير، هذا على الرغم من وجود تعارضات طفيفة بينه وبين مواقفها الصقورية المتطرفة كسفيرة للولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة. تقول رايس إن التقرير «طور مفهوماً مختلفاً للقيادة الأمريكية يمثل قطعة مع المفاهيم التقليدية من أمثال الاحتواء والاشتباك والتضخيم ويرفض الثنائيات المعيارية لسياسات القوة الواقعية مقابل المثالية الليبرالية».

يعرض التقرير مقترحات بدت أثناء سنوات بوش عقلانية ومنطقية. يتحدث التقرير عن تخفيض عدد القوات بالعراق وسحبها فى النهاية، وإغلاق جوانتانامو، و«الاشتباك فى حوار مع الأعداء» وتقليص الفقر، والتنمية وأيضاً تقوية العلاقات مع الأصدقاء،

وتطوير شراكات جديدة، وتشكيل تحالفات من أجل حل قضايا انتشار السلاح النووي، وقضايا الأمن الكوكبي والتغير المناخي. يؤكد التقرير على أن إشهار القوة الأمريكية يجب أن يكون من خلال «قيادة استراتيجية، تستند بقوة إلى فن إدارة شئون الدولة كبديل للقوة العسكرية وكمكمل لها».

وفي هذا الصدد، بالإمكان رؤية تأثير مبادرة فينكس بوضوح على خطابي أوباما في القاهرة وأوسلو. جمع المثقفون والمفكرون السياسيون الذين شاركوا في التقرير «صندوق عدة» متنوعة ذات أطراف مُستدقة متعددة تستخدمها «القيادة الأمريكية». يزعم التقرير أن «الإدارة الناجزة لشئون الدولة» هو مفتاح «تعزيز الرخاء» بالداخل والخارج، رخاء يتوقف على العولة الاقتصادية المستمرة وأيضاً «نظرة موسعة إلى الديمقراطية، تشمل تطوير مختلف البلدان للمؤسسات السياسية مثل الإعلام المستقل، والنظام القضائي المستقل، وتنظيمات المجتمع المدني النشيطة، ونظام حزبي تنافسي». تعبر خطابات أوباما عن تعقيد الاستراتيجية الجديدة للقيادة في عصر ما بعد بوش، وتستخدم لغة تقرير فينكس وتأخذ «في الحسبان جميع أبعاد الأمن القومي - الاقتصادية والاجتماعية ومعها السياسية والعسكرية».

بتعبير آخر، تتناسج في التقرير العسكرية واستخدام القوة العسكرية مع الاحتياجات الإنسانية والسياسية والبيئية للنظام العالمي الذي ينبغي على الولايات المتحدة أن تقوده. وفي النهاية يقوم التقرير بإحكام وإيجاز، بإدماج رؤية جوزيف ناي للقوة «الذكية»، ونيولبيرالية روبرت كوهانا، والتوليفة العملية السياسية لسلوتر وجيمس ستاينبرج وينتهي إلى أن «الاختبار الإجمالي للقيادة الاستراتيجية في الشرق الأوسط هو المساعدة على نقل الدينامية من حالة كونها دينامية صراعات تدميرية تُشعل بعضها إلى دينامية بناءة للتقدم في مجموعة من القضايا تدعم التقدم في باقى القضايا».

تبدو استراتيجية القوة الذكية لمبادرة فينكس وأنها تحاول الخروج من إطار النماذج المعيارية الحضارية والأخلاقية التي طرحها برنارد لويس ونفذها حرفياً

وبإخلاص المحاربون الصليبيون في إدارة بوش. وبدلاً من «نحن بالتقابل مع هم»، يُجمَع التقرير معاً «ثلاثة أنماط من اللاعبين داخل إطار الشبكات الإرهابية» ويميزهم عن بعضهم إذ إنه «ينبغي على سياسة الأمن القومي أن تعزل وتستهدف المنفذين الذين يخططون الأعمال الإرهابية ويرتكبونها؛ والمتواطئين من الدول وغير الدول الذين يمدونهم بالعون المالي واللوجستي وخلافه، والمتعاطفين الذين لهم ارتباطات ما بقضية الإرهابيين لكنهم لا يشاركون مباشرة». هذه المقولة دالة إذا أخذنا في الاعتبار أن هذا التمييز التحليلي أتى به إلى إدارة أوباما الكثيرون من كتبة التقرير الذين يتولون الآن مناصب في هذه الإدارة، أي أن مبادرة فينكس صنعت نقلة في النماذج المعيارية من دون أي تحوّل أيديولوجي، حيث إنهم حددوا «الاختلافات العملية» التي ينبغي أن تميز عهد أوباما عن سلفه، وتلاعبوا بالأساليب والسياسات بهدف تحقيق الغايات ذاتها، أي هيمنة الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية. مثلاً، ثمة اعتراف بأن عملية اجتياح العراق كانت «حرباً خاطئة» هذا على الرغم من القول بأن «ثمة حرباً ينبغي علينا أن نخوضها». وفيما يذكر التقرير «تخفيض التواجد العسكري بالعراق وزيادة النشاط الدبلوماسي» فإن ثمة تفاطلاً بيناً عن احتلال أفغانستان. من ثم، نجد أن المفكرين وصناع السياسة المشاركين في تقرير فينكس يسعون إلى إعادة توجيه مسار لغة «القوة الإمبريالية، وصلاتها وتكتيكاتها باتجاه إدارة المتغيرات العديدة في اقتصاد قوة رؤسماي معولم ومتعدد المراكز بدلاً من التحكم المباشر.

يبين رون ساسكيند في مقال له بعنوان «عقيدة جورج دبليو بوش وبقينه ورئاسته» نشره بتاريخ ١٤ أكتوبر ٢٠٠٤ بمجلة النيويورك تايمز، أن إدارة بوش كانت تؤمن بأننا «حينما نفعل فنحن نخلق واقعنا الخاص». يناقض «تقرير القيادة الاستراتيجية» هذا المبدأ ويأتى براوية يمكن أن تنطلي على الأصدقاء، و«الأصدقاء المحتملين» بل وحتى الأعداء، حيث تقدم استراتيجية تزيد من عدد حملة الأسهم في النظام العالمي المهيمن، وبخاصة من العالم الإسلامي. تردد رؤية مبادرة فينكس للسياسة أصدقاء ألفتناها في مقترحات زكريا، حيث إنه، وفيما شعر زكريا أنه من المهم تبني تغيير

النظام في العراق وخلق عراق نيوليبرالي يمثل «قصة نجاح» أمام العالم الإسلامي، يدعو مفكرو تقرير فينكس الرئيس القادم إلى تقديم «بديل مقنع» للرواية المتطرفة التي تقدمها التنظيمات السياسية الإسلامية، حيث ينبغي على حكومة الولايات المتحدة تقديم «قصة إيجابية تؤكد على الميزات العديدة التي سيكتسبها الأفراد المسلمون، وبخاصة الشباب منهم، من ارتباطهم بالاقتصاد الكوكبي والمجتمع المعلوماتي». إن شر مثل هذه القصة، ومعها الدعاية لرواية مزايا النيوليبرالية والعولمة وقيادة الولايات المتحدة للعالم تمثل على أرض الواقع سلاحا عملياً.

ليست اللغة الاقتصادية العقلانية للنقطة المعيارية المستعدة لفك اشتباكات المعركة الحضارية بل وإيجاد «فرص لتطوير علاقات محسنة مع عناصر الإسلام السياسي الأكثر اعتدالا» ليست نوعاً من الدهاء والحيلة، بل ضرورة سياسية. ومفهوم مبادرة فينكس هو هذا تحديداً، وسيلة جديدة لإيجاد «قيادة أمريكية» مقنعة، لاتصادمية إن أمكن، لاقتصاد كوكبي يتسم بانتشار القوة الاقتصادية والسياسية الموزعة على مراكز عدة. لا يهدف التقرير إلى تصحيح المظالم الاجتماعية والاقتصادية والبيئية وانعدام العدالة؛ حيث نجد وبما لا يدع مجالاً للشك، أن التعقيد والكياسة والمشروعية التي تؤكد عليها استراتيجية القيادة كما وردت في تقرير فينكس تنحصر في «تعزيز مشروعية الأفعال والإجراءات الأمريكية وتوسع نطاق قوتنا ونفوذنا» في ظل اقتصاد وواقع كوكبيين.

اتسم ترشح أوباما ورئاسته بأسلوب القوة الناعمة لمحاولة «جعل الآخرين يريدون ما نريده نحن». كان خطاباه إلى العالم الإسلامي بأنقرة والقاهرة، وخطابه إلى إيران بمناسبة عيد النيروز، كانت جميعها تحديداً محاولات للاستمالة والإقناع والتعاون. واتباعه نصيحة سلوتر ومبادرة فينكس، خاطب أوباما، بتابعياً، جماهير المسلمين على أمل أن يصيب الخطاب الأيديولوجي للقوة الناعمة (الإنسانية المشتركة، والحقوق الشمولية، والمبادئ المشتركة.. إلخ) هدفه. وبأساليب عدة، فإن تكتيك الإقناع الذي يتبعه أوباما هو وسيلة لإبطال مراكز القوة الصلبة وممارساتها والتي أضفت عليها

الإدارة السابقة الصبغة المؤسسية وجعلتها واضحة مرئية بأسلوب أليم، بيد أن أوباما أيضا يذكر العالم الإسلامي أنه على الرغم من الإنسانية والتاريخ الذي يشاركهما مع الغرب، والدعوة إلى تعددية الأطراف والحوار والفرص الاقتصادية والأيدي المفتوحة، فإن أساليب القوة الصلبة التي عُرف عن الولايات المتحدة استخدامها في العالم أحادي القطب مازالت جميعها أدوات فاعلة قابلة للحياة في السياسة الخارجية الأمريكية. لا يعتبر هذا مناقضاً للغة «القوة الناعمة» وفلسفتها، بل، وحرفياً، فإنه جزء لا يتجزأ منها، وبخاصة وفقاً لرؤية المرتبطين بمجموعة فينكس.

وفي هذا الصدد، لم تكن السنوات الأولى لرئاسة أوباما تخلياً عن خطاب النقلة الجديدة في النماذج المعيارية، أو تغييراً في السياسة، حيث كان خطاباه في القاهرة وأوسلو صريحين صادقين. بيد أنه ينبغي أن يُقرأ من دون الفلتر المتفائل لداعميه الذين يشعرون الآن، وبتزايد، بخيبة أمل، ليس لأن أوباما قد نكث بوعوده، بل لعدم استعدادهم هم الانتباه إلى الوعود التي قطعها على نفسه بالحفاظ على نفوذ وتواجد الولايات المتحدة في العالم وتوسيع نطاقهما. لم تخف خطابات أوباما التي ألقاها في العواصم الأجنبية أو خطابه الاستهلاكي الحقيقية النهائية والتي تشكل الأساس التحتي لها، وهي أن اهتماماته بالأمن الكوكبي، والرخاء، وحقوق الإنسان والديموقراطية تستند إلى ضرورة تغيير الاستراتيجيات من أجل إضفاء المشروعية والمصادقية على الإمبراطورية الأمريكية وإطالة عمرها.

هيلاري كلينتون، وفريق الأمن القومي، وذكاء القوة؛

ورأينا في الفصل السابق استمرار الإسلاموفوبيا وممارساتها على مستوى الدولة والمستوى الخاص. داخلياً، أعطى أوباما الأولوية للسياسات «الأمنية» على حساب الحريات المدنية، مثلما أدى تواطؤه مع وول ستريت إلى مناصرته على حساب الاحتياجات الاجتماعية لضحايا عدم مسئولية رجال المال والأعمال. رأينا كيف أن إدارة أوباما مازالت مستمرة في مقاضاة المشتبه فيهم باستخدام تهم مضللة مثل تقديم «الدعم المادي للإرهابيين»، وشهدنا كيف استمر في عزل المسلمين داخل وحدات

سجن خاصة تسمى «وحدات إدارة الاتصال» وحرمانهم من الحريات الإنسانية والمدنية التي يتمتع بها السجناء الآخرون، كما رأينا أن الإف بي آى فى عهد أوباما مازال يستهدف المسلمين ويُنفذ إعداماً بعيداً عن سلطة القضاء مثلما حدث فى حالة الإمام لقمان. مازال المسلمون والعرب وغيرهم من ذوى البشرة السمراء يتعرضون للتوقيف والمضايقات والتشاحنات إلى جانب أخذ بصماتهم والتقاط صورهم. وفى ظل إدارة أوباما، اتسعت قائمة الممنوعين من الطيران والتي تضم فى معظمها أشخاصاً مسلمين. وعدداً من المعارضين اليساريين والنشطاء والمثقفين، بحيث تم منع عدد من المواطنين من السفر بالطائرات، ووجد آخرون أنفسهم بالخارج وقد مُنعوا من العودة إلى الولايات المتحدة. نعرف أيضاً أن القوات التابعة لوزارة الأمن الداخلى ومصلحة الهجرة وفرض الجمارك ICE مازالت تُغير على المهاجرين وتحتجزهم وترحلهم بذريعة الأمن القومى وكان أوباما هو من أمر بعسكرة الحدود الأمريكية المكسيكية فيما يقوم حرس الحدود بإطلاق النيران على الصبية المكسيكيين وضربهم بحصانة تامة.

نعلم أيضاً أن وزارتى العدل والخزانة فى عهد أوباما مازالت تضايق وتستهدف الأفراد المسلمين والمساجد والمؤسسات الخيرية الإسلامية. مازالت وزارة العدل مستمرة فى محاكمة المشتبه فيهم وسجنهم على أساس تهمة مُضللة مستخدمة المحرضين والمخبرين، وتطبيق أساليب عقابية دونما سند من القانون مثل الحبس المنفرد. أيضاً، استمرت الوزارة فى اتباع الإجراءات «الخاصة»، لعزل المتهمين المسجونين بناء على تهمة غير محددة مثل «الدعم المادى للإرهابيين». نعلم أن المدعى العام فى عهد أوباما نجح فى زيادة القيود على حرية الكلام السياسى وحرية التجمع والارتباط حينما كسب قضية الحكمة العليا «هولدر ضد مشروع القانون الإنسانى» الذى جعل التعامل أو التفاعل مع أية مجموعة تصنفها الولايات المتحدة على أنها منظمة إرهابية غير قانونى حتى لو تضمن ذلك «التدريب المباشر» لتلك المنظمات على «كيفية استخدام القانون الدولى لحل النزاعات». علاوة على ذلك استأنفت وزارة العدل فى عهد أوباما حكماً بسجن لين ستوارت محامية حقوق الإنسان التى تولت الدفاع

عن كثير من مشاهير الموقوفين بمن فيهم الشيخ عمر عبدالرحمن، وحصلت من خلال الاستئناف على حكم بسجن تلك الناشطة والمحامية الحقوقية البالغة من العمر سبعين عاما لمدة عشر سنوات.

على المستوى الدولي، اتسمت قوة أوباما الناعمة بإيماءات طقوسية واستخدام لغة التبادلية، لكنها واكبتها دائما تهديدات استخدام إجراءات القوة الصلبة. وعلى الرغم من التوصل إلى اتفاقية مع إيران تم التفاوض عليها من خلال تحالف مستقل بين البرازيل وتركيا، مضت إدارة أوباما في اتباع تكتيكات القوة الصلبة ضد الجمهورية الإسلامية وضغطت من أجل إصدار إجراءات عقابية ضد إيران بسبب برنامجها النووي. وفيما أعاد أوباما تصنيف احتلال العراق بأن أطلق على القوات الأمريكية المتبقية هناك وعددها ٥٠.٠٠٠ جندي مسمى قوات «غير مقاتلة»، فقد عمد إلى مساعدة الحرب في أفغانستان مما ضاعف من عدد القتلى من المدنيين بحيث وصل إلى مستويات غير مسبوقة. سمح الرئيس باستخدام الطائرات بدون طيار والعملاء السريين لقتل المدنيين دونما سند قانوني في الداخل الباكستاني. استمرت إدارة أوباما أيضا في شرعنة تسليم الموقوفين إلى حكومات عميلة تتولى تعذيبهم، وفي عدم محاكمة المسؤولين الذين قاموا بانتهاكات فاضحة للمواثيق الدولية. تواصل إدارة أوباما أيضا سياسات الاحتجاز العشوائي والتعذيب في المواقع السوداء بأفغانستان وأنحاء أخرى وفي حرمان ضحاياها وأسره من اللجوء إلى الإجراءات القانونية بالولايات المتحدة. مازال الرئيس مستمرا في إجراءات الاحتجاز غير القانوني ومحاكمة «المقاتلين الأعداء» أمام محاكم عسكرية، وكان بين هؤلاء عمر خضر الذي تم احتجازه وتعذيبه وهو في الخامسة عشرة من العمر. ويخلاف بوش، فقد أضفى الرئيس الشرعية على سلطة حكومة الولايات المتحدة لاتخاذ إجراءات خارجة عن نطاق القانون في الداخل والخارج، بما في هذا تنفيذ الإعدام دونما سند قانوني ضد مواطنين أمريكيين يشتبه في تورطهم مع تنظيمات إرهابية. ويخلاف بوش أيضا أمر الرئيس أوباما بنشر قوات خاصة في ٧٥ بلدا بأسلوب سري في حربه على الإرهاب، ومعظم تلك البلاد بلاد مسلمة.

وعلى الرغم من تأثير المفكرين وصناع السياسة الذين وضعوا مبادرة فينكس، فإن التشكيلات الأيديولوجية للإسلاموفوبيا تكون بنية تبريرات سياسة أوباما الداخلية والخارجية تماما كما كان الحال في عهد سلفه. وكما رأينا في خطابه بالقاهرة، فإن خطاب القوة الناعمة الذي استخدمه مُحَمَّل بلغة حضاراتية مصقولة مُبطنة بحيث تتحول «اليد المفتوحة» لسياسة أوباما إلى «قبضة محكمة» باسم القيم الشمولية والمساعدات والازدهار الكوكبي. وبما أن أوباما لم يأت إلى منصبه ولديه سجل قوى في السياسة الخارجية، فقد استند طوال حملته، ورئاسته، كما يفعل الرؤساء، إلى هيئة العاملين معه، وإلى فريق الأمن القومي، من أجل تشكيل استراتيجيات سياسية، وتكتيكات عملية تتناغم مع خطابه الخاص عن القوة الناعمة.

ومن أجل إيجاد توازن بين وضع الإجماع الذي توصل إليه واضعو مبادرة فينكس، والذين أصبحوا مرعوسين أساسيين في مجال السياسة الخارجية بإدارته، نجد أن سياسة أوباما في الشرق الأوسط يشرف على وضعها مجموعة متنوعة. يتألف فريق الأمن القومي ومستشاروه من مجموعة متراوح بين جون برنان والجنرال جيمس جومز، ودنيس روس مسئول إيباك السابق ومبعوث كلينتون إلى الشرق الأوسط، ورام إيمانويل الذي كان قد سبق له حمل الجنسية الإسرائيلية الأمريكية المزدوجة. علاوة على ذلك، يضم بيت أوباما البيت رثاستين قويتين للسياسة الخارجية تتنافسان على الهيمنة هما نائب الرئيس ووزيرة الخارجية.

توازن هيلاري كلينتون، وزيرة الخارجية، بين «القيادة الاستراتيجية» كما جاءت بمبادرة فينكس، وبين خطاب «القوة الناعمة» للرئيس مطعما باستخدام إرادى للمفردات الحضاراتية التي كانت قد أُبقت عليها أمانة بمقعدتها بمجلس الشيوخ والتي جعلت منها مرشحة محتملة للرئاسة. أحيانا تعتمد كلينتون إلى التخفيف من الرواية الحضاراتية لكن، حينما يتعلق الأمر بقضايا الأمن والإرهاب «الإسلامي» تطفى هذه اللغة على خطابها. مثلا، بعد التفجيرات الدموية في مترو موسكو التي نفذها الانفصاليون الداغستانيون في ٣١ ديسمبر ٢٠٠٩، تعهدت كلينتون قائلة «إننا

نحارب نفس الأعداء، هؤلاء الذين يريدون إدارة عقارب ساعة الحضارة إلى الوراء». لا تذكر أى بلد غير غربى يخوض المعركة بل تقول تحديدا إن المتطرفين الإسلاميين يقفون «ضد أوروبا، والأمريكيين، والروس، والكنديين». وعلى الرغم من كل حديثها أثناء ترشحها للرئاسة عن النقاشات الثنائية، والمؤتمرات الإقليمية والمحادثات المباشرة، وبناء الإجماع، فقد ظلت هيلارى كليتتون على الدوام من الصقور إزاء الشرق الأوسط. كانت، قبل أن تصبح وزيرة للخارجية قد صوتت لصالح غزو أفغانستان والعراق، وكذلك لصالح قانون باترويت ولصالح تجديده فى عام ٢٠٠٦. بيد أن الأكثر سوء سمعة من كل هذا، هو أنها أقسمت أثناء الانتخابات الأولية لاختيار الحزب الديموقراطى مرشحة للرئاسة، على «أن تمحوهم من الوجود تماما» إذا هاجمت إيران إسرائيل بالسلح النووى الذى لم تنتجه، وفى متابعة لهذا أصرت على أنها تريد من الإيرانيين أن يعلموا أننى «إذا أصبحت رئيسة سوف أهاجم إيران (إن هى هاجمت إسرائيل)».

لا يجوز لمثل هذه الأقوال أن تثير الدهشة فقد ظلت هيلارى على مدى عقود داعمة متشددة لإسرائيل بما فى هذا دفاعها المفضو عن جدار الفصل العنصرى الذى أقامته إسرائيل، هذا علاوة على تهليلها للإسرائيليين وتشجيعها لهم أثناء تدميرهم الوحشى للبنان، حيث إنه، وفيما كانت كونداليزا رايس، وزيرة الخارجية آنذاك تتحدث عن قصف المدنيين اللبنانيين وإراقة دماهم بصفتة «مخاض الديموقراطية والشرق الأوسط الجديد» كانت كليتتون تشارك فى تظاهرة تؤيد الاجتياح الإسرائيلى وتقول إن على الولايات المتحدة أن تُظهر «دعمها لإسرائيل وتضامنها معها لأنها تمثل القيم الأمريكية والإسرائيلية معا». ثم مضت تضيف بعاطفة جديرة بدافيد هورويتز إن عنف إسرائيل ضرورى من أجل «البعث برسالة إلى حماس وحزب الله، وأيضا إلى السوريين والإيرانيين» حيث إن تلك الأنظمة ومعها المتطرفون الإسلاميون «شموليون: إنهم الشموليون الجدد للقرن الحادى والعشرين».

ولكن، وكوزيرة للخارجية، اضطلعت كلينتون بدور البوق لسياسة أوباما الخارجية والإمبراطورية الأمريكية. وكما رأينا أعلاه، فقد قام أوباما كرئيس منتخب بتعيين «فريق الأمن القومي» بحيث يمثل استراتيجية الولايات المتحدة الجديدة كقوة عالمية. وبعد مقدمة أوباما، عرضت كلينتون بإيجاز وإحكام للقوة الأمريكية قائلة:

«إن الشعب الأمريكي بانتخابه باراك أوباما رئيسا قادما للولايات المتحدة قد طالبوا، ليس فقط بتوجه جديد بالداخل، بل بجهد جديد لتحديد وضع أمريكا في العالم كقوة للتغيير الإيجابي. نعلم أنه لا يمكن حماية أمننا وقيمنا ومصالحنا من خلال القوة وحدها، أو، حقا، بواسطة الأمريكيين وحدهم. علينا اتباع دبلوماسية نشطة باستخدام جميع ما يمكن حشده من أدوات من أجل بناء مستقبل مع شركاء أكثر وأعداء أقل، فرص أكثر وأخطار أقل لجميع من يسعون إلى الحرية والسلام والازدهار».

تعتبر كلمات كلينتون وزيرة الخارجية مقدمة لوضعها القيادي في سياسة أوباما الخارجية، وتعريفا بموقف وزارة الخارجية الاستراتيجية الجديد من «القوة الذكية». تعلمت كلينتون خلال سنوات طويلة من الاختلاط باليمين الأكثر تطرفا انتحال استراتيجيات «القوة الناعمة» ولغتها واستخدامها خارج مجالات المحافظين الجدد، أي أن أوباما وكلينتون تحاشيا تسمية «القوة الناعمة» باسمها الأصلي عن إدراك وحرص. توضح كلينتون في سيرتها الذاتية، ودونما لبس، أنها مدركة تماما أن تدابير المنظرين اليمينيين من أمثال روبرت كيغان، والذين أطروا النقاشات حول قوة الولايات المتحدة بعد ٢٠٠١ على أنها قضية للقوة مقابل الضعف. من ثم، فقد نصت بوضوح قائلة «علينا أن نستخدم ما يُطلق عليه القوة الذكية: المدى الكامل من الآليات الموجودة تحت تصرفنا - الدبلوماسية والاقتصادية والعسكرية والقانونية والثقافية - ونختار الآلية الصحيحة، أو مجموعة منها، وفقا لكل وضع». توضح الصفحة الإلكترونية لمكتب كلينتون للشئون العامة الخطوط العريضة للوسائل والتكتيكات التي من خلالها تأمل إدارة أوباما تنفيذ أجندتها. وفي واقع الأمر فإن لغة «القوة الذكية» تبدو منعشة

للنخب العالمية حيث إنها تتحدث عن «الإنسانية المشتركة» للأعداء، وتتطلب محاولة الوصول إلى الأصدقاء والأعداء معا والتواصل معهم وتنشيط التحالفات القديمة وتصنيع أخرى جديدة». ومن هذا المنطلق فإن القوة الذكية وسيلة مأكرة لنشر مظهر القوة وليس نشر القوة ذاتها وتوزيعها؛ إنها تنتشر المصادر الصارخة للقوة التي تشع من المراكز الإمبريالية لرأس المال والتحكم، أى تنتشر المسؤولية واستحقاق اللوم بعيدا عن الأقوياء وتوزعها بين حلفائهم الأكثر ضعفا، ومن ثم، نرى أن الحس بالتضمين هو الجوهر الفلسفى للانتقاء والاستيعاب، ويعد جوهريا فى رؤية أوباما الإمبريالية، إنه الوسيلة الديبلوماسية لجعل الآخرين «يريدون ما نريده نحن».

ويعد تسمية كلينتون وزيرة للخارجية، أشاد الكثيرون فى الصحافة باستراتيجية القوة الذكية و«البرجماتية المبدئية»، وواقعا مزجت هذه الاستراتيجية «برجماتية» زكريا، مع «مثالية» لويس التى تستخدم «القيم الشمولية» مرشدا إلى «التغيير الإيجابى فى العالم». بصياغة أخرى، كانت روايتها مزجا يغلب عليه مبادرة فينكس، مع عتاد (هاردوير) مُحسن ولغة واضحة محددة كتجهيزات للقوة الصلبة. وفيما أبقت وزيرة الخارجية على إمكانية توجيه الضربات العسكرية المهلكة خيارا حاضرا لا يتم التحدث عنه، كما ظل دائما، فقد مضت تستدعى آليات الإدارة الإمبريالية ووسائلها التى لم تتوقف هى وأوباما عن تكرارها طوال توليها مناصبهما، أى «البرجماتية»، «الفضائل والمبادئ الأمريكية»، «تعددية الأطراف»، «الشراكة» و«المؤسسية» أو إقامة مؤسسات دولية وداخلية ودعمها والتحكم فيها. وإذا لم تكن هذه الشراكة والمؤسسية ممكنة، تتوجه الولايات المتحدة نحو دعم التنظيمات الجماهيرية القاعدية، والنشطاء والتنظيمات غير الحكومية أى المنظمات المحلية وبرايج التدريب والإعلام المستقل. لا تذكر كلينتون أبدا مستشاريها أو الفريق الذى لعب الدور المفتاح فى مبادرة فينكس، لكنها تورد مقترحاتهم بإسهاب، وتقول إنه وبدلا من استخدام الولايات المتحدة قوة الدولة والتحدث عن ذلك بصراحة، فعليها أن تنمى مجموعات معارضة داخل الدول المارقة وتستوعبهم وتتودد إليهم من أجل المستقبل، و/أو تعمل على إثارة الضغوط

الداخلية. تذكر كلينتون أن تلك الاستراتيجية حكيمة (رغم أنها إمبريالية، وهذا ما لا تذكره)، وتستشهد بشاعر قديم لتوضح أن القوة الذكية والنزوع إلى الإقناع ليست أفكارا راديكالية، وأن الرومان كانوا من داعى استخدام القوة والإقناع.

ما يميز زمن العولمة الذى بدأ مع بيل كلينتون هو أن آليات الاستيعاب والضغط والإقناع «طويلة» المدى ومرتبطة بـ «التنمية» فى المجتمعات المتخلفة واقتصاداتها وثقافتها، وتغييرها وإدماجها فى الاقتصاد الكوكبي. تستخدم كلينتون، بما لا يختلف كثيرا عن الرومان، القوة الذكية لربط الديمقراطية وحقوق الإنسان بالسياسات النيولبرالية، تحت غطاء «التنمية الاقتصادية». ليست حقوق الإنسان والأجندات السياسية بدرجة التصدع التى كانت عليه فى زمن بوش، بل هى مرتبطة فى خطاب القوة الذكية بوضوح بأسلوب لا ينفصم عراه بأجندة سياسية أكثر شمولاً. تذكر كلينتون هذا تحديداً فى خطاب سياسى مبكر لها بجامعة جورج تاون حيث تقول «ليست حقوق الإنسان والديموقراطية والتنمية أهدافا ثلاثة منفصلة بأجندات ثلاث منفصلة». بصياغة أخرى، فإن الأجندة التكاملية الكلية، بحسب رؤية أوباما، الخاصة بالتواجد الكوكبي للولايات المتحدة، هى أجندة ليس بها مساحة للمعونات الإنسانية أو مناصرة حقوق الإنسان بأسلوب غير متصل بالأجندة السياسية. من ثم فإن «تبنى المستويات الأساسية لخير الشعوب - الطعام، المأوى، الرعاية الصحية، والتعليم - والصالح العام المشترك - مثل الحفاظ على البيئة والحماية من الأمراض الوبائية وتوفير احتياجات اللاجئين»، ليست من مسئوليات الولايات المتحدة المباشرة، بل هى مهمة الحكومات الديمقراطية التى تديرها الولايات المتحدة بواسطة «أدواتها وتكتيكاتها المرنة». ثم تمضى كلينتون لتقول إن واشنطن ستساعد تلك البلاد التى تربطنا بها شراكة «كى تستطيع الحصول على السلطة والوصول إلى التقدم الذى نرغبه، أما تلك الحكومات غير المستعدة لإحداث التغييرات التى يستحقها مواطنوها، فينبغى علينا الضغط بقوة على قادتها لإنهاء القمع».

وكما رأينا فى خطاب كلينتون بجورج تاون، فإن عقيدة «البرجماتية المبدئية»

مغلقة بطبقة براقية من الاهتمام بحقوق الإنسان، والحريات للجميع، والأهم، بتبنيها لقضايا النساء وبخاصة في العالم الإسلامي. ظلت كلينتون لفترة من الوقت من القيادات المناصرة لاستخدام قوة الولايات المتحدة العسكرية لتحرير النساء من قمع الذكور ذوي البشرة السمراء. وكوزيرة للخارجية في عهد أوباما، لم تكف كلينتون بالوعد بعدم التخلي عن النساء الأفغانيات، لكنها كانت أحد أكثر المشجعين المفوهين لاستخدام شجاعة جنود الولايات المتحدة وحلفائها لإعادة الأمل إلى كثير من النساء والعائلات في أنحاء أفغانستان. وقد رأينا كيفية انتقاء قضية حقوق النساء واستخدامها لتصنيع الموافقة على استعمال سياسة خارجية تدخلية سواء كانت السياسات القائمة على أساس التدخل العسكري أو «الإقناع». وبذلك مسألة، بالنسبة لإدارة أوباما، دالة على النهج التكامل الكلي لإشهار القوة السياسية على مستوى الكوكب. ومما لا شك فيه فبإمكان المرء أن يرى كيف تمثل مجموعات الأمن القومي التابعة لأوباما وكلينتون وبايدن التوترات الدقيقة التي لا تكاد تلاحظ حتى داخل إطار القوة الناعمة أو الذكية، حيث إن هؤلاء المستشارين والديبلوماسيين والمسؤولين هم تنويعه من «البرجماتيين» من الصهاينة والحزب الديمقراطي، والذين لدى الكثير منهم علاقات منذ وقت طويل مع المجالس المعيارية المؤثرة، ومراكز الأبحاث والدراسات والتنظيمات «الليبرالية» مثل مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، ومجلس العلاقات الخارجية، ومعهد برووكينجز. يتضمن المستشارون والمسؤولون الدائمون والمؤقتون جميع منظري الحزب الديمقراطي لقوة الولايات المتحدة الأحادية مثل دنيس روس، ومارتن إنديك، وبرووس ريدل، وجيمس ستاينبرج، وأن ماري سلوتر، وريتشارد هولبروك، وأنطوني لايك، وسوزان رايس.

أوباما يتصل من الإسلام:

أثناء الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٨، اجتمع التلاقي الأيديولوجي بين عنصرية أمريكا البيضاء ضد السود وكراهية التيار السائد للمسلمين ليشكل حملة دعائية قوية مضادة للمرشح الرئيسي عن الحزب الديمقراطي. كان استطلاع جالوب قد بين

أن ثمة انطبعا مؤيدا لأوباما في العالم العربي والبلاد الإسلامية الأخرى. أضافت علاقة أوباما برشيد خالدي والمزاعم بأن حماس تدعم ترشحه مزيدا من الوقود الذي زاد إشعال تمثيلات أوباما، مرشح الحزب الديموقراطي، بوصفه إرهابيا، ومتعاطفا مع الإرهابيين، ومسلما في السر، ومرشحا مناصرا للفلسطينيين وكارها لليهود، قسر الصهاينة الأمريكيون من أمثال مايكل أورينز، الذي أصبح فيما بعد سفيرا لإسرائيل في الولايات المتحدة، طريق أوباما للسلام في الشرق الأوسط على أنه «الطريق إلى بغداد وطهران الذي يمر من خلال بيت لحم ونابلس».

في وقت مبكر من عام ٢٠٠٨، أشاع كنت لامب، وهو قرصان مدون تافه، أن أوباما عربي بنسبة ٤٣,٧٥٪، وأنه لم يكتف فقط بفبركة جنسيته، بل أيضا قام بفبركة جذوره الأفروأمريكية ليحصل على أصوات السود، وأنه كعربي استغل فترة عضويته القصيرة بمجلس الشيوخ ليجمع حوله شلة سرية من «أثرياء العرب المعادين لإسرائيل» الذين يحتلون مناصب مرموقة. في مقال لها بدورية كونسيرفاتيف فويس (صوت المحافظين) قبل شهر من انعقاد المؤتمر القومي للحزب الديموقراطي، كتبت ليندا كوان تقول «فكروا فقط في الإمكانيات التي ستتاح له لتجميع محتالي العالم وأشراره وإرهابيه معاً في بيتنا الأبيض». عملت جيوش جرارة من المدونين اليمينيين المرتزقة من أمثال دانييل بايبس وپاميللا جلر ودبي شلوسل بمرافقة حشد من متحدثي القنوات الفضائية على التأكد أن مثل تلك الأحاديث العبثية، تجد أذانا خصبة مصغية في أوساط المحافظين وصفوفهم لتشويه سمعة أوباما. عبر المتظاهرون المؤيدون لماكين، وهم يحملون البنادق، عن خوفهم وغضبهم من أن أوباما مسلم وعربي، وأيضاً عبرت مناصرة لماكين متقدمة في العمر في اجتماع ببلدية المدينة عن ارتيابها في أوباما لأنه عربي. تم تداول أعداد مفرطة من صور أوباما وهو يرتدي الزي الإسلامي بدرجة أن نشرت ذا نيويورك مجازين رسماً يسخر من تلك الترهات على غلافها يصور أوباما في زي مقاتل إسلامي يصافح الزعيم الأسود ميتشل فيما تشتعل النيران في العلم الأمريكي وتظهر صورة بن لادن معلقة على الجدار.

أحدثت الدفاعات بأن أوباما أسود، وأمريكي أصيل، ومسيحي ملتزم نفس الأثر

المنفر الذي أحدثه الهجوم عليه وتشويهه بصفته عربياً ومسلماً، في اجتماع البلدية ذلك، «دافع» ماكين عن أوباما قائلاً إنه ليس عربياً بل رجل عائلة ملتزماً ومواطناً.

تعتبر اتهامات أوباما بأنه عربي ومسلم التي واجهتها حملته الانتخابية ورئاسته، تحديداً، برهاناً على الدرجة التي أصبح الخطاب الحضارتي للويس وغيره من دعاة الإسلاموفوبيا متعضوناً أيديولوجياً في الثقافة السياسية الأمريكية، ومن ثم، يمكن القول إن تحاشي أوباما للخطاب الحضارتي وتجنبه لغة «نحن مقابل هم»، هو مناورة سياسية ضرورية. وكرجل أسود كان والده مسلماً، وقضى طفولته في أكبر بلد إسلامي [إندونيسيا]، إضافة إلى أن اسمه الأوسط عربي واسم لأحد أكثر شهداء الإسلام نبلاً من ثم، لا يملك باراك حسين أوباما التأكيد على الخلافات الحضارتي الواسعة بين ثقافته المسيحية والعالم الإسلامي، وهكذا يجد من الأفضل له اللجوء إلى خطاب «إنسانيتنا المشتركة» الذي يزيغ الأبصار عن تاريخه العائلي كابن لإفريقي مسلم معادٍ للكلونيالية سجن ستة أشهر لنضاله ضد حكم البيض.

كانت تلك النقلة إلى القوة الناعمة نقلة ذكية، وكانت أمريكا البيضاء الليبرالية تتوق للاحتفاء بتنوعها وحالة التضمين غير المقصودة بعد ثماني سنوات من غرس الارتياب والفرقة بين أقليتها المسلمة. بعد انتخابه، مضى الأمريكيون البيض يهنتون أنفسهم لانتخاب باراك أوباما رئيساً، إذ إنهم شعروا أنه قد تمت تبرئتهم، ليس فقط من عنصريتهم التاريخية، بل أيضاً من عبء الصراع الحضارتي والانتهاكات والأخطاء الفجة التي ارتكبت في حق إخوانهم من الأمريكيين أثناء سنوات بوش، وأنه قد حان الوقت للنيل من الأشرار «الحقيقيين» تلك المجموعة الصغيرة من الإرهابيين الذين يبدون استياء المسلمين والمسيحيين من بعضهم ويبغضون كل «ما نمثله».

وبحلول موعد تنصيبه رئيساً، أسهب المعلقون من أمثال كريس ماثيوز في الحديث عن كيف أن العالم الإسلامي لابد وأن يشعر بالسعادة حينما يعلن اسم الرئيس كاملاً: باراك حسين أوباما، لدى أدائه القسم. بيد أنه وأثناء التنصيب تم الإعلان عن أوباما كالتالي «الرئيس المنتخب باراك إيتش. أوباما» مع حذف لفظ حسين. دعمت

الغالبية الساحقة من العرب والمسلمين الأمريكيين أوباما رئيساً. بين تقرير قوة المهمات المسلمة الأمريكية للحقوق المدنية والانتخابات أن ٨٩٪ من المستطلعين الأمريكيين المسلمين يدعمون أوباما. وعلى موقع «المسلمين الأمريكيين لمناصرة أوباما» كانت رسالة المجموعة هي «نحن ندعم أوباما لأنه، بين أسباب أخرى، يرفض سياسات الخوف، ويطالب أمتنا أن تتبنى هويتها الجماعية بحيث يكون لكل أمريكي نصيب في نجاح ورفاه جميع الأمريكيين».

كان مصدر دعم الجالية العربية والمسلمة الأمريكية لأوباما هو حسها المطلق بالحصار الذي عانت فيه ظل إدارة بوش. وعلى الرغم من هذا الدعم، حرص أوباما على الابتعاد عن العرب والمسلمين الأمريكيين إلا إذا كان سيقيد منهم سياسياً. مثلاً، في خطاب له أثناء حملته الانتخابية بدترويت التي يسكنها أعداد كبيرة من العرب الأمريكيين، لم يتردد فريق أوباما في أن يطلب من امرأتين محجبتين الابتعاد، حيث كانتا تقفان خلفه، كي لا تظهر في الصورة طوال فترة خطابه. وفيما بعد، ذكر أوباما الجميع في خطابه الاستهلاقي قائلاً: «إننا في حرب مع شبكة بعيدة المدى من العنف والكراهية». وفي واقع الأمر، فإن المسلمين والعرب الأمريكيين - وأياً كانت درجة خداعهم لأنفسهم بالإمكانات المبهجة لانتهاج منسى زمن بوش - لم يكونوا بحاجة لمن يذكرهم بأن أوباما ترشح على أساس حملة أمن قومي تماماً مثل جون ماكين، وأن خطاب القوة الناعمة ونغمة صوته الحريرية هي فقط التي جعلت الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين أقل غضاظة. وعلى الرغم من حرص أوباما على تحاشي اللغة الحضارية التي كانت قد أصبحت موضحة قديمة إلا أن المعايير ظلت كما هي من حيث بنيتها ولم تتغير.

وكما رأينا، فإن سبب وجود الأمن القومي ذاته يربط مع الأجزاء المعقدة المتشابكة التي تجملها القوة الذكية (بما في ذلك الازدهار الاقتصادي، واقتصادات السوق الحر، والحقوق الشمولية، وبناء الديمقراطية، وإصلاح الهجرة، والشراكة وتعددية الأطراف، والطاقة المتجددة، وإصلاح الرعاية الصحية، إلخ). وبناء على

ذلك، يتناسج شكل مبطن من الإسلاموفوبيا في جميع القضايا تقريبا التي تم عرضها في الحملة المبكرة لإدارة أوباما الذي استخدم بذكاء هذه الحقيقة لمصلحته، وقدم وجها جديدا للإمبراطورية يبدو وأنه يتحاشى السياسات التصادمية الصلقة لحكم بوش الإمبريالي، ومن ناحية أخرى يؤكد لأمريكا البيضاء أنه صديق لوزارة الدفاع والأمن الداخلي وول ستريت وصناعات الرعاية الصحية. نجده يقول في خطابه الاستهلالي إن «الأسلوب الذي نستهلك به الطاقة يقوّى أعداؤنا ويدمر البيئة». علاوة على ذلك، نجده كثيرا ما يربط بين الأمن القومي وبين التهديدات التي يتعرض لها من خلال المسلمين الذين يتحكمون في النفط الذي يقوم عليه الاقتصاد الأمريكي. نجده يعلن وقد وُجد في حفل تخرج بوستوينت مناسبة ملائمة «علينا أن نطور طاقة نظيفة بحيث يمكننا الفكك من قيود النفط الأجنبي». استخدمت مرة أخرى خدعة الربط بين مصالح أمريكا العسكرية والدفاعية والقومية وبين تهديدات تكاد ألا تخفى قائمة على أساس الإسلاموفوبيا ومرتبطة بالنفط العربي والإيراني حينما أعلن أوباما «التوسع في التنقيب عن النفط والغاز بالقرب من الشواطئ الأمريكية». وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة تستورد ١٠٪ فقط من احتياجاتها النفطية من الشرق الأوسط، أي أقل مما تستورده من كندا ونيجيريا والمكسيك، إلا أن الربط العلني المستدام بين أمن أمريكا النفطى والتهديد الذى يتعرض له من البلاد العربية يكشف أن هذا يتعلق بالإسلاموفوبيا الأمريكية بأكثر مما يتعلق باعتمادها النفطى [على الدول العربية الإسلامية]. أعيد تسمية سياسة الطاقة الفدرالية وأُطلق عليها مسمى «أمن الطاقة الأمريكي» وأعلن ذلك فى قاعدة أندروز الجوية، حيث أنهى أوباما خطابه، وفيما أبقي على تيمة «النفط الأجنبي» طوال الوقت، بأن أكد كيف ستؤدى استراتيجية الطاقة الشاملة التى يتعاون فيها القطاع العام والقطاعات الخاصة إلى ألا تصبح الولايات المتحدة «مقيدة إلى أوتاد نزوات ما يحدث فى أماكن أخرى بالشرق الأوسط أو البلدان الرئيسية الأخرى المنتجة للنفط».

يتم التعبير عن موقف الرئيس إزاء «الطاقة والبيئة» فى موقع البيت الأبيض على

الشبكة الإلكترونية حيث جاء به «يعرض إدماننا للنفط الأجنبي ولمصادر الوقود الأحفورية اقتصادنا وأمننا القومي وبيئتنا للأخطار»، ثم يؤكد لنا أن «الرئيس يعمل مع الكونجرس، ومن أجل أخذ بلدنا في اتجاه جديد، على إصدار تشريع شامل للطاقة والمناخ يحمي أمتنا من المخاطر الاقتصادية والاستراتيجية الجادة المرتبطة باعتمادنا على النفط الأجنبي». وعلى حين أن «الاعتماد» على «النفط الأجنبي» و«إدماننا» ظلت مفاهيم تستخدم لإثارة الكراهية ضد العرب والإيقاع بهم منذ الحظر الذي فرضوه على النفط عام ١٩٧٣، فإن استدعاء أوباما للاعتماد على «النفط» الأجنبي مثقل بالمعاني والأهداف. فعلى حين أنه رئيس في زمن الحرب وقائد أعلى للقوات المسلحة التي احتلت ثانی أكبر بلد منتج للنفط، نجد أنه بحاجة إلى أن ينأى بنفسه عن سلفه وعن «الحرب من أجل النفط» التي شنها، إذ إن بالإمكان جعل مسألة اعتماد الولايات المتحدة على الطاقة من مصادر أجنبية قضية أمن قومي من خلال تقبل التهديد الخيالي بأن الأوبك ستُغلق صنبور النفط من أجل أن تجثو الولايات المتحدة كقوة اقتصادية وسياسية على ركبتَيها، أما البعابيع المضمرة التي لم تذكر بالاسم فهم العرب والإيرانيون.

تستخدم «البعابيع» أيضا وسيلة لاكتساب الدعم لطاقت «بديلة» كي لا تخضع الولايات المتحدة لقطعان البلدان الإسلامية ذات الثروات النفطية. يميز أوباما نفسه عن سلفه بأسلوبه المتعرج بين نزعات حربه المعلنة وبين مطالب أمريكا الوسطى، ويعتبر مثال المهاجرين الذين لا يحملون وثائق دالا قيما يتعلق بالإسلاموفوبيا. نرى أوباما، من جهة، يأخذ موقفا ضد تشريعات ولاية أريزونا المعادية لللاتينيين وللمهاجرين، ومن جهة أخرى، نجده يُوخِّع المهاجرين «غير القانونيين» ويعمل على عسكرة الحدود كي يُرضى الأمريكيين البيض. وكما في حالة المسجد المزمع إقامته على مقربة من موقع أحداث ٩/١١ «Ground Zero Mosque» فإن إصرار الرئيس المتواصل على وقف إدمان أمريكا للنفط شرق الأوسط والفرنزولي يستخدم لحشد مشاعر جماهير أمريكا الوسطى، حيث يطمئن الرئيس أمريكا البيضاء على أنه

يشاركهم مشاعر الاستياء من السماح لذوى البشرة السمراء، سواء كانوا مسلمين، أو قنزويليين كاثوليك، بالتحكم وامتلاك موارد هي من حق الأمريكيين، وذلك لأنها موارد تعمل بها الإمبراطورية الأمريكية.

إنها إسرائيل ايها الضيف:

كان ترشح أوباما ورئاسته حملة قُصد بها تحديدا ضمان الثروة والقوة والنظام الرأسمالي المعولم الذي تتحكم فيه البنوك، وكبرى الكورپوريشنات والرأسمال النقدي، وليس الناس والأفراد. أمد خطاب القوة الناعمة الذي استخدمه أوباما تيار الولايات المتحدة السائد بمنطقة مريحة يعيد فيها التأقلم مع عنف قوتهم الكوكبية كما مارسها المحافظون الجدد بفجاجة ووضوح. قدّم، على المستوى المحلي، رؤية إصلاحية للشركاتية الأمريكية، يصبح للجميع فيها مكان على «الطاولة». وبالمثل، مضى يلقي المحاضرات، على المستوى الدولي، عن أن القوة الأحادية ستُمارس من خلال كرم قوة إمبريالية «مستنيرة» خيرة تعرض مشاركة «المصالح المتبادلة» بين مختلف البلدان. لكن تلك النقلة المعيارية، وعلى الرغم من أنها لم تبعد كثيرا عن نظرة زكريا، أو حتى كيسنجر للقيادة الكوكبية، أثارت قلق الذين كانوا قد قاموا بتطبيع ميكانيزمات القوة الصلبة ونجحوا في استخدامها من أجل هندسة عالم يستوعب رؤيتهم النبوية الخاصة.

لم تكن قضية دعم الولايات المتحدة لإسرائيل التي طفت على السطح أثناء ترشح أوباما ورئاسته، لم تكن فقط تجليا للسياسات المصغرة على أرض الواقع بل دلالة على إعادة تشكيل أيديولوجى أوسع لرؤية قوة الولايات المتحدة. وكما رأينا، فقد كان أوباما قد تعرض للهجوم والتشهير من قبل لوى «إسرائيل» والمنظمات الصهيونية ومجموعات المحافظين الجدد والإنجيليين بصفته «معاديا لإسرائيل»، واستخدام اسمه الأوسط، أى حسين، سلاحا ناجعا فى هذا التشهير. بيد أنه، وأثناء الحملة الانتخابية، لم تختلف سياسة أوباما المقترحة للشرق الأوسط كثيرا عن سياسة هيلارى كلينتون أو جو بايدن. فى المراحل التمهيدية المبكرة، عملت منظومة مشتركة

من صغار مستشاري الرئيس كلينتون في فريق الأمن القومي لهيلاري كلينتون وأوباما معا، وكان كثيرون من هؤلاء قد شاركوا في إعداد مبادرة فينكس منذ عام ٢٠٠٥. وفيما انشغلت هيلاري بإبعاد نفسها عن المصادقة على غزو العراق، وعد أوباما بتقليل حجم التواجد العسكري هناك (وليس الانسحاب) مع مضاعفة الجهد العسكري في أفغانستان ومعه عدد القوات. أما سياسته في الشرق الأوسط فلم تتعد القبول بالمبادئ التي أرسيتها اتفاقيات أوسلو في العقد السابق. بيد أن مجرد فكرة احتمال توسطه في مباحثات السلام التي كانت قد تفسخت أثناء رئاسة بوش، كانت إشارة كافية لصهاينة اليمين الأمريكي بأن أوباما قد يُجبر إسرائيل على احترام التزاماتها بحل الدولتين، لكن أوباما كان حريصا على تهدئة مخاوف ناخبيه الموالين لإسرائيل (أي الحزب الديموقراطي). كذلك، لم تُبرز علاقة أوباما الوثيقة بزينجيو برجنسكي أحد فرسان الحرب الباردة، وروبرت مالي كبير مفاوضي بيل كلينتون بكامب دايفيد، لم تُبرز في أوساط الجماعات الموالية لإسرائيل. أبلغ أوباما مُحاربه في حوار لمجلة ذا أطلانتيك أنه يؤمن بقوة أن إسرائيل «ديموقراطية نابضة، الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» وأن دعمه لها ولأمنها ولولاء الولايات المتحدة لها وتمسكه بالعلاقة الخاصة التي تربطها بها لا يتزعزع. أما الفلسطينيون الذين تخيلوا أن النقلة المعيارية التي تبناها أوباما تضمنت حلا منصفيا عادلا للنزاع الفلسطيني الصهيوني، فقد خاطبهم أوباما مباشرة بالقول «انظروا، إنني متعاطف معكم ومع احتياجكم لأن تكون لكم دولة قابلة للحياة، لكن عليكم أن تفهموا التالي، إذا كنتم تنتظرون أن تُبقي أمريكا علي مسافة بينها وبين إسرائيل، فأنتم واهمون، ذلك لأن التزامنا، التزامنا بأمن إسرائيل، لا يقبل التفاوض أو المساومة».

قام أوباما، أثناء الحملة، بجولة في الشرق الأوسط، ضمنها زيارة لإسرائيل تاکد من أن تلقي دعاية إعلامية واسعة، وقام خلالها بزيارة لمستعمرة سيدروت المتاخمة لغزة، والتي كانت فرصة لالتقاط كثير من الصور فيما كان ينظر إلى قذيفة من صاروخ أطلقته حماس علي المستعمرة. زار أيضا «حائط المبكي» بالقدس الشرقية

المحتلة، ومتحف الهلوكوست حيث تعهد علنا بألا يحدث ذلك مرة أخرى أبدا «Never Again». لم يكتف بعقد اجتماع برئيس الوزراء وزعيم الليكود بنيامين نتنياهو، بل قضى وقتا ليس بالقصير مع اثنين من أفضل حلفائه المحتملين: إيهود باراك وتسيبي ليفني. أتت جولته في إسرائيل بعد أسابيع من الخطاب الذي ألقاه أوباما في المؤتمر السنوي لتنظيم إيباك والذي كان قد سبقه خطاب ألقته نانسي بلوسي، عضوة مجلس الشيوخ الصهيونية المتشددة. لم يكن الخطاب لافتا فقط لأن المرشح للرئاسة أكد أنه يعمل مع جون ماكين الجمهوري لدعم الدولة اليهودية أو لأن أوباما ذكر عملية السلام فيما كان يؤكد علي أن الولايات المتحدة ستظل وسيطا محاذا. ولم يكن الخطاب منفردا من حيث تكرار سيناريو «القيم المشتركة» و«المصالح المشتركة» بين إسرائيل والولايات المتحدة، أو لأنه أدمج فيه دعمه للحرب علي الإرهاب وعزل إيران واحتواء حماس ونزع سلاح حزب الله. لم يكن متفردا لأن أوباما مضى يتغني بترنيمة أن البيت الأبيض سيحافظ علي «التزامه الذي لا يتزعزع بأمن إسرائيل».

مما لا ريب فيه أن توجه المناخ السياسي كان وراء خطاب أوباما بمؤتمر إيباك والذي كان قد سبقته حملة إيميلات ودعاية بالإنترنت مضت تؤكد علي اسم أوباما الأوسط - حسين - وأصوله المسلمة وصلت إلي حدد التكرار الممل، وبما يتسم به أوباما من مرونة وانتقاد خطابي، نجده يعود إلي النقاط الرئيسية في خطابه لطمأنة جماهيره الموالية لإسرائيل، فيعتمد إلي الربط بوضوح بين خطته للطاقة المتسمة بالإسلاموفوبيا وبين الأمن القومي لإسرائيل بأن يتعهد بالارتكاز علي «قانون التعاون بين إسرائيل والولايات المتحدة في مجال الطاقة لتعميق شراكتنا لتطوير مصادر بديلة لها». لكن الأكثر دلالة هو أن اعتراف أوباما بالحملة الدعائية واستجابته لها يكشف عنصرا لكراهية الذات والخجل من كنهها. من اللافت أنه لا يتجاهل تحريضات مهاجميه والمنتقسين من قدره، كما أن المرشح للرئاسة لا يواجه الإسلاموفوبيا المتعصبة - التي استُخدمت أداة سياسية للتشهير به - والتي تربط بين اسمه المسلم وبين الإرهاب الكوكبي. بدلا من ذلك، يطمئن باراك حسين أوباما مستمعيه بإيباك إلي أنه يتفهم مخاوفهم ويقول إن تلك «الإيميلات المستفزة» مليئة:

«بوشايات وتحذيرات رهيبة من مرشح معين للرئاسة وكل ما أريد أن أقوله هو أن تبلغوني إن أنتم رأيتم ذلك الشخص المسمي باراك أوباما لأنه يبدو مخيفاً. إذا كانت تلك الإيميلات قد عملت علي تشوش أي شخص فإبني أريدكم أن تعلموا أنني اليوم أتحدث من أعماق قلبي ووصفتي صديقاً حقاً لإسرائيل».

وفي إجابته علي التلميح بأن أوباما مسلم، يكشف المرشح دونما قصد عن كره ذاتي مكبوت لاسمه المسلم، اعترافاً برفض واع خجول لأصوله الإثنية علي أساس من الإسلاموفوبيا المستبطنة. ولو رأي البعض أن الرد لا يعكس كراهية للذات فمن المؤكد أنه ينقل بدلا من ذلك حذر أوباما من ذوي الأسماء المسلمة وارتياحه بهم.

وفي النهاية، عمل تأكيد أوباما المستدام علي أنه «صديق حق لإسرائيل» علي اكتسابه بعض أكثر المرتابين به حماسا إلي جانبه ومعهم ٧٧٪ من أصوات اليهود الأمريكيين. وبالتأكيد فقد حاز أوباما علي اهتمام أشهر الداعين الصهاينة بالولايات المتحدة، آلان درشوويتز وعلي دعمه المؤقت علي الأقل. وإلي جانب كون درشوويتز منظرًا أيديولوجياً ودعائياً، إلا أنه انتهازي شهير. في إحدى مشاركاته القليلة في ميدان الإعلام الرئيس الشركاتية (باستثناء فوكس نيوز) كتب درشوويتز مقالا افتتاحيا يصادق فيه علي ترشح أوباما للرئاسة، مقالا يمنع فيه كلا من ماكين ومنافسه درجات عالية لمواقفهما المؤيدة لإسرائيل، لكنه يهدف أيضا إلي تهدئة المخاوف من أوباما بقوله إنه من بين «أقوي الداعمين لإسرائيل» وإته في هذا يعد نظيرا لـ «تدكيندي، وهاري ريد، ونانسي بيلوسي، وبارني فرانك، وهيلاري كلينتون وميت رومني وجورج دبليو. بوش وأورن هاتش وچون ماكين». تكشف مصادقة درشوويتز المتأخرة عن استراتيجيات الجهات الموالية لإسرائيل، حيث إنه لم يكن أبدا مناصرا مسموعا لأوباما، بل إنه كان قد قاد حملة أمل من خلالها أن يجبر أوباما علي التخلي عن برجنسكي أكثر مستشاريه في مجال السياسة الخارجية توقيرا. معا لا شك فيه أن مصادقة درشوويتز المتأخرة نجمت عن رؤيته النتيجة النهائية وقد تبدت، هذا علي الرغم من أن تلك المصادقة الفاترة تُفصح عن المقصد الذي يكمن

ورامها، أي أنها تبين لقرائه أن الناخبين المؤيدين لإسرائيل عليهم التصويت لداعم إسرائيل الأقوي وليس بالضرورة للمرشح الأفضل بالنسبة لإسرائيل. وعلى الرغم من أن درشوويتز لم يكن أبدا منظراً أو أكاديمياً فذاً، إلا أنه أوضح أنه استراتيجي بالغ المهارة يفتش عن تكتيكاته في حقيبه القديمة ويخرجها في الوقت المناسب. فبعد أن اضطلع المحافظون الجدد، بدور الحزب الديموقراطي التقليدي في تبني القضايا الموالية لإسرائيل بل وتفوقوا عليهم خطابياً وإجرائياً، أمل درشوويتز في استعادة جمهور الناخبين الليبراليين لدورهم السابق. أتاح ترشح أوباما الفرصة لقلقلة التأثير المتنامي للأكاديميين اليساريين أو لذوي الفكر السياسي في الأحرار الجامعية والأوساط الليبرالية، بل وتقويض هذا التأثير. قال درشوويتز حرفياً إن فوز أوباما «سيعزز وضع إسرائيل في أوساط الليبراليين المترددين»، بصياغة أخرى، إن التصويت لأوباما هو استثمار في مصداقية سياسة الولايات المتحدة وأمدتها الطويلة، وتلك كانت تحديداً الرسائل التي حاول أوباما نفسه إيصالها.

لم تكن سياسة درشوويتز حينما عمل بعد ذلك على الدفع بأجنحة اليمين الأكثر تطرفاً إلى إدارة أوباما ناجمة عن سوء حسابات. اتسمت السنوات الأولى من رئاسة أوباما بعدد من الأحداث المهمة على الساحة الفلسطينية/ الإسرائيلية: حصار غزة المستمر، قصف غزة واجتياحها في ديسمبر ٢٠٠٨ وتقرير جولدستون الذي تلي ذلك، والهجوم على أسطول الحرية، وتوسيع المستوطنات وزيادة عددها، وقشل محادثات التقارب. ظل أوباما وفياً لالتزامه بالرباط الذي لا تنفصم عراه بين الولايات المتحدة وإسرائيل. لم يختلف رد فعل إدارة أوباما على قصف إسرائيل الإجرامي لغزة واجتياحها لها في ديسمبر ٢٠٠٨/ يناير ٢٠٠٩ كثيراً عن رد فعل إدارة بوش على قصف إسرائيل الوحشي للبنان واجتياحها له عام ٢٠٠٦، بل جاء متطابقاً مع المواقف الإمبريالية التي استمرت لعقود عديدة إزاء جرائم إسرائيل المتكررة ضد المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين، أي لوم الضحايا لأنهم استفزوا الغضب المشروع لإسرائيل الجريئة المعرضة للأخطار والتي لا خيار أمامها سوى «الدفاع» عن نفسها

وعن أمنها القومي. وكما وثّق الصحفي سيمور هيرش، قامت الولايات المتحدة بإرسال شحنة عاجلة من القنابل الحارقة لإسرائيل للحفاظ علي إمداداتها من تلك الأسلحة [المحظورة دولياً] أثناء حرب تموز علي لبنان. وبالمثل، وعلي الرغم من أن ذلك لم يلق إعلاماً واسعاً، أمدت الولايات المتحدة إسرائيل بتجهيزات جديدة من القنابل شديدة الانفجار والتدمير بعيد هجوماها علي غزة، وعبر مسئولون بالولايات المتحدة عن قلقهم من احتمال استخدام الإسرائيليين تلك القنابل «الذكية» الموجهة «Guided Bomb Unit-39s» ضد إيران بحيث تشعل أزمة عسكرية خطيرة في المنطقة. لكن إسرائيل وبعد أن تعلمت من فشلها في قتل السيد حسن نصر الله علي الرغم من تدميرها لضاحية بيروت الجنوبية وقرى الجنوب اللبناني، استخدمت القنابل المائة الجديدة لتدمير البنية التحتية في غزة وقتل قيادات حماس. وعلي الرغم من احتجاج العالم ضد استخدام إسرائيل غير المشروع للذخائر الفوسفورية البيضاء المحرمة دولياً وقصف الأهداف المدنية واستهداف المدنيين، إلا أن إدارة أوباما التزمت الصمت بعمامة فيما عدا ترديد ما مقولات فارغة تحدث علي «ضبط النفس» فيما تعترف بحق إسرائيل في «الدفاع عن النفس».

صادم هو دعم الولايات المتحدة لجرائم الحرب الإسرائيلية في غزة بمثل إضفاء البيت الأبيض المشروعية علي إقامة جدار الفصل العنصري والذي قضت محكمة العدل الدولية بأنه غير قانوني وبأنه انتهاك لحقوق الفلسطينيين الإنسانية، أو بمثل مصادقة إدارة أوباما علي حصار غزة اللاإنساني غير المشروع. وإذا نحينا جانباً سياسات وتفاوضات القنوات الخلفية، فقد بعثت إدارة أوباما برسالة علنية إلي حكومات إسرائيل اليمينية باستمرار البيت الأبيض في «حماية» إسرائيل دبلوماسياً وعسكرياً. تعضي سوزان رايس مندوبة أمريكا في الأمم المتحدة في تكرار مقولة أوباما بوضوح مرادة أن دعم الولايات المتحدة لسياسات إسرائيل «غير قابل للنقاش أو التفاوض». في البداية، حاول أوباما وقف تقرير جولدستون ثم إعاقته حينما أحيل إلي محكمة العدل الدولية، وبعد ذلك منع هو والصين وروسيا، مناقشة مجلس الأمن

له. وبالمثل، حاولت الولايات المتحدة إحباط محاولة إنشاء لجنة تقصي حقائق للتحقيق في استيلاء إسرائيل على أسطول الحرية في ٢١ مارس ٢٠١٠ والذي نجم عنه مقتل تسعة مدنيين كان أصغرهم سنا شاب أمريكي.

تتدفق التضمينيات الكاملة لفلسفة «القوة الذكية» التي ينتهجها أوباما وهيلاري كلينتون علي مرأي من العالم وتتجسد في سياسة الولايات المتحدة الخارجية بالشرق الأوسط ودعمها لإسرائيل. تصبح إقامة التحالفات والشراكات ضرورية لمحاولة فرض هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية وتوسيع مداها. كان تشكيل «تحالف الراغبين» ضروريا لشرعية سياسات الولايات المتحدة بالعراق وأفغانستان، ولترقيع مزيد من العقوبات ضد إيران حتي فيما كانت تتفاوض علي حلول دولية سلمية مع البرازيل وتركيا للقضاء علي ما يعبر عنه الغرب من مخاوف حول إمكانية تطويرها أسلحة نووية. لكن، حينما فرغ صندوق عدة القوة الذكية دون أن يحدث النتائج المرجوة، لجأت الولايات المتحدة إلي الوفاء بتعهد أوباما بالقاهرة بالتصرف بجسارة، وحقا، فقد أصابت نانسي بيلوسي حينما صرحت قبل اجتماعها بنانتنياهو في مارس ٢٠١٠. قائلة «إننا [أي الحزبين الديمقراطي والجمهوري] نتحدث بصوت واحد في موضوع إسرائيل».

وفي واقع الأمر فإن الكونجرس يتحدث بصوت واحد حول إسرائيل، وهذا التناغم لا يحدث بسبب التعويلات التي يتلقاها الأعضاء من إيباك، الأخرى، وكما أوضح المفكرون من أمثال نعوم تشومسكي، فإن هذا الانسجام بين الحزبين هو نتيجة تناغمهما مع السياسات الكارهة للعرب والمتأصلة في الثقافة الأمريكية. حينما ازدرت إدارة ناننتنياهو بصفقة نائب رئيس الولايات المتحدة أثناء زيارته لإسرائيل في فبراير ٢٠١٠ بإعلان التوسع في إقامة المستوطنات غير الشرعية بالضفة الغربية والقدس المحتلة، لم يسائل سوي القلة في حزب بايدن الإسرائيليون وذلك لأن الولايات المتحدة توافق جوهريا علي سياسة إسرائيل التوسعية، وبالمثل فإن استخدام إسرائيل للعنف ضد العرب الفلسطينيين واللبنانيين متقبل، مثلما كان العنف الذي مارسه البيض

ضد سكان أمريكا الأصليين أثناء فترة التوسع متقبلا. ولهذا السبب، نجد بيلوسي تصرح دوماً أن علي الولايات المتحدة الوقوف إلي جانب إسرائيل لدي قصفها لجيرانها العرب، إن قائمة أعضاء مجلس الشيوخ والنواب الأمريكيين الذين يتسلقون علي بعضهم كي يعلنوا دعمهم لاعتداءات إسرائيل العسكرية وانتهاكاتها لحقوق الإنسان أكثر من أن تحصى، ولا يحتكر أي من الحزبين حماية إسرائيل. أعلن عضو الكونجرس عن الحزب الديموقراطي تشارلس شومر، وهو صهيوني متطرف لا يخفي كراهيته للعرب. أنه «حارس» لإسرائيل، ثم صرح، في أعقاب مذبحه أسطول الحرية أنه ينبغي علي الإسرائيليين والأمريكيين «خنق» الفلسطينيين حتي يستسلموا، ولم تكن تلك الكلمات المستفزة سوي تعبير عن توجهات شائعة بين المسئولين المنتخبين، سواء من الحزب الجمهوري مثل ديك أرمي الذي طالب في ٢ مايو ٢٠٠٢ بطرد الفلسطينيين من الضفة الغربية أو هاري ريد الذي بين في برنامج بإحدى الفضائيات في ٤ يناير ٢٠٠٩ أن إسرائيل كانت الضحية لغزوها لغزة، وأن هذا كان ما «نالت» علي نبلها وكرمها حينما انسحبت في عام ٢٠٠٥.

الذيل الأيديولوجي يحرك الكلب:

لا يتسع هذا الفصل لدراسة ناقدة مستوفية لسياسة أوباما والولايات المتحدة إزاء إسرائيل والشرق الأوسط، فإن مثل ذلك المشروع يتطلب كتاباً مستقلاً بخاصة إذا أخذنا في الاعتبار حقيقة أن أوباما، وإدارته، والكونجرس قد أوضحوا بما لا يدع مجالاً للشك أن هدفهم الأول في الشرق الأوسط هو استمرار هيمنة الولايات المتحدة علي المنطقة بالتآزم مع دعم إسرائيل واستخدامها كحليف استراتيجي رئيسي في تحقيق هذه الهيمنة. بيد أن بؤرة هذا الكتاب، أي كيف مكنت الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجي تحول السياسات الأمريكية الداخلية والخارجية علي هدي العقدين الأخيرين، تسعى لإيضاح بعض جوانب «العلاقة الخاصة» بين الولايات المتحدة وإسرائيل. يلقي المقال التحريري الذي نشره آلان درشوويتز للمصادقة علي ترشح أوباما، بأسلوب يثير الدهشة ومتعمداً في أن، يلقي الضوء علي جوانب من التخطيط

الأمريكي الصهيوني الاستراتيجي بما قد يساعد الكثيرين منا علي استيعاب الدرجة التي تبدو بها الولايات المتحدة وأنها تدعم إسرائيل بدون تفكير بدرجة قد تضر بمصداقيتها ومصالحها وأمنها ومعها الإضرار بإسرائيل أيضا كما يري البعض من أمثال ستيفن كينزر في كتابه «Reset: Iran, Turkey and America's Future» (٢٠١٠). يصيب درشوويتز جزئيا حينما يزعم أن إسرائيل ليست قضية خلاف في الرأي بالولايات المتحدة، أو علي الأقل علي المستويين الفدرالي والتشريعي. يُقر جلن جرينوالد بمقال له بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٩ أن الهيئة التنفيذية وأعضاء الحزب الديمقراطي بالكونجرس «يسرون بخطوات متشابكة مع الجمهوريين فيما يخص إسرائيل» وفي أسوأ الأحوال يتنافسون حول من باستطاعته أن يكون «أكثر صقورية» من الآخر فيما يعمل أيضا علي توسيع نطاق «العلاقة الخاصة التي تربط الولايات المتحدة بإسرائيل».

بيد أن علينا أن نفصل بين الصهيانة الأمريكية وبين الإسرائيليين، وهذا ضروري ليس لأن بعض الإسرائيليين معادون للصهيونية، بل لأن الصهيونية الأمريكية جزء من منظومة أيديولوجية/ ثقافية/ سياسية منفصلة، وهنا، فإنني أذهب إلي أن اليهود الصهيانة الأمريكيين هم أمريكيون ذوو «ولاء مزدوج» بالتقابل مع الصهيانة الإسرائيليين الليبراليين أو المتشددين والذين يحملون جنسية أمريكية، حيث يشكل جوهر الهوية اليهودية للمجموعة الأولى تاريخ اليهود بالولايات المتحدة بأكثر ما تشكله التجربة التاريخية اليهودية في أوروبا، أو الهلوكوست. في سياق الولايات المتحدة، فعلي حين يبدو المعسكر المناصر لإسرائيل موحدا وأنه «يتحدث بصوت واحد» إلا أنه في واقع الأمر متنوع ومختلف المشارب، كثيرا ما يشكل المسيحيون الصهيانة بعض أكثر التوجهات تطرفا في إطار الحركة المناصرة لإسرائيل بالولايات المتحدة. ومع هذا، نجد أن المسيحيين الصهيانة يلعبون دورا هامشيا في أي نقاش حقيقي لموضوع إسرائيل والولايات المتحدة والشرق الأوسط، باستثناء الحقيقة ذات الأهمية الكبيرة وهي أنهم أعضاء في حركات وتنظيمات سياسية أوسع مثل حركة «المحافظين الجدد»

أو «حزب الشاي»، كما لعب المسيحيون الصهاينة من أمثال هاري ترومان وروبرت كينيدي، دوراً محورياً في تصنيع العلاقة الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة. بيد أن هؤلاء هم مجرد أفراد نشطاء أقوياء لا يعكسون الثقل السياسي الضئيل لحركة مسيحية صهيونية جمعية متناغمة. تطورت أجندة اليمين الإنجيلي على مر السنين تدريجياً من حركة محافظة معادية للسامية إلى حركة رأت أن ثمة تلاقياً في المصالح بين الحركة الصهيونية اليهودية الأمريكية وبين مصالح المحافظين الجدد. لم يحدث سوى منذ وقت قريب جداً أن كان للمسيحيين الإنجيليين الصهاينة أي إسهام يذكر في سياسات الولايات المتحدة الداخلية أو الخارجية بالشرق الأوسط. وإذا لم يكن بالإمكان تحليل تأثير المسيحيين الإنجيليين على سياسة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط وإسرائيل سوى مقارنة بمجمل تواجدهم ضمن الطبوغرافية السياسية الأمريكية الأوسع، إذن ينبغي علينا إعادة تقييم التأثير الحقيقي للوبي الإسرائيلي في تشكيل التحالفات الإسرائيلية الأمريكية، وذلك لأن نفوذ «الوبي الصهيوني» وبأساليب عدة، مبالغ فيه إلى حد كبير، هذا على الرغم من أنه، ويلا ريب، هو أحد أفضل اللوبيات في واشنطن من حيث التمويل والقدرات، وفي واقع الأمر فإن لديهم تنظيماً ضخماً وكفئاً يتجسد في إيباك، لكنه لا ينحصر فيه. يمتد نفوذ إيباك ليصل إلى داخل مؤسسات الدولة والهيئة التشريعية الفدرالية، ومراكز الشرطة والأحرام الجامعية، ويقدم مقال ميرشايمر وولت سرداً مفصلاً لأساليب إيباك ووسائله وأمواله ونفوذه. لا يكتفي إيباك بالإسهام بمبالغ كبيرة لتمويل معظم الحملات الانتخابية (بما في هذا تمويل الطرفين المتنافسين في نفس الحملة) بل إنه لا يتردد في عقاب من ينظمون حملات ضد السياسات المناصرة لإسرائيل أو يجاهرون بأرائهم عنها. والقول بأن إيباك والوبي المناصر لإسرائيل يعملون داخل إطار الثقافة السياسية لواشنطن وضعن حدودها هو إنكار لاستخدام إيباك بأسلوب بالغ الفعالية لموارده للزج بروايته في وسائل الإعلام والتيار الرئيسي ودهاليز السلطة. وبالمثل، فإن وضع إيباك في السياق الصحيح لا يعني بأي حال المصادقة على هجوم أبرام فوكسمان

وألان درشوويتز علي المصداقية والصرامة البحثية لأمثال ميرشايمر وويلت وپتراس وغيرهم.

تهيمن فكرة تحكم اللوبي اليهودي في سياسات واشنطنون من جهة لأنه من السهل تقبلها، كما تبدو أنها تنبعث من خلال دعاية إيباك وكفاته وتنظيمه الهائل، ومن هذا المنطق، فإن إيباك ضحية نجاحه، يخلق حضوره اللافت في دهايز السلطة ونجاحه في جمع الأموال، وحملات علاقاته العامة فكرة أن أيديه متواجدة في عقول جميع السياسيين وجيوبهم بمن فيهم الأفرع الأخرى للمجمع الصناعي/ العسكري/ الأكاديمي. علاوة علي ذلك، فإن الحجم المحض لإيباك وسطوته وثروته، وحضوره مرتفع الصوت في أي نقاش عن إسرائيل حتي لدرجة إجباره اللوبيات الأخرى المناصرة لإسرائيل والأكثر صداقة مع الإعلام علي خفض صوتها، يعرض ذلك التنظيم للفانتازيات المعادية للسامية والتنميطات المتعضونة في اللاوعي الثقافي والتاريخي لأمريكا البيضاء البروتستانتية. وفي واقع الأمر فإن فكرة القوة الشاملة الكاملة للوبي اليهودي تبدو منطقية بحيث يصدقها الكثيرون بسبب طبيعة مسارات السياسات في واشنطنون حيث تقوم الجيوب الأكثر امتلاء بتشجيع العجلات الحكومية والحزبية.

بيد أنه، وكما يذهب هذا الكتاب، فإن «الروابط التي تنفصم عراها» بين الولايات المتحدة وإسرائيل ودعمها الذي لا يتزعزع تنجم عما هو أعمق وأطول بقاء بكثير من مجرد سياسات «ادفع كي تلعب» التي تتبعها واشنطنون الشركات والتي تديرها اللوبيات. فلو أن دعم الولايات المتحدة الذي لا يتزعزع لإسرائيل يتوقف علي الأموال، فمما لا شك فيه أن باستطاعة اللوبيات المؤيدة للعرب وبمساعدة البترودولارات وأثرياء الجالية العربية الأمريكية أن تنفق أكثر مما ينفقه إيباك كي تحقق أهدافها. الأخرى هو أن الأيديولوجيا هي التي تُبقي علي دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، حتي في مواجهة انتهاكاتها البشعة لمواثيق حقوق الإنسان الدولية والقوانين الدولية. يتواعم الأمريكيون مع تلك الرواية القومية التي تُمجّد «الرواد» الذين قاموا بإصلاح أرض

«خاوية» وجعلوها أكثر إنتاجا ووفرة وسخاء من سكانها الأصليين، بل يشعرون بقدر من الود والحب تجاههم، يعتقدون أن التاريخ يضم الفائزين والخاسرين ويكتسب الفائزون الحق، بالرغم مما يمثله هذا من سوء حظ للخاسرين، في تقديم أنفسهم للعالم كنموذج يحتذى به في الديمقراطية والحرية، مهما اختلف هذا مع الواقع الذي يعاني منه السكان الأصليون. يتوأم الأمريكيون مع رواية غزو يشوع لأريحا ومع فكرة الشعب الإنجليزي الأبيض وهو يصلح الأرض [الأمريكية] التي وعد الرب بها ومن قبل أن يحتلها ذوو البشرة السمراء حتي علي الرغم من عدم وجود تاريخ سابق لتواجده علي هذه الأرض.

الأيديولوجيا التي تربط إسرائيل بالولايات المتحدة معقدة ومتعددة الأوجه وهي ذات الأيديولوجيا التي توظف التضمينات المختلفة للإسلاموفوبيا للحفاظ علي هيمنتها علي الكوكب، وهي أيديولوجيات تتناسج أيضا في جميع الأطياف السياسية بالولايات المتحدة وإسرائيل. ليست إسرائيل هي الذيل الذي يحرك كلب الولايات المتحدة، ووفقا لما قاله المفكر والمستشرق العظيم ماكسيم رودينسون منذ حوالي أربعة عقود فإن إسرائيل توظف كرأس جسر في المنطقة لخدمة مصالح سياسية وعسكرية خاصة: وكما صرح المسئولون السياسيون الإسرائيليون والأمريكيون تكرارا، فإن إسرائيل، علي أقل تقدير، «رأس جسر» للقيم الغربية والأمريكية في منطقة هي خلو من تلك القيم.

تتعرض تعقيدات تلك المصالح في تعقيدات المشهد السياسي الداخلي بالبلدين، وبالمثل، يعرض اللاعبون الداخليون بالبلدين يناون عن حلفائهم المحتملين في البلد الآخر، ويتحولون بعيدا عنهم، ويتوددون إليهم ثم يهاجمونهم من أجل المكاسب السياسية والقيادة الاستراتيجية. إن معادلة الولايات المتحدة/ إسرائيل عملية حسابية قائمة ومعقدة للعصالح السياسية والتلاعبات الداخلية والدولية. وعلي حين تقل المتغيرات في المعادلة دينامية، فإن كثيرا من الثوابت تشكل بنية المعادلة أي التفوق الإسرائيلي والأمريكي في المنطقة. وفي هذا الصدد فإن الرابط بين معادلة

العلاقات الأمريكية والإسرائيلية هو بنية فوقية أيديولوجية مشتركة، نوع من منطق الإمبراطورية الرأسمالية المشترك.

ما علينا إلا الاستماع لبعض أصوات العاملين في المجال السياسي الأمريكي كي نتبين كيف تتلاقى المصالح الإمبريالية والاقتصادية المشتركة لإسرائيل والولايات المتحدة. وفي واقع الأمر فإن مصادقة درشوويتز علي ترشح أوباما تكشف عن استراتيجية للصهاينة الأمريكيين تؤكد علي عدم وجود لوبي صهيوني واحد موحد (أي كيان واحد علي هيئة منظومة تراتبية). الأحرى أننا نجده يحث قراءه علي أن يصوتوا لصالح الداعم القوي لإسرائيل وليس للمرشح الأفضل لإسرائيل وذلك لأن «إسرائيل ليست مسألة تنقسم حولها الآراء في الولايات المتحدة ومن ثم فإن التصويت للرئيس ليس استفتاء علي دعم إسرائيل». يعترف درشوويتز أنه يأمل في الحفاظ علي الوضع الأيديولوجي القائم كما هو، حيث إن وحدة الأيديولوجيا والهدف تشكل الدعامة التحتية للتحالف الإسرائيلي الأمريكي وتؤكد عليه. ليست تلك أيديولوجيا متفردة، أيديولوجيا أحزاب، كما أنها لا تتكون من بنود برامج سياسية أو شعارات متداولة لا معني لها. إن الخلاف حول المستوطنات بين أوباما وبتنياهو وتشحانها حولها عام ٢٠١٠ يوضح أن متانة علاقة الراعي/ العميل التي تربط الولايات المتحدة بإسرائيل تكمن في متانة الأيديولوجيا المشتركة حيث تتلاقى المواقف السياسية التي ما كان لها أن تجتمع معا (أوباما الليبرالي وبتنياهو اليميني) في أجندة مشتركة من أجل الحفاظ علي الهيمنة الغربية علي الشرق الأوسط.

يدرك المرء بوضوح لدي قراءة السيرة الذاتية لمارتن إنديك بعنوان «البريء في الخارج» كيف يعمل هو وغيره من الصهاينة الأمريكيين علي التوفيق بين المصالح المتناقضة لسياساتهم وبين ولائهم لأيديولوجيا قوة الولايات المتحدة وإسرائيل وسطوتيهما. تماثل تلك السيرة الذاتية، التي تُعطي من شأن صاحبها، من حيث البنية واللغة والتموضع السياسي، ويدرجة لافتة كتاب دنيس روس «السلام المفقود» مثلاً، يتجنب إنديك مناقشة تناقضاته وخلافاته مع الصهاينة الأمريكيين من اليهود وغير

اليهود والذين ينتمي بعضهم للحزب الديمقراطي وينتمي معظمهم للحزب الجمهوري، وكذلك خلافاته مع السياسيين الإسرائيليين وعلاقاته بهم. يؤكد إنديك علي وجود أولويتين، متعارضتين ظاهرياً، لكنهما متكاملتين رغم تبنيهما من قبل مجموعتين متقابلتين، وجودهما أثناء عمله الدبلوماسي بإدارة كلينتون. من جهة، كان إنديك دبلوماسي كلينتون الرئيسي بالمنطقة، وكان سفير الولايات المتحدة بإسرائيل، وعمل في نهاية المطاف مفاوضاً نيابة عن كلينتون في محادثات السلام. ومن جهة أخرى، عملت «الهوية اليهودية» لإنديك، والذي كان أحد الناشطين السابقين بإيباك، وشارك في تأسيس معهد واشنطن لسياسات الشرق الأوسط الموالي لإسرائيل، عملت علي «توليد رغبة في أعماقنا جميعاً [فريق السلام لكلينتون والذي كان أعضاؤه جميعهم من اليهود] للتوصل إلي سلام لأننا كنا نؤمن أن أمن إسرائيل يتوقف علي إنهاء النزاع مع جيرانها العرب». تروي قصة إنديك المخططات والمناورات التي استخدمت لإدارة الشخصيات والصراعات السياسية والتجمعات والتفاوضات المصغرة علي تلك الصراعات؛ أو بصياغة أخرى تروي تعقيدات الحياة السياسية في البلدين، وبين الولايات المتحدة وإسرائيل. من التبسيط النظر إلي رواية إنديك علي أنها غير متميزة بسبب صراعاته مع الصقور الإسرائيليين (حول الاستراتيجية بأكثر منها حول الأيديولوجيا): الأخرى أن فائدة روايته تكمن في كشفها العامل المشترك التحتي للسياسة الخارجية الأمريكية والقيادات الإسرائيلية وشخص وزارة الخارجية الأمريكية، أي أن انطباعاته عن نظرائه العرب ونضال الشعب الفلسطيني ذات بعد واحد ومسطحة تماماً. يتسق نهجه إزاء القادة العرب وبخاصة الفلسطينيين والسوريين والعراقيين مع رواية روفائيل بطي التي تصور الحكومات العربية ملوكاً وحكاماً مصابين بجنون العظمة يحكمون مجتمعات وثقافات سياسية لديها نزوع لأن «تتأسل وترتد إلي تبني توجهات أسلافها العنيفة القبلية والأصولية».

تستخدم الوسائط الإعلامية، والمحللون والمنظرون كتابات إنديك وروس كبرهان علي أن الدبلوماسيين الأمريكيين من ذوي الروابط القوية بإيباك يمكنهم أن يكونوا

وسطاء متوازنين بين إسرائيل والعرب وذلك لأنهم يبغوض ننتياهو أكثر أحد الشخصيات الإسرائيلية إثارة للكراهية. بدا «شجار» أوياما مع إسرائيل، وبخاصة مع إدارة ننتياهو، للبعض من أمثال درشوويتز علي أنه دلالة علي أن أوياما قد «انقلب علي إسرائيل». بيد أن هذا «الشجار» لم يخرج عن كونه أكثر من تفاعل سياسي آخر بين إسرائيل والولايات المتحدة نجم عن «الإهانة» التي وجهها ننتياهو لجو بايدن، وهو أحد أكثر الصقور الأمريكيين الداعمين لإسرائيل حماسا، حينما أعلنت تل أبيب التوسع في المستوطنات غير القانونية أثناء زيارة نائب الرئيس لإسرائيل. بيد أن إجراءات ننتياهو لم تكن حسابات خاطئة، كما لم تكن مجرد صفاقة أو مثال علي اعتقاد إسرائيل في حصانتها ضد أي نقد أو إجراءات، إذ إن «الإهانة» التي وجهها ننتياهو لبaidن كانت مجرد تكتيك سياسي ظلت إسرائيل علي مدي عقود تستخدمه كدولة تابعة مع الأمريكيين، وأيضا تستخدمه كدولة محتلة مع الفلسطينيين. قُصد بهذا الاستفزاز خلق وضع سياسي أو تضخيمه يجبر الولايات المتحدة علي الاستسلام لاستراتيجية مفادها أن باستطاعة إسرائيل فعل ما تريده في النهاية، أو حسب ما قاله ننتياهو «إن أمريكا شيء نستطيع تحريكه بسهولة شديدة».

لا تعني هذه المقولة أن إسرائيل تتحكم في الولايات المتحدة، بل تكشف عما هو أكثر قيمة، أي عن استراتيجية إسرائيل في سياق قوة الولايات المتحدة الكوكبية، بمعنى أن إسرائيل، هي في النهاية، دولة تابعة يقوم اقتصادها علي المعونة، والميزات التجارية الخاصة التي تتيحها لها الولايات المتحدة ومعها التمويلات الخاصة المهولة التي تمكنها من التوسع في الأراضي المحتلة. كثيرا ما ينظر إلي استراتيجية إسرائيل في الحفاظ علي أهدافها الإقليمية علي أنها تقوم علي أساس التقدم إلي شفير الحرب ثم الإحجام عن الاشتباك لكن هذا تكتيك وليس استراتيجية. فعلي الرغم من مكانتها المفضلة والنفوذ الكبير الذي يتمتع به عملاؤها ومؤيدوها، فإن إسرائيل، في النهاية، ليست في وضع من يتحكم بالولايات المتحدة. بيد أنها في وضع مميز تدرس من خلاله العملية الحسابية المعقدة للمتغيرات والثوابت السياسية الداخلية والإقليمية

التي تطوق مصالح الولايات المتحدة الخارجية والاقتصادية وتسهم فيها. وفي إطار منظومة الشروط والتفاهات تلك، تستخدم استراتيجيتها نظرية لتلاعباتها تحسب من خلالها التداعيات المحتملة لأحد إجراءات (مثل إعلان توسيع المستوطنات في تحدٍ لبايدن) والتي ستكون جميعها، بأسلوب ما، مفيدة لمصالحها. ظلت تل أبيب تستخدم هذه النظرية باتساق وتحسب جميع التداعيات الممكنة لمواصلة سياسة إقامة المستوطنات غير المشروعة، وفي التفاوض مع الفلسطينيين، سواء في أوصلو أو شرم الشيخ، وفي استخدام العدوان العسكري لإثارة رعب الحكومات الأجنبية والتلاعب بها، كما في حالة حريها علي لبنان عام ٢٠٠٦، أو استخدام القوة المسلحة لكسر شوكة المقاومة الفلسطينية كما في حريها علي غزة أو هجومها علي أسطول الحرية. الأحرى أن تلك التداعيات «هدف» يجب رعايته، أو «تحريك» وفقاً لمقولة ننتياهو، أو «حفزه» بحيث يعمل من أجل تحقيق أفضل مصالح إسرائيل، لأن جمهور الولايات المتحدة وسياسيها ينظرون إلي رد الفعل ذاك علي أنه يحقق أفضل مصالح واشنطن.

التزم أوباما الصمت إلي حد كبير إزاء الإهانة التي تلقاها بايدن، الذي وعلي الرغم من تهليله المعتاد لإسرائيل أدان سلوكها الطائش. في تلك الأثناء، قام أوباما بنشر مساعديه كي يقوموا بمناورات في مواجهة مخططات ننتياهو الدعائية. ومن ثم، مضى دايفيد أكسلرود، كبير مساعدي أوباما والصهيوني المتشدد، يركز في أحاديثه التلفزيونية الصباحية في مختلف المحطات علي أن «الشقاق» الذي نجم عن سوء حسابات ننتياهو لا يعني أن أوباما اتخذ موقفا معاديا لإسرائيل، بل يعني أن موقف ننتياهو يعمل علي تقويض مصداقية الولايات المتحدة في المنطقة وقدرتها علي التوسط لعقد صفقة سلام بين إسرائيل والفلسطينيين. وفي واقع الأمر، إنه، وعقب بضعة أشهر، كان ننتياهو هو من أبدى، في البيت الأبيض، قدرا كبيرا من التوقير والإذعان للرئيس، أي أن أوباما قد أدار، بأسلوب ديبلوماسي ومقتدر في أن، دفعة أجددة ننتياهو السياسية مؤكدا علي «خصوصية» العلاقة الأمريكية الإسرائيلية، مع الحفاظ علي التراتبية الواجب الالتزام بها.

وفي واقع الأمر، فإن تركيز أكسلرود على مصداقية الولايات المتحدة يجزم بما هو أكثر، حيث إن رغبة أوباما في تشجيع حل الدولتين لا علاقة له بمظالم الشعب الفلسطيني، كما عبر عن ذلك بوضوح خطابه في القاهرة. يريد أوباما التوصل إلى اتفاق يقوم على أساس حل الدولتين لأنه مهتم بالمدي الطويل لمصداقية الولايات المتحدة وسطوتها في المنطقة، وأيضا بأمن حليفها الرئيسية هناك، أي إسرائيل، تلك الدولة التابعة والشقيقة الأيديولوجية. أدت قضية المستوطنات إلى تصدعات مرئية في صفوف المناصرين لإسرائيل بالولايات المتحدة. ساند تنظيم جيه ستريت، أو المؤتمر الحزبي الذي أقيم لمجابهة أجندة إيباك اليمينية الصهيونية، ساند أوباما. كان التصدع الأيديولوجي في صفوف الحركة المسيحية واليهودية المناصرة لإسرائيل قد بدأ منذ بضع سنوات، وفاقمه استيلاء المحافظين الجدد على القضايا الصهيونية وأمن إسرائيل من الليبراليين، وسوء تعاطي الصقور الصهيونية الأفضاظ بإدارة بوش مع هذه القضايا. بدأت المقالات الناقدة للصقور الصهيونية في التزايد، مقالات ذهبت إلى أن العسكرة وسياسة التدخل في الشرق الأوسط تضر بقوة الولايات المتحدة وسطوتها ومصداقيتها، وأيضا بأمن إسرائيل ومستقبلها. لم يقتصر الأمر على ذلك، بل ذهب تنظيم جيه ستريت واليهود الليبراليون المناصرون لإسرائيل لحد المطالبة بحدوث نقلة معيارية داخل المعسكر الموالي لإسرائيل وذلك لأنهم يرون أن إيباك وغيرها من المتشددين يضررون باستمرار دعم الجالية اليهودية الأمريكية لإسرائيل، وبخاصة الشبان اليهود الأمريكيين الذين لا يرتبطون بقوة بدولة إسرائيل.

ظهرت مقالات كثيرة تبين مكاسب حل الدولتين، ومزايا التنظيمات الصهيونية «الليبرالية» «المناصرة للسلام» مثل تلك التي مثلها جيه ستريت. أزجعت معارضة السياسات المتشددة المناصرة لإسرائيل، تلك المعارضة التي انبثقت من داخل الجالية اليهودية الأمريكية أزجعت بخاصة أعضاء إيباك وعلي رأسهم درشوويتز. ومرة أخرى يمدنا درشوويتز ببصيرة داخل الذهنية الاستراتيجية لإيباك لدي نقاشه مع هادار ساسكيند ممثل جيه ستريت. يحث درشوويتز بقوة على الوحدة ويدعو أعضاء جيه

ستريت للانضمام إلي إيباك من أجل التأثير فيه من الداخل بدلا من الهجوم عليه من الخارج، والانتقاص من هدف مناصرة إسرائيل. وفيما يفكر درشوويتز داخل الإطار السياسي الأمريكي الأوسع لكيفية كسب أكبر دعم ممكن لبرنامج أحادي القضية، فإن تفكير ساسكيند أكثر تناغما مع النقلة المعيارية التي يتبناها أوباما، حيث يفكر في التغيير الديموجرافي المحتمل داخل الولايات المتحدة والتحديات التي تواجه الحفاظ علي مرونة الإمبراطورية الأمريكية الضرورية لبقاء إسرائيل. وهاتان الاستراتيجيتان من المفاهيم الغربية التي لا يستوعبها مفكرو القوة الصلبة أحادي الرؤية. ولهذا السبب، قام ويليام كريستول، أثناء مشاحنات أوباما/ نتنياهو حول المستوطنات والشقاق بين جيه ستريت وإيباك، قام، ومعه عدد من كوارر المحافظين الجدد والأصوليين المسيحيين بتشكيل «لجنة طوارئ» متشددة أسماها «الجناح المناصر لإسرائيل من الجالية المؤيدة لإسرائيل». وعلي حين ذهب ساسكيند إلي القول بأنه ثمة حاجة لوجود تنظيمات يهودية ليبرالية لمجابهة سياسات إيباك التي لا يتفق معها، فقد انتهى إلي أنه وعلي الرغم من الاختلافات العميقة في البرامج والتكتيكات «إلا أننا [إيباك وجيه ستريت] نقف علي نفس الجانب».

علي المستوى المصغر [المايكرو]، تشير الانقسامات داخل الجماعة المناصرة لإسرائيل بالولايات المتحدة إلي أن الإمبراطورية الأمريكية، تعيد تشكيل منظومة حكمها الإقليمي وأهميتها في إطار الفلسفة العملية المزعومة للقوة الذكية واستراتيجيتها. يؤشر ظهور خطوط شقاق داخل جماعة سياسية اعتادت أن تتباهي بواجهة الوحدة السلسة المتسقة يؤشر علي احتمال حدوث نقلة في المنظومة السياسية داخل إسرائيل. سابقا، كان التوازن بين المعسكرات الإسرائيلية المتنافسة يعمل علي التخفيف من ضراوة الحركة الصهيونية الأمريكية ونزوعها القتالي. لكن مع نهاية وجود تيار «ليبرالي» و«يساري» قابل للحياة في إسرائيل، فقدت القوة الصلبة الصهيونية وسياساتها أكثر أدواتها للعلاقات العامة تأثيرا وفعالية، أي وجود حزب قابل للحياة بإمكانه أن يستدعي لغة السلام، والعيش المشترك وحل الدولتين، ذلك

الوجود وتلك اللغة التي كانت قد عملت علي حرف الانتباه عن سياسات الاحتلال علي أرض الواقع والتي كان الليبراليون واليساريون الإسرائيليون قد صادقوا عليها. لا يعنى هذا القول إنه قبل النقلة الإسرائيلية إلي اليمين وتخلي الصهيونية «الليبرالية» عن المثل الاشتراكية في تسعينيات القرن الماضي، ذلك التخلي الذي حفزته استراتيجية «القطيعة الكاملة Clean Break»، لا يعنى أن الصهيونية كانت أكثر نعومة. الأحرى أن وجود العديد من الآراء داخل المجتمع الإسرائيلي السياسي والمدني نجح في إخفاء أصول سياسات إسرائيل غير المشروعة ومبتغاهما. ومع أخذ هذا في الاعتبار، فإن التوترات والانقسامات التي شهدتها المعسكر الموالي لإسرائيل وكما أوضحتها الخلافات بين إيباك وچيه ستريت تلفت الانتباه إلي خطاب السلام الذي تبناه حزب العمل والذي تم إخراسه بشكل شبه كامل من خلال صلافة الليكود وكاديمما وهيمنتهم علي الحياة السياسية في الداخل الإسرائيلي.

الأهم من ذلك ومن حيث المستوى الأشمل لهيمنة الولايات المتحدة سياسيا، فإن التوترات التي حدثت بين إدارتي أوباما ونتنياهو وتختلف عن التوترات بين إدارة أوباما وإيباك التي لم تكن تتعدى تشاحنات مايكروسياسية تتعلق بتقلبات السياسات الانتخابية ودرجات متفاوتة من الاختلاف داخل نفس الإطار الأيديولوجي، أي أيديولوجيا هيمنة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط واستراتيجيات الحفاظ عليها في سياق دعمها الذي لا يتزعزع لإسرائيل، وهذه الاختلافات تعكس الاختلافات في الرؤي الاستراتيجية الداخلية بين تلك الأطراف، وليس اختلافات رؤي عالمية حول قوة الولايات المتحدة وإسرائيل بالمنطقة. أي أن تلك التشاحنات العلنية الثانوية التي عكّرت صفو العلاقات السلسلة بين إيباك وتلك الأطراف في الإدارة تعكس الاختلافات بين من يؤيدون القوة الذكية في الداخل الإسرائيلي والأمريكي، وبين من يفضلون أساليب العسكرية والسياسات التدخلية في ذات الوقت. تعود التوترات بين أوباما وإسرائيل، إلي اختلافات في النماذج المعيارية والاستراتيجيات، وبخاصة التزام البيت الأبيض في عهد أوباما بتوسيع نطاق قوة الولايات المتحدة من خلال أساليب

القوة الذكية واستراتيجياتها بالتقابل مع استخدام نتنها هو الفج للقة الصلبة التي رعتها إدارة بوش بحماس. من ثم، فليس هذا «الصراع» أيديولوجيا، بل هو تكتيكي و«عملياتي».

وهكذا، فليس التشاحن بين إدارة أوباما وإسرائيل على توسيع المستوطنات دليلا على مخطط أوباما «الخبث» للتخلي عن إسرائيل، بل دليلاً على التزام إدارته على إطالة عمر هيمنة إسرائيل والولايات المتحدة في المنطقة من خلال تقوية موقفهما بإضفاء القانونية والمشروعية عليه. علاوة على ذلك، فقد دأب أوباما طوال حملة ترشحه ثم رئاسته على أن الوسيلة الفضلى لضمان المصالح الأمريكية وأمن إسرائيل هي إعادة الحياة إلى مصداقية الولايات المتحدة في إطار سياق «عملية السلام». تدرك إدارة أوباما تماما أن «عملية السلام» ضرورية لإضفاء المشروعية على الدولة الصهيونية، وأن هذا بدوره ضروري لحفاظ واشنطنون على هيمنتها السياسية والاقتصادية في المنطقة.



نصویر
أحمد ياسين
فوتیئر

@Ahmedyassin90

منظور مشهد القوة الأمريكية المتغير

الحفاظ على فاعلية الولايات المتحدة وصلتها بالأحداث

ظلت الولايات المتحدة، وطوال عقود، تستخدم الخوف من أجل تصنيع الموافقة والإجماع. وفيما قد يتذكر البعض حقبة مكارثي، فقد تم محو عمليات «اصطياد الساحرات» والقمع التي مورست ضد الشيوعيين والأناركيين من الذاكرة الجمعية الأمريكية. حينما تصاعدت توجهات الأناركيين والعمال القتالية وتعددت التفجيرات التي نفذوها، أدت الهستيريا الجمعية بالولايات المتحدة إلى صدور قانون الفتنة Sedition Act، وإلى حملات بالمر التي نجم عنها احتجازات شاملة للمتقنين والناشطين اليساريين ومحاكمتهم وترحيلهم.

ومن الأمور الدالة أيضا أن تلك الهستيريا أدت إلى أعمال عنف وقتل وإجراءات عنصرية ضد السود، قادها غالبا رجال من الجيش والشرطة. يلفت كتابا فرائك فوردى «ثقافة الخوف» (١٩٩٧) و«سياسات الخوف» (٢٠٠٥)، الانتباه إلى سهولة تعرض المواطن في العصور الحديثة للتلاعب به وقمعه وذلك بسبب اغترابه المتزايد عن مجتمعه وجاليته وجيرانه، بل وعن ذاته. كما تبدو ملاحظة محمود معداني عن الإرهاب حينما قال إن «الإرهاب السياسى ينجم عن فشل حكومة ما، أو فشل حركة حرب عصابات سرية فى كسب دعم المدنيين لها» تبدو وأنها تتطابق بأسلوب عكسى مع استخدام الدولة للخوف. يذهب فوردى إلى أن الخوف والاغتراب يميّتان أحاسيس المواطن الحديث بآدميته، ويخلقان جمهورا طيعا تتلاعب به الحكومات والأسواق والإعلام بسهولة وتفقد خطواته. كشف الفيلم الوثائقي «قوة الكوابيس The Power of Nightmares» بوضوح وصراحة كيف يستخدم الخوف لهندسة الموافقة

والقبول، وأوضح كيف سبق استخدام الخوف من الإسلام القتالى أو «التطرف الإسلامى» أحداث ٩/١١، وكيف خلقت الرغبة فى الإيقاع بالعرب والمسلمين وسياسات الولايات المتحدة الداخلية والدولية الحاجة إلى «الحرب على الإرهاب» وإجراءات «الأمن الداخلى» واسعة المدى. تمدنا مثل هذه الدراسات بآليات الموافقة والإجماع (التشريعات التى تطبق، والسياسات التى تبتكر وتنفذ، واستمالة الإعلام). من، أجل تحقيق رؤى سياسية أوسع لمجموعات القوة.

استندت الحرب على الإرهاب إلى ما سبقها من شيطنة المسلمين وتشويه سمعتهم، ولم تكن الاستراتيجيات التى استخدمت لخلق حالة من الخوف جديدة. وبالمثل، فإن ظهور المشاعر الفاشية المعادية لللاتينيين وما واكبها من تشريعات ضدهم كان مجرد نسخة أخرى من تشكيل أيديولوجى يستخدم الخوف لتوليد إجماع على ما لا بد وأن يبدو للتفكير العقلانى محض نزوات مجنونة. أكد كتابنا هذا على أن الإسلاموفوبيا

ظاهرة عُرسَت في اللاوعي الثقافي الأمريكي في فترة ما بعد الحرب الباردة بحيث أصبح هذا اللاوعي يعبر عن تلك الظاهرة. قامت أشكال الإسلاموفوبيا الراهنة باستخدام حطام النماذج المعيارية الاستشراقية التي كان إدوارد سعيد وآخرون قد نجحوا في تقويضها، وأعيد تشكيلها لتتسق بخاصة مع التحولات الراديكالية في القوة والسلطة والسياسة والاقتصاد بعد نهاية الحرب الباردة. قامت الشبكات غير محددة المعالم من المنظرين والسياسيين ومراكز الدراسات والمؤتمرات ومجموعات الفعل السياسي ونشطاء الصحفيين والأكاديميين المنحورين واللوبيات ومجموعات المصالح الشركاتية ومعهم إعلام التيار السائد وأفلام هوليوود، قاموا برعاية النماذج المعيارية للإسلاموفوبيا وجعلوا منها أساليب متسقة استُخدمت في تحليلات الشرق الأوسط في التسعينيات، كما عمل فريد زكريا وبرنارد لويس وغيرهم من أمثال فؤاد عجمي وتشارلس كراوثامر وتوماس فريدمان على التعبير عن بُنى الإسلاموفوبيا الأيديولوجية وجعلوا منها أنظمة منطقية مُغلقة تتسق بسلاسة مع مصالح الولايات المتحدة في المنطقة. نمت الإسلاموفوبيا على أيدي مفكرين «مصدقين» وشبكات سياسية ومناصرين نشطاء بالكونجرس، ناهيك عن البيت الأبيض ومجلس الوزراء لتصبح وسيلة شبه عقلانية وتاريخية وثقافية مزيفة يفهم من خلالها كُنه المسلمين. علاوة على ذلك، فإن هذا الفهم المزعوم والزائف لنقائص المسلمين وتخلف الإسلام أكسب دور الولايات المتحدة الجديد في العالم الإسلامي أهمية كبرى بحيث تمكن المحافظون والليبراليون، وإدارات كلينتون وبوش وأوباما، ومشروع القرن الأمريكي الجديد، ومعهد الأمريكان إنتربرايز، ومجلس العلاقات الخارجية، ومعهد البروجرسيف بوليسي، تمكنا جميعهم من الاتفاق على أن الولايات المتحدة تتحمل العبء الأخلاقي للإتيان بالحضارة إلى الشرق الأوسط.

المقاومة التي يخوضها المسلمون والعرب الأمريكيون:

ما الحرب على الإرهاب إلا نقطة النهاية المنطقية للإسلاموفوبيا في الولايات المتحدة، لكن اغتراب الجاليات العربية والإسلامية الأمريكية وعزلتهم كانت قد بدأت قبل ٩/١١ بفترة. تبين الباحثة نادين نابر أن نظام سياسات الحكومات المحلية

والولايات، والحكومة الفدرالية عمل على تمييز «المسلم/ الآخر» بصفته «العدو الداخلي الموجود بيننا»، تقول إن جعل المسلمين «آخرين» يأتي في إطار متتالية تاريخية مترابطة للعرق والتاريخ السياسي للولايات المتحدة. لكن حدث أيضا أن أطبافا من الجاليات غير الإسلامية من ذوي البشرة السمراء تم تضمينها مع المسلمين من خلال الحرب على الإرهاب، حيث كان للسياسات الفدرالية والوسم العرقي، والإسلاموفوبيا الثقافية والتنميطات الإعلامية عظيم الأثر السلبي على المسيحيين العرب واليهود الإيرانيين واللاتينيين، بين آخرين، مما يوضح أن الخطابات السائدة عن الإسلام والمسلمين بالولايات المتحدة لا تتميز فقط بالمرونة وعدم التحديد بل إنها أيضا اعتباطية وخيالية في أفضل الأحوال. أوضحت أبحاث كثيرة، أكاديمية ومن التيار السائد، التنوعات داخل الجالية العربية الإسلامية الأمريكية، وناقشت الأجيال الجديدة من الأئمة والباحثين والفنانين والكتاب والناشطين المنتمين إلى تلك الجاليات، وديناميات المجموعات الشبابية المتنوعة، والمجموعات الإثنية الفرعية والاختلافات الطبقية الموجودة بين هؤلاء في أنحاء أمريكا الشمالية. منذ ٩/١١، تم إجراء عدد كبير من الدراسات الديموغرافية التي تتعاطى مع ظلال الفروق والاختلافات والتوجهات والتطورات داخل الجالية العربية والإسلامية الأمريكية. وأوضحت بعضها بإقناع ومنهجية ليس فقط وجود تمايزات بين تلك المجموعات، بل أيضا فروق معالجة قضايا الجندر، والفروق الطبقية والسياسية والعمرية في نطاق تلك الجاليات. علاوة على ذلك، ركزت تلك الدراسات على أن التنوعات داخل تلك الجاليات لا تعكس فقط تغيرا عاما في الديموغرافية داخل الولايات المتحدة بل توضح أيضا أن المسلمين الأمريكيين أنفسهم يكادون يكونون نموذجا للمواطن الأمريكي «عبر الدولي» الجديد.

ناقش بحثنا هذا نمو الجاليات العربية والإسلامية الأميركية وأساليب حشدها وإعدادها لمختلف الأنشطة، والتلاحم بينها، وكيف شهدت توجهات التعامل مع نظرائهم المسيحيين والهندوس واليهود والارتباط بهم كثيرا من التحولات. وفيما يستخدم الكثيرون قضايا النساء لوسم المسلمين واستهدافهم، فقد تعاطى الرجال والنساء العرب والمسلمون أنفسهم مع قضايا المساواة بين النوعين، والهوية الدينية والإثنية

والعرقية والفروق الاقتصادية بين الرجال والنساء، والتعليم، وصحة النساء، والعنف المنزلي، كما عمل صعود العولة وتداعياتها على زيادة جهد الناشطات المسلمات، ولم يجبرهن حصار جالياتهن أو يغريهن على التواطؤ مع حملة «صيد الساحرات» بدافع الإسلاموفوبيا، أو مخططاتها، أو نشاطاتها، أو على الإذعان لبطيريركية جالياتهن. الأخرى، فقد رفضت النساء المسلمات أن تخطف الجماعات النسوية لأمريكا البيضاء التي تعمل في إطار من الإسلاموفوبيا، أو مرتزقة اليمين من أمثال هيرسى على ومنجي، تخطف مسيرة تحررهن.

وفي واقع الأمر، لا يعرف المسلمون والعرب الأمريكيون الكل أو المثل في محاولاتهم لإسماع أصواتهم بخصوص الخطابات العنصرية وما يتعرضون له من تمييز واضطهاد منذ ٩/١١. ظهرت إصدارات كثيرة تعرض قصصا مقنعة مؤثرة لأحاسيس الخوف والحصار والتهديد، وأيضا لمشاعر المقاومة والتحدى والبهجة في أوساط الجاليات العربية والمسلمة الأمريكية. قبل ٩/١١، عبر شعراء العرب والمسلمين الأمريكيين والكنديين، وموسيقيوهم من أمثال سهير حماد وفرقتي نارسيست وأيرون شيخ لموسيقى الراب، ناهيك عن فرق الأندرجراوند الساخرة من أمثال Group X، عبروا عن نقدهم لكرهية العرب والإسلاموفوبيا، وقد أصبحت أعمالهم الآن مباشرة وأكثر صراحة وزخماً، ولم يكن من قبيل الصدفة أن تفجّر غضب الفرق الغنائية من أمثال «الفدائيين»، و«كوميناس» البنجابية وفرق الراب الأخرى، مع حسهم الساخر الفكاهي والتي زادت أعدادها بعد ٩/١١، حيث يعبر هؤلاء عن جيل من العرب والمسلمين الأمريكيين شبوا في زمن أحادية القطب الذي تستهدف فيه الإسلاموفوبيا المسلمين بسبب دينهم وثقافتهم بدلا من استهدافها العرب في الجيل السابق بسبب توجهاتهم اليسارية الراديكالية.

وفي واقع الأمر، فإن هؤلاء الفنانين أكثر مواكبة للثقل الأيديولوجي الكامل للإسلاموفوبيا بما يفوق كثيرا المجموعات الإسلامية والعربية التي تسعى إلى التماثل والتكيف كما تمثلها أعمال وكتابات بعض تنظيمات تلك الجاليات ونشاطاتها. مازال كثير ممن نصبوا أنفسهم قادة للجاليات من أمثال جيمس زغبى، وراى حناينا

والتنظيمات من أمثال المعهد العربي الأمريكي، واللجنة العربية الأمريكية لمانهضة التمييز ADC ومجلس شورى جنوب كاليفورنيا، بل وحتى CAIR وجمعية شمال أمريكا الإسلامية اللتين تستهدفهما وزارة العدل والإف بى آى - مازالوا يعتقدون أن حوارهم مع الحكومة الفدرالية يجعلهم جزءا من الحل. وفيما تحتج تلك «القيادات» على الوسم العرقى للمسلمين واستهدافهم، فإنهم يعملون مع الإف بى آى ووزارتى العدل والخارجية على أمل إثبات ولاءاتهم لأمريكا. ثمة الكثير من المجموعات العربية والإسلامية ظلت مشغولة بالدفاع عن امتيازاتها كأثرياء شبه بيض، بدلا من أن تتحدى بنية الإسلاموفوبيا الأيديولوجية التى تصورها فى وضع العدو الداخلى، ويفضل هؤلاء التركيز على السياسات الانتخابية والأنشطة داخل الأحزاب ذاتها التى تتغاضى عن قصف المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين واجتياح أفغانستان والعراق واحتلالهما. ويتحدي أكثر، يسعى زغبى وتنظيمات التيار السائد العربية الأمريكية إلى الانخراط فى النظام السياسى الأمريكى، ويتمسكون المترشحين على أساس الدين والأصول العرقية للترويج لهم حتى وإن كان هؤلاء المرشحون من أمثال راي لحدوتشارلس بستانى يحاولون إخفاء جذورهم العربية. تسعى معظم المجموعات العربية والإسلامية من خلال أنشطتها إلى علاج التحيز والتعصب لكنهم لا يبذلون أى جهد للتعاطى مع أصول الإسلاموفوبيا، وأهدافها وتداعياتها الكاملة. بل فى واقع الأمر، تشجع كثير من التنظيمات العربية والمسلعة المساجد والأفراد على مساعدة الإف بى آى فى جهوده من أجل الوسم العرقى والرقابة واستهداف أعضاء الجالية. يعمل بعض دعاة الاندماج والذويان من أمثال رضا أصلان، بجِدٍ واجتهاد للدفاع عن عدالة أمريكا البيضاء المتأصلة، ويؤكدون أن «الأمريكيين الحق يعتقدون أنه لا ينبغي أن يكون ثمة صراع بين الهوية الدينية للأفراد، وهويتهم القومية». ويحتفى آخرون، مثل داليا مجاهد، بالنتائج «المدهشة» لاستطلاع جالوب الذى يثبت أنه «على حين أن للمسلمين مواقف سلبية إزاء سياسات الغرب الخارجية فإن مواقفهم من الغرب أكثر إيجابية». وفى ذات الوقت الذى من المفترض أن يشعر المسلمون والعرب بأن استطلاع جالوب قد برأهم من تبني معتقدات عنصرية تناظر الإسلاموفوبيا

الثقافية، تم وضع تشريع جديد فى ظل أوباما لزيادة استهداف الجاليات المسلمة ووسمها وإضفاء الصبغة القانونية على تلك الإجراءات. يسمح هذا التشريع الجديد لبرنامج الإف بى أى للرقابة الداخلية بجمع المعلومات الإثنية والدينية عن الجاليات، مما يعنى جوهرى إضفاء المشروعية على التجسس على معاملات الأفراد المالية، وكيفية قضائهم إجازاتهم وأماكنها، وارتباطاتهم السياسية والدينية والاجتماعية ووظائفهم ومهنتهم. يتحدى الناشطون المسلمون، بقيادة فرحانة خيرة، واللجنة العربية الأمريكية لناهضة التمييز قانونية خطة الإف بى أى لوضع خريطة معلومات إثنية وعرقية لمجموعات الأقلية ومشروعيتها.

الإسلام السياسى كتشكيل أيديولوجي،

تعتبر محنة العرب والمسلمين بالولايات المتحدة، ورغم كل المظالم التى يعانون منها والانتهاكات لحقوقهم المدنية، أخف وطأة من تداعيات الإسلاموفوبيا على شعوب العالم الإسلامى. قد يرى الكثيرون هذا الكتاب وأنه دعوة ضد حق الولايات المتحدة فى «الدفاع» عن نفسها فى أعقاب هجمة غير مسوغة، وقد يراه آخرون تبريرا للتوجهات «المتطرفة»، بيد أنه لا هذا ولا ذاك. يهدف هذا الكتاب إلى التأكيد على أن الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجى تمد السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط والعالم الإسلامى ببنياتها ومسوغاتها، وأن هذا يستحث المسلمين، بأسلوب حتمى، لممارسة الضغط المعاكس. ظل الإسلام السياسى لعدة عقود شكلا من أشكال الضغط المعاكس، ومن ثم، ينبغى علينا أن نفهمه بصفته هذه على أنه ظاهرة سياسية، رد فعل على ما أوقعتة الحداثة والرأسمالية والديكتاتورية والسيطرة السوفيتية والهيمنة الأمريكية من تدمير وسلب ونهب. ومثلما ينبغى فهم الإسلاموفوبيا على أنها تشكيل أيديولوجى فى إطار أيديولوجيا أكثر شمولاً «الرأسمالية الأمريكية المعولة ما بعد الصناعية (أى الإمبراطورية) يجب فهم الإسلام السياسى بصفته تركيبة أيديولوجية تختلف عما سبقها من أيديولوجيات إسلامية».

تم إضفاء كثير من المصادقية على المقولة الظنية التى تذهب إلى أن «جزءا من جاذبية الأصولية الإسلامية فى العالم الإسلامى مرده إلى أن تلك الجماعات تقوم بتوفير

المزايا الاقتصادية والخدمات الاجتماعية التي لا تقوم الدولة بتوفيرها». وفيما أن تلك المقولة تتضمن بعض العناصر الصائبة إلا أنها تظل اختزالا كسولا يروجه الليبراليون الذين يدفعون بأجندة القوة الذكية. ما لا يعترف به الكثيرون علناً هو أن الإسلام السياسي، في مختلف الظروف والأحوال، يتيح للكثيرين نموذجاً معيارياً سياسياً بديلاً لقيود العولمة النيوليبرالية الخانقة. وفي واقع الأمر، فقد تم تشويه صورة البدائل اليسارية، العلمانية والاشتراكية، طوال العقود الثلاثة الأخيرة في العالم العربي، ويتحمل القادة العرب جزءاً من المسؤولية عن هذا. فبعد أن استولوا على السلطة في حقبة ما بعد الكولونيالية من النخب الحاكمة المتعفنة الفاسدة والأوليغارشيات الملكية، بل ومن الأنظمة الكولونيالية ذاتها أحياناً، عملت الأنظمة العربية القومية بدءاً من الجزائر وإلى العراق، على توفير الحريات والحياة الكريمة للمواطنين بمن فيهم الفلاحون والعمال من خلال برامج تضمنت إعادة توزيع الأراضي، وتأمين الموارد والصناعات الحيوية وإتاحة خدمات الدولة لجميع المواطنين بمن فيهم الشرائح التي تجاهلها الحكام السابقون وبخاصة خدمات التعليم والرعاية الصحية. بيد أن هذه الأنظمة تحولت وتحت تأثير عيوب نموذج التخطيط المركزي السوفييتي ومركزية الدولة السياسية، والخوف من الفتنة والانشقاقات المخططة والممولة من الخارج، تحولت إلى نخب حاكمة متحجرة، وانحصر اهتمامها في إطالة عمر الأحزاب المسيطرة بأكثر من اهتمامها بالعروبة والاشتراكية التي قامت عليها هذه الأحزاب بل وكانت مبررات حكمها ووصولها إلى السلطة. أيضاً، لا يجب إغفال تأثير الحملة المستدامة المحمومة الناجمة التي شنتها الولايات المتحدة لتشويه مثل العروبة والاشتراكية من أجل تقويض الحركات والأنظمة العلمانية. رأينا كيف شجع «منحنى الأزمة» لبرنارد لويس تنامي الإسلام السياسي مثلما شجعت الحكومة الإسرائيلية ظهور حماس وتنميتها في ثمانينيات القرن الماضي من أجل تقويض منظمة التحرير العلمانية.

ليست جاذبية الإسلام السياسي فقط نتيجة للخدمات التي يوفرها حزب الله وحماس، والتي لا توفرها الدولة اللبنانية أو السلطة الفلسطينية البائسة سوى بأسلوب نزواتي غير كفء. كما أن الإسلام السياسي ليس ظاهرة واحدة فريدة

إذ إن حزب الله الشيعي، وحركة حماس السنية، واللذين دائماً ما يُقرن بينهما، يختلفان اختلافاً كبيراً من حيث أجندتهما السياسيتان اللتان تشكل جوهرهما الأوضاع والضرورات السياسية والاقتصادية المحلية وليس الكراهية العدائية المتخيلة للغرب والحادثة. وبالمثل تختلف أجندة جبهة الإنقاذ الإسلامي الجزائرية التي حُرمت من فوزها في انتخابات عام ١٩٩٢ وحظر عليها المشاركة السياسية في التيار السائد، تختلف من حيث أجندتها وممارساتها ومستويات اندماجها السياسي عن حزب العدالة والتنمية المغربي. علاوة على ذلك، فإن ثمة اشتقاقات للإخوان المسلمين وحماس وحزب الله في سوريا والأردن وغيرها لكن كل منها شهد تغييرات مستقلة عن بعضها منذ التسعينيات. تطورت حركة الإخوان المسلمين في مصر والأردن من تنظيمات قتالية سرية إلى أحزاب سياسية لها تمثيلات برلمانية غير رسمية ونفوذ في الأنشطة السياسية بالشارع. بيد أننا لا نهدف من طرح تلك البنية الموجزة عن الإسلام السياسي في الشرق الأوسط الدفاع عن الأجندات المتنوعة لتلك الأحزاب والحركات وعن برامجها السياسية أمام الجمهور العربي. الأخرى أن هدف هذا الكتاب هو التنقيب الصادق الناقد في ترسيبات الإسلاموفوبيا المهيمنة على ثقافة التيار السائد السياسية وكيفية توظيفها ذريعة أيديولوجية تمكن الدولة من التحكم في مواطنيها بالداخل، وممارسة سطوة الولايات المتحدة غير المكبوحة على مستوى الكوكب.

ومن هذا المنطلق، لا يمكن فصل الإسلاموفوبيا بصفتها بنّاءاً رئيسياً في سطوة الولايات المتحدة أحادية القطب وركيزة لها، فصلها عن الإسلام السياسي. يُرجع الليبراليون جاذبية تنظيمات «الأصولية الإسلامية» إلى حقيقة أن هذه التنظيمات تضطلع بالمهام التي لا تؤديها النخب الحاكمة الفاسدة المتعفنة وليس لأية جاذبية متأصلة في الإسلام السياسي ذاته؛ وهم في هذا يسعون إلى تبرير تكتيكاتهم ذات الدوافع الأيديولوجية لمزيد من التدخلات في سياسات ومجتمعات واقتصادات وعقول شعوب الجنوب، ويتجاهلون قدرة هذه الشعوب على التنمية الذاتية وحققها في تقرير مصائرهم. وفي واقع الأمر، فإن معظم السياسات الأمريكية ضد المسلمين لا تُوجه

إليهم بشكل حصري. بيد أنه، وفي زمن العولة هذا، فإن المسلمين يمثلون شعوب العالم من غير الجنس الأبيض، ويشكلون عقبة رمزية وواقعية في أن أمام توسع النيوليبرالية غير المكبوح، وفي مواجهة سطوة الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية، والنخب الحاكمة التي تتأمر معهم. وعلى حين أن ثمة أمريكيين كثيرين «يدافعون» عن الإسلام بصفته «دين سلام» بناء على افتراضهم أنه عقيدة لا علاقة لها بشئون الدنيا مثل العقيدتين التوحيديتين الإبراهيميتين الآخرين، فإن هذه الإيماءة وعلى الرغم من نبها في حد ذاتها، هي إيماءة عنصرية ذات مركزية غربية غير ملعة بما تقتضيه العقيدة الإسلامية وبخاصة ما يقتضيه ما يسعى بالإسلام السياسي. مما لا ريب فيه أنه ليس ثمة ما هو غامض مستعص على الفهم في الإسلام بأكثر من الأديان الأخرى بما فيها اليهودية والمسيحية. بيد أن وجه العملة الآخر الذي يجعل منه الغرب وسيلة للدفع قدما بأجندته السياسية والاقتصادية، هو أن المسلمين يجدون في الإسلام وسيلة للدفاع عن أنفسهم ضد حصار الكولونيالية الجديدة والإمبريالية والنيوليبرالية، وضد أنظمة الحكم الداخلية الفاسدة القائمة على الشللية والمحسوبية. وفيما أن العالمين العربى والإسلامى يضمنان أقليات إسلامية أكبرها عددا هم المسيحيون والهندوس واليهود، إلا أن الإسلام ذاته هو دين العالم النامي، بعد أن اختطف الغرب المسيحية واليهودية وأضفى عليهما لونه الأبيض على مر القرون. منذ القرن التاسع عشر، ظل المبشرون البروتستانت يستهدفون السكان المسيحيين من ذوى البشرة السمراء والسوداء في الشرق الأوسط وإفريقيا وأمريكا الجنوبية (الكاثوليك في غالبيتهم) والذين اعتبروهم «مسيحيين صوريين» فقط. وبالمقابل ظل الإسلام يتعرض للهجوم من قبل الذين تفحصناهم في هذا الكتاب وذلك تحديداً لأنه يُعتبر ديناً عربياً، ديناً لذوى البشرة السمراء والسوداء لم تتمكن الثقافة الأمريكية/ الأوروبية من إضفاء اللون الأبيض عليه بالأسلوب الذي جسدت به المسيح شخصاً أزرق العينين، وموسى شخصاً أبيض مسترسل الشعر كما تصورهما أفلام هيلوود.

الأيديولوجيا واللوبيات والنقط:

النقط وإسرائيل هما المصلحتان الخاصتان اللتان تشكلان، تقليدياً، ركيزة سياسة الولايات المتحدة الخارجية بالشرق الأوسط. منذ فترة تم توثيق تاريخ اهتمام الولايات

المتحدة بنفط الشرق الأوسط، وهو اهتمام غدا الآن أكثر إلحاحا من ذي قبل. وكما ذكرنا سابقاً، فقد أكد آلان جرينسبان بصراحة ووضوح أن الولايات المتحدة اجتاحت العراق لضمان «أمن النفط».

ناقشنا في الفصل السابق مسألة العلاقات الإسرائيلية/ الأمريكية. كما أنه، ومما لا ريب فيه، فقد تعرض دعم الولايات المتحدة لإسرائيل للتعليقات والنقد بأكثر مما نستطيع أن نورد في هذا الكتاب. يرى البعض أن سبب ولاء الولايات المتحدة الكلى الأعمى لإسرائيل هو أن الدولة اليهودية تؤدي وظيفة رأس جسر فاعل في منطقة معادية لمصالح الولايات المتحدة بشكل أساسي، فيما يؤكد آخرون أن هذا الدعم ناجم عن شعور بالذنب، على حين يزعم البعض الآخر من أمثال ميرشايمر وولت، أن موقف أمريكا هذا يغذيه اللوبي اليهودي الأمريكي وأيضاً المسيحيون الإنجيليون المناصرون لإسرائيل والذين يُشبهون نفوذهم المالي، بفعالية، في العملية السياسية الأمريكية. تذهب تلك الأطروحة إلى أن هذا أثر سلباً على وضع الولايات المتحدة في العالم العربي وعمل ضد مصالح البلد الحقّة. وفي نفس الوقت، تشير نظريات المؤامرة عن الولايات المتحدة، وأحداث ٩/١١، والصناعة النفطية، وعائلة بوش وكلينتون وجماعة «المستنيرين Illuminati» السرية عن مخطط إقامة اليهود حكومة واحدة للعالم أجمع» تشير إلى ما هو أكبر من مجرد شعوب واهمة مضللة ذاتياً تسعى إلى أهداف محددة تلقى عليها بمسئولية ما تعانيه بلادها. تظهر نظريات المؤامرة نتيجة وجود عيوب وثغرات في النظام وفي سيمائه التي يطالعنا بها في الإعلام والحكومة وأمريكا الشركاتية، حيث إن تلك النظريات هي حقا تجسيدات عبثية لعدم منطقية الأيديولوجيا التي تحكم حياتنا وتناقضاتها: السلام من خلال الحرب؛ التنازل عن الحقوق لكي نحيا أحراراً؛ قصف الشعوب الأخرى من أجل تحريرهم..إلج.

وسواء نجمت التحليلات عن نظريات هامشية للمؤامرة، أو بُنيت على أساس الأبحاث الجادة حول مصالح الولايات المتحدة النفطية بالشرق الأوسط، والعلاقة الداعرة بين اللوبيات الموالية لإسرائيل والسلطة التنفيذية والكونجرس، فإن معظم

المعالجات لواقع سياسة الولايات المتحدة الخارجية في الشرق الأوسط وتاريخ تلك السياسة، تُغفل احتمال أن يكون ثمة دافع أيديولوجي يحكم تلك العلاقات. ليست هذه الدوافع أيديولوجية بمعنى «الديموقراطية مقابل الشيوعية» أو «الحرية مقابل الاستبداد»، إذ إن الأيديولوجيا لا تعنى «المبادئ» أو «القيم» أو أياً مما يقول بوش أو أوباما إنها تعنيه. فما «الديموقراطية» و«القيم» و«المبادئ» سوى مفاهيم أيديولوجية في إطار أيديولوجيات الواقع السياسي/ الثقافي الأمريكي الأشمل، أي أن الخطاب الذي تبناه لويس، وزكريا، ومشروع القرن الأمريكي الجديد، وبوش، وتشيني، وولفويتز، ومن يكتبون خطبهم، ليس انحرافاً مؤقتاً في ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية، أو انقلاباً غير معهود في نظامها السياسي بالإمكان تصويبه من خلال رئاسة أوباما الأكثر توازناً. ومثلما أن المحافظين الجدد لم يقوموا باختطاف المبادئ الأمريكية في وقت أصيبت فيه المشاعر القومية بالرفض وكانت بحاجة إلى الشفاء، فلم يعمل أوباما على تبديد ضباب الغضب وفتح للأمريكيين فرصة لإبصار طريق أكثر تعقلاً باتجاه السلام والأمن. الأخرى أن النماذج المعيارية المتعصبة التي يطبقها الأمريكيون على مجمل العرب والمسلمين، هي نماذج معيارية عضوية مصدرها اللاوعي السياسي «الأمريكي» في عصر العولة - لا وعى يتعامى عن تناقضات الرأسمالية، والعنصرية، وعدم المساواة بين الرجال والنساء، وقضايا الجندر، والإسلاموفوبيا. حاول هذا الكتاب أن يوضح أن هذا اللاوعي تشكل من طبقات متعددة تعلو بعضها من الأنشطة والخطابات المعادية. إن مجمل التعليقات السياسية، والإصدارات، والوسائط الإعلامية، ولجان الفعل السياسي، ومراكز الدراسات والأبحاث، والسياسيين والأكاديميين والبيت الأبيض ووزارات العدل والتعليم والخارجية والكتائب المناهضة للإسلام، جميعها في مجملها تلقى الضوء على الإسلاموفوبيا المتجسدة في اللاوعي السياسي الأمريكي وتجسدها.

**الإسلاموفوبيا والحفاظ على أهمية إمبراطورية الولايات المتحدة
وصلتها بالأحداث**

في مارس وأبريل ٢٠٠٩ التقى مسئولون من وزارة الخارجية الأمريكية مع ممثلين

لـ «المتمردين» [المقاومين] العراقيين في تركيا، ومن المحتمل أن هذا كان ما عناه أوياما بالحوار. تقدم المقاتلون العراقيون بأربعة طلبات بسيطة: على الولايات المتحدة أن تعتذر علناً عن غزو العراق واحتلاله؛ وعليها الإفراج عن جميع الأسرى الذين تحتجزهم في سجونها ومعتقلاتها؛ وأن تتعهد بالتزامها بإعادة إعمار العراق، وأن تسهل دخول جميع من قاتلوا الأمريكيين وحلفائهم من العراقيين إلى معترك التيار السياسي السائد. لم يكن من قبيل المصادفة أن حُدد موعد في شهر يونيو لجولة ثالثة من تلك المحادثات لكنها لم تتم. قدم المقاتلون العراقيون طلبات منطقية كان لا بد أن تؤدي إلى إنهاء احتلال الولايات المتحدة للعراق، لكن ليس إلى مشاركة الولايات المتحدة في شئونه السياسية والاقتصادية. وفي واقع الأمر، فإن وزارة الخارجية الأمريكية تعترف بأسلوب غير مباشر، بعقد اجتماعات سرية طوال الوقت من المجموعات «المتردة» ومع أعدائها. لكن، لم لم تقبل إدارة أوياما تلك الطلبات البسيطة، أو تواصل المحادثات على الأقل؟ تؤكد وزارة الخارجية أنها لم تُرد الخروج على التزاماتها الراهنة إزاء إعادة إعمار العراق، كما لم تُرد الانقلاب على حلفائها هناك. لكن الأسباب الحقيقية أكبر من هذا، بمثل ما أن الإسلاموفوبيا ليست مجرد كراهية للمسلمين لأنهم مختلفون.

إن الانتصار في العراق وأفغانستان مجرد أهداف تكتيكية هامشية فالحرب على الإرهاب «حرب دائمة» كما بين أندرو بايسفيتش. ينتهي كثير من المحللين والأكاديميين اللامعين إلى أن حكومة الولايات المتحدة، وفي محاولة للحفاظ على أمانها وأمنها، جعلت نفسها أقل أمناً وأثارت مشاعر الكراهية ضدها. يذكر ستيفن كينزر في كتابه الذي أشرنا إليه سالفاً أن الولايات المتحدة بحاجة إلى أن تخطو خلفاً «وتعيد ترتيب» أولويات سياستها الخارجية ومراجعة رؤيتها للشرق الأوسط، حيث إن الولايات المتحدة ستضعن مصالحها الخارجية والاقتصادية إن هي غدت أكثر إنصافاً، وأحسنّت الإصغاء إلى شعوب العالم الإسلامي، وتداخلت مع إيران بأسلوب بناء، وعملت على إقامة دولة فلسطينية مستدامة قابلة للحياة.

تستنكر بعض الأصوات النادرة بالكونجرس من أمثال دنيس كوسينيتش ورأس فاينبولد، علناً، كيفية إفراغ مجهود أوياما الحربي، وقبله مجهود بوش لخزائن الولايات

المتحدة، وتحويله الأموال المفترض إنفاقها على الخدمات الاجتماعية الأساسية مثل التعليم والرعاية الصحية وتقليص الفقر وخلق الوظائف لتُنقذ على الحروب. وهذا التفكير معارضة منطقية لما يبدو وأنه سياسة غير منطقية ومستدامة لحكومة الولايات المتحدة، ورغم منطقية هذه المعارضة إلا أنها لا تصيب الهدف. إن استغراقنا في التفكير حول دور الولايات المتحدة في الشرق الأوسط لا يسهم في استنارتنا لأن هذا الدور كثيرا ما يتناقض مع المنطق. وعلى الرغم من أن اعتبارات الحرب الدائمة، واعتماد الولايات المتحدة على نقط المنطقة ومواردها وحاجتها للتحكم في تلك الموارد، ومصالحها «الأمنية»، وروابطها «التي تنقسم عراها» مع إسرائيل، على الرغم من أنها كلها عوامل مقنعة إلا أنها لا تصبح كلاً متكاملًا متسقًا إذا لم يتم الربط بينها في إطار أيديولوجيا أكثر شمولًا.

وفي النهاية، فقد أوضح كثير من الباحثين والأكاديميين المرموقين أن «هوجة» الإرهاب مبالغ فيها ناهيك عن كونها خدعة ذرائعية. مثلاً، قام أوليفيه روى بتقويض أسطورة «جيوستراتيجية الإسلام» في كتابه «سياسات القوضى بالشرق الأوسط» حيث بدد المزاعم القائلة بأن الإسلام في حالة حرب مع الغرب. علاوة على ذلك، يبين روى وآخرون التناقضات الفاضحة في سياسة الولايات المتحدة الخارجية مثل دعمها للأنظمة الفاسدة في السعودية وباكستان، مثلاً، والتي تقوم بتمويل «المجموعات المتطرفة» المعادية لأمريكا بالعراق وأفغانستان. كما أوضح طارق على أن التهديد الذي تمثله القاعدة لأمن المنطقة أقل من ذلك الذي يمثله دعم الولايات المتحدة للجيش الباكستاني. وبالمثل، توضح كتابات مايكل شورير، عميل السى آى إيه الذى قاد وحدة اقتفاء أثر بن لادن في التسعينيات والسنوات المبكرة من القرن الحادى والعشرين، توضح إدراك عملاء الولايات المتحدة ومسئولياتها أن سياسات الولايات المتحدة في العالم الإسلامى تقوض مصالحها الإقليمية، وتمكن التنظيمات الإسلامية التى تقاوم ضد أمريكا وحلفائها، وتضفى عليها الشرعية، بل وتؤدى إلى تشكيل العديد منها.

يذهب أحد تفسيرات التيار غير المنطقي الذى يشكل أساس سياسة الولايات المتحدة إلى أنها تستثمر في عدم استقرار المنطقة عن وعى وتفكير عقلاني. يتحدث

مارك لقائين عن أن رؤية المحافظين الجدد للشرق الأوسط تقوم على أساس نظرية الفوضى الشاملة التي تذهب إلى أن التخطيط الإقليمي الاستراتيجي يستند إلى احتمالات عدة للفشل والنجاح ويتوقف عليها. أيضا، تفحص يحيى صدوسكي كيف فكر المحافظون الجدد في «تنويعات عدة» من الفوضى الكوكبية، لكنه يرفض النظرية الجامعة الشاملة التي تذهب إلى أنه قد نجم عن العالم أحادي القطب انفجارات للعنف الإقليمي وأنه بإمكان القوة الكوكبية المهيمنة التحكم بتلك الحروب الصغرى القائمة على أساس القومية والطائفية والقبلية وإدارتها. وفي هذا، فإن صدوسكي يستهدف بخاصة روبرت كابلان والذي يُعتبر كتابه «الفوضى القادمة» قمة في بارانويا المحافظين الجدد حيث إنه وضع لهم أجندتهم التي ساروا على خطاها في التسعينيات. ليست رؤية كابلان للعالم المعولم والتي تتسم بأنها مقلوب للطوباوية، هي ما يميز كتابه، أو يميزه ازدراؤه للعالم الثالث بصفته مكانا للفوضى والعنف المتأصلين فيه. المثير للاهتمام هو إدراكه للأهمية المتزايدة التي بإمكان الجيش الأمريكي والاستخبارات الأمريكية أن يكتسباها ودورها المركزي في قيادة الولايات المتحدة للعالم. علاوة على ذلك، ينتهي كابلان إلى القول بأن السلام العالمي ليس بالأمر المحمود، إذ إن الحرب، وليس السلام هي التي تمنح «حسا بالماضي» وتعمل كمحفز للتغيير الاجتماعي، أما السلام، فيأتي معه بمجموعة من الأخطار من بينها تقليص عدد من يرتدون البزات العسكرية الأمر الذي سينجم عنه مزيد من الجموح وعدم سيطرة القانون. وفي النهاية، يوصي تحديدا، وعلى النقيض من كثير من المحافظين الداعين للعزلة، بأن تدفع الولايات المتحدة ما تدين به للأمم المتحدة، وبهذا، يمكنها السيطرة عليها واستخدامها وسيلة لانتزاع أهدافها الخاصة والتي يرى الكاتب أنها مرادفة للنظام الكوكبي وازدهار العالم.

تشهد صراحة كابلان المخيفة على وجود خطاب خاص باللحظة أحادية القطب، حيث تعبر عن تبرير فج غير منمق لهيمنة إمبراطورية الولايات المتحدة «الخيرة» على الكوكب. قام كثير من الباحثين والأكاديميين والصحفيين بدراسة غزو العراق وتحليله على أنه يمثل مكونا حاسما في الخطوة المنطقية التالية للعالم أحادي القطب، بل رآه البعض حالة تجريبية إرشادية لمسيرة الإمبراطورية. أوضح معلقون من أمثال مايكل

شوارتز أن الولايات المتحدة نفذت خطة للعراق كانت قد تفتتت عنها أذهان المسؤولين والمنظرين السياسيين من المحافظين الجدد في مراكز الأبحاث والدراسات ومختلف المجالس في تسعينيات القرن العشرين، وتم التعبير عنها في أوساط التيار السائد في وقت متزامن من خلال متحدثين يتبنونها مثل فريد زكريا وبرنارد لويس. يأتي شوارتز بأطروحة مكتملة لا تشوبها شائبة توضح كيف كان من المفترض للعراق أن يوفر نموذجا نيوليبرالياً ليس للشرق الأوسط فحسب بل أيضا للعالم النامي بأكمله. يذهب إلى أن الولايات المتحدة قامت بغزو العراق، والإطاحة بحاكمه المستبد، وفككت جميع أجهزة الحكومة شبه الاشتراكية الفاعلة، ومزقت شبكة الضمان الاجتماعي الحكومية الناجحة وأبطلت الخدمات العامة، واستبدلت كل هذا بفراغ في السلطة، وفساد مروع وارتفاع هائل في معدلات الجريمة وكابوس خصخصة نيوليبرالية غير مجدية.

إذا ساورنا أي شك في أن الولايات المتحدة هي من هندست، ليس فقط غزو العراق واحتلاله ثم الانسحاب العسكري الجزئي الزائف، بل وأيضا الأزمات التي يعاني منها، ما علينا إلا النظر إلى مُجمّع السفارة الأمريكية ببغداد. تشهد «قلعة» أمريكا تلك على رغبة الولايات المتحدة في أن تظل لها الهيمنة السياسية على المنطقة، سواء تم ذلك من خلال نشر مئات الآلاف من القوات، أو عشرات الآلاف من المرتزقة، مثل عملاء ويلطجية بلاكووتر، أو من دون ذلك، وتعتبر السفارة الأمريكية ببغداد الأكبر من نوعها في العالم، والتي تكلفت ما يربو على سبعمائة مليون دولار، وتحتل مساحة تساوي مساحة مدينة الفاتيكان، دليلا على هذا العزم. يقول ويليام لانجويتش في مقال له بمجلة فائني فير عدد نوفمبر ٢٠٠٧ «ليست السفارة الجديدة مؤشرا على الرحيل من العراق، بل على البقاء هناك - لأي سبب كان، وفي ظل أية ملابس، ومهما كانت التكلفة». ويضيف قائلا إنه وعلى نفس الدرجة من الأهمية، فإن السفارة ستعمل كرأس إخطبوط تخدم عدة «مواقع تواجد دائم» أي قواعد عسكرية استراتيجية تأوي قوات عسكرية تابعة للولايات المتحدة، أو مليشيات خاصة، في مناطق استراتيجية بالعراق، غالبيتها مناطق نفطية.

تعهد أوباما في خطابه الاستهلالي «بزيادة التوكيد على عظمة بلدنا وإثباتها» على المستوى الداخلي والخارجي. وفي فبراير ٢٠٠٩، تعهد أيضا بسحب جميع «الألوية

المقاتلة» من العراق بحلول ٣١ أغسطس ٢٠١٠. وقبل شهر من هذا الموعد النهائي الذى حدده، علّق كثير من المراقبين على إعادة تسمية أوباما لمهام بعض القوات، الأمر الذى اقتضى تحويل مهمة القوات «غير القتالية» البالغ عددها ٥٠٠٠٠ جندي التى ستبقى فى العراق إلى مهمة «مساعدة» و«تدريب» الجيش العراقى على محاربة «المتمردين» وتتبع «الإرهابيين» ومحاولة القضاء على التهديدات الإرهابية. تضمنت إعادة التسمية تلك تضخيم مهمة القوات الخاصة المتعاقدة. يذهب جيرمى سكيل فى كتابه «بلاكووتر: صعود أقوى جيش مرتزقة فى العالم»^(١) إلى أن الانسحاب الرسمى يدعمه «احتلال مصغر» أى انتشار مصغر للعمليات الولايات المتحدة الشركات التى تستخدم لحماية المصالح الأمريكية ودبلوماسية فيها فى العراق، ويبين أن «استخدام القوات الخاصة هو أسلوب ملتزم لاستمرار تواجد كبير للولايات المتحدة تحت غطاء أمن الديبلوماسية» وهذا الأسلوب الملتزم لتواجد المرتزقة وإعادة تسمية قوات الاحتلال باسم «القوة الانتقالية» ضرورى لاستمرار دور الولايات المتحدة ووجودها بالعراق. يبين إريك مارجوليس فى مقاله بعنوان «إعادة تسمية مهمة الولايات المتحدة بالعراق. مرحبا بالمستشارين والمساعدين» والذى نُشر بصحيفة هفينجتون بوست فى ١٠ أغسطس ٢٠١٠، يبين أنه «لو تم سحب جميع قوات الولايات المتحدة من العراق، لواجه نظام المالكى الألعية خطر السقوط سريعا؛ والمحتمل فى تلك الحالة، أن يأتى إلى السلطة نظام وطنى قومى حق، يعيد تأميم النفط، وتسليح الجيش، ويعيد بناء الأمة المدمرة، والانضمام للعرب فى مواجهتهم لإسرائيل». كما يذهب جارت پورتر المعلق التلفزيونى المتمرس فى موضوع احتلال العراق، إلى أن الانسحاب قد تحول إلى إقامة «قوة انتقالية» قوية العضلات وأن هذا التغيير اللفظى الطفيف أتاح لأوباما أن يتراجع عن وعده بالانسحاب من العراق الذى قطعه على نفسه أثناء حملته الانتخابية، فى إيماءة منه إلى القوى السياسية والبيروقراطية التى تدعم الوجود العسكرى طويل الأمد بالعراق، وتفيد عدم وجود نية لديه لسحب جميع القوات المقاتلة حتى نهاية عام ٢٠١١ على أقل تقدير».

لم يكن من قبيل الصدفة أن صرح أحد كبار المسؤولين العسكريين العراقيين، فى

(١) صدرت عن سطور الترجمة العربية لهذا الكتاب بعنوان «بلاكووتر. المرتزقة قادمون».

أعقاب إعلان أوباما أن جدول الانسحاب يسير وفقاً للخطة، بالقول إن قوات الأمن العراقية غير مهينة بعد لاستلام تلك المهام، وأنه لا ينبغي للولايات المتحدة الانسحاب حتى عام ٢٠٢٠. لا يعتبر مثل هذا التصريح دليلاً على أن الولايات المتحدة كانت توجه من يعملون نيابة عنها إلى استغلال الثغرات الموجودة في «اتفاقية حالة القوات» لعام ٢٠٠٨ بقدر ما تشير إلى المعركة السياسية بين الولايات المتحدة وإيران في نطاق حلفائهم المشتركين بحكومة المالكي. وكما بينا، تذهب أطروحة الكتاب إلى أن الإسلاموفوبيا تشكّل أيديولوجية يتم نشره واستخدامه لتسهيل تواجد الولايات المتحدة في العالم الإسلامي، ولجعل هيمنة الولايات المتحدة تبدو ضرورية. بيد أن الولايات المتحدة خلقت حرباً ضد «المنطرفين» السنة في العراق لم يكن لها وجود من قبل. علاوة على ذلك، وجدت إيران، مع انتشار مئات الآلاف من قوات الولايات المتحدة في بلد متاخم لها، ويعد القضاء على نظام مناقس لها، وجدت من الضروري زيادة دورها بالعراق من أجل أمنها القومي. ومن المفارقات أن العدوين - إيران والولايات المتحدة - لهما نفس الحلفاء المشتركين في الحكومة العراقية.

هذا هو التغير الذي حدث في مشهد قوة الولايات المتحدة وسياساتها بالخارج نتيجة لتغير المنظور، وذلك لأن نظرتها الأيديولوجية إلى العالم تشكل جوهر رؤيتها للمنطقة وشعوبها. بيد أنه لا يجوز لنا أن نعزو اختلاف المشهد إلى تغير المنظور فقط.

إن الفرق، في واقع الأمر، يكمن في حقيقة أن الولايات المتحدة، ومن خلال توظيفها للمجمل الكلي لمواردها وإمكاناتها السياسية والاقتصادية والعسكرية - ناهيك عن أقوى جهاز أيديولوجي تملكه أية دولة في عصر العولمة، وإعلام القنوات الفضائية وصناعة الترفيه بما في ذلك أفلام هوليوود - تبث وجهة نظرها عن العالم الإسلامي بين المتأمرين معها في الغرب وتفرض تلك الرؤية على بقية العالم.

بلغ تغير مشهد وضع القوة الأمريكية درجة أصبح ينبغي عليها معها تحويل رؤيتها إلى واقع إن كان لها أن تحافظ على دور لها وأهمية في العالم العربي والشرق الأوسط. وفي واقع الأمر فإن الحفاظ على هذا الدور وتلك الأهمية، هو المبرر الأول لوجود الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، وليس النفط أو نشر الديمقراطية. أثناء إدارة بوش، كان وجود «الجنود على الأرض boots on the ground» ضرورياً

لترسيخ السطوة الأمريكية فى أماكن لم تكن متاحة لها من قبل. كما أن تقويض بمرمر الاستباقى للدولة العراقية، وكذلك الأسلوب الذى تعامل به مرعوس بوش مع المسؤولين العراقيين وكأنهم نُمي، كلها أمور أصبحت معروفة على نطاق واسع. لكن الاستراتيجية الأكثر فاعلية للإبقاء على دور الولايات المتحدة وأهمية لوجودها هى الحفاظ على حالة من التوتر والصراعات على درجة من الشدة بحيث يحتاج حلفاء الولايات المتحدة المحليون لمساعدة واشنطن العسكرية والسياسية والاقتصادية لكنها ليست على درجة من العنف بحيث تتطلب وجود جنود الولايات المتحدة على أرض العراق . تستفيد الولايات المتحدة من عدم الاستقرار مثلما تستفيد من الخوف. يعمل عدم الاستقرار على انبعاث المشاعر القتالية والوطنية فى السكان، ناهيك عن التوجهات الشوفينية، والتى تبرر بسهولة ما كان لابد له، لولا هذا، أن يبدو عنوانا فجأ صلفا، أو احتلالا. وفيما يمضى أوياما، وبوش وكلينتون ورايس فى تصريحاتهم المتكررة بأنه ليس للولايات المتحدة رغبة فى أن يكون لها قواعد «دائمة» فى المنطقة، فإنهم يؤكدون دوما على التزامهم «الثابت» و«طويل المدى» بأمن العراق وازدهاره.

تفحص الواقع:

على حين أن سياسات الولايات المتحدة الاقتصادية وإجراءاتها السياسية بالشرق الأوسط مشعرة ومفيدة للنخب المحلية فإنها مدمرة للطبقات الوسطى والعاملة والمحرّمين. يناقش تيموثى ميتشل فى كتابه بعنوان «حكم الخبراء» عملية القضاء على الاقتصادات القومية الاشتراكية [كما حدث فى مصر] وتداعياتها ويوضح الآثار المدمرة لإعادة الهيكلة على مجموعات السكان الحضرية والريفية. ويدور، يعمل الفقر الجعاهيرى وإفساد البيئة وتدمير الزراعة الناجم عن إعادة الهيكلة النيوية على خلق حاجة إلى «معالجة» الاقتصاد و«إصلاحه» مما يستدعى معه أن تبدو معونة الولايات المتحدة المباشرة، و«الشراكة معها» وتوجيهها السياسى/الاقتصادى أمورا ضرورية بل مسألة «حياة أو موت». وبالمثل، فإن «الإرهاب» الذى تستثيره الولايات المتحدة وسياساتها الخارجية المعادية للمسلمين (دعمها للحكام المستبدين القامعين وبخاصة حسنى مبارك) وصعود إيران كقوة إقليمية ونووية، يجعل تواجد الولايات المتحدة

ضروريا، وبخاصة إذا كانت تلك «التحديات» مدعومة بهدين يحث على الكراهية» يمكن تصويره على أنه يقوم على «أيديولوجيا» معادية للحدثة ولحقوق الإنسان وحقوق النساء والحرية والديمقراطية.

بينما فى هذا الكتاب كيف أن تيارات الإسلاموفوبيا الراهنة نجمت عن لحظة تاريخية محددة، وثقافة ما بعد الحرب الباردة الأمريكية التى تزدهر على إعادة إنتاج شروط هيمنتها. أوضح الكتاب أيضا الأسس الاستطردية للإسلاموفوبيا، وهيمنة ذلك الفكر، وكيفية انتشاره، وأوضح أيضا أنه يكمن فى أسس السياسات الداخلية والخارجية. رأينا أيضا الحملات المتعددة المتنوعة ضد المسلمين فى الولايات المتحدة، وفى العالم الإسلامى، التى نفذتها وانتهجتها وزارات الدفاع والأمن الداخلى والعدل فى إدارتى بوش وأوباما. علاوة على ذلك، رأينا كيف عمدت المنظمات السياسية واللوبيات، وجماعات الفعل السياسى، ومعها المرتزقة المكارثيون والمنظرون المأجورون، والنشطاء والمواطنون العاديون، عمدوا بجد وحماس دينى إلى استهداف المسلمين الأمريكين، والمفكرين، والطلبة المسلمين والجامعات أيضا، ومارسوا العنف ضدهم، فى محاولة منهم لإشاعة مناخ من الخوف والترهيب والرقابة الذاتية. إن الإسلاموفوبيا نريعة أيديولوجية تتيح للحكومة التحكم فى السكان، المسلمين وغير المسلمين معا، علاوة على إضفاء الطابع المؤسسى على الإجراءات السياسية والعسكرية بالخارج وعلى حدود الولايات المتحدة الجنوبية.

وكما ذكرت فى مقدمتي، فلا بد أن يتسم أى دفاع عن الإسلام فى حد ذاته، أو أى تعميم عن عنف المسلمين السياسى، بالإسلاموفوبيا إذ إنه سيكون من المستحيل تحاشى الاختزال أو التعميمات. من ثم، فلم يتعاط هذا الكتاب مع موضوع الإسلام السياسى أو مع أيديولوجيا المقاومة التى تكمن تحته، سوى بشكل موجز. كثيرا ما يقوم المنظرون والصحفيون والمدونون والمترزقة والهواة، عشوائيا، بذكر أسماء مثل سيد قطب وحسن البنا والإخوان المسلمين والسلفيين والوهابيين دونما فهم منهم لسياقات هؤلاء التاريخية، بل إن المعلقين الأوروبيين، حتى المتعاطفين منهم الذين يتبنون نهجا نقديا، غالبا ما يجدون من الصعوبة بمكان فصل أنفسهم عن فهم للتاريخ لا يتمركز حول أوروبا والغرب. من ثم، غالبا ما ينجم سوء الفهم الناقد للإسلام

السياسى عن عدم القدرة على التمييز بين الفصائل المتعددة للإسلام السياسى التى تجسدت كمكون للحادثة، وليس كدليل على رد الفعل ضدها تحديدا. وفى واقع الأمر، يسهم الإلمام باللغة العربية فى سوء الفهم هذا. بيد أن المشكلة تتخطى عدم القدرة على قراءة اللغة الأصلية للشعوب التى يهاجمها المنظرون والصحفيون وصناع السياسة والمعلقون، إذ إن المشكلة تنجم عن حقيقة عدم فهم المعلقين الأمريكين لقوة الحادثة ومعناها وتداعيات انتشارها فى العالم النامى المستعمر. لن يسوغ الفهم الناقد للإسلام السياسى بصفته ظاهرة اجتماعية وتاريخية واقتصادية وسياسية معقدة ومتعددة الأوجه، لن يسوغ العنف السياسى، بل سيعمل على توضيح أصوله ومنطقه ومصادر إلهاماته.

يعكس الغضب والخوف والحس بالاقتلاع فى الشرق الأوسط والعالم الإسلامى مشاعر الكثيرين فى بقية أنحاء العالم النامى فى عصر العولمة. وبلا أدنى ريب، فإن مناخ الحصار الذى يعيش فيه المسلمون فى أنحاء العالم تتسبب فيه مباشرة الإجراءات السياسية والاقتصادية والعسكرية للولايات المتحدة والتى ظلت قائمة منذ عاصفة الصحراء، على الرغم من أن هذا لا يعنى أن مناخا معاكسا، وإن كان أقل حدة، من ازدياد الغرب ورغبته فى السيطرة لم يكن موجودا قبل عاصفة الصحراء، أو أن كل شيء تغير فجأة فى ١٧ يناير ١٩٩١. فعلى الرغم من أننى استخدمت عاصفة الصحراء كحظة فارقة، لكن النقلة من كراهية العرب الاستشراقية إلى منظومة الإسلاموفوبيا الجديدة كانت قد بدأت قبل عاصفة الصحراء ولم يكتمل تبلورها سوى بعدها بفترة. مثلا، تجسّد سياسة الولايات المتحدة فى أفغانستان والعراق ما طرأ على استخدام العرب والمسلمين فى الشرق الأوسط والإساءة إليهم من تغيرات وتعديلات. مثلا، فعلى حين أن الولايات المتحدة ساعدت على حدوث الانقلاب البعثى فى العراق عام ١٩٦٣، إلا أن العراق التحق بالخطيرة السوفيتية فى نهاية الستينيات، ثم كان دفء العلاقات بين صدام حسين ورونالد ريجان نذير الزمن الذى نحياه الآن. لم يكن هذا الدفء من قبيل المصادفة، بل إن الانفراجة فى العلاقات جاءت نتيجة للمصالح المشتركة حيث مثلت الثورة الإسلامية الإيرانية تهديدا لنظام البعث العلماني، بكثير من تهديدها لمصالح الولايات المتحدة الجيو/سياسية

بالمنطقة. وفي نفس الوقت الذي قامت فيه إدارة ريجان بتسليح صدام حسين من أجل احتواء إيران، قامت الولايات المتحدة بزراعة المجاهدين المعادين للسوفييت ورعايتهم وقوت العلاقة مع محمد ضياء الحق، ديكتاتور باكستان، الذي كان شخصياً، مستولاً عن «أسلمة» نظام باكستان القانوني. وابتاعها رؤية لويس وبرجنسكى عن منحى «قوس» الأزمة، قامت واشنطن بتطوير علاقات عسكرية وثيقة مع حكومة «معادية للديموقراطية» من أجل محاربة النفوذ السوفييتى فى آسيا الوسطى، واستخدمت أيضاً كثيراً من الأنظمة المثيلة من أجل عزل إيران الخميني.

لابد وأن يبين لنا هذا الموجز الانتقائى بالغ الاقتضاب لبعض تدخلات الولايات المتحدة فى العالم الإسلامى أن ثمة أسباباً وجيهة تبرر غضب المسلمين وإحباطهم من الولايات المتحدة وارتياحهم فيها، إذ إن تلك الأنظمة الجائرة القائمة المدعومة من الولايات المتحدة لم تأت لشعوبها بنى خير.

بيد أنه لا يجوز أن يترك هذا التحليل الانطباع بأن العرب والمسلمين فى مجملهم يكونون عداً جماعياً ثقافياً ومتأصلاً ضد الولايات المتحدة والغرب والعالم المسيحى وضد اليهودية والحدثة، أو ضد «التقدم» حتى مع احتمال أن تكون تلك مشاعر مبررة. ليس هذا الغضب سمة ثقافية للعرب والمسلمين، بل ظاهرة تاريخية وسياسية واقتصادية. وفى واقع الأمر، فإن أكثر ما لا يجوز غفرانه، بل يجب إدانته فى أعمال المؤرخ لويس، والمحلل السياسى، زكريا، هو استخدامهما الانتقائى للتاريخ. وعلى الرغم من أنه يمكن فهم هذا القصور، لا غفرانه، فى أعمال الصحفيين الانتهازيين من أمثال توماس فريدمان الذى لا يفهم العربية على الرغم من زعمه أنه مرجعية فى التاريخ العربى إلا أن الجهل بالعربية لا يُعدّ عذراً لأى شخص مثل فريدمان لارتكاب مغالطات فجة كقوله «لقد أعطت حكومة الولايات المتحدة وجيشها للعراقيين فرصة لم تُنح لأى شعب عربى آخر، فرصة كتابة عقدهم الاجتماعى الخاص الذى يوضح كيف يريدون أن يحكموا أنفسهم ويتعايشوا معاً». تناقض هذه المقولة تجربة العالم العربى التاريخية حيث تشبكت كثير من البلدان فى صراعات للحصول على استقلالها، وفى ثورات تخلص بها نفسها من الأنظمة الكولونيالية القائمة و/أو صبيانها ووكلائها من الحكام الفاسدين المتعنفين. علاوة على ذلك، فإن ثمة كثيراً من الأعمال البحثية

والأكاديمية، بما فيها هذا الكتاب، والتي تعاطت تحديدا مع التعقيدات التي بها ترسخت الحداثة، واتخذت صبغة مؤسسية، بل وحُفرت في الفكر العربي الحديث وفي الثقافة العربية.

توضح معظم الأعمال الأكاديمية حول العالم الإسلامى والعربى فى القرن العشرين تعقيدات القضايا المتضمنة فيما ينظر إليه فى الوقت الراهن على أنه الإسلام السياسي. أوضحت تلك الدراسات أن الحداثة مشروع ذاتى المنشأ وليس فقط مشروعا تم فرضه على تلك المجتمعات المحلية. من الشائع الآن فى النواثر الأكاديمية النظر إلى النخب المحلية والطبقات الوسطى التى خُلقت حديثا على أنها تُستثمر فى التطور الرأسمالى والمؤسسات السياسية الجائرة وفى قمع المعارضة السياسية والعمالية تماما مثل استثمار سياسات الولايات المتحدة ومن ينويون عنها. وعلى الرغم من العدد الكبير المتاح من الدراسات الأكاديمية السليمة، يختار الكثيرون من كتاب الأعمدة والصحفيين والمعلقين أن يتبعوا الدراسات ذات الأجندات السياسية والثقافية المغرضة لكتاب من أمثال لويس وزكريا، وذلك بسبب الرغبة التى تنطوى عليها الإسلاموفوبيا للإبقاء على العرب والمسلمين فى حالة من التخلف والسلطوية وذلك لجعلهم أكثر مرونة للتكيف مع متطلبات النيوليبرالية والإمبراطورية الأمريكية ومقتضياتهما. لقد رأينا أن بإمكان تلك السياسات أن تتحقق فقط إذا أظهر العالم الإسلامى فى وضع يبين أنه معكوس العالم الغربى. مثلا، يقول زكريا تحديدا إن مسيرة العالم العربى تمثل «مقلوب المسيرة التاريخية فى العالم الغربى حيث أنتجت الليبرالية الديمقراطية وغذت الديمقراطية الليبرالية. أما الطريق الذى انتهجه العرب فقد أنتج الديكتاتورية التى ولدت الإرهاب الذى هو أكثر التجليات اللافتة للاختلال الوظيفى فى العلاقة بين الدولة والمجتمع». وبالمثل، تُثبت نهاية كتاب برنارد لويس «أين الخطأ؟» المقتضية مسؤولية ذلك التخلف وتلصقه بالعرب أنفسهم، لا بالتداعيات السياسية والاقتصادية للحرب الباردة، أو حتى بالتقلبات التاريخية حيث يقول إن على العرب «التخلى عن مظالمهم وأحزانهم، ومشاعرهم بأنهم ضحايا، وعليهم تسوية خلافاتهم وتسخير مواهبهم وطاقاتهم ومواردهم معا فى جهد خلاق مشترك، وبذلك فقط يصبح باستطاعتهم جعل الشرق الأوسط من جديد مركزا رئيسيا للحضارة. وفى تلك الأثناء، فإن الخيار خيارهم».

إن القول بأن مثل هذه الشخصيات هي العقول المفكرة التي تضع السياسات الأمريكية والغربية هو تضخيم لقيمتهم، لكن فهمنا للثنائيات التي أرسوها بين المسلمين والولايات المتحدة، وبين العرب والغرب، وبين الإسلام والحدائق، وبين السلطوية والنيوليبرالية يساعدنا على فهم المنظومة الفكرية للتبريرات الأيديولوجية لسياسات الولايات المتحدة، وأيضاً على فهم أن أطروحاتهم وعلى الرغم من أنها ليست فريدة، إلا أنها تعمل مبرراً فكرياً وثقافياً للإجراءات السياسية والاقتصادية والتي لها تداعيات جد واقعية، وجد عنيفة. ولهذا نجد أن الصحافة العربية قد أدركت منذ فترة تأثير زكريا ولويس على الرأي العام السائد وعلى سياسة البيت الأبيض. مثلاً، وصف الدكتور حمدي سيد السكوت في مقال له بجريدة الأخبار بتاريخ ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٤ بعنوان «برنارد لويس.. المرشد العام للمحافظين الجدد في أمريكا» وصف لويس بأنه أحد أخطر الشخصيات المؤثرة التي تختبئ في الكواليس وتدفع السياسة الخارجية للإدارة الأمريكية الراهنة. أما التحدي بالنسبة لقراء الإنجليزية فيتمثل في أن عليهم التقريب في الأعماق التي غرست بها الإسلاموفوبيا في الثقافة الأمريكية واللاداعي الأمريكي وتداعيات ذلك المعقدة. وكما رأينا، تعمل الإسلاموفوبيا بسلاسة في أوساط التيار السائد الأمريكي، وذلك بسبب تاريخه العنصري وعدم وجود غضاضة لديه في ذلك، حيث إن الأمر لا يقتصر على أن للولايات المتحدة تاريخاً مستداماً من تجريد السود والسكان الأصليين والآسيويين من آدميتهم وحرمانهم واستهدافهم، بل أيضاً تحويل تلك الكراهية العنصرية إلى فعل سياسي للاضطهاد وارتكاب المذابح من أجل التحكم في المعارضة ومشاعر السخط والاستياء. والآن فقد تناسجت الإسلاموفوبيا في هذا التاريخ وأصبحت جزءاً لا ينفصل عنه.

نهاية البداية:

علينا، من أجل كسر أصفاد الإسلاموفوبيا أن نبدأ من حيث بدأ تحرير السود وذنوب البشرية السوداء والنساء في الولايات المتحدة، أي أنه ينبغي أن نبدأ بتقويض كامل للخطاب والنماذج المعيارية التي تشكل الأساس التحتي لأفكار الإسلاموفوبيا. لذا، فليست المسألة هي ما إن كان أوباما يوافق على إقامة مركز إسلامي بالقرب من موقع أحداث ٩/١١ «Ground Zero»، حيث بدت «مصالقنة» الفاترة وأنه يضم

مذاقا مريرا فى قمة لاضطراره إلى مساندة الحرية الدينية. ونحن وقد قلنا هذا، فإن موقف أوياما من مبادرة قرطبة. يماثل موقف بوش من موضوع إدارة دى للموانى. وبالمثل، فإن شن كليتنون الحرب إلى جانب مسلمى كوسوفو لا يعنى أنه كان لا يتصرف من منطلقات الإسلاموفوبيا، وبخاصة، إذا أخذنا فى الاعتبار أن سياساته لعزل العراق وفرض العقوبات عليه كان لها تداعيات الإبادة الجماعية على سكانه.

وعلى الرغم من الأبحاث الأكاديمية الحقة فى الموضوع، إلا أن الأسئلة حول الإسلام والديموقراطية، والإسلام والحدثة، والإسلام وحقوق الإنسان، والإسلام والنساء، وغيرها من الثنائيات المماثلة يجب أن تتوقف. علينا التوقف عن البحث عن إجابات، أو توجيه الاتهامات على أساس من ثنائيات الإسلام وأيضا أن نتخطى الثنائيات من أمثال الجهاد مقابل عالم ماك. بيد أن الإجابات التى نبحث عنها لن تأتى من المصادر التى تعمل على استدامة الإسلاموفوبيا، ولن يساعدنا أى من دعاة الإسلاموفوبيا الذين وردت أسمائهم فى هذا الكتاب على التخلص من فكر الإسلاموفوبيا ناهيك عن سياساتها. بل، والأهم من ذلك، فمن غير المرجح أن تأتى الإجابات من المسلمين أنفسهم. فقد أوضح التاريخ السياسى والثقافى للعالم الإسلامى الذى خضع للاستعمار لفترات طويلة أن الحدثة قد ترسخت بعمق فى جميع مناطق العالم، الإسلامى وغير الإسلامى، ومن ثم نجد المفكرين المسلمين والعرب، سواء اليساريين العلمانيين أو المتدينين المحافظين، مشبعين بثنائيات الحدثة التى تقابل بين الشرق والغرب، والجنوب والشمال، و«المتخلفين» والحدثيين، كما نجدهم أيضا وقد تخندقوا فى معركة لن ينجم عنها بآية حال إلا استمرار استبعاد شعوب العالم النامي، ونهب ثرواتهم واقتلاعهم. يذكر هنرى چيروكس فى مقال له بعنوان «مابعد مشهد الإرهاب» بكتاب «صور الإرهاب: ما نستطيع معرفته عن الإرهاب وما لا نستطيع معرفته» (٢٠٠٣) يذكّر أن «الموت والمعاناة محفوران بعمق فى منظومة السياسات» كما أن للصورة أثرا عميقا نافذا بدرجة غدا معها من غير الممكن فهم العلاقة الوثيقة بين الإرهاب والأمن فى الزمن المعاصر بدون أن نفهم كيف يشكّل المشهد العلاقات الاجتماعية ويضفى عليها الشرعية». ومن المفارقات أن الأثر

النافذ لهذه الصور ومعناها أصبح الآن محفورين بعمق في عيون المسلمين وعقولهم، ويؤطران محاولاتهم للحوار مع الغرب والاشتباك معهم.

من ثم، يقدم هذا الكتاب الخطوة الأولى في محاولة تقويض النظرية المعرفية للإسلاموفوبيا من خلال الكشف عن بعض ظواهرها الغربية الاستطردية وآثارها على البشر، أو أنه يغامر بخطوة ضرورية استهلالية للإجابة عن السؤال التالي: ما مصدر الإسلاموفوبيا وأى المصالح تخدمها؟ تتبثق الإسلاموفوبيا، والتي هي مزيج من النماذج المعيارية الاستشراقية المستهجنة، عن زمن جديد للرأسمالية الكوكبية تتربع الإمبراطورية الأمريكية في طبيعته. من ثم، فإن الإسلاموفوبيا تتمحور حول القوة، قوة الولايات المتحدة وقوة الرأسمالية الكوكبية. تعمل الإسلاموفوبيا على شيطنة المسلمين لأنهم يمثلون للذهنية الأمريكية وعلى المستوى الرمزي، الوجه الأسمر للمقاومة ضد الإمبراطورية الأمريكية، والرأسمالية العالمية، والخوف شبه الواعي من الكوكب الأسمر أو «العدو العام المعلن» كما يقال. علاوة على ذلك، فإن استهداف المسلمين هو محاولة لتقويض التكافل بين الشعوب السمراء والسوداء، والتي، وإن كانت لا تتشارك في عقيدة دينية واحدة، إلا أنها تتشارك في المعاناة من الآثار السلبية والمدمرة للرأسمالية الكوكبية. وإذا كان ما نقوله يبدو مستغرباً، فما علينا سوى الإنصات إلى أصوات المثقفين والمفكرين الأجلاء في العالم العربي والإسلامي، تلك الأصوات التي حجبها تدريجياً صخب المشتبكين في العنف السياسي، والذين لا يكرسون طاقاتهم للتعبير الذي ينقد ما يشنون الهجوم المستحق عليه.

ربما ينبغي علينا الإنصات إلى أصوات مثيلة لصوت الراحل نصر حامد أبو زيد الذي قال «ليس ثمة وسيلة لتحاشي تداعيات ٩/١١ التي أوجدت وضعا يماثل الكولونيالية المبكرة، تحولت المعركة ضد الإرهاب، المشروعة في حد ذاتها، إلى معركة دائمة ضد كل الآخرين، أى ضد الذين لا يقفون إلى جانبنا، وفقاً لما أعلنه رئيس الولايات المتحدة. تُضمر تعبيرات «قيمنا» و«مجتمعنا» وثقافتنا، بوضوح أن الآخرين غير متحضرين». ثم ينتهى بالقول «ليست القضية القائمة هي تهديد التنوع الثقافي، بل إمكان خلق عالم منصف على المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي. تمثل

المطالبة العامة بالعدالة تهديدا للنظام العالمى الذى تمثله الولايات المتحدة والسلطة السياسية الإقليمية للقادة الفاسدين الموالين للغرب».

أو، إذا كانت أصوات المسلمين والعرب وذوى البشرة السمراء تظل مربية بسبب سطوة الإسلاموفوبيا وعمقها، فربما ينبغى علينا الإنصات إلى جندى أبيض نادم، كان قد ارتكب أعمال قتل لخدمة الإمبراطورية الأمريكية. ألقى مايك برينز، المحارب السابق بالعراق، والناشط ضد الحرب حاليا، كلمة استغرقت أربع دقائق، ثم انتشرت بشكل فيروسى على الشبكة الإلكترونية. يأتى برينز، فى إطار هجومه على حروب الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، وكلفتها البشرية والاقتصادية، يأتى بتعليق ثاقب البصيرة على العنصرية فيقول:

«ظلت العنصرية فى الجيش لوقت طويل آلة مهمة لتبرير تدمير بلد آخر واحتلاله، وظلت تستخدم منذ وقت طويل مسوغا لقتل الآخرين واستبعادهم وتعذيبهم. إن العنصرية سلاح ماضٍ تستخدمه هذه الحكومة؛ سلاح يفوق البندقية والدبابة وقاصفات القنابل والسفن الحربية أهمية..».

حينما نفهم الإسلاموفوبيا على أنها تشكيل أيديولوجى عنصرى أوجد بهدف العمل على تعاضم قوة الولايات المتحدة ورسطوتها، وإدارة المعارضة والانشقاقات، وتعزيز نظام العولمة الاقتصادية، سنتبين، وكما يقول برينز، أن العدو ليس هو الإسلام، أو المسلمين، أو الفلسطينيين، أو العراقيين، أو الأفغان، أو الإيرانيين أو الباكستانيين، ليس عدونا هو حماس، أو حزب الله، أو حتى جماعة الإخوان المسلمين.

«إن العدو هو النظام الذى يبعث بنا إلى الحرب حينما تكون مريحة؛ إن أعدائنا هم المدراء التنقيليون الذين يقومون بفصلنا من وظائفنا حينما يكون ذلك مريحا؛ إنها شركات التأمين التى تتكر علينا الرعاية الصحية حينما يكون ذلك مريحا. إن أعدائنا لا يبعدون عنا بمسافة ٥٠٠٠ ميل. إنهم هنا بالداخل. وإذا تظلمنا أنفسنا، وضممنا إلينا شقيقاتنا وأشقائنا كى نقاتل هؤلاء الأعداء، فسيصبح بإمكاننا وقف هذه الحرب، والتصدى لهذه الحكومة، وخلق عالم أفضل».

صدر من هذه

السلسلة

- ١- محمد (صلي الله عليه وسلم)
- ٢- صدام الحضارات
- ٣- عصر الجينات
- ٤- القدس
- ٥- العولة والعولة المضادة
- ٦- التاريخ السري للموساد
- ٧- من يخاف استنساخ الإنسان؟
- ٨- حرم محمد علي
- ٩- عولة الفقر
- ١٠- صور حية من إيران
- ١١- البحث عن العدل
- ١٢- لورانس: ملك العرب غير المتوج
- ١٣- الصهيونية تلتهم العرب
- ١٤- معارك في سبيل الإله
- ١٥- التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية
- ١٦- التنسوية: أي أرض.. أي سلام
- ١٧- الكنز الكبير
- ١٨- الحق يخاطب القوة
- ١٩- نساء في مواجهة نساء
- ٢٠- مؤامرة الغرب الكبرى
- ٢١- روسيا.. إلي أين
- ٢٢- موسوعة الأم والطفل
- ٢٣- الخدعة الرهيبة
- ٢٤- نهاية الإنسان
- ٢٥- خدعة التكنولوجيا
- ٢٦- ٣٦٥ حتوتة وحتوتة
- ٢٧- بوش ضد العراق... لماذا؟
- ٢٨- أين الخطأ؟
- ٢٩- اللولب المزدوج
- ٣٠- رجال بيض أغبياء
- ٣١- سادة العالم الجدد
- ٣٢- الخطيئة الأولى لإسرائيل
- ٣٣- اللعب مع الصغار
- ٣٤- الإيادة السياسية
- ٣٥- حكومة العالم السرية
- ٣٦- ما بعد الإمبراطورية
- ٣٧- بوش في بابل
- ٣٨- المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام الدولي
- ٣٩- تزييف الوعي
- ٤٠- القانون في خدمة من؟
- ٤١- كفي
- ٤٢- معني هذا كله
- ٤٣- حياة بلا روابط
- ٤٤- أنا والعولة.. عالم بديل ممكن..
- ٤٥- جسدي سلاحاً
- ٤٦- ثالوث الشر
- ٤٧- الحضارة الإسلامية المسيحية
- ٤٨- أمريكا العظمى.. أحزان الإمبراطورية
- ٤٩- الطريق إلي السوبر مان
- ٥٠- مدربون علي القتل
- ٥١- معاداة السامية الجديدة

- ٥٢- إبادة العالم الثالث
٥٣- بيولوجيا الخوف
٥٤- لغز اسمه الألم
٥٥- تعليم بلا دموع
٥٦- أحمد مستجير
٥٧- العين بالعين
٥٨- شافيز
٥٩- قصص الأشباح
٦٠- حزب الله
٦١- الإنسان هو الحل
٦٢- السيارات المفخخة
٦٣- بلاكووتر
٦٤- حضارتهم وخلصنا
٦٥- نحو الحرية .. نلسون منديلا
٦٦- العهد
٦٧- مزرعة الحيوانات
٦٨- أطفال الإنترنت
٦٩- لعبة الملايين
٧٠- جارة الجنس
٧١- الأمريكي الساذج
٧٢- الأبرياء
٧٣- الشباب والجنس
٧٤- التربية من عام إلى عشرين عام
٧٥- فلورانس وإداورد
٧٦- الجهاد في سبيل الحقيقة
٧٧- غاندي (٢). رؤي، تأملات، اعترافات
٧٨- شرف البنت
٧٩- الزواج المحرم
٨٠- أنبياء مزيفون
٨١- إمبراطورية العار
٨٢- اختطاف أمريكا
٨٣- شريعة الجستابو
٨٤- رومانسية العلم
٨٥- اختفاء فلسطين
٨٦- من هم إسرائيل
٨٧- اقتصاد الاحتيال البريء
٨٨- ثلاثون كتاب في كتاب
٨٩- الله.. لماذا؟
٩٠- الأمراض العديدة
٩١- الطريق إلى بشر سبع
٩٢- مجمع الشيطان
٩٣- في ذكرى المقاومة
٩٤- خطايا خير المرأة
٩٥- دساتير من ورق؟
٩٦- صنّاع الملوك
٩٧- صناعة الأكاذيب
٩٨- عندما تحكم الصين العالم
٩٩- الحركة العامة للاقتصاد المصري في
نصف قرن
١٠٠- رحلة السندباد
١٠١- وجه أوباما الأبيض
١٠٢- تشي جيفارا سيرة للنشر
١٠٣- أنا افتراض.. أنا موجود
١٠٤- قصة فيس بوك

- ١٠٥- غواية الرجال
- ١٠٦- تأثير إيران ونفوذها في المنطقة
- ١٠٧- المعرفة في خدمة الهيمنة
- ١٠٨- البيتلز «سيرة للنشء ٣»
- ١٠٩- أسامة بن لادن «سيرة للنشء ٤»
- ١١٠- «كالبجولا» مسرحية من ٤
- فصول
- ١١١- المسلمون الافتراضيون
- ١١٢- القاعدة نهاية تنظيم. أم
- انطلاق تنظيمات؟
- ١١٣- مافيا إخفاء الأموال المنهوبة
- ١١٤- الدولة الدينية في اليهودية
- والمسيحية والإسلامية
- ١١٥- مُرشد الوالدين
- ١١٦- أجيال في خطر
- ١١٧- العرب.. رواد الفكر الاقتصادي
- الحديث
- ١١٨- تركيا الأمة الغاضبة
- ١١٩- انقراض العالم الثالث
- ١٢٠- الثورة العربية والثورة المضادة
- أمريكية الصنع
- ١٢١- الأقصى ينهار
- ١٢٢- مرشد المحتجين والثوار

محتويات الكتاب

٧	تمهيد:
١٥	تمهيد ٢: الإسلاموفوبيا وأساسات «الحضارة الغربية»
٣٥	مقدمة:
٥٧	الفصل الأول: شبكات السياسة الخارجية النخبوية
١٠١	الفصل الثاني: صحفيون، وأكاديميون أشرار و«مخبرون» محليون
١٤٣	الفصل الثالث: «الخبرات» الحليات النساء والذرائع الأخلاقية لهيمنة الغرب... ..
١٨٥	الفصل الرابع: النشاط والأساندة في مواجهة قمع السلطة
٢١٣	الفصل الخامس: العيش في حالة من الخوف
٢٧٩	الفصل السادس: الإسلاموفوبيا في عصر أوباما
٣٤٥	لاحقة: منظور مشهد القوة الأمريكية المتغير



نصوير
أحمد ياسين
فوتير

@Ahmedyassin90



الغلاف خبير (1)

تصوير

أحمد ياسين

نوينر

@Ahmedyassin90

تسود الإسلاموفوبيا جميع مستويات الحياة الأمريكية، من البصير إلى البسار، و من المتدينين إلى الملحدين. يعتقد من يسيطر عليهم هوس الإسلاموفوبيا أن كل مسلم « حقيير أحرق » و إرهابي مُخزَّب. مشاعر الإسلاموفوبيا جلية في قطاعات عديدة من المجتمع الأمريكي، تنفثها الوسائط الإعلامية و مراكز الأبحاث و «الخبراء» المتفقهون المزعمون، و الأكاديميون المغرضون، و اللوبيات، و منظمات النشاط. ليست الإسلاموفوبيا أيديولوجيا سياسية في حد ذاتها كما أنها ليست دوجما منعزلة، بل هي تشكيل أيديولوجي جديد تم التعبير عنه باكتمال منذ انهيار الاتحاد السوفييتي. لا ترجع أصول الإسلاموفوبيا إلى إدارة بعينها، أو أحد المفكرين، أو الفلاسفة، أو النشاط، أو إلى أي منفذ إعلامي، أو مجسوة مصالح خاصة، أو مركز أبحاث، أو حتى قطاع إقتصادي أو صناعي. هذا على الرغم من أن كل هؤلاء مسئولون بأسلوب جمعي عن نشر التتميطات الخبيثة المعادية للمسلمين و المعادية للعرب و عن تداول تلك المعتقدات من أجل تطبيع هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية و السياسية على الكوكب و تبريرها.

سيفين شيهي Stephen Sheehi
أستاذ اللغة و الثقافة العربية
بجامعة ساوث كارولينا